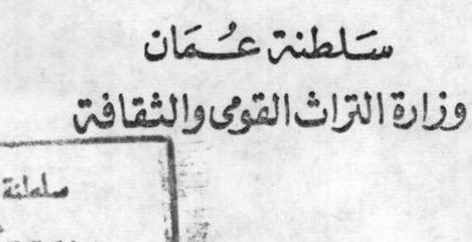


سلطنة عمان

وزارة التراث القومي والثقافة



هيميان الزاد إلى دار المعاد

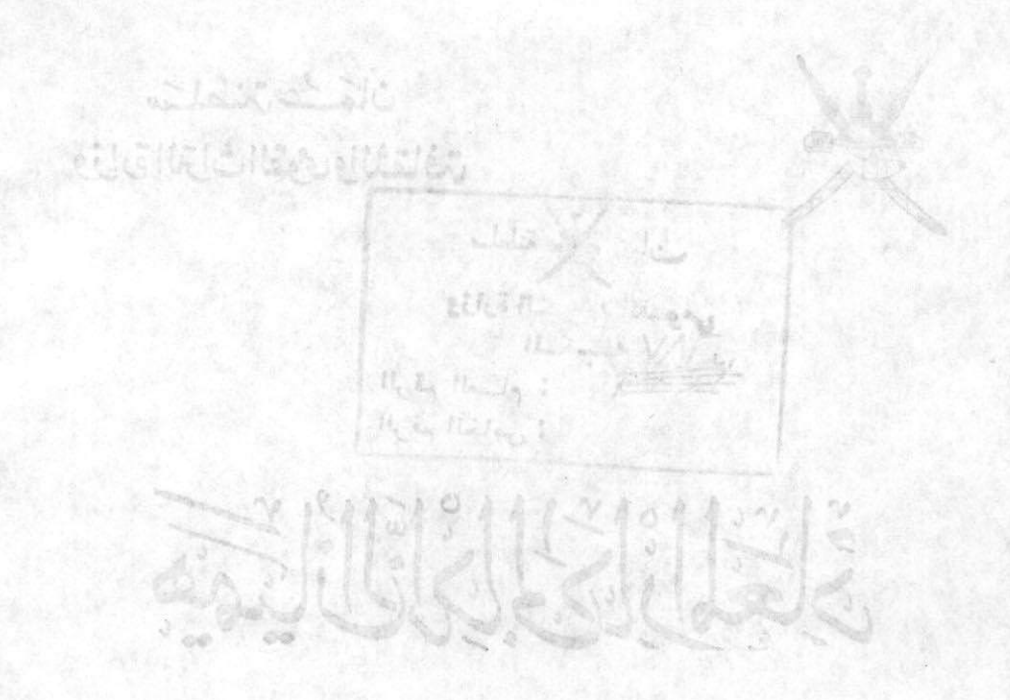
للعالم الحجة

محمد بن يوسف الوهبي الاباضي المصعبي

الجزء الثامن

القسم الثاني

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م




بسم الله الرحمن الرحيم



سورة يوسف عليه السلام

مكية ، قال أبو حيان : إلا ثلاث آيات من أولها فيما قال بعضهم انتهى كلامه بتصرف ، وهذا الذى قاله هذا البعض ، وأنه ضعيف جدا لا يلتفت إليه ، آيها مائة وإحدى عشرة ، وكلمها ألف وستمائة ، وحروفها سبعة آلاف ومائة وستة وستون حرفا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علّموا أرقاءكم سورة يوسف فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه ، هوّن الله عليه سكرات الموت ، وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلما » .

وقالوا : من كتبها وشربها ، وسأل الله تعالى فى الرزق ، وأن يجعل له الخطوة عند كل أحد ، بلغ ذلك إن شاء الله . قال خالد بن زمعة : إن سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة ، وقال عطاء : لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها ، ومن علقها أحبته زوجته حبا شديدا ، قالت الصحابة : يا رسول الله لو قص الله علينا فنزلت .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الۤر) إلى آخر السورة ، روى ذلك عن سعد بن أبى وقاص ، وقال ابن عباس فى رواية الضحاك : سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر يعقوب وأولاده فنزلت : وقيل : إن علماءهم أمروا أكابر كفار مكة أن يسألوه عن سبب حلول بنى إسرائيل بمصر من الشام ، وقصة يوسف فنزلت .

وقيل : نزلت تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يفعل به قومه بما فعل إخوة يوسف بيوسف عليه السلام ، ولم يتكرر مما فى هذه السورة شىء فى القرآن ، وفيها رد على من ادعى أن المصاحبة تمكنت بترداد القصد ، تقدم معنى « الۤر » فى سورة يونس عليه السلام ، ومما قيل فيه إنه اسم للسورة .

(تلك) إشارة إلى آيات السورة كما أخبر عن ذلك بقوله : (آياتُ الكتابِ) والكتاب السورة ، أو أراد بالكتاب القرآن ، وآيات السورة بعضه ، فتكون الإضافة للتبعيض (المبينِ) الواضح أمره فى الإعجاز ، أو الواضحة معانيه لنزولها بلغة العرب على أنه من أبان اللازم بمعنى بان ، أو الكاشف الحلال والحرام الموضح إياهما ، والحدود والأحكام ، والحق والباطل ، أو الكاشف لمن تدبر آياته أنها من الله سبحانه وتعالى ، أو الكاشف الجواب لمن سأل عن أمر يوسف ، وحلول بنى إسرائيل بمصر ، أو الكاشف لقصص الأوائل على أنه من أبان المتعدى .

(إنَّا أنزلناهُ) أى الكتاب ، سواء فسرنا بالقرآن أو بالسورة ،

وعلى الأول فلا إشكال فى قوله : (قُرآنا عَرَبيًّا) وعلى الثانى فوجهه أن القرآن فى الأصل اسم جنس إفرادى ، ويطلق على القليل والكثير ، كالعسل واللبن ، والسكر والماء والزيت ، لأنه مصدر ، ثم سمى به التنزيل . وكان علما للغلبة ، فقد يبقى على أصله ، وقد يخرج ، وقرآنا حال ولو كان جامدا ، لأنه وصف بما نزل منزلة المشتق ، فإن الاسم مع ياء النسب بمنزلة المشتق ، والحال الجامدة الموصوفة بمشتق ، أو بمنزل منزلته تسمى موطئة بكسر الطاء ، لأنها ذكرت توطئة للنعت بالمشتق أو شبهه ، قاله ابن هشام .

وقال ابن باب : شاذ الصفة والموصوف كشىء واحد ، فكان الموصوف الذى هو حال شبيها بالمشتق لوصفه بما ، فنزل منزلة المشتق ، فالصفة هى الموطئة ، قاله بمعناه ، وعليه جرى القاضى ، أو وقع حالا كأنه بمعنى مفعول أى مقروءًا ، فهو من المصادر الواقعة فى معنى اسم مفعول ، وعليه ، فعربيًّا حال ثانية مترادفة ، أو حال من الضمير المعتبر فيه من حيث إنه بمعنى مفعول متداخلة ، وقيل : لا يعتبر فيه ضمير ، لأن لفظه مصدر ، وقيل : نعت لقرآن بمعنى مقروءًا ، وقيل : اسم الفاعل واسم المفعول ونحوهما ، وما بمعنى ذلك لا يكون منعوتا ، وقيل : لا تعدد الحال بترادف وهو ضعيف .

(لَعَلَّكم تعْقِلُون) تقيمون معانيه ، لأنه بلغتكم ، وتستعملون فيه عقولكم ، وسواء فى ذلك أريد بإنزاله إنزاله مفردا أو مجموعا ، أو أريد خصوص السورة فى هذا المقام ، وكانت قصة يوسف عند اليهود بالعبرانية ، فبذلك يعلمون أن اقتصاص مثل ذلك ممن نشأ فيهم عربيًّا ، ولم يتعلم القصص ولا لغة العجم ، ولا درس الكتب ، معجز لا يتصور

إلا بإيحاء ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا : لو قصصت علينا يا رسول الله فنزل :

(نحنُ نقصُّ عَلَيْكَ أحسنَ القَصَصِ) الآية ، ثم ملوا ملة أخرى فقالوا : حدثنا يا رسول الله فنزل قوله : « الله نزل أحسن الحديث » الآية .

وقال سعيد بن جبير فى رواية مقاتل : اجتمع الصحابة إلى سلمان فقالوا : حدثنا عن التوراة فإنها حسنة ، حسن ما فيها ، فنزل : « نحن نقص عليك أحسن القصص » يعنى إنما فى القرآن أحسن مما فى التوراة ، وروى مثل ما مر فى رواية ابن مسعود ، وعن سعد بن أبى وقاص : لكن آخر آية هذه السورة ، وزاد سعد ثم قالوا : يا رسول الله لو ذكرتنا ، فنزل : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » .

والقصص بفتحتين اسم لما يقص ، أو مصدر بمعنى اسم مفعول ، أو هو مصدر ناطق على المصدرية ، وعلى كل وجه فهو من قص الأثر بمعنى اتبعه شيئا فشيئا ، كما يقال : تلى القرآن بمعنى تتبعه شيئا فشيئا ، وكان متصلا به يقرؤه ، وقد بين الله سبحانه وتعالى الخير شيئا فشيئا ، وأتى به على وجهه ، والمراد إخبار الأمم الماضية فيما قاله قتادة .

وقيل : المراد هنا قصة يوسف عليه السلام ، وعلى البقاء على المصدرية ، فالمعنى أحسن الاقتصاص ، لأنه على أبدع طريق ، وأعجب أسلوب ، ألا ترى أن الحديث واحد ، ولا يدخل فى قلبك إذا سمعته من كتب الأولين : أو من غير القرآن مطلقا دخولا كدخوله فيه إذا سمعته من القرآن ، وأحسن مفعول مطلق ، إضافته للمصدر .

وأما على كونه بمعنى اسم مفعول أو اسما لما يقص فالمعنى أحسن ما يقصه قاص لتضمنه عبرا ونكتا ، وحكمـا وعجائب ، وفوائد دينيـة ودنيوية ، وسير الملوك والمماليك ، والعلمـاء والصالحين ، والأنبيـاء ، الفقه والرؤيا وتعبيرها ، وأدب السيالفة ، ومكر النساء ، والصبر على أذى الأعداء ، والعفو بعد القدرة ، وغير ذلك مما فى هذه السورة ، أو مما فيها ومما فى غيرها ، وأحسن مفعول به ، ويجوز عندى على هذا الوجه كونه مفعولا مطلقا ، لجواز نيابة اسم الشىء عن المصدر ، إذا اتفقت مادته ومادة العامل لفظا ومعنى ، أو معنى •

وقيل : قال أحسن القصص لحسن محاورة يوسف إخوته ، وصبره وعفوه ، وقيل : لأن فيها حكما وعبرا وعجائب ولطائف لم تتضمن قصة مثل ما تضمنته هذه ، وقال أهل الإشارة ، لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب ، وقيل : أحسن بمعنى حسن •

(بما أوحَيْنا إليكَ) مـا مصـدرية ، أى بإيحائنا إليك ، والباء للإمالة متعلق بنقص ، وقيل : سببية (هَذا القرآنَ) مفعول أوحينا ، إذا جعلنا أحسن مفعولا به لنقص ، أو قدرنا له مفعولا ، أى نقص عليك أخبار الأمم ، أو قصة يوسف أحسن الاقتصاص ، وإلا تنازعـه نقص وأوحينـا ، ويجـوز كون مـا موصـولة اسـمية أو موصـوفة ، والرابط محذوف ، فيكون هذا القرآن مفعولا لنقص ، كأنـه قيل نحن نقص عليك هذا القرآن أحسن الاقتصاص بما أوحيناه إليك •

(وإنْ) مخففة مـن الثقيلة (كُنتَ مِنْ قبَلهِ) أى مـن قبل الإيحاء على أن ما مصدرية ، أو من قبل ما أوحينا إليك على أنها اسم ،

أو من قبل القرآن ، أو من قبل الكتاب ، سواء فسرناه بالسورة فيكون المراد بالغفلة المذكورة بعد هذا الغفلة عما فيها ، أو فسرناه بالقرآن فيكون المراد بها الغفلة عن القصص مطلقا ، كما فى باقى الأوجه ، وقيل : الضمير للقصص بفتحتين فيحتمل الوجهين فى الغفلة على الخلق فى أحسن القصص ، هذا المراد المطلق للقصات أو قصة يوسف .

(لمنَ الغَافِلِينَ) لم تسمع هذه القصة أو سائر القصص ، ولم تخطر بباله ، وذلك كناية عن الجاهلين بهن : وهو أحسن من التعبير بلفظ الجهل ، والجملة قيل تعليل لكون القرآن ، أو ما يقص موحًى ، واللام فى قوله : « لمن » فارقه بين أن النافية وأن المخففة .

(إذْ قالَ يُوسفُ) إذ بدل اشتمال من أحسن ، إن جعلنا أحسن مفعولا به ، لأن وقت مقال يوسف مشتمل على المخصوص ، أو مفعول به باذكر ، ويوسف بضم السين عبرى ، فمنع الصرف للعملية والعجمة ، ولو كان عربيًّا كما قيل لم يمنع صرفه لتجرد العلمية عن غيرها .

قال فى عرائس القرآن : أكثر العلماء على أنه عبرانى ، وقيل : عربى ، سمعت الأستاذ أبا القاسم الحبيبى يقول : سمعت أبا الحسن الأقطع ، وكان حكيما ، سئل عنه فقال : الأسف الحزن ، أو الأسيف العبد ، واجتمعا فيه انتهى .

وقرىء بفتح السين ، وذلك لغتان ، وفيه لغة ثالثة بكسرها ، وقرىء بها أيضا ، ولا يقال : إنه على لغة الفتح عربى منقول من الفعل المضارع المبنى للمفعول : وعلى لغة الكسر من المضارع المبنى للفاعل من آسف بالمد ، فيمنع الصرف للعلمية ووزن الفعل ، لأنا نقول : قراءة الضم ،

وهى المشهورة ، شاهدة بالعجمة ، فلا يقدم على أن تكون الكلمة أعجمية تارة ، عربية أخرى ، لأن هذا خلاف الأصل ، ومثله يونس ، فان فيه ثلاث اللغات .

وإن قلت : فإذا كان عجميا نافى قوله عز وجل : « قرآنا عربيًّا » ؟

قلت : لا ينافيه ، فكم من لفظة أعجمية فى الأصل عربتها العرب ، فجرت فى ألسنتها ، فنزلت فى القرآن فعدت عربية ، فإن العربى قسمان : أحدهما عربى أصل ، والآخر عربى بالتعريب ، ومن قال : القرآن شىء من كلام العجم بلا تعريب فقد أعظم على الله القول ، فيوسف أعجمى تلعبت به العرب بلغاتها ، فمن كاسر وفاتح وضام وهو أكثر .

(لأبِيهِ) يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، قال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » وفى رواية : « إذ قيل : من الكريم ؟ فقولوا : الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » وروى أبو هريرة مثل رواية ابن عمر .

(يا أبتِ) أصله يا أبى ، حذفت ياء المتكلم وعوض عنها التاء ، وهى تاء التأنيث فى الأصل : ولو انسلخت عند التعويض عن التاء نيب ، ولذلك قلبها فى الوقف هاء ابن كثير ، وأبو عمرو ، ويعقوب ، كما لحقت تاء التأنيث المذكر فى قولهم : رجل ربعة ، وغلام يفعة ، وحمامة ذكر ، وشاة ذكر ، ولو كان لا يقال : يا أبتى تقومين ، بل تقوم كما يقال : جاءت حمامة ، وجاءت شاة فى التأنيث ، وجاز التذكير ، ولا يقال أيضا جاءت ربعة أو يفعة إذ أريد مذكر ، وخص فى الباء لأنها مناسبة للياء فى

كون كل منهما زائدة آخر الأسم فى نية الانفصال ، فإن تاء التأنيث فى نية أكثر من غيرها ، وكسرت لتدل عليها كذا قيل ، أو لأن الكسرة تناسب الياء المعوض عنها ، أو لأنها حركة ما قبل الياء ، فإنه مكسور ، لكن لما دخلت التاء فتح وزحلقت كسرته إليها .

وقرأ ابن عامر بفتحها فى كل القرآن ، لأن الفتحة حركت ياء المتكلم إذا حركت فى الأصل والغالب ، أو لأن الأصل يا أبتا بالألف المبدلة عن ياء ، وإنما صح أن تجتمع التاء المعوضة عن الياء والألف المبدلة عنها ، مع أنه كالجمع بين العوض والمعوض عنه ، لأن الألف ليست نفس المعوض عنه ، فلا يجوز يا أبى ، لأن فيه الجمع بين المعوض والمعوض عنه .

ولا يقال : فى يا أبت بالكسر الجمع بين العوض وشبيه المعوض عنه وهو الكسرة ، لأنا نقول ذلك لا يضر ، وذلك أنه وجد قبل مجىء التاء كسر وياء ، فالتاء عوض عن الياء ، والكسر غير متعرض له فهو على أصله ، وقد جمع بين التاء والألف التى هو بدل الياء ، فكيف لا يجمع بينها وبين حركة تناسبها ، فحال الكسر فى يا أبت كحاله فى يا أبى ، فلا يقال : الكسر دل على الياء فما الحاجة إلى التاء فهى كالعدم ؟

لأنا نقول : كما علمت أنها العوض وكسرها ككسر ما قبل الياء ، وقرىء بضم التاء إجراء لها مجرى التاء بالأسماء المختومة بتاء التأنيث المنكرة المقصودة من غير اعتبار التعويض ، ولم تسكن كما يسكن ما عوضت عنه وهو الياء ، لأنها حرف صحيح نزل بمنزلة الاسم ، ولأنها فى آخر الاسم المعرب ، والاسم حقه التحريك ، فحركت كما حركت الكاف فى نحو : جاء غلامك ، لخلاف الياء فإنها ولو كانت أهل لأن تحرك لأنها حرف لين فسكنت تخفيفا .

(إنِّى) وقرىء بفتح الياء (رأيتُ) فى المنام بدليل : « لا تقصص رؤياك » « وهذا تأويل رؤياى » فهو من الرؤيا لا من الرؤية ، والدليل فى تخصيص تأويل قاطع ، وفى لفظة الرؤيا على الأشهر فى استعمال لها فى الرؤية الحلمية ، قال ابن هشام : لا تختص الرؤيا بمصدر الحلمية ، بل قد تقع مصدرا للبصرية خلافا للحريرى ، وابن مالك إلى آخر ، والرواية غالب فى البصرية قليل فى الحلمية .

(أحَدَ عَشَرَ) وقرىء بإسكان عين الهجاء المتصلة بالدال تحقيقا لطول الاسم بالتركيب (كَوْكباً والشَّمسَ والقَمرَ) رأى يوسف فى منامه ، وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، وقيل : سبع عشرة ، وقيل : سبع ، ليلة جمعة ، ليلة قدر ، أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر نزلت من السماء .

روى جابر بن عبد الله : أن يهوديا اسمه قيسان ، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أخبرنى عن النجوم التى رآهن يوسف ؟ فلم يجبه بشىء ، فنزل جبريل فأخبره بأسمائهن ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن أخبرتك فهل تسلم ؟ » قال : نعم ، وفى رواية حكيم بن حزام ، عن السدى ، عن عبد الرحمن : عن جابر بن عبد الله : أنه لم يقل نعم ، بل قال : أخبرنى .

قال : « جربان بالموحدة ، والطارق ، والذيال بذال معجمة ، أو بزاى فمثناة تحتية ، وقابس ، وعمودان ، والفيلق ، والمضىء ، والضروح ، والفرع ، ووثاب ، وذو الكتفين ، رآها يوسف ، والشمس والقمر نزلت من السماء ، وسجدت له » فقال اليهودى : إيها والله لأسماؤها .

وفى رواية : هؤلاء المذكورين عن جابر أنه رآها فى أفق السماء ساجدة له ، ويحتمل الجمع بين ذلك بأنها نزلت وبقيت فى الأفق لـم تصل الأرض ، ولكن كلام بعض كالصريح فى وصلها الأرض ، وهو أشد مناسبة للسجود •

قال فى عرائس القرآن : إن يعقوب لم يكن يأمن أحدا على يوسف ، وكان ينوّمه إلى جنبه ، فبينما هو نائم ليلة جمعة ، انتبه فزعا مرعوبا ، فالتزمه يعقوب وضمه إلى صدره ، وقبله بين عينيه ، وقال : يا حبيب أبيه ما الذى أصابك ؟

قال : يا أبت رأيت رؤيا أفزعتنى •

قال : يا بنى خيرا رأيت ما الذى رأيت ؟

قال : رأيت كأن أبواب السماء فتحت ، وقد أشرق منها نور ، فاستنارت النجوم ، وأشرقت الجبال ، وزخرت البحار ، وهدأت أمواجها ، وضجت الحيتان بأنواع اللغات ، ورأيت كأنى ألبست رداء أشرقت الأرض من حسنه ونوره ، ورأيت كل مفاتيح خزائن الأرض ألقيت بين يدى •

فبينما أنا كذلك إذا رأيت أحد عشر كوكبا انقضت من السماء ، ومعها الشمس والقمر فخروا لى ساجدين •

فقال يعقوب : « يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك » الآية •

وسمعت امرأة يعقوب سمعون خالة يوسف ذلك فقال لها : اكتمى ما قال يوسف ، ولا تخبرى أولادى •

فقالت : نعم ، فلما أقبل أولاد يعقوب من مراعيهم ، أخبرتهم بالرؤيا ، فانتفخت أوداجهم ، واقشعرت جلودهم على يوسف غيظا •

فقالوا : ما عنى بالشمس غير أبينا ، ولا بالقمر غيرك ، ولا بالكواكب غيرنا ابن راحيل ، يريد أن يتملك علينا ويقول : أنا سيدكم وأنتم عبيدى ، فحسدوه على ذلك ، فلذلك قيل فى الحكمة : لا تأمنن قارئا على صحيفة ، ولا شابا على امرأة ، ولا امرأة على سر ، انتهى •

قال قتادة : النجوم إخوته وهم أحد عشر يستضاء بهم ، كما يهدى بالنجوم ، والشمس أبوه والقمر أمه ، وكذا روى عن يعقوب عليه السلام ، وهو قول الجمهور ، وهو موافق لقول إخوته ، إلا أنهم قالوا : القمر زوجة يعقوب ، وهى غير أمهم وغير أم يوسف ، وعن يعقوب أيضا : إن القمر خالته ، وعن السدى : القمر خالته ، وكانت تحت يعقوب ، لأن [أم] يوسف راحيل قد ماتت •

وعن قتادة وابن جريج : القمر أبوه ، والشمس أمه ، لأن الشمس مؤنثة ، ومن قال : إنها أبوه اعتبر الفضل والقوة •

وروى أن يوسف نام فى حجر يعقوب ، وقال يعقوب : أترى هذا الوجه أحسن أم الشمس أم القمر ؟ فانتبه من منامه وقال : يا أبت ما قدر الشمس والقمر ، إنى رأيتهما يسجدان لرؤيتى • وروى أنه لما قال : يا أبت زعق يعقوب فقال له يوسف : مالك ؟ فقال : ما نطق بهذه

الكلمة أحد إلا وقعت محبته ، فقال : يا أبت إن كنت لى حبيبا فأخبرنى بتأويلها ، فأخبره ، وإنما أخر الشمس والقمر لفضلهما بذكرهما بعد لفظ لو شاء لعمهما به بأن يقول : رأيت ثلاثة عشر كوكبا فإنهما كوكبان ، ولأن الواو بمعنى مع ، أى مع الشمس والقمر ، كما تقول : جاء الجند مع الأمير والسلطان .

قال فى عرائس القرآن : كان ابتداء أمر يعقوب ويوسف وبدوّ محبته له ، وإيثاره على سائر أولاده ، أن الله تعالى أنبت ليعقوب شجرة فى صحن داره ، فكان كلما كبر الغلام وشبّ طال القضيب وغلظ ، ودفعه إلى ولده حتى تم له عشرة أولاد بعشرة قضبان ، فلما ولد يوسف ، لم يخرج الله له قضيبا ، ولما كبر وشب قال لأبيه : يا نبىّ الله إنه ليس أحد من إخوتى إلا وله قضيب ، وأنا ليس لى قضيب ، فادعو الله أن يخصنى بقضيب من الجنة .

فرفع يعقوب يديه إلى السماء وقال : إلهى إنى أسألك أن تهب ليوسف قضيبا من الجنة ، يفتخر به على جميع إخوته ، فهبط جبريل ومعه قضيب من الجنة ، من الزبرجد الأخضر ، فقال ليوسف : خذها ، فكان يوسف يأخذه ويخرج به مع إخوته ، فرأى يوسف فى منامه وهو إذ ذاك صبى ، كأن قضيبه غرس من الأرض ، فعلق وتدلت أغصانه ، وأثمر كل غصن ، ثم جىء بعصى إخوته فغرست حولها ، فلم تعلق ، ولم تتفرع ، ولم تثمر ، وإذا بعصى يوسف أقصرها ، فلم تزل تعلوا حتى طالت عليهن ، ثم هبت الريح فقلعتهن فألقتهن فى البحر ، وثبتت عصى يوسف ، فانتبه فزعا مرعوبا .

فقال له أبوه ما الذى دهاك ؟ فقص عليه رؤياه ، فبلغ ذلك إخوته

فقالوا : يا ابن راحيل لقد رأيت عجبا يوشك أن تدعى أنك مولانا ونحن عبيدك ، فشق ذلك عليهم وحسدوه .

قال وهب بن منبه : رأى هذه الرؤيا وهو ابن سبع ، ثم رأى الكواكب والشمس ، والقمر ، وهو ابن اثنتى عشرة انتهى .

وذكر جار الله ، عن وهب : أنه رأى وهو ابن سبع ، أن إحدى عشرة عصى طوالا لا مركوزة فى الأرض كهيئة الدائرة ، وإذا عصى صغيرة تثب عليها ، حتى أقلعتها وغلبتها ، فوصف ذلك لأبيه ، فقال : إياك أن تذكرها لإخوتك ، وقيل : كان بين رؤيا يوسف للنجوم والقمرين ، ومصير إخوته إليه أربعون سنة ، وهو قول ابن عباس ، وقيل : ثمانون وهو قول الحسن .

(رأيتُهم لى سَاجِدِينَ) الرؤية الأولى مجرد إخبار بأنه رأى ذلك ، وهذه بيان لما وقفت عليه حالها ، وما رآها إلا مرة واحدة ، كما تقول : جاء زيد مريدا لمجرد الإخبار بمجيئه ثم تقول : جاء راكبا والمجىء واحد ، ولكن أردت بذكر مجيئه ثانيا بيانا لحاله ، فجملة « رأيتهم لى ساجدين » مستأنفة .

وقيل : رأيتهم تأكيد لقوله : « رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر » وعليه الشيخ خالد ، وقيل : إن ذلك من باب الاشتغال ، وإنه قد جمع بين المفسِّر والمفسَّر لجواز الجمع بينهما ، وهو قول ضعيف ، وعلى ما ذكرته أولا وهو الصحيح عندى يكون ساجدين مفعولا ثانيا لرؤيا الثانى ، على أن الرؤيا تتعدى لاثنين ، أو حالا على أنها تتعدى لواحد ،

وصاحب الحال الهاء ، ولا مفعول ثانيا ولا حال للرأى الأول ، لأن المراد به مجرد إخبار بأنه رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر .

وعلى القول الثانى والثالث يكون ساجدين مفعولا للأول ، أو حالا من مفعوله الأول ، وما عطف عليه ، ولا مفعولا ثانيا ولا حالا للثانى ، وإنما عبر عن الكواكب والشمس والقمر بقوله هم ، ولجمع المذكر السالم لتنزيلها منزلة العقلاء إذا وصفت بما يخص العاقل ، وهو السجود ، ولولا أنك لقال رأيتها أو رأيتهن ساجدة أو ساجدات .

وزعمت الفلاسفة المنجمة أن الكواكب والشمس والقمر لها عقل ونطق وإحساس وحياة ، وكذبوا وأراد بسجودهم له حقيقة السجود ، لأن تحية أهل ذلك الزمان فى اليقظة السجود ، وقيل : أراد تواضعها ودخولها تحت أمره ، وعلى كل فذلك كناية عن علو شأنه .

(قالَ يا بُنىَّ) تصغير ابن للشفقة أو لصغر سنه ، والأصل يا بنيوى بضم الموحدة وفتح النون وإسكان المثناة التحتية وهى للتصغير ، وكسر الواو بعد ياء الإضافة ، اجتمعت الياء والواو ، وسكنت السابقة فقلبت ياء وأدغمت فيها الباء وهى التصغير ، وحذفت ياء الإضافة لدلالة الكسرة ، وقرأ حفص هنا وفى الصافات بفتح المثناة ، كما تقول : يا غلام بالفتح تخفيفا عن كسر ، أو دلالة على ألف منقلبة عن ياء الإضافة محذوفة .

(لا تَقْصُص رُؤْيَاكَ) بألف التأنيث فرقا بين رؤية العلم والبصر على ما مر ، وقرىء رؤياك بإبدال الهمزة واوا تمد بها الراء ، وسمع الكسائى رياك بضم الراء وكسرها وتشديد الياء وهو ضعيف ، لأن الواو فى تقديره الهمزة ، فلا يقوى إدغامها .

وحقيقة الرؤيا انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك والصادقة منها ، إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ ، فيتصور بما فيها مما يليق بها من المعانى الحاصلة هناك ، ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك ، فتصير مشاهدة ، ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية ، استغنت الرؤيا عن التعبير ، وإلا احتاجت إليه قاله القاضى وهو حسن جدا ، والله سبحانه يخلق فى قلب النائم اعتقادات كما يخلقها فى قلب اليقظان .

(عَلَى إِخْوَتِكَ) يهودا وروبيل وشمعون ولاوى وريالون ودينه ودان ويشجر ويفتالى وجاد وأشر ، السبعة الأولى من ليا بنت خالة يعقوب ، والأربعة الآخرون من سبريتين زلفة وبلهة ، فلما توفيت تزوج أختها راحيل ، فولدت له بنيامين ويوسف ، وقيل : جمع بينهما [لأنه] لم يكن الجمع بين الأختين محرما فى شريعته ، والمعنى لا تخبر إخوتك برؤياك لأنهم يعرفون تأويلها .

(فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً) نصب الفعل فى جواب النهى ، أى إن قصصتها عليهم كادوك ، يعنى يحتالوا فى هلاكك لعلمهم بتأويلها ، عرف يعقوب من رؤياه أن يوسف يبلغه الله مبلغا من الحكمة ، ويفوقه على إخوته ، ويصطفيه للنبوة : وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه ، فخاف عليه حسد الإخوة وبغيهم ، وعدى يكيد باللام لتضمنه معنى فعل قاصر ، وهو يحتال كما ذكر ، أو يضم أو هى مثلها فى نصحت لك ، وشكرت لك ، يقال : نصحتك ونصحت لك ، وكذا فى شكر وكاد .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) ظاهر العداوة أو مظهرها ،

ألا ترى ما فعل بآدم وحواء فلا يقصر فى تسويلهم ، وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد ، فما أسرع كيدهم إن قصصت عليهم ، إذ تجتمع عداوة الحسن ووسوسة العدو القديم ، واستدل بعضهم على عدم نبوة إخوة يوسف بما كادوه .

وقال ابن زيد : إنهم أنبياء ، وفعلوا ذلك قبل النبوة ، وكذلك إنما يرتعون ويلعبون قبل النبوة ، ذكر ابن جرير ، وابن المنذر ، أن أبا عمرو قيل له : كيف تقرأ نرتع ونلعب بالنون وهم أنبياء ؟ فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء ، واتفقوا على أنهم صلحاء ، واختلفوا فى نبوتهم ، ولذلك ذكرهم البوصرى بالصلاح المتفق عليه ، لا بالنبوة المختلف فيها ، إذ قال : وسمعتم بكيد أولاد يعقوب أخاهم وكلهم صلحاء أو لاختياره عدم النبوة ، والصحيح أنهم أنبياء ، لقوله سبحانه وتعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط » إذ الأسباط هم أولاد يعقوب وإنزال الوحى يخص الأنبياء وقوله : « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط » .

وأما ما صدر منهم ، فإنما هو عن التأويلات ، تراها شريعة ، وكثير من الأمة بل أكثرها يقولون : إنما عصمة الأنبياء بعد النبوة ، ولكن الصحيح عصمتهم قبلها أيضا ، وهو مذهبنا ، واختلفوا فى الصغائر أيضا بعد النبوة ، لأشهر عندنا عصمتهم ، والذى عندى عدم عصمتهم عنها بعدها وقبلها ، لكثرة أدلته ، والتعبير فى إخوة يوسف بنحو الحسد والبغض بناء على عدم نبوتهم ، أو لكون أفعالهم على صورة البغض والحسد .

قيل للحسن : أيحسد مؤمن ؟ قال : ما أنساك بنى يعقوب ، ولذلك

قيل : الأب جلاب ، والأخ سلاب ، والحسد ضرورة فى الإنسان ، ولكن إذا حسد فلا يبغى ، وفى الحديث : « المؤمن لا يكون حسادا » أى ذا حسد أى وإذا صدر منه فليتب .

وروى أن يوسف قصها عليه ، لأن نهى أبيه له شفقة عليه لا تحريم عليه يقصها ، مع أنها له فلا سر لأحد فيها ، وذلك أنها لما أخبرتهم قالوا له : يا يوسف أحق لما رأيت ؟ فقال فى نفسه : إن أخبرتهم خالفت والدى ، وإن قلت لم أر كذبت ، ولا يليق الكذب بنبى ، فقالوا له : بحق آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ألا ما أخبرتنا لما رأيت ؟ فقال : رأيت كذا وكذا ، وقيل : نسى استكتام أبيه فأخبرهم .

(وكذَلِكَ) أى كما اجتباك ربك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرفك وعزك (يجْتَبِيكَ) يختارك (ربُّكَ) للنبوة أو الملك ، أو الأمور العظام ، أو يجتبيك ربك لما ذكر على طبق ما تضمنته الرؤيا من الإشارة والاحتباء فى الأصل ، من جبيت الشىء إذا حصلته لنفسك ، ولا مانع من بقائه فى الآية على هذا المعنى .

ويجوز أن يكون بمعنى تخصيص الله لعبده بفيض إلهى ، تحصل منه أنواع المكرمات بلا سعى منه ، وذلك مختص بالأنبياء ، وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين .

(ويُعلِّمكَ) مستأنف غير باق فى حين التشبيه ، كأنه قيل : وهو يعلمك كذا ، قالوا قلت : يجوز كونه فى حيرة فيعطف على يجتبيك ، فيكون المعنى يجتبيك للأمور العظام ، أو للنبوة والملك وللتعليم لك ،

كما اجتباك لمثل هذه الرؤيا ، أو كما اجتباك لهذه الرؤيا يجتبيك لما ذكر ، ولتعليم تأويل الرؤى جمع رأى كهدى .

(مِنْ تأويلِ) تعبير أى شيئا من تأويل ، أو من اسم بمعنى بعض على ما قيل ، أو أغنى الجار والمجرور عن تقدير مفعول (الأحَادِيثِ) أى الرؤى ، وكان أعلم الناس بتأويلها ذكر ذلك مجاهد وغيره ، وقال الحسن : هى عواقب الأمور ، وقيل : تعم ذلك وغيره من المغيبات ، وقال الزجاج : معانى كتب الله وسنن الأنبياء ، وما غمض واشتبه على الناس من مقاصدها ، وعليه فإنما سميت أحاديث لأنه يحدث بها عن الله ورسوله .

وعن ابن عباس : يعلمك العلم والحكمة ، وهو اسم جمع الحديث ، وقيل : جمع أحدوثة ، فانظر المرادى وحاشيتى عليه ، والصحيح أن بالأحاديث الرؤى ، وسمى تفسيرها تأويلا لأن الأمر يكون يئول إلى ما رأى النائم ، والرؤيا إما حديث نفس أو ملك أو شيطان .

قال على بن أبى طالب : ما بال الإنسان يرى الشىء فى النوم فيكون ، ويريد الشىء فلا يكون ؟ فقال القوم : ما سمعنا فى ذلك شيئا ، فقال عمر : أنا أخبركم ، إن الإنسان إذا نام عرج روحه إلى السماء ، فما رأى قبل أن تصل السماء فذلكم حلم يعنى من الشيطان ، وكذا ما يرى بعد رجوعها وخروجها من السماء ، وما يرى فى السماء فذلك الذى يكون .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « أصدقكم رؤياه أصدقكم حديثا » وعن أبى قتادة : كنت أرى الرؤيا يمرضنى حتى سمعت رسول الله صلى

الله عليه وسلم يقول : « الرؤيا الصالحة من الله ، والرؤيا السيئة من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها إلا من يحب ، وإذا رأى ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثا ، وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وليسترها فإنها لا تضره » .

وعن أبى سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله تعالى فليحمد الله وليحدث ، وإذا رأى غير ذلك مما يكرهه فإنما هى من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ومن نشرها ولا يذكرها لأحد ، فإنها لن تفيده شيئا » وذلك لأن الرؤيا الصالحة إنما هى من الله والرؤيا غير الصالحة إنما هى من الشيطان ومنها الضرر ، وأن يوسف عليه السلام أراه الله الرؤية الحسنة لأنه ابن الكريم يعقوب ولأنه يورثه زيادة المحبة والشفقة لصغره ، ولما يرى فيه من المخايل ، وضاعفت محبته لما رأى الرؤيا فكان يضمه كل ساعة إلى صدره ، ولا يصبر عنه ، فاشتد حسدهم ، ولما قص رؤياه على يعقوب قال : هذا أمر مشتت ، يجمع الله لك بعد دهر طويل ، وقيل : يتم النعمة عليه بأن وصل له نعمة الدنيا بنعمة الآخرة ، وقيل : بالنبوة والملك وغيرهما .

(ويتم نعمته عليك وعلى آلِ يعْقُوبَ) أهله وعبر بالآل تشريفا لأنه لا يقال إلا لمن له شأن وخطر ، والأهل يقال مطلقا ولى فيهما فى النحو مباحث ، وأراد بالآل إخوة يوسف ، وإتمام النعمة عليهم بالنبوة ، أو بها وبكونهم ملوكا ، فإن عظم أجسامهم وقوتها ، وجمالهم وشجاعتهم ملك ، حيث لا يغلبهم أحد عما أرادوا ، بأن يصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة ، والأصل وعلى آلى ، ووضع الظاهر موضع المضمر لزيادة الإيضاح ، ويجوز أن يريد بآل يعقوب نسله الوالد ووالد الولد ، وهكذا إلا خصوص

إخوة يوسف ، لكن قيل لم يترك يوسف ولد لدعوة أبيه بذلك ، وقيل : ترك اثنى عشر .

(كَمَا أتمهَّا عَلَى أبوَيْكَ) جدك وهو إسحاق ، وأبى جدك وهو إبراهيم ، والجد وما فوقه آباء ، ولذلك تراهم يقولون : ابن فلان ، ولو كان بينهما عدة آباء (مِنْ قَبْلُ) من قبلك أو من قبل هذا الوقت .

(إبْرَاهِيمَ) بالخلة والإنجاء من النار ، وتسليم ولده من الذبح بالفداء بكبش عظيم ، وهو إسماعيل على الصحيح الأشهر ، وقيل : إسحاق ونسبه بعض للأكثر .

(وإسْحَاقَ) بالنبوة وإخراج يعقوب والأسباط وهذا ايضا من الإنعام على إبراهيم وبانجائه من الذبح على أحد القولين ، أو أتمها عليهما بوصل نعم الدنيا بنعم الآخرة وبالملك ، فإنهما فى شهرتهما ونفاذ حكمهما وقبولهما ورغبتهما الراسخة فى القلوب كالملوك ، وإبراهيم عطف بيان الأبويك ، وكذا إسحاق بواسطة العطف .

(إنَّ ربَّكَ عَليمٌ) بمن يستحق الاجتباء أو بمصالح خلقه أو بخلقه (حَكيمٌ) يفعل الأشياء على ما ينبغى فلا يتم نعمته إلا على من يستحقها ، أو حكيم فى وضع النبوة فى بيت إبراهيم عليه السلام .

(لَقدْ كانَ فى يُوسفَ) أى فى قصة يوسف (وإخْوتِه آياتٌ) عبرا ودلائل على قدرة الله وحكمته ، أو علامات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ أخبرهم بقصة يوسف وإخوته على طبق ما فى التوراة ، مع أنه لا يقرأ ولم يجالس العلماء ، وقرأ ابن كثير آية بالإفراد ، وفى بعض المصاحف عبرة .

قال بعض : الآيات فيهم عشر :

الأولى : محبة الأباعد وعداوة الأقارب ٠

الثانية : كلام الذئب مع يعقوب ٠

الثالثة : حسد الأنبياء ، لأنهم أنبياء ٠

الرابعة : الوحى حال الطفولية ٠

الخامسة : بيعه بثمن بخس ٠

السادسة : بكاؤهم على الكذب ٠

السابعة : كلام أمه معه من القبر ٠

الثامنة : تخبير أهل مصر فى رؤيته ٠

التاسعة : شراء العزيز له بما يملك ٠

العاشرة : حضورهم بين يديه فى مصر ٠

(للسّائلين) عن العبر ، أو عن قصة يوسف وإخوته ، أو لكل من يسأل عن العبر ، فان قصة يوسف مما ينبغى أن يسأل عنها كل من سمع به مجملا ٠

(إذْ) مفعول به لاذكر ، أو ظرف متعلق بمكان على معنى أنه ثبتت عبر أو علامات : القدرة والحكمة وقت (قالوا) إلى آخره لمن

يسأل عن ذلك فى ذلك الزمان (ليُوسُفُ) اللام لام الابتداء ومعناها التوكيد ، لا لام جواب قسم مقدر كما قال بعض (وأخُوهُ) بنيامين بوصل النون الساكنة بالمثناة بعدها ، وكسر الموحدة قبلها : وأضافوه إلى ضمير يوسف ، مع أنه أخوهم أيضا ، لأنه أخو يوسف من أب وأم ، وأخوهم من أب فقط ، وفى الآية شبه الاستخدام ، إذ ذكر الإخوة بما يشمل بنيامين ورد إليهم الضمير ، وهو واو قالوا بما يشمله ، بدليل قولهم : وأخوه ، إلا إن أراد بالإخوة ما عدا هذا ، على انه لم يعتبر ما جرى من القصة فى شأنه ، وهو وجه ضعيف والتحقيق اعتباره ، فيكون الكلام شبيها بالاستخدام كما مر ، وهذا الأخ أصغر من يوسف وكان يحبهما ، أما يوسف فلما مر ، وأما أخوه فلأنه صغير شقيق ليوسف ، أو أحبهما لأن أمهما ماتت وهما صغيران ، ولأنهما صغيران ، وحب الصغير من فطرة البشر ، أوضعت محبتهما فى قلبه ضرورة بلا إسناد إلى شيء •

(أحبُّ) أخبر بالمفرد عن اثنين ، لأنه اسم تفضيل مجرد عن الإضافة وأل ، وكذا لو أضيف لنكرة ، وكذا يلزم التذكير ، ولو كان لمؤنث ، وإن أضيف لمعرفة جازت المطابقة ، وجاز الإفراد مع التذكير ، وإن قرن بأل طابق ، وبسط ذلك فى النحو •

وذكر ذلك ابن هشام وغيره ، ومثل فى بعض كتبه بالآية ، وهذا اسم تفضيل خارج عن القياس ، لأنه من المبنى للمفعول ، لأن المراد الإخبار بأنهما أشد محبوبية ، لا أشد حابية إلا أن يضمن معنى ألصق بالقلب أو نحو ذلك •

(إلَى أبِينَا) عدى بإلى لأنه الأب فاعل الحب فى المعنى ، وذلك

أن اسم التفضيل إن كان من متعدى بنفسه دال على حب أو بغض يعدى باللام إلى ما هو مفعول فى المعنى ، وبإلى إلى ما هو فاعل فى المعنى ، نحو : المؤمن أحب لله من نفسه ، أى يحب الله أكثر من حب نفسه ، أى يحب الله أكثر من حب نفسه ، والمؤمن أحب إلى الله من غيره •

(منَّا ونَحنُ) الواو للحال (عُصْبَةٌ) جماعة يعصب بنا الأمور ويستكفى النوائب ، ولنقوم بحاجته ، والعصبة والعصابة العشرة فصاعدا ، سميت للتعصب ، وقيل : هما العشرة ، وعليه الفراء ، وقيل : الجماعة ولو أقل ، وقال مجاهد : ما بين العشرة إلى خمسة عشر ، وقيل : إلى أربعين ، وهما اسم جمع إفرادى •

وروى النزار بن سيرة ، عن على بن أبى طالب : عصبة بالنصب على الحال المحذوف ، أى نجتمع عصبة ، أو على المفعولية ، أى نوجد عصبة : أو الخبرية لكان ، أى كنا عصبة ، وهذا ضعيف لعدم لو وإن الشرطيتين ، والحالية أيضا فيها خروج عن القياس ، لأن الحال إنما ينوب عن الخبر قياساً إذا كان المبتدأ مصدرا أو اسمه صريحا عاملا فى اسم مفسر لضمير ذى حال ، حال لا يصح كونها خبرا عنه نحو ضربى العبد مسيئا ، وعصبة غير مصدر ولا اسمه ، والحال يصح الإخبار بها كما ذكر ابن هشام والشيخ خالد •

(إنَّ أبانا لَفِى ضَلالٍ مُبينٍ) فى خطأ ظاهر فى أريه إذا اختارهما عنا وهما صغيران ، لا منفعة فيهما ولا كفاية ، ونحن عشرة رجال أقوياء ، نقوم بما يحتاج ، أحق بالمحبة منهما ، ونحن أحسن صورة منه ، لم يظهره الله تعالى لهم كما هو ، أو فى خطأ فى ترك المحبة ، وصواب الرأى أن يستوى

بيننا ، أو يختارنا ، وذلك الترك ليس ذنبا ، لأنه ضرورى ، إذ ليس فى الإنسان قوة على دفع الحب ، فمعنى خطأ فى الترك عدم موافقة لما يستصوب عادة ، وليس المراد الخطأ فى الدين ، وإلا كان ذلك منهم كفرا حاشاهم ، وهم أنبياء مسلمون .

وقيل : إن تلك القصة صدرت عنهم وهم غير بلغ بناء على عدم الأنبياء قبل البلوغ والصحيح أنهم بُلَّغ ويناسبه قولهم بعد ذلك : يا أبانا استغفر لنا ، والطفل لا ذنب له ، ولو كان يحتمل أن يعدوا ذلك ذنبا أى شيئا غير موفق لما ينبغى ، ولو كانوا أطفالا ، وقصتهم بظاهرها مشتملة على قطيعة الرحم ، وعقوق الوالدين ، وقلة الرأفة بالصغير الذى لا ذنب له ، وخيانة الأمانة ، ونقض العهد ، والكذب ، والشروع فيما هو مظنة الموت ، ولو لم يقصدوا القتل ، ونجاهم الله من قتله ، ومن تأدية فعلهم فيه رحمة بهم وبه ، وعفا الله سبحانه ذلك كله عنهم ، حتى لا ييئس مذنب من رحمة الله .

(اقْتُلُوا) إلى آخره من جملة المحكى بقوله : « إذ قالوا » أطبقوا على قتله إلا من قال : لا تقتلوا يوسف ، وقيل الآمر بالقتل شمعون ، وقيل : دان ، والباقون راضون ، فجعلوا الأمرين ، وقيل : إن الآمر بقتله أجنبى شاوروه فهو محكى بقول محذوف ، أى قيل اقتلوا الخ وهو ضعيف ، وربما دلله تقييد القائل لما كان منهم بقوله : « منهم » إذ قال قال قائل منهم لا تقتلوا ، وروى أنهم تشاوروا فى دار روبيل وتحدثوا .

(يُوسفَ أو اطْرَحُوهُ أرضاً) ظرف مكان مبهم ، وهو ما ليس له حد يحصره ، ولا أقطار تحويه ، وإنما يقبل النصب على الظرفية من

أسماء المكان ما كان كذلك ، وقيل : هو منصوب على نزع الخافض ، وهو فى حد قولك فى الشعر أو النادر : مررت زيدا والأول أولى لوجود شرط النصب على الظرفية المكانية ، وهو الإبهام ، لأن المراد قطعة مجهولة بعيدة من العمران ، وذلك وجه التنكير وعدم وصف .

(يَخْلُ) جواب الأمر (لكُم وجْهُ أبِيكُم) أى يخل لكم أبوكم ووجه الشىء نفسه ، تقول : فعلت كذا لوجه الله ، أى الله بنفسه ، فإذا قتلناه أو طرحناه أرضا فافترسه سبع أو مات فيها فيئس منه تمحض لنا أبونا ، وخلصت محبته لنا ، ولم يشاركنا فيها يوسف ، فضلا عن أن يذهب بمعظمها كما كان ، أو أرادوا أيخلوا وجهه لهم إقباله عليهم وحدهم ، فكنوا بالوجه عن الإقبال ، لأن الإقبال يكون بالوجه ، وقيل : يفرغ لكم من اشتغاله يوسف وما صدق ذلك كله واحد .

(وتَكُونوا مِنْ بَعْدِه) أى من بعد يوسف ، أى من بعد كفايته بالقتل أو الطرح ، أو الهاء عائدة إلى القتل أو الطرح المفهوم من اقتلوا واطرحوا ، أى وتكونوا من بعد فعلكم به إحدهما ، أو الخلو المفهوم من يخلُ ، وحذف النون جزما بالعطف على يخلُ أو بالنصب بإضمار أى بعد واو المعية فى جواب الأمر ، لجواز المجىء بجوابين : أحدهما حال من الواو والفاء مجزوم ، والآخر مقرون بأحدهما منصوب ، وذلك فى جواب الطلب ، أو النصب عطف على مصدر متوهم ، أى إن فعلتم ذلك يحصل خلو وجه أبيكم لكم ، وكونكم من بعده الخ .

(قَوماً صَالحينَ) بأن تتوبوا إلى الله مما فعلتم من قتله أو طرحه ، قال بعضهم : مهدوا التوبة من الذنب قبل مواقعته ، وقيل : تكونوا

صالحين مع أبيكم لعذر تمهدونه ، وبه قال مقاتل ، وفى أمر دنياكم ، فإنه ينتظم لكم بعده .

(قَالَ قائلٌ منْهُم) هو يهودا ، وكان أحسنهم فيه رأيا ، وأفضلهم وأعقلهم ، وهو القائل : « فلن أبرح الأرض » وذلك أنه متصل به سنا ، فكانت منه له شفقة وهو الصحيح ، وقال قتادة ، وابن إسحاق : هو روبيل ، وكان أكبرهم سنا ، وهو ابن خالة يوسف ، قال الشيخ هود : هو القائل : « فلن أبرح الأرض » وقال مجاهد : القائل : لا تقتلوا هو شمعون ، وكان أعظمهم شأنا .

(لا تقْتلُوا يُوسفَ) فإن القتل عظيم (وألْقوهُ) الفعل فعل أمر (فى غَيابَاتِ الجُبِّ) أى المواضع التى يغيب فيها عن أعين الناظرين فى الجب ، وذلك أن الجب كان واسع الأسفل ، فإذا ألقوه فيه سكن أى موضع شاء منه ، فإنما سمى قعر الجب غيابة ، لأنه يغيب ما فيه ، وقرأ غير نافع : فى غيابة بالإفراد ، وقرأ فى غير العشرة فى غيابات بالتشديد والجمع ، وقرأ الجحدرى : غيبة بالإفراد والتشديد وإسقاط الألف .

والجب البئر التى لم تطو ، سميت لأنها قطعت من الأرض مجرد قطع فقط ، دون طى ، قــال قتادة : هــو بئر فى بلاد بيت المقــدس ، وقيل : بين مصر ومدين ، وقال وهب : فى أرض الأردن ، وكذا قال مقاتل ، وزاد إنها على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام ، قيل : هو فى وادٍ من أوديتها على قارعة الطريق ، ولا يرى إلا موحشا مظلما يهلك من طرح فيه لسعة أسفله ، إذ لا يمكنه الصعود ، وكان صالحا ، وقيل : لا يكون فيه ماء ، وكانت فيه حيات يهلكن من دخله ، وهو من حفر سام

ابن نوح : يسمى جبّ الأحزان ، وكان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين ، وقيل : حفره شداد بن عاد .

(يلْتقِطه بَعضُ السَّيارةِ) جمع سيار ، وهو من يكثر السير بالطريق كذا قيل ، قلت : بل هو اسم جمع ، وذلك الالتقاط هو علة الأمر بالطرح فى غيابات الجب ، ولذلك جزم فى جوابه ، فإذا التقطه بعض السيارة ذهب به إلى ناحية فتسلموا من قتله ، وتستريحوا منه ، وقرأ الحسن البصرى : تلتقطه بالتاء المثناة أوله ، قال ابن هشام : أنث المضاف لتأنيث المضاف إليه ، وساغ ذلك لصلة الاستغناء بالمضاف إليه كما قال ، ونظرا للمعنى فإن بعض السيارة سيارة والالتقاط الأخذ .

(إنْ كُنتُم فاعِلينَ) التفريق بينه وبين أبيه ، أو إن كنتم فاعلين به ضرا ، أو إن كنتم عاملين بمشورتى ، وجواب إن محذوف دل عليه ألقوه ، أو لا تقتلوا وألقوه ، أى إن كنتم فاعلين للتفريق أو للضر ، أو بمشورتى فألقوه فى غيابات الجب ، أو فلا تقتلوه وألقوه الخ ، ويحتمل أن يكون قائل ذلك مشفقا عليه ، راحما له ، أى لا تفعلوا شيئا من تفريق وإضرار ، وإن كنتم فاعلين ولا بد فألقوه فى غيابات الجب .

وروى أن جماعة من الأعراب ألتقطوه وستأتى قصة التقاطه ، فلما أجمعوا على التفريق بين يوسف وأبيه ، توصلوا إليه بضرب من الحيل ، بأن يدخلوا على يعقوب ويكلموه فى إرسال يوسف معهم إلى البرية ، قال روبيل : إن أباكم لا يأمنكم على يوسف ، ولكن انطلقوا بنا إلى يوسف حتى نلعب بين يديه ، واذا رآنا كيف نلعب ونمرح فاشتاق إلى ذلك رضى بالخروج معنا ، فيطلب من أبينا ذلك .

فأقبلوا على يوسف وهو قاعد يسبح ، فجعلوا يتلاعبون ويتناضلون بين يديه ، فلما رأى يوسف ذلك اشتاق إلى اللعب معهم ، فأقبل عليهم وقال : يا إخوتاه هكذا تفعلون فى مراعيكم ؟ قالوا : نعم يا يوسف إنك لو رأيتنا فى مراعينا ، لتمنيت أن تكون معنا ، فشوقوه إلى ذلك حتى كان هو الطالب لذلك ، فقال لهم : يــا إحوتاه انطلقوا إلى أبى فاسألوه أن يرسلنى معكم ، فأقبلوا على يعقوب وصفوا بين يديه صفوفا ، وكانوا يفعلون ذلك إذا أرادوا أن يسألوه حاجة ، فلما رآهم بين يديه صفوفا قال لهم : ما حاجتكم ؟ فذكروا له ما حكى الله عنهم بقوله :

(قالُوا يَا أبانَا مالَكَ لا تأمنَّا) أى مالك تكون غير آمن لنا ، بل خائفا منا (علَى يُوسفَ) وجملة لا تأمنا حال من الكاف ، والأصــل لا تأمننا بضم النون سكنت وأدغمت لكن باشــمام الضــمة ، وحقيقة الإشمام فى ذلك أن يشار بالحركة إلى النون لا بالعضوء إليها ، فيكون ذلك إخفاء لا إدغاما صحيحا ، لأن الحركة لا تسكن رأسا ، بل يضعف الصوت فيها فيفصل بين المدغم والمدغم فيه لذلك ، وهذا هو الصواب لتأكيد دلالته ، وصحته فى القياس ، قاله أبو عمرو الدانى قال وكل السبعة قرأ بالإدغام ، انتهى . وقرىء فى غير السبع بلا إدغام ، وقرىء أيضا بلا إشمام مــع إدغام ، والمشهور عن نافع الإدغام باشمام ، وروى عنه بلا إشمام قال بعضهم ترك الإدغام شاذ ، لأنهما من كلمتين ا . هـ .

والظاهر تعليق من ترك إلا بشاذ لأن كونهمــا من كلمتين إنمــا يقتضى ترك الإدغام لا الإدغام ، وقرىء تيمنا بكسر حرف المضارعة ، وقلب الألف ياء والإدغام ، وفى نسخ المقارنة نون حمراء بين الميم والنون .

(وإنَّا له لنَاصِحونَ) حال من ضمير فى تأمنا ، أو من المستتر

فيه ، والنصح له الشفقة عليه ، وإرادة الخير له ، والقيام بمصالحه وحبه : لما علموا أن يعقوب محافظ على يوسف عنهم لما يتراءى له من حسدهم ، وأنه محسن منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه ، بدءوا له بما يستتر له عن رأيه ، بأن شرعوا فى الإنكار عليه فى تركه يوسف بلا إرسال معهم فى خرجاتهم إلى مراعيهم ، كأنهم قالوا : أتخافنا عليه إذا أرسلته معنا ، والحال أنا ناصحون له .

أظهر من الوله ما يظن به أن ما يحذره منهم خطأ منه فيهم ، وأنه شىء لا يقع ، وهذا أولى من قول مقاتل : إن فى الكلام تقديما وتأخيرا ، وذلك أنهم قالوا : « أرسله معنا » فقال : « إنى ليحزننى » إلى قوله : « غافلون » فقالوا : « مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون » ، وروى أنهم لما قالوا : يا أبانا مالك ، لاهتزت أركان يعقوب ، واصفر واصطكت أسنانه ، كأنه علم ما فى قلوبهم ، لأنه رآهم على صور الذئاب كما يأتى إن شاء الله .

(أرْسِلهُ) إلى الصحراء (مَعَنا غَداً يرْتع) بالتحتية وكسر العين من الارتعاء ، يقال : ارتعى يرتعى وهو يفتعل من الرعى ، أى يخصم مراعى دوابنا أو يدخلها ، أو يأكل مما تنبت الأرض مما يؤكل تفكها ، وهو مجزوم بحذف الآخر فى جواب الطلب ، والضمير فيه وفى قوله : (ويَلْعَب) بالمثناة التحتية ليوسف عليه السلام ، وذلك قراءة نافع ، وقرأ الكوفيون ، ويعقوب ، والحسن : يرتع بالياء وإسكان العين ، ونلعب بالياء من رتع يرتع ، أى نتسع فى أكل الفواكه ونحوها .

والرتعة الخصب ، وذلك استعارة من رتوع البهيمة والسعة ، وقرأ

ابن كثير : نرتع بكسر العين كنافع ، لكن بالنون ، ونلعب بالنون أيضا وقرأ الباقون ، ومجاهد : نرتع ونلعب بالنون فيهما وإسكان عين الأول ، وقرىء يرتع بالياء مضمومة وكسر المثناة الفوقية ، وإسكان العين ، ويلعب بالتحتية من ارتع ماشيته يرتعها ، أى أوردها الخصب ، وقرأ العلاء بن سيابة يرتع بكسر العين : ويلعب بالرفع على الاستئناف ، والياء فيهما ومرادى بالكوفيين الكسائى وحمزة وعاصم .

وقال مجاهد : فى قراءة من قرأ نرتع بالنون وكسر العين ، ويرتع بياء مفتوحة وكسر العين من المراعاة ، أى يرع بعضنا بعضا ويحرسه ، وإنما استخار يعقوب لهم اللعب لأن لعبهم بالاستباق والانتضال تعلما بأمر الحرب لا باللهو ، وذلك مندوب مأمور بـه ، ويدل لذلك قولـه : « إنا ذهبنا نستبق » وسمى ذلك لعبا لأنه فى صورته ، وقيل : اللعب هنا النشاط ، وقيل الإقدام على المباح لينشرح الصدر ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، لجابر بن عبد الله حين تزوج امرأة غير بكر : « هلا بكرا تلاعبك وتلاعبها » أى هلا تزوجت بكرا إلى آخره .

وقال أبو العلاء المعرى : إنه لعب على ظاهر ، ولم يكونوا يومئذ أنبياء انتهى ، كما مر ، وروى عن ابن كثير : نرتع ويلعب بالنون فى الأول والياء فى الثانى ، وكسر العين فى الأول ، قال أبو على الفارسى : هذه القراءة أحسن لإسناد النظر فى المال والرعاء إليهم ، واللعب إلى يوسف لصباه ، وروى أبو ربيعة ، وابن الصباح من قبل نرتعى بالياء بعد العين ، وفقا ووصلا ، وروى غيرهما عنه الحذف فى الحالتين .

(وإنّا له لحافِظونَ) أن يناله مكروه حتى يرجع إليك سالما .

(قالَ) يعقوب (إنِّى ليحزُننى) بفتح الياء عند نافع وابن كثير (أنْ تذْهبُوا) فاعل فى التأويل بالمصدر ، أى ليحزننى ذهابكم (بهِ) شدة مفارقته علىَّ وقلة صبرى على غيبته عنى .

(وأخافُ أنْ يأكُلَه الذِّئبُ) بالياء وصلا ، وبالهمز وقفا كذا قال ورش ، عن نافع ، والباقون بالهمزة وصلا ووقفا ، إلا أن حمزة يسهلها بين الهمزة والياء ، وروى عن ابن كثير ، ونافع وهى رواية قالون عنه : الذئب بالهمز وصلا وعاصم وابن عامر بهمزتين وصلا ووقفا ، وعن حمزة همزه وصلا ، وعن الدورى أن أبا عمرو بن العلاء يهمز وصلا ووقفا ، وسمى ذلك الحيوان ذئبا من ذأبت الريح إذا هبت من كل جهة ، لأنه يأتى من كل جهة كهيئة من يحارب ، وقال فى الذئب للحقيقة ، وإنما تخوف أكل الذئب لكثرة الذئاب بأرضهم ، وقيل : لأنه رأى فى المنام ذئبا شد على يوسف .

وعن ابن عباس : إنما قال ذلك لأنه رأى فى منامه كأن يوسف على رأس جبل ، وكأن عشرة من الذئاب قد شدوا عليه ليقتلوه ، وإذا ذئب منها يحمى عليه ، وإذا الأرض انشقت فدخل فيها ، فلم يخرج إلا بعد ثلاثة أيام ، فخاف لذلك ، وظهر تأويلها بعد ذلك بكونهم عشرة ، وأنهم أرادوا قتله إلا واحدا منعهم ، وأنهم ألقوه فى الجب ، وأنه بقى فيها ثلاثة أيام رآهم على صور الذئاب ، ورآهم يوسف على صور الكواكب ، فيعقوب رآهم بحسب الاهتداء ، ويوسف بحسب الخاتمة ، لأنهم تابوا ، وعن نافع ، عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تلقنوا الناس الكذب فيكذبوا فإن أبناء يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الإنسان ولما قال لهم وأخاف أن يأكله الذئب » .

(وأنتُم عنهُ غافِلُون) باشتغالكم بالرتع واللعب ، أو لقلة اهتمامكم به تعلموا منه ، وقالوا : « إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » انتهى الحديث بإيضاح . من أمثال العرب : البلاء موكل بالمنطق ، وتعلل يعقوب عليه السلام بعلتين :

إحداهما : أحزان ذهابهم به إياه هذه لم يجيبوه عنها ، إذ لا طاقة لهم بإزالة الحزن ، لأن اختياره عنهم هو الذى غاظهم وأذاقهم الشر ، والأمر العظيم .

والأخرى : الخوف عليه من الذئب ، وأجابوا عنها لما ذكر عنهم الله سبحانه وتعالى بقوله :

(قالُوا لَئِنْ أكلهُ الذِّئبُ) أى والله لئن أكله الذئب (ونحْنُ) الواو للحال (عُصبةٌ إنَّا إذاً لخاسِرُونَ) عاجزون ضعفاء تعبير ، فإن الخسران فى المال مثلا يكون فى الجملة لعجز وضعف فى البدن ، أو فى النفس والعقل ، وجملة إنا الخ جواب القسم الموطأ له بلام لئن ، مغن عن جواب الشرط ، أو يقدر له مثله ، أو معنى خاسرون مغبونون فى أمره ، أو خاسرون فى مواشينا بأن لا نقدر على حفظها ، أو غادرون أو ضالون فى الدين ، أو مستحقون للموت ، إذ لا نفع فيهم إن كان ذلك ، أو مستحقون أن يدعو عليهم أبوهم بالهلاك والدمار .

وقالوا : يا نبى الله كيف يأكله الذئب وفينا شمعون إذا غضب لا يسكن غضبه حتى يصيح ، وإذا صاح لا سمعه حامل إلا وضعت ما فى بطنها ، وفينا يهودا إذا غضب شق السبع نصفين ، فلما سمع يعقوب ذلك اطمأن إليهم .

وأقبل يوسف حتى وقف بين يدى أبيه ثم قال : يا أبت أرسلنى معهم ، فإنى رأيت منهم اللطف والدين •

قال : أتحب ذلك يا بنى ؟ قال : نعم • قال : فاذهب فإذا كان الغد أذنت لك ، فلما أصبح لبس ثيابه ، وشد على نفسه منطقه ، وأخذ قضيبه ، وخرج مع إخوته ، وعمد يعقوب إلى السلة التى يحمل فيها الزاد ، فجعل فيها زاد يوسف ، وخرج يشيعهم •

قالوا : يا نبى الله ارجع ، فقال : يا بنى أوصيكم بتقوى الله وحبيبى يوسف أسألكم بالله إن جاع فأطعموه ، وإن عطش فاسقوه ، وقوموا عليه ولا تخذلوه ، وكونوا متواصلين متراحمين •

قالوا : يا أبانا كلنا كذلك ، وهو أخونا كأحد منا ، بل له الفضل علينا •

قال : يا بنى يوسف حبيبى عندكم ، مع أنى أخاف أن أكون قد ضيعته ، ثم أقبل يوسف فالتزمه وضمه إلى صدره وقبله بين عينيه ، ثم قال : استودعتك الله رب العالمين وانصرف راجعا •

وكانت زينة بنت يعقوب أخت يوسف نائمة ، فرأت فى منامها كأن يوسف وقع بين ذئاب تنهشه فانتبهت فازعة مرعوبة ، ومضت إلى أبيها باكية وقالت له : ما فعلت بأخى يوسف ؟ قال : أسلمته إلى إخوتك ، فمضت خلفه حتى لحقته ، فأمسكت بيوسف فقالت : لا أفارقه أبدا ، فقالوا لها : أرسليه ، فقالت : لا أفعل إنى لم أطق فراقه ، فقالوا لها :

بالعشى نأتيك به ، ثم أقبل يوسف يقلب يديها ويقول لها : دعينى أسر مع إخوتى نرتع ونلعب ، فتركته وجلست موضعها تشيعه بعينيها ، ودموعها تجرى ، ورجعت باكية حزينة على فراقه ، فقال لها يعقوب : لِمَ تبكين ؟ فقالت : ساعة أخرى تبكى أنت معى •

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنهم لما خلوا به فى البرية أظهروا له العداوة ، وجعلوا يضربونه ، وذكروا أنهم كانوا يحملونه بمرأى [من] يعقوب على أعناقهم ، ولما غابوا عنه ألقوه على الأرض ، وأظهروا له ما فى أنفسهم ، وجعلوا يضربونه إذا ضربه واحد استغاث بالآخر فيدفعه ويضربه ، وأخذوا ما زوده أبوه وأطعموه الكلاب ، وضربوه حتى كادوا يقتلونه ، وعطش عطشا شديدا فقال لهم : اسقونى جرعة من ماء قبل أن تقتلونى فلم يسقوه •

وبكت الملائكة عند ذلك رحمة بيوسف ، ولما لم ير منهم رحيما ، وظن أنهم يقتلونه جعل ينادى : يا أبتاه ، يا يعقوب ، لم تعلم ما يصنع بابنك بنو الإماء ، ما أسرع ما نسوا عهدك ، وضيعوا وصيتك ، لو رأيت ما يصنعون بى لأحزنك وأبكاك بكاء شديداً •

وهموا بقتله ، وأخذه روبيل فجلد به الأرض ، ثم جثم على صدره ، وأراد قتله ، فقال له : مهلا يا أخى لا تقتلنى ، فقال له : يا ابن راحيل ، قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ، ولوى عنقه ، فاستغاث يوسف بيهودا وقال له : اتق الله فىّ ، أتخلى بينى وبين من يريد قتلى ؟

فرقّ له وقال : يا إخوتاه ما على هـذا عاهدتمونى ، ألم تعطونى

موثقا لا تقتلونه ، ألا أدلكم على ما هو أهون لكم وأرفق به ، أن تلقوه فى هذا الجب فيموت ، أو يلتقطه بعض السيارة .

روى أن شمعون جرد سكينه على أن يقتله ، فتعلق بذيل روبيل فضربه وطرده ، وكذلك جميع إخوته يطردونه ويضربونه ، فضحك عند ذلك ، فقال له يهودا : ليس هذا موضع الضحك ، فقال : بينى وبين الله سر ، قال : ما هو ؟ قال : تأملت فيكم وفى قوتكم وشدتكم فقلت فى نفسى : ما يفعل العدو بنا ، ومن يقدر علىّ ولى مثل هؤلاء الإخوة ، فسلطكم الله علىّ بشؤم تلك الفكرة ، حتى لا يتكل العبد إلا على مولاه .

وأن يهودا أدركته رحمة الإخوة فقال له : تعال وادخل تحت ذيلى لأحفظك ، فقالوا له : كأنك رجعت عن عهدنا ؟ فقال : الرجوع عن كل أمر ليس فيه رضا الله تعالى أولى من الوفق عليه ، إذا أردتم قتله فاقتلونى معه ، قالوا : لا نتركه ، قال ألقوه فى غيابات الجب .

(فلمّا ذهبُوا بهِ وأجْمعُوا) اتفقوا أو عزموا (أن يجْعَلوهُ فى غيَابات الجُبِّ) فى تأويل المصدر معمول لأجمعوا ، على تقدير على ، أى اتفقوا أو عزموا على جعلهم إياه فى غياباب الجبّ ، أو مفعول به كقوله تعالى : « فأجمعوا أمركم » أى اعزموه : يقال : عزمت الأمر ، وعزمت عليه ، وعزم الأمر بالرفع ، وفى غيابات القراءات السابقات وجوب لما محذوف ، أى فعلوا به من الأذى بأن طرحوا قميصه بعد ضربه وإهانته وإرادة قتله ، وأدلوه ثم ألقوه قبل الوصول ، وحذف للتهويل ، وهذا أولى من جعل الجواب أجمعوا وأوحينا ، وزيدت فيه الواو .

ولما أرادوا أن يلقوه فى الجب دلوه فيه ، وتعلق بشفيره ، وروى

أنه تعلق بثيابهم فنزعوها من يديه ، فتعلق بشفير البئر ، فربطوا يديه ، ونزعوا قميصه ، فقال : يا إخوتاه ردوا علىّ قميصى أستتر به عورتى ، ويكون لى كفنا بعد مماتى ، وأطلقوا يدى أدفع بها عنى هوام البئر ، فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تأتيك ، تلبسك وتؤنسك ، وقيل : قال لهم تقية : لم أر شيئا وقال ذلك بالمعرضة .

وإنما نزعوا قميصه ليلطخوه بالدم ، ويحتالوا به على أبيهم ، ولما بلغ نصف البئر قطعوا الحبل ليسقط فيمـوت ، فسقط ثـم آوى إلى صخرة كانت فيها ، فيقام عليها ، وكان فى الجب ماء ، وقيل : أخرج الله تعالى على وجه الماء صخرة ورفعها إلى يوسف فقعد عليها ولم يسقط كما أرادوا ، فجعل يبكى ، فنادوه فظن أنها رحمة أدركتهم ، فأجابهم فهموا أن يرضخوه ويقتلوه بحجارة أو صخرة ، فمنعهم يهودا وقال : قـد أعطيتمونى موثقا لا تقتلونه : وقيل : إنما أدلوه فى دلو .

وروى أنه لما وصل قعرها قال : لهم يا إخوتاه أتدعونى فريدا ، ولما وصله أضاء له الجب ، وعذب ماؤه ، فكان يغنيه عن الطعام والشراب ، قاله الحسن ، وقيل : إنه أتاه الملك جبريل بسفرجلة من الجنة فأطعمه إياها بعد ما حل يديه ، وقيل : كان يهودا يأتيه بالطعام والشراب خفية عن إخوته ، وكان إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار ، وجرد مـن ثيابه ، وقذف فى النار عريانا قد أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة ، ولما مات ورثه إسحاق ، ثم ورثه يعقوب ، وإنما توارثوه لأن ذلك ليس من مال الدنيا ، وقيل تعاطوه فى حياتهم ، ولما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى عودة تعلق على الإنسان ، وعلقها فى عنق يوسف خوفا عليه ، قيل : وكانت العوذة من فضة .

ولما ألقى فى البئر عريانا جاء جبريل بتلك السفرجلة المذكورة ، وأخرج ذلك القميص من العوذة ، وألبسه إياه ، وكان لا يلبسه صغير أو كبير إلا جاء على طوله ، وأنسه نهاره ، ولما أمسى نهض ليذهب فقال له : إذا خرجت عنى استوحشت ، فقال : إذا أصابك شىء تستوحشه فقل : يا صريخ المستصرخين ، ويا غياث المستغيثين ، ويا مفرج كرب المكروبين ، قد ترى مكانى ، وتعرف حالى ، لا يخفى عليك شىء من أمرى ، فلما دعا بذلك ، بعث الله سبحانه وتعالى إليه سبعين ملكا يحفون به ، ويؤنسونه فى الجب .

وروى أنه لما وصل قعر البئر ولا ماء فيها ، خرج إليه رجل من غياباتها من فوره ، وضمه إلى نفسه ، وقال : واطول شوقاه إليك يا حبيبى ، وريحان قلبى ، يا نبى الله لا تشكو إخوتك إلى أحد ، فإنى كنت السبب ، ثم قال : استودعتك الله تعالى يا حبيبى : وقرة عينى ، ثم خر ميتا ، وهو رجل صالح يقال له : هود من قوم هود عليه السلام ، عمر ألفا ومائتى سنة ، وقرأ فى صحف شيث عليه السلام قصة يوسف عليه السلام ، وما يجرى له مع إخوته ، وصورته وحسنه وجماله ، فقال : اللهم إنى أسألك أن لا تقبض روحى حتى أرى يوسف عليه السلام ، فأجاب الله دعاءه فهتف به هاتف أن امض إلى الجب الذى حفره شداد ابن عاد واسكن فه حتى يأتيك يوسف ، فقصد الجب فسكنه ، وكان يعبد الله تعالى فيه ويأكل كل ليلة رمانة ، وفوقه قنديل يزهر معلق لا يحتاج إلى فتيلة ولا دهن .

وكانت فى ذلك الجب حيات لا تترك أحدا وقع فيه إلا قتلته إلا ذلك الرجل ، فإن الله جل وعلا حماه ، فلما مات وبقى يوسف أتين إليه من

ناحية فخاف منهن ، وصاح بهن جبريل وفرقهن وحماه الله منهن وصمت إذا نهز من تلك الصيحة ، فكل حية صماء إلى يوم القيامة .

قال محمد بن مسلم الطائفى : لما ألقى يوسف فى الجب قال : يا شاهد غير غائب ، ويا قريب غير بعيد ، ويا غالب غير مغلوب ، اجعل لى فرجا مما أنا فيه ، فما بات فيه ، والمشهور أنه بات فى البئر ثلاث ليال ، فلما كان اليوم الرابع أتاه جبريل فقال : يا غلام من طرحك فى الجب هذا ؟ قال : إخوتى من أبى ، قال : ولمه ؟ قال : حسدونى لمنزلتى من أبى ، قال : أتحب أن تخرج من الجب ؟ قال : نعم ، قال : قل : يا صانع غير مصنوع ، ويا جابر كل كسير ، ويا ناصر كل شوى : ويا سامع كل نجوى ، ويا قريب غير بعيد ، ويا مؤنس كل وحيد : ويا غالب غير مغلوب ، ويا حى لا يموت ، ويا محيى الموتى ، لا إله إلا أنت سبحانك ، يا من له الحمد ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد ، وأن تجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا ، وترزقنى من حيث لا أحتسب ، فقالها يوسف فجعل الله له من الجب مخرجا ، ومن كيد إخوته فرجا فأخرجته السيارة .

(وأوْحَينا إليْه) وحيا حقيقيا عند الجمهور وهو الصحيح ، وهو فى الجب على لسان جبريل عليه السلام (لتُنبئَنَّهم) والله لتنبئنهم ، أى لتخبرنهم إخبار محاسبة ومجازاة (بأمرهم هَذا) للحال من الضرب ، وسلب القميص ، والإلقاء فى البئر ، وبيعه بثمن بخس ، آنسه جبريل وبشره بأنه يخرج ، وأنه سيخبرهم بما فعلوا ويستولى عليهم .

(وهُم لا يشْعُرونَ) الواو فى حال إخبار أنكَ يوسف لعلو

شأنك ، وكبرياء سلطانك ، وبعده عن أوهامهم ، وطول العهد المغير للحلى والهيبة .

أشار إلى ذلك الطبرى ، وذلك أنهم دخلوا عليه بمصر ممتارين فعرفهم وهم له منكرون ، فدعى بالصواع فوضعه على يده فنقره ، فصوت فقال : إنه يخبرنى أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف ، وكان يدنيه دونكم ، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه فى غيابات الجب ، وقلتم لأبيكم أكله الذئب ، وبعتموه بثمن بخس ، ومجموع القسم وجوابه ومتعلقاته مفعول لأوحينا لتضمنه معنى قلنا .

وقال قتادة : وهم لا يشعرون بوحينا إليك ، وأزالت الوحشة عنك ، ويحسبونك وحشا على باب الموت ، والفائدة فى إخفاء الوحى أنهم لما عرفوا به زاد حسدهم له ، فصاحب الحال على الأول الهاء فى لتنبئنهم ، أو الضمير المستتر ، وعلى الثانى نا أو الهاء فى أوحينا إليه ، وقرىء لتنبئنهم بالنون ، فصاحب الحال الهاء فى لتنبئنهم ، أو المستتر لا غير ، وعلى كل حال فإنما أوحى إليه قبل الأربعين تأنيسا له ، وإذا بلغ الأربعين أمره بالتبليغ ، فقد قيل إنه كان حينئذ ابن ست سنين ، وبه قال الضحاك ومجاهد .

وعنه خرج عن يعقوب وهو ابن ست ، وجمع بينهما وهو ابن أربعين ، وقال الحسن : خرج عنه ابن اثنتى عشرة سنة ، ويناسب تلك الأقوال قوله : « هذا غلام » فإنه لما بين الحولين إلى البلوغ ، وإن قيل لما فوق ذلك ، فعلى استصحاب حال وتجوز .

وعنه ابن عشرة ، وكان فى العبودية والسجن والملك ثمانين ، وعاش

بعد ذلك ثمانية وعشرين ، وقال ابن السائب : خرج وهو ابن سبع عشرة ، وقيل : ثمان عشرة ، وعلى كل حال فقد أكمل عقله قبل أوان الرسالة ليقبل الوحى ، وقيل : ذلك وحى فى النوم ، وقيل : وحى إلهام .

(وجَاءُوا أباهُم عشَاءً) وقت العشاء ليكونوا فى الظلمة ، أجرى على الاعتذار ، وقد قيل : لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن المياه فى العينين ولا تعتذر بالنهار فتتلجلج بالاعتذار ، ولا تقدر على تمامه ، ذكر ذلك فى عرائس القرآن ، وقيل : العشاء آخر النهار ، وقرأ الحسن عشيا بتصغير عشى ، وقال ابن جنى : قرأ الحسن عشى بالضم والقصر جمع أعشى أى كالرجل الأعشى القليل البصر لبكائهم ، وهم على الأولين ظرف ، وعلى الثلاثة حال .

(يَبْكُون) حال ، روى أنهم لما ألقوه فى الجب عمدوا إلى سخلة من الغنم فذبحوها ، ولطخوا بدمها قميص يوسف وشووها ، وأكلوا لحمها ، ثم رجعوا إلى يعقوب فوجدوه قاعدا على قارعة الطريق ينتظرهم متى يأتون بيوسف ، فلما دنوا منه صرخوا صرخة واحدة ، ورفعوا أصواتهم بالبكاء ، فعلم يعقوب أنهم قد أصيبوا بمصيبة ، فلما رآهم اجتمعوا وتقدموا بين يديه ، وشقوا جيوبهم ، وبكوا ففزع وقال : ما بالكم يأتينى ، وأين يوسف ؟ فقالوا : ما أخبرنا الله سبحانه ، وتعالى به إذ قال :

(قالُوا يا أبانا) الخ وهذا قميصه ملطخ بدمه ، ولما سمع كلامهم خر مغشيا عليه إلى الصباح : وبكوا عليه جميعا فقالوا فيما بينهم : بئس ما فعلنا بيوسف ووالده ، وأى عذر لنا عند الله تعالى ، ولما أفاق التفت إليهم وقال : هكذا ظنى بكم ، بئس ما فعلتم وسولت لكم أنفسكم .

وروى أنه سمع بكاءهم فخرج إليهم ، فلما رآهم قال : بالله سألتكم يا بنى هلا أصابكم شىء فى غنمكم ؟ قالوا : لا ، قال : فما أصابكم وأين يوسف ؟ فقالوا : يا أبانا الخ .

روى أن امرأة حاكمت إلى شريح فبكت ، فقال له الشعبى : وقيل : رجل سواه يا أبا أمية أما تراها تبكى ؟ فقال : قد جاء إخوة يوسف بيكون وهم ظلمة ، ولا ينبغى لأحد أن يقضى إلا بما أمر أن يقضى به من السنة الرضية ، وأنشدوا :

واغرك من شيخ بكاء ومملقة
أم اللحية البيضاء للنطق مطلقه

فإن بنى يعقوب جاءوا أباهم
عشاء وهم يبكون زوراً ومخرقه

(إنَّا ذَهبْنا نَسْتبِقُ) على أرجلنا ليتبين أبينا أسرع سعيا ، وأخف حركة ، قاله السدى ، قلت : هو الصحيح ، وقال مقاتل : نستبق إلى الصيد ، وقال ابن عباس : نتناضل ، أى نتعلم التضارب بالسيوف ، فالمعنى يتعاطى كل منا أن نتسابق ، وقيل : خبر ذهب على أنه بمعنى شرع ، فعمل ككان ، ونستبق نفتعل بمعنى نتفاعل كارتموا تراموا .

(وتَرَكْنا يُوسفَ عنْدَ متَاعِنا) ثيابنا وما أتينا به من يفوت الآخر بالضرب : وقال الزجاج : ترامى فالمعنى يتعاطى كل أن يسبق الآخر بحسن الرمى ، أو أن تبعد رمية عن رمية الآخر ، وعلى الأول

فالذهاب أول الاستباق من عند يوسف ، وعلى غيره ذهبوا إلى موضع غير الذى فيه يوسف والجملة حال مقدرة على تلك الأقوال من فاعل ذهب البلد من نحو طعام .

(فأكلَه الذِّئبُ) بغفلتنا عنه بالاستباق (ومَا أنتَ بمؤمنٍ لنَا) بمصدق لنا فى ذلك (ولَو كنَّا صادِقينَ) فيه ، أو لو كنا صادقين عندك فى الجملة قبل هذا ، أو لو كنا موصوفين بالصدق لشدة محبتك ليوسف وسوء ظنك بنا .

(وجَاءُوا عَلى قميصِهِ) متعلق بمحذوف حـال من دم ، ولا يقاس ذلك ، لأن الحال لا تتقدم على صاحبها المجرور بحرف غير زائد ، وأجاز ابن مالك قياسه كالفارسى ، وابن كيسان ، وابن برهان ، وابن ملكون ، وبعض الكوفيين ، قال ابن مالك فى شرح التسهيل : هو الصحيح ، انتهى . وعلى كل حال فتخريج الآية عليه أنسب بالمعنى ، وأسلم مـن التكلف ، ويجوز كون على بمعنى مع فتعلق بمحذوف حال من الواو ، أو بجاءوا على الأول تكون الباء فى قوله :

(بدمٍ) بدلا من همزة التعدية متعلقة بجاءوا بمعنى مع متعلقة بمحذوف حال من الواو ، وبجاءوا على الثانى ، تكون بدلا من الهمزة متعلقة بجاءوا بمحذوف حال من قميص ، ويجوز كون الباء متعلقة بكون خاص هو الحال من قميص أى ملطخا بدم .

(كَذبٍ) وصف بالمصدر مبالغة ، كأنه نفس الكذب كقوله :

❊ فهن به جود وأنتم به بخل ❊

فجعلهن نفس الجواد ، وجعلهم نفس البخل مبالغة ، أو يأول باسم مفعول أى بدم مكذوب فيه ، أو يقدر مضافا أى ذى كذب ، أو هو صفة مبالغة لا مصدر ولو قل مثله ، وقرىء كذبا لنصب على الحال بأحد تلك الأوجه من كونه مصدرا مبالغة ، أو مؤلا بالوصف لكن باسم الفاعل هنا ، أى كاذبين ، أو كونه بتقدير مضاف ، أى ذوى كذب ، أو كونه صفة مبالغة ، وأجيز كونه مفعولا لأجله ، وإنما وصف الدم بأنه كاذب لأنه ليس دم يوسف كما قالوا ، وقراءة عائشة كذب بإهمال الذال ، أى طرى وقيل : كدر ، واختاره بعض .

وقال ابن جنى أصله البياض الخارج على أظفار الصغار ، شبه به الدم اللاصق على القميص ، وفى رواية أنهم لم يجيئوا أولا بقميصه إليه بل أمسكوه عندهم حتى ، قال : ما علامة ذلك ؟ فأخرجوه إليه ، وقيل : لما قالوا له : « إنَّا ذهبنا نستبق » الخ قال لهم : أرونى قميصه ، فأروه إياه فقال : والله الذى لا إله إلا هو ما رأيت ذئبا أحلم من هذا لم يخرق له قميصا ، ولم يشق له جيبا ، وصاح صيحة وخر مغشيا عليه ، فلم يفق إلا بعد ساعة طويلة ، فلما أفاق بكى بكاء شديدا ، وأخذ القميص يشمه ويضعه على وجهه وعينيه .

قال الشعبى : كان فى قميص يوسف ثلاث آيات : لما جاءوا به إلى أبيه وقالوا : أكله الذئب : فقال : لو أكله لشق قميصه ، وحيث سعى نحو الباب فقدت زليخا قميصه من خلف ، فعلم العزيز أنه لو راودها لكان الشق من بين يديه ، وحيث ألقى على وجه أبيه فارتد بصيرا ، وكل قميص غير الآخر .

وعن ابن عباس : لما أعطوه القميص بكى ، ثم تأمله فلم ير به خرقا ولا أثر ناب ، استدل على كذبهم فقال : متى كان الذئب حليما يأكل يوسف ولا يخرق قميصه ، وذلك أنهم غفلوا أن يمزقوه •

وروى انه [لما] سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته : أين القميص ؟ فأعطوه ، فألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص ، وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا ، أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه •

وروى أنه لما رأى الدم على القميص بكى ، ولما قلبه ضحك ، قالوا : يا أبانا الضحك والبكاء فى موضع واحد من فعل المجانين ، فقال : أما بكائى فعلى الدم صحب القميص ، لما رأيت الدم توهمت أن الذئب أكله ، ولما رأيت القميص صحيحا رجوت أن الحديث غير صحيح ، لأن الذئب إذا أكل الإنسان يمزق قميصه •

وروى أنه قال لهم : ائتونى بالذئب الذى أكله إن كنتم صادقين ، فعمدوا إلى ذئب فصادوه •

وروى لما رجعوا إلى مراعيهم من الغد ، قال بعضهم لبعض : هل رأيتم ما كان من تكذيب أبيكم البارحة ، فإذا أردتم أن يصدقكم فنسير إلى الجب فنخرج يوسف ، ونفرق بين أضلاعه ولحمه ، ونأتيه به ، فقال يهودا : يا إخوتاه أين العهد الذى بينى وبينكم ، لئن فعلتم لأخبرن يعقوب بما كان منكم ، ثم لأكونن لكم عدوا ، فتركوه ، وكان يهودا راحما به ، يأتيه ليلا يؤنسه ويطعمه ويسقيه ، فيقول يوسف : لا بأس بى ،

فيقول : فما بكاؤك ؟ فيقول : حزنا على بكاء أبى وأختى ، وحزنهما علىّ ويسأله عنهما .

ولما قال لهم : ائتونى بالذئب عمدوا إلى حبالهم وعصيهم ، وعمدوا إلى الصحراء فاصطادوا ذئبا فشدوه وأوثقوه كتافا ، ثم حملوه إلى يعقوب فتركوه بين يديه ، فقال : حلوا عقاله ، فحلوه ، فقال له يعقوب : أيها الذئب أكلت قرة عينى ، وثمرة فؤادى ، وحبيب قلبى ، لقد أورثتنى حزنا طويلا ، فتكلم الذئب بإذن الله تعالى فقال : لا وحقّ شيبتك يا نبى الله ما أكلت لك ولدا ، وإن لحومكم ودماءكم معاشر الأنبياء محرمة علينا ، وإنى لمظلوم مكذوب علىّ ، وإنى ذئب غريب من بلاد مصر ، فقال له يعقوب : ما الذى أدخلك أرض كنعان ؟ فقال له : أنا ذئب غريب أتيت من أرض مصر فى طلب أخ لى ، فما أدرى أحى هو أم ميت .

وروى أنه لم يطالبهم أن يأتوا بالذئب ، ولكن قالوا : نأتى به ؟ فقال : نعم ، ولم يعلموا أن الذئب ينطق له ، فاصطادوا ذئبا فكسروا رباعيته فحملوه بسلسلة نحوه ، فقال : بئس ما فعلت ، أكلت وجها كالقمر المنير ، أما رحمت ذلك الصغير ؟ أما أشفقت على هذا الشيخ الكبير ؟ فأنطقه الله فقال : السلام عليك يا نبى الله ، إن لحوم الأنبياء محرمة على جميع السباع وأنا برىء مما توهمت ، والله تعالى بينى وبين أولادك ، قالوا علىّ الزور ، أما قرءوا فى صحف إبراهيم أن : الزور والبهتان عظيم .

فتحير يعقوب ونكس أولاده رءوسهم ، ثم قال : أيها الذئب من أين أنت ؟ قال : أنا غريب من أرض أصبهان ، جئت فى طلب ولد لى

فارقنى ودخل بلاد الشام ، فلقيت الذئاب فأخبرونى أنه اصطاده ملكهم على أن يذبحه غدا ، ولى سبعة عشر يوما ما ذقت طعاما من حرقتى عليه ، فبكى يعقوب وقال : إذا حزن الذئب على الفراق فكيف أطيق أنا الفراق ؟ ثم قال : هل عندك خبر يوسف ؟ قال : نعم ، قال : أخبرنى . قال : ولم ؟ قال : أخشى العار يسمونى غمازا ، والغماز عندنا مبغوض عند الله وعند الناس ، ولا نصيب له فى الرحمة والجنة ، أى إن كان من المكلفين ، وإلا فالذئب ونحوه لا مطمع لهم فى الجنة ، ولا عقاب عليه بالنار ، قال له يعقوب : أنا أشفع فى ابنك ، قال : فأنا أشفع فى ابنك واسأل الله أن يرده عليك .

وروى أنه قال : والله ما رأيت ولدك قط ولا أكلته ، وإنما وقعت بأرض كنعان لأصل رحما ، فأنطق الله الذئب له ولرؤيته القميص صحيحا ، وعلمه من حسدهم : أو لإيحاء الله سبحانه إليه كما قال الحسن : إنه أوحى إليه بحياة يوسف دون إعلام بمكانه ، قال لهم : ليس الأمر كما قلتم .

(بَلْ سَوَّلَتْ) أى زينت وسهلت ، أو هونت من السول وهو استرخاء ما تحت السرة من البطن ، قال بعض : أصل التسويل تقدير معنى فى النفس مع الطمع فى إتمامه (لكُم أنفسُكم أمراً) عظيما تصنعونه بيوسف (فَصبرٌ جَميلٌ) لا أشكوا فيه إلى الخلق ، ولا أجزع .

وفى حديث مرفوع : لا أشكوا فيه أى إلى الخلق بدليل قوله : « إنما أشكوا بثى وحزنى إلى الله » وفى حديث : من بث أى إلى الخلق لم يصبر صبرا جميلا ، وقيل مراده لا أعايشكم على كئابة الوجه ، بل أكون لكم كما كنت ، وقيل : هو أن لا يحدث المصيبة ولا يزكى نفسه .

وروى أن حاجبيه سقطا على عينيه ، فكأن يرفعهما بعصابة فقيل له : ما هذا ؟ فقال : طول الزمان ، وكثرة الأحـزان ، فأوحى الله سـبحانه وتعالى : يا يعقوب تشكونى ؟ قال : يا رب خطيئة فاغفر لى ، وصبر مبتدأ خبره محذوف أو بالعكس •

قال ابن هشـام : إذا دار العمر بين كون المحذوف مبتدأ وكونه خبرا ، قال الواسطى : الأولى كون المحذوف المبتدأ ، لأن الخبر محط الفائدة : وقال العبدى : الأولى حذف الخبر لأن التجوز أضر لجملة أسهل ، نقل القولين ابن إبان ، ومثال المسألة هـذا جميل ، أى شأنى صـبر جميل ، أو صبر جميل أمثل من غيره ، أى لأن المقام يدل على كل واحد ويقبله ، وقدر بعضهم فصبرى صبر جميل ، وبعض فأمرى صبرى جميل وفصبر جميل أجمل ، وبعض فشأنى صبر جميل ، والماصدق واحد •

(والله المستعان) المطلوب منه العون (عَلى ما تَصِفُون) على احتمال ما تصفون هلاك يوسف ، والصبر على المصيبة ، وقيل : من القول الكاذب ، وبه قال الشيخ هود رحمه الله ، قال ابن عباس : إنما كان سبب بلاء يعقوب أنه ذبح شاة وهو صائم فاستطعمه جار له فلم يطعمه ، قيل ذبح ناقة وشوى ، فوجد جاره ريح الشواء ولم يطعمه ، وقيل طبخ فوجد ريح الطبيخ فلم يطعمه ، وقيل : سأله سائل طعاما فلم يطعمه ، وقيل : باع أمة وفرق بينها وبين ولدها ، ولما قال يوسف : يا صانع غير مصنوع إلى آخر ما مر ، وذلك فى اليوم الرابع ، قيض الله جل وعلا من يخرجه من الجب كما قال :

(وجَاءتْ سيَّارةٌ) رفقه من الأعراب يسيرون من مـدين إلى

مصر ، وقيل مسافرون من مدين إلى مصر ، فأخطئوا الطريق ، ونزلوا قريبا من الجب ، وكان فى قفرة بعيدة من العمران ، لم يكن إلا للرعاة ، وكان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف ، وقد مر غير ذلك : وقيل : إن ذلك فى اليوم الذى ألقى فيه كما مر ، وقيل فى الثانى .

(فأرْسَلوا) حين نزلوا ، وقيل : قبل النزول (وَارِدَهُم) الذى يرد الماء ليستقى لهم ، والمشهور أنه الذى يتقدم الرفقة للماء ، ويطلق على الواحد والجمع ، وهو هنا رجل من أهل مدين ، وقيل : من أعرابها يسمى مالك بن ذعر الخزاعى ، وقيل : الوارد الرسول ، لأنه يرد الموضع الذى أرسل إليه : قيل : المعنى فأرسلوا رسولهم .

(فأدْلَى) أنزل فى الجب (دَلْوه) ليأخذ بها الماء ، فتعلق يوسف بالحبل ، فلما رآه إذا هو بغلام أحسن ما يكون (قالَ يا بشْرَى) أى يا بشارتى هذا أوانك فاحضرى ، ونداءها مجاز بإضافة البشرى إلى نفسه ، وفتح الياء عند نافع ، وعنه يا بشرى بإسكانها بنية الوقف ، وكذا فتح الياء ، وأثبت الفاء قبلها غير حمزة والكسائى ، وقرأ ورش الراء بين إخلاص الفتح وإمالته ، وعامة أهل الأداء على إخلاص الفتح فى مذهب أبى عمرو ، وهو قول ابن مجاهد ، وبذلك ورد النص عنه من طريق السوسى ، عن اليزيدى وغيره .

وقرأ الحسن يا بشراى بقلب الألف ياء وإدغامها فى الياء ، وكذا قرأ غيره وهو لغة هذيل ، قال جار الله : سمعت أهل السرور ، وهو محلة حمير يقولون فى دعائهم : يا سيدى ويا مولاى ، وقرأ الكوفيون : يا بشرى بألف التأنيث دون إضافة ، إلا أن حمزة والكسائى يميلون ، وذلك أيضا

نداء للبشرى ، أى احضرى فهذا أوانك بشارة لنفسه أو لقومه أو سيده ، وقيل : اسم صاحب له ناداه ليعينه على إخراجه ، وقيل : ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم •

(هَذا غُلام") ولما خرج بكى عليه الجب ، وفى رواية : أن مالك ابن ذعر كان يسكن بمصر ، فرأى فى منامه حال صغره كأنه فى أرض كنعان ، فنزلت الشمس من السماء فدخلت فى كمه ، ثم أخرجها فأقامها بين يديه ، فأتت سحابة بيضاء فنثرت عليه الدر وهو يلتقطه ويجمعه فى صندوق له ، فذهب إلى المعبر ليسمع تأويل رؤياه ، فقال له : لا أعبر لك إلا ببذل وإحسان ، فقال للمعبر : خذ دينارين وفسر لى رؤياى ، فقال له : تصيب عبدا وليس بعبد ، وتصيب به الغنى ، ويبقى الغنى فى أولادك إلى يوم القيامة ، وتنجوا من النار ببركته ، وتصير لك أولاد ، ويبقى اسمك وذكرك أبدا •

فانصرف وتجهز للسفر طمعا فى أن يراه ، وقصد دمشق فاجتاز بأرض كنعان ، فبقى تارة ينظر إلى السماء ، وتارة ينظر إلى الأرض ، ينتظر ذلك ، فهتف به هاتف : هيهات بينك وبين ذلك خمسون سنة ، وكان يختلف إلى أرض الشام مرتين فى كل عام طمعا فى لقائه •

ولما كان بعد خمسين سنة قال لغلامه : إن وجدت هذا الغلام الذى أطلبه أعتقتك وأعطيتك نصف مالى ، وكان فى دمشق حين ألقى يوسف فى الجب ، وانصرف وبلغ أرض كنعان ، فرأى طيورا تطير حول الجب ، وتطوف كما يطوف الحاج بالبيت ، وكانوا ملائكة أرسلهم الله تعالى إكراما ليوسف عليه السلام ، فظن أنها طيور ، ولم يظن أن الله ملائكة ،

لأنه كان يعبد الأصنام ، فقال للسيارة تعالوا نمضى إلى الجب لعل الماء قد نبع فيه ، فلما دنوا من الجب تسابقت الحمر ، وألقت ما عليها من الأحمال ، وقصدت نحو الجب حتى تشم رائحة يوسف ، وتمرغت فى التراب حين وصلت قرب الجب ، فنزل فأرسل عبده بشرى وخادمه ماملا ، ولما أخرجه نادى ذلك العبد المخرج له المسمى بشرى : يا بشراى نادى بشارته فإن له عتقا ونصف مال سيده على ذلك .

وقيل : قيل لمالك بن ذعر فى منامه : لابد أن تجد غلاما فى جب بين مدين ومصر ، تنال به مالا عظيما ، ورفعة وجاها ، وكان له غلام اسمه بشرى ، فقال ، إن قصدت هذا الغلام فأنت حر ، فجعل يتردد إلى مصر ليجد هذا الغلام ، وأدلى دلوه بنفسه ، فتعلق بحبله فرآه كما وصف له فى النوم ، فصاح لغلامه : يا بشراى هذا غلام ، فعلى هذا يكون بشراى من إضافة العلم كقوله :

* ليلاى منكن أم ليلى من البشر *

ومن قرأ يا بشرى لم يضفه فهو كيازيد ، وقيل : إنما أخرجه الخادم فنادى الغلام المسمى بشرى باسمه .

وعن السدى : كان [من] أصحاب هذا الوارد رجل يسمى بشرى ، قيل : لم يره على صورته التى هو عليها ، وإلا لم يقدر أن يشتريه ، ولما أراد الوارد إدلاء الدلو نزل جبريل فقال : قم يا يوسف ، فقال : إلى أين ؟ قال : تذكر يوما نظرت فى المرآة فقلت فى نفسك : لو كنت مملوكا ما قام أحد بثمنى ؟ قال : نعم ، فقال له : اطلع حتى ترى ثمنك ، فكان بخسا دراهم معدودة .

قيل ليوسف : بأى كلمة تخلصت من أيدى إخوتك ومن الجب ؟ قال : بكلمة تفرد بها من قال أنا أضحكت وأبكيت ، من سمعها ألفها ، وإذا ألفها عشقها : وإذا عشقها لم يخالفها ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وهى مكتوبة فى التوارة بالعبرانية ، ثم إن مالكا قال له : من أنت ؟ قال : أنا عبد أى عبد الله .

(وأسرُّوه بِضاعةً) أى أخفاه الوارد ومن معه ، وهم مالك ابن ذعر وخادمه وعبده عن التجار الذين معهم ، وقالوا : هو بضاعتنا استنبطناها من بعض آل مصر ، قال مجاهد : وذلك لئلا يطلب فيه الشركة إن علموا حاله ، أى لئلا يأخذه جبار إن كان معهم ، وقيل : استبضعها لنا أهل الماء لنبيعها بمصر ، وقيل : أخفوه عن أعينهم ، أو كانت الرفقة كثيرا يمكن أن لا يعلموا بحدوثه فيهم إلا بإخبار فلم يخبروهم .

وقيل عن ابن عباس : الواو لإخوة يوسف ، أى استكتموه وتوعده سرا من مالك بن ذعر إن لم تقر لهم بأنك عبدنا قتلناك : فأقر بأنه عبد بتعريض أن مالكه الله ، أو بتقية ، أو أخفوا كونه أخاهم حرا فباعوه ، وسكت خوفا منهم ، والصحيح خلافه ، ذلك لقوله : بضاعة إنهم قالوا عبد لنا أتينا به بضاعة نتجر به لأنفسنا ، مع أن الضمائر السابقة الجمعية لهم إلا واو أرسلوا ، ولا يتوهم أن المسرين هم الذين أرسلوا الوارد ، وبضاعة حال أى متاعا للتجارة من البضع بمعنى القطع ، وهى جملة من المال قطعت للتجارة .

(واللهُ عليمٌ بما يعمَلونَ) أى بما يعمل الوارد ومن معه من الإسرار بيوسف بكسر الهمزة ، أو بما يعمل إخوة يوسف بيوسف وأبيه ،

أو بإسرارهم إياه ، وجعلهم إياه بضاعة حتى باعوه لمالك بن ذعر بعد ما أخرجه من الجب .

روى أن يهودا أتى إلى الجب على عادته بالطعام فلم يجد فيه يوسف ، فنظر فإذا هو بمالك بن ذعر وأصحابه نزولا ، ورأى يوسف معهم فأخبر إخوته ، فجاءوا فقالوا : هذا عبدنا أبق منا ، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتلوه ، فقال مالك بن ذعر : أنا أشتريه منكم ، فاشتراه كما قال الله سبحانه وتعالى:

(فَشَرَوهُ) أى فشرته السيارة ، وإنما أسند الشراء إليهم لأن مالك بن ذعر فيهم ومنهم : وقد اشتراه ، وشروه بمعنى اشتروه ، وقيل : الضمير لإخوة يوسف ، والشراء بمعنى البيع أى فباعوه .

وروى أن إخوة يوسف كانوا ينظرون فى الجب فنظروا يوما على عادتهم فلم يروه فأحاطوا بالسيارة وقالوا : هرب عبدنا فأخبرنا أنه دخل فى الجب وقد أخرجتموه ، فأخرجوه من بين أمتعتكم وإلا صحنا بكم صيحة واحدة ، لا تبقى أرواحكم فى أجسامكم ، فأخرجوه من بين الأمتعة يهتز كالورقة فى الشجرة ، فدنا منه يهودا وقال له : إن أقررت لهم بالعبودية نجوت ، قال : ما أنا إلا عبد .

وقيل : كان إخوة يوسف قريبا منه حين أخرجوه من الجب فجاءوهم فقالوا : عبد لنا أبق ، فقال مالك : اشتريه ، قالوا : بعناه لك بعيوبه ، فقال بكم ؟ ويوسف ينظر إيه وإليهم ، وقال فى نفسه ما أظنه يقوم بثمنى ، لأنهم يطلبون مالا كثيرا . فقال لهم : معى دراهم قليلة معدودة ، فشراه كما قال الله سبحانه وتعالى :

(بثَمَنٍ بخْسٍ) البخس النقص الظاهر وهو مصدر ، وصف به مبالغة أو يأوّل بباخس ، أو يقدر مضاف أى ذى بخس ، والمراد النقص عن القيمة بالكمية ، أو بكونه غير صافى الفضة ، بل خلط فيها نحو نحاس ، أو بنقصان الوزن ، وقال الحسن ، ومقاتل ، والضحاك ، والسدى : أراد بالبخس الحرام ، لأنه ثمن الحرام ، ويسمى الحرام بخسا لأنه ناقص البركة ، وعن ابن عباس ، وابن مسعود : زيوف ، وأراد بالزيوف المخلوط فيها نحو نحاس ، وقيل : أراد نقص الوزن ، وعن عكرمة ، والشعبى : البخس القليل كما مر أولا ، وقال قتادة : البخس الظلم نقصان الحق .

(دَرَاهم) بدل أو بيان الثمن (مَعْدُودةٍ) قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان سبعة عشر درهما ، وقال ابن مسعود ، وقتادة : عشرين ، وهو رواية عن ابن عباس ، فاقتسموها درهمين درهمين وهم عشرة ، وعن مجاهد ، والسدى : اثنين وعشرين اقتسموها درهمين درهمين ، أخذ أخوه من أبيه وأمه درهمين إذ هم به أحد عشر كذا قيل ، وليس كذلك ، لأن أخاه لأبيه وأمه لم يحضر لذلك ، وكان يعقوب يتسلى به ، ولم يخرج معهم أيضا يوم ألقوه فى الجب ، ولعله خرج يوم بيعه ولم يحضر البيع ، ولم يعلم به .

وعلى كل قول من تلك الأقوال : فالوصف بالمعدودية إشارة إلى القلة ، وكانوا فى ذلك الزمان لا يزنون أقل من أربعين درهما ، بل يأخذونها عددا ، ويأخذون الأربعين فما فوق بالوزن ، وتسمى الأربعون درهما أوقية ، انتهى .

وقال فى عرائس القرآن ، عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وقتادة ،

والسدى ، وعكرمة : أربعين درهما ، ثم قال مالك بن ذعر : اكتبوا لى كتابا بأيديكم أنكم بعتم لى غلامكم بكذا وكذا ، فكتبوا له ، وجعل الكتاب بجيبه ، فلما أرادوا الرحيل قالوا : اربطه بحبل شديد لكيلا يهرب ، فلما همّ بذلك قال له يوسف : لى إليك حاجة ، قال : وما هى ؟ قال : تخلبنى أودع سادتى فلعلى لا ألقاهم بعد ، فقال له مالك : ما أكرمك من مملوك عجيب تتقرب منهم وهم فعلوا بك ما فعلوا ، فقال : كل أحد يفعل ما يليق به ، فقصد نحوهم وهم قيام صفا واحدا ، فلما دنا منهم بكى وبكى يوسف ، ثم عانقهم واحدا واحدا ويقول : يا إخوتى حفظكم الله وإن لم تحفظونى ، آواكم الله وإن طردتمونى ، رحمكم الله وإن لم ترحمونى .

قيل : ألقت الحوامل ما فى بطونها من هول ذلك التوديع ثم قالوا : يا يوسف ندمنا على ما فعلنا ، ولولا خشيتنا من أبينا واستحيائنا منه لرددناك ، ولما رجع إلى مالك شد يده ، وسلمه إلى فليج عبد له أسود وقال له : عينك عليه ألا يهرب . فقال فليج : يا سيدى رجعت إلى الشام مائة مرة فى خمسين سنة لأجله ، ثم تفعل به هذا الفعل ، وإنى أراه ضعيفا نحيفا ، قال : نعم ، وأنا أيضا متفكر فيه ، لأن المعبر وصفه لى بوصف تحير فيه العقول ، اشتريته بشعيرة من ذهب ، أى بقيمتها دراهم ، وهو [أى يوسف] يساوى دنانير ، ويوسف يسمع ويضحك لعلمه أنه مستور على العيون .

وقد زعم من زعم أن ما رآه على صورته إلا يعقوب ، وذهب بصره عليه ، وزليخا وذهبت صحتها عليه ، وأبو يحيى ذهب ماله عليه ، ولما انتصف النهار ، بلغ يوسف إلى قبر أمه وطرح نفسه عليه ، وبكى وسمع أنينا من القبر وهو يقول : وا ولداه ، وا قرة عيناه ، وا ثمرة فؤاداه ،

فخر مغشيا عليه ، ثم إن الأسود طلبه ولم يجده ، فصاح لسيده : هرب الغلام ، قل للسيارة يقفوا فرجع الأسود فلما رآه لطمه وجره برجله على وجهه ، ويوسف يقول : يا رب إن أتيت بزلة فاعف عنى بحق آبائى فإنهم ما عصوك ، فظهرت غمامة سوداء على رءوسهم فأمطرت بـرَداً ، البردة كبيضة النعامة .

فلما أيقنوا بالهلاك قال لهم مالك : إن كان فيكم مذنب فليتب قبل الهلاك ، قال الأسود : أنا المذنب ، قال : وكيف ؟ قال : فعلت بالغلام العبرانى كذا وكذا . فحرك شفتيه وتكلم بكلمتين ، فعند ذلك ظهرت هذه الغمامة ، فجاءه مالك وتضرع إليه ، وقال : يا غلام أظن بينك وبين إله السماء قربة ؟ قال : نعم ، قال : فارحمنا ولا تؤاخذنا بأفعالنا ، ونحن تائبون ، فتكلم بكلمتين وهو يتبسم فانقشعت الغمامة ، وذهب البرد ، فظهرت الشمس بقدرة الله تعالى ، فقال مالك : عرفت جاهك عند الله تعالى ، فلا يجوز لى أن أتركك على هذه الحالة ، فأزال عنه القيد ، وألبسه الحرير وزينه الذهب ، وقال للقافلة : قدموه أمامكم ولا تستقدموه .

فلما دخلوا مدينة نابلس ، وكان أهلها يعبدون الأصنام ، فلما رأوه قالوا : من خلقك ؟ قال : الله تعالى . قالوا : آمنا بالذى خلقك ، وكسروا الأصنام ، واشتغلوا بعبادة الرحمن ، ولما دخلوا مدينة بيسان ، وكان أهلها مؤمنين اجتمعوا إليه واتخذوا أصناما على صورته ، وعبدوها ألف سنة .

وروى أن إخوته قالوا لمالك : استوثق منه فإنه عبد آبق ، سارق

كذاب ، وقد بينا لكم عيوبه ، وحملوه إلى مصر ، وكان طريقهم على قبر أمه راحيل ، فلما وصله لم يتمالك أن رمى بنفسه وهو يقول : يا أماه ، يا راحيل ، حلى عنى عقدة الرداء ، وارفقى إلى ولدك يوسف ، ومـا لقى بعدك من الأذى ، أيا أماه لو رأيت ذلى ارحمينى يا أماه، لو رأيتنى وقد نزعوا قميصى وشدونى ، وفى الجب ألقونى ، وفى حر وجهى لطمونى ، وبالحجارة رجمونى ولم يرحمونى ، وكما يباع العبيد باعونى ، وكمـا يحمل الأسير حملونى • فسمع مناديا من خلفه يقول : اصبر وما صبرك إلا بالله •

فتفقده مالك على الناقة ، فصاح إن الغلام رجع فطلبوه ، فأقبل به رجل وقال : يا غلام أخبرنا مواليك أنك آبق سارق فلم نصدقهم حتى شاهدناك ، قال : والله ما أبقت ولكنكم مررتم على قبر أمى فلم أتمالك أن رميت نفسى إليها ، فلطمه وحمله على الناقة •

وفى رواية أنهم قيدوه حتى قدموا مصر ، قال مالك : ما نزلت منزلا ولا رحلت إلا استبانت فى بركته ، وكنت أسمع تسليم الملائكة عليـه مساء وصباحا ، وأنظر إلى غمامة بيضاء تظله من حر الشمس ، وتسير من فوقه •

(وكانُوا) أى مالك بن ذعر وأصحابه وهم السيارة (فيهِ) فى يوسف متعلق بزاهدين محذوفا خبرا لكـان ، مدلولا عليه بقولـه : (مِنَ الزَّاهِدِينَ) فلكان خبران : أحدهما محذوف ، والآخر مذكور ، وذلك مبالغة فى زهدهم فيه لا متعلق بزاهدين المذكور ، لأنه اسم فاعل ، فأل فيه موصولة ومعمول الصلة لا يتقدم على الموصول ، وأجازه ابن

الحاجب فى صلة أل كهذه إن كان ظرفا ، وأجازه الكوفيون على مرجوحية مطلقا فى أل وغيرها ، قيل : ويجوز أن يكون أل حـرف تعريف فيتعلق بالزاهدين بلا إشكال ، وذلك مذهب لبعض السلف ، يرى أن أل لا تكون موصولة ، ومعنى زهدهم فيه هوانه عليهم ، لأن إخوة يوسف البائعين له أخبروهم أنه آبق سارق كذاب ، أو أظهروا الزهد فيه ليبيعوه لهم برخص ، ولم يبيعوه بعد شرائه حتى وصلوا مصر ، فليس زهدهم ببيعه بثمن رخيص •

وقيل : المراد أنهم زهدوا فيه فباعوه بثمن رخيص هو نعلان أو أربعة ، وثوبان أبيضان ، وعشرون دينارا والمشتريه منهم بذلك بعد ما شروه من إخوته ، رجل من مصر كما ذكره الله تعالى بعد هذا ، وإنما رخصوه لما أخبرهم به إخوته فخافوا الخطر بما لهم ، وإن قلنا : إن معنى شروه باعوه للرجل المذكور من أهل مصر ، بعد ما التقطوه من الجب ، ولم يبعه لهم إخوته ، فزهدهم فيه لأنهم التقطوه ، والملتقط للشىء متهاون به لا يبالى بما باعه ، ولأنه يخاف أن يظهر مستحقه فينتزعه من يده ، فكان يبيعه الأول مساوم بأوكس ثمن •

وقيل : الواو فى كانوا لإخوة يوسف ، وزهدهم فيه أن لا غرض لهم فى ثمنه ، وإنما غرضهم تغييبه عن أبيه ، والمشهور أن السيارة باعوه للمصرى بأغلى ثمن ، وسيأتى اسمهم وهو زوج زليخا •

روى أنهم لما قربوا مدينة القدس ، رأى أميرهم فى منامه قـائلا [يقول :] إن خير الناس أتاك ينبغى أن تستقبله غدا ، وتفعل ما يأمرك به ، فاتخذ ضيافة كبيرة فتلقاهم ، وسألهم أيكم الأمير ، وأشاروا إلى

مالك فتحير فقال : هذا يجتاز بى كل عام مرتين ، وما أمرت باستقباله ، ودنا الملك من رجل هو الجنى الذى ولد مع يوسف ، وكان على صورة غزال ، ولكن تراه بصورة الرجل ، فقال له الجنى : من أنت ؟ قال : أنا أمير المدينة ، فقال له : إن الذى أمرت باستقباله هو ذلك الغلام ، أشار إلى يوسف ، ولكن قل لأصحاب القافلة يدخلوا قبله ، ففعل ، ولما رآه تحير من حسنه وجماله ، وقال له : من أنت ؟ قال أنا الذى أمرت باستقبالى ، فتحير فقال : من الذى أمرك أن لا تعبد صنما فتنجو من النار : فإن امتثلت أمره فلا تعبد صنمك ، قال : قد قبلت على أنك إذا دخلت على صنمى سجد لك فأصدقك ، قال : ربى يفعل ما يريد ، وهو على كل شىء قدير ٠

فدخل الدار فسجد له الصنم ، وتقطعا قطعا ، فأراد إطعام تلك الضيافة التى اتخذ ، فأتى بقصعة فيها أرز بلبن فوضعها بين يدى يوسف ، فرفع منها لقمة وأعطاها لمن حوله ، وتناولوا كلهم منها وشبعوا ، والأمير ينظر ، فقال : يا قوم هذا سيدكم ، قالوا : لا إنما هو عبد ، قال : فمن السيد ؟ فأشاروا إلى مالك فقال : معاذ الله هذا سيده ، بل هو غلام ، قال الملك : العبد خير منى ٠

وكان يوسف ومن معه لما دخلوا الدرب ، رآهم الأمير ورأى خيلا كثيرة فقال ليوسف : لمن هذه الخيل ؟ ولمن هذا الجند ؟ فإن دارى لا تسعهم ، ولا عندى ما يكفيهم ؟ فتبسم فقال : هم جند الله تعالى ، طعامهم التهليل ، وشرابهم التسبيح ، قال : ومن هم ؟ قال : هم الملائكة ، أرسلهم الله تعالى ليشيعونى ويحفظونى ، فتحير من شأنه ٠

ولما أكل القوم ، عزم على أخذ يوسف منهم ، فتركه حتى رحلوا

ووصلوا نحو عسقلان ، فركب فى اثنى عشر ألفا ، فلما وقعت أبصارهم على يوسف وقعوا كلهم من ظهور الخيل ، وغشى عليهم ثلاثة أيام من حلاوة النظر إليه ، ولما دخل يوسف مدينة العريش يفكر فى نفسه ، أن الله جل وعلا لم يخلق خلقا أحسن منى ، فإذا دخلت هذه المدينة تحيروا ، منى ، فلما دخلها رأى أهلها كلهم على صورته ، فلم يلتفت أحد منهم ، فسمع مناديا : يا يوسف توهمت أن لا أحسن منك ، وفى الكونين من هو أحسن منك •

ولما دخل مصر تاب من خاطره ، فنودى : يا يوسف ارفع رأسك ، فقد تغير الأمر بتوبتك ، ثم نادى منادٍ : يا أهل مصر قد جاءكم شاب لا يلقاه أحد إلا سعد ، ولا ينظر إليه أحد إلا أفلح ، فدخلهم الوسواس ، وأحاطوا بدار مالك ، وماذاقوا طعاما ، ولا شرابا شوقا إليه ، وتحركت الأشجار لما دخل مصر ، وترنمت الأطيار ، فطلع مالك على السطح فقال : يا قوم ما تريدون ؟ قالوا : نريد الذى أنت به متحير ، وفى أمره متفكر ، فتحير فى نفسه وقال : واعجباه ، وأى عجب ترون فيه ما أرى فيه زيادة على سائر الصور •

فقال لهم الملك الذى صحبه على صورة بنى آدم قال لهم : من اشتهى رؤية يوسف فليأتنا بدينار عند فتح الباب ، وما دخل أحد إلا ومعه دينار ، فدخلوا ورمى كل واحد منهم دينارا ، فبلغت ستمائة دينار ، وما رآه أحد إلا ذهب عقله ، بحيث لا يهتدى إلى الباب ، فأمر مالك عبيده أن يخرجوهم يدا ورجلا ، ولما خرجوا لم يهتد كل واحد منهم إلى داره من تحيره ، ولا يعرف أحدا من قرابته ، ولا ينطق بحرف ، ولا يسمع ما يقال له •

ولما كان اليوم الثانى : دفع كل من أراد رؤيته دينارين ، وهكذا كل يوم يزيدون ، حتى بلغ فى اليوم العاشر عشرة دنانير ، على كل من أراد رؤيته ، ثم فتح الباب وأجلس يوسف على سرير وزينه بأنواع الزينة ، وأمر المنادى : من أراد شراء الغلام فليحضر فما بقى أحد إلا وطمع فى شرائه ، فاجتمع القوم وعرضوا عليه ما يملكون ، فقال الملك الموكل بحفظه : ارفعوا طمعكم إن هذا الغلام عزيز لا يشتريه إلا عزيز •

قيل : لما نادى المنادى من يشترى هذا الغلام مات فى ازدحام لرؤيته خمسة وعشرون رجلا وامرأة ، فنادى : من يشترى هذا الغلام الصبيح المتكلم الفصيح ، يتكلم بكلام صحيح ، أديب قريب حبيب ، قال يوسف : لا تقل هذا ، ولكن قل : من يشترى هذا الغريب الكئيب الحزين ، قال : لا أقدر أن أقول هذا ، وليس فيك شىء مما ذكرته •

وكانوا لما رأوه فى الدار لم يقدروا على الخروج : وبلغ خبر النداء به قارعة بنت طالوت العملقية ، وكانت من بنات الملوك ، وكانت أكثر أهل مصر مالا ، وأعظمهم خطرا ، وكانت من ذرية شداد بن عاد ، فقالت لقهرمانها : ويحك لم يبق أحد بمصر إلا خرج نحو هذا الغلام العبرانى ، فإنى اليوم خارجة إليه بمالى ، فأتى قهرمانها بالقافلة مزينة بأنواع الزينة ، أحمالها الدنانير والدراهم ، والديباج والجوهر والياقوت ، وغير ذلك ، فلما رأته تحيرت من جماله وقالت له : من أنت فقد جئت بمالى لأشتريك ، حتى نظرتك فحقرت نفسى ، لأنك تساوى جميع الدنيا •

قال : إنى من خلق ربى ، صورنى كما ترين • قالت : آمنت على

يديك برب العالمين ، فتصدقت بمالها على الفقراء والمساكين ، وبنت بيتا على ساحل بحر القزم : وعبدت مولاها إلى أن ماتت .

قيل : كان السبب فى استرقاق يوسف أن إبراهيم الخليل عليه السلام ، أدخل مصر فى بعض الأزمنة ، فلما خرج منها شيعه زهادهم وعبادهم مشاة حفاة إلى أربع فراسخ تعظيما له ، ولم ينزل إبراهيم لهم ، فأوحى الله جل جلاله إليه : إنك لم تنزل لعبادى وهم يمشون معك حفاة .

(وقالَ الَّذى اشْتراهُ مِنْ مصْرَ) أى فى مصر متعلق باشترى ، أو من أهل مصر ، فيتعلق بمحذوف حال من الذى أو من المشترى بتقدير مضاف كما رأيت ، وهو العزيز الذى كان على خزائن مصر ، واسمه قطفير أو طفير ، والأول عن ابن عباس ، وقيل اسمه قنطور .

(لامرأته) متعلق بقال لا باشترى ، لأنه اشتراه لنفسه ، وقيل : اشتراه لها ، وعليه فتنازعه قال واشترى ، تسمى زليخا عند الجمهور ، وهو المشهور ، وقيل : راعيل بنت عاميل ، ولعل راعيل اسمها ، وزليخا لقبها ، والملك يومئذ الريان بن الوليد ، رجل من العماليق : وقد آمن بيوسف ومات فى حياة يوسف ، فملك بعده قابوس بن مصعب ، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى .

وقيل : كان فرعون موسى عاش ، أربعمائة عام بدليل : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات » والمشهور أن فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف : فقوله : « ولقد جاءكم يوسف » إلخ من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء ، قيل : اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ،

وأقام فى منزله ثلاث عشرة سنة ، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة ، وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة .

(أَكْرِمِى مَثْوَاهُ) أى موضع نزوله وإقامته ، والمراد أحسنى إليه فى المطعم والمشرب والملبس ، وما يحتاج إليه ، وتفقدى أحواله لتطيب نفسه ويحبنـا (عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا) فى ضياعنا وأموالنا إذا بلغ وقوى ، ونستعين به على مصالحنا ، أو نبيعه بربح .

(أو نَتَّخِذَهُ وَلَداً) وكان عقيما لا يولد له ، فأراد تبنى يوسف ، وذلك أنه تفرس فيه الرشد ، قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : العزيز فى يوسف إذ قال : « لامرأته أكرمى مثواه » الخ ، وابنة شعيب إذ قالت لأبيها فى موسى عليهما السلام : « يا أبت استأجره » وأبو بكر حين استخلف عمر .

وفى عرائس القرآن : أنهم لما قدموا مصر أمره مالك بن دعر أن يغتسل فاغتسل ، وألبسه ثوبا حسنا ، وعرضه على البيع ، فاشتراه قطفير ، وكان الملك بمصر أو نواحيها الريان بن الوليد بـن نزاوة ابن إقامة بن بارازيرة بن عمرو بن عملاق ، من ولد سام بن نوح ، وكان كافرا فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى .

قال ابن عباس : اشتراه قطفير بعشرين دينارا ، وزوج نعال وثوبين أبيضين ، وقال وهب : تزايدوا فى ثمنه حتى بيع بوزنه مسكا ، ووزنه ورقا ، ووزنه ذهبا ، ووزنه حريرا ، اشتراه قطفير بذلك ، فأتى بـه لامرأته فقال لها : « أكرمى مثواه » الخ ، وكان لا يأتى النساء ، وكـانت امرأته حسناء ناعمة اهـ .

وكان وزنه أربعمائة رطل ، وقيل : نفد ما عنده فلم يَزِنْ فباعه بالموجود ، وكانت فيما قيل زليخا بنت الملك طميوس ، رأت يوسف فى منامها ، وكان بلدهـا قريب من مصر فنحل جسمها ، ورق عظمها ، واصفر لونها من حب يوسف ، وذلك قبل أن يتزوج بها قطفير ، وكانت بنت تسع سنين : وقال لها والدها : مالى أراك على هذه الحالة ؟ فقالت : إنى رأيت فى منامى صورة ما رأيت مثلها ، فافتتنت بها ، فلما انتبهت ما رأيتها فصرت كما ترى ، فقال لها والدها : لو علمت أين هذا لطلبته لك ، ولبذلت خزائنى لك ، فرأته فى السنة الثانية فقالت له بحق الذى صورك وأشغلنى بك أخبرنى من أنت ؟ فقال : أنا إنسى أنا لك وأنت لى ، فانتبهت وبكت بكاء شديدا ، فقال لها والدها : مالك يا مسكينة ؟ قالت : رأيت البارحة كما رأيت فى العام الأول ، فسألته فقال : إنسى أنا لك وأنت لى ، لا تختارى علىَّ سواى .

قال مالك : أما سألتيه عن مكانه ؟ قالت : لا ، وجنت كما يجن المجانين ، ثم رأته فى السنة الثالثة فتعلقت به وبأثوابه ، وقالت : حبك جننى بحق الذى صورك ، أخبرنى أين أطلبك ؟ قال لها : بمصر ، وأنا ملكها ، فلما انتبهت وصحا عقلها نادت والدها أن أرفع عنى السلاسل ، فإنى قد عرفت مكانه ، وكانت بالشوق متحيرة ، فقالت : بأى رجل أمشى إليك واشوقاه ، إلى من هو بعيد منى ، وروحه قريبة منى .

قيل : كان عند والد زليخا تسعة عشر رسولا من الملوك يطلبون زليخا ، لكمالها وجمالها وفصاحتها ، فقالت زليخا : من أين هؤلاء الرسل ؟ قال لها والدها : من صقلية ، والحبشة ، ودمياط ، وطرابلس ، وعدَّ حتى تمت تسعة عشر ، قالت : واعجباه قد أتانا الرسل من كل مكان ، وما أتانا

من مصر رسول يا أبت ، لا أريد إلا ملك مصر ، إن المحبة لا دواء لها ، فبعث رسولاً إلى قطفير يقول : إن لى ابنة لا تريد سواك ، فإن رغبت فيها أعطيتك ما تشتهى من ملكى وأموالى ، فكتب إليه : من أرادنا أردناه ، ومن أحبنا أحببناه ، لا نريد منك سواها .

فزينها ، وحلاّها بأحسن الحلل ، وأرسل معها ألف جارية من بنات الملوك ، وألف جمل ، وألف بغل ، وألف عبد ، وأربعين حملا من الدنانير ، وأربعين حملا من الديباج ، فلما دخلت مصر اهتزت من أقطارها ، وذهلت العقول بجمالها ، وهى فرحة لما رأت فى منامها من شأن يوسف عليه السلام ، فلما جلست فى خلوتها ، دخل عليها قطفير فوضعت كمها على وجهها حين رأته وقالت لجاريتها القريبة منها : من هذا ؟ قالت : اسكتى هذا زوجك ، فغشى عليها ، وبقيت كذلك إلى الصباح ، فلما أصبحت قالت : وا جهداه ، وا طوال شوقاه ، وا محبتاه ، فقالت لها جاريتها : مالك ؟ وما الذى أصابك ؟ قالت : ليس هذا زوجى ، إنما رأيت زوجى فى منامى ثلاث مرات ، فهتف لها هاتف : أصبرى ، فعسى بصبرك تظفرى ، ولا تظهرى لزوجك سوى المحبة فإنه سبب وصولك لزوجك ، ولم يجامعها قط لأنه عنين لا يشتهى النساء ، وبقيت بكرا حتى تزوجها يوسف .

وزعمت القصاص : أن جنية تنام بينهما ، ويظن أنه يصل إليها ، لأن الله تعالى حفظها ليوسف عليه السلام ، فلما كان يوم البيع ، جلست فى المنظرة فوقعت عينها ، فزعقت وخرت مغشية ساعة ، ثم أفاقت متحيرة تهتز كالقضيب الناعم ، وهمت أن ترمى نفسها ، فمكنتها جاريتها ، فغشى عليها ثانية ، فلما أفاقت قالت لها جاريتها : مالك ؟ قالت : هذا زوجى

الذى اخترته فى العالمين ، قالت لها : اسـكتى كى لا يعلم الملك فيفرق بينك وبينه .

ثم إنها قالت لجاريتها : انزلى وقولى له فى أذنه لا تختر علىَّ غيرى ، فأنا رأيتك فى منامى ، فأنا لك وأنت لى ، ولا يصل بعضنا إلى بعض إلا بعد الشدائد والبلية ، وعند الملك امرأة يقال لها حشا ، تبغض زليخا فلما سمعت كلامها ، أرسلت إلى العزيز : إياك أن تشترى هذا الغلام ، فإن الأمر كذا وكذا ، فما التفت إلى قولها .

ثم نادى المنادى من يشترى هذا الغلام معه عشرة أوصاف : الملاحة ، والصباحة ، والفصاحة ، والشجاعة ، والقــوة ، والمروءة : والصيانة ، والأمانة ، وأراد أن يقول والنبوة فأمسك الله على لسانه لئلا تعلم قصته وأمره كيف كان ، ثم إن الملك قال لمالك : وبكم تبيع هذا الغلام ؟ فقال له الملك الذى على صورة آدمى : قل بوزنه ذهبا ، ووزنه فضة ، ووزنه درًّا ، وزنه ياقوتا ، ووزنه كافورا ووزنه عنبرا ، ووزنه مسكا ، ووزنه إبريسما ، فقال : أفعل وكرامة .

ثم قال لوزيره : كيف وزن هذا الغلام ؟ قال له : خذ من جـلود البقر عشرة وتلصق بعضها ببعض ، وتصنع منها كفتين .

ثم قال لوزيره : كم وزن هذا الغلام ؟ قال : إن كان كما أراه فهو يرجح على الدنيا وما فيها ، فوضع فى كفة وخمسمائة ألف فى كفة فرجح فأتوا بأضعاف ذلك فرجح ، حتى لم يبق فى الخزائن شىء ، فقال الملك : هل لك أيها التاجر أن تهب لى هذا الغلام فإنى لا أقم بثمنه ، فقال :

قد بعته لك بهذا المال ، فتعجب كيف وزن الملك ذاك كله فى يوسف ، ولم ير يوسف كما يراه الملك ، فلما باعه كشف الله الحجاب بينه وبين يوسف ، فصاح صيحة خر" على أثرها مغشيا عليه ، فلما أفاق قاله يوسف : مالك ؟ قال له : ما رأيتك منذ كنت معى إلا الساعة ، وقد زهدت فى المال .

ثم قال للملك : أتأذن أن أكلمه كلمتين ؟ قال : نعم ، فدنى منه وقال له : ألست وعدتنى أن تخبرنى بخبرك إذا بعتك ؟ قال : نعم ، بشرط أن لا تخبر أحدا بى ، قال : نعم ، قال : أنا الذى رأيتنى فى المنام فى حال صغرك ، وأنا ابن يعقوب إسرائيل الله ، ابن إسحاق نبى الله ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله ، فصاح صيحة وقال يا سوء تجارتى ، والله لا أخذت من ثمنك شيئا .

ثم قال : أيها العزيز على الله ، لى بنات كثيرة ، وليس لى ذكور ، وأنت من بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، ودعوتك مستجابة ، فادع الله أن يرزقنى ذكورا ، ثم قال : يا يوسف ، أخبرنى عن سادتك من كانوا ؟ قال : لا تسألنى ، لأنى لم أهتك ستر مخلوق ، وقيل : أخبره يوسف بنسبه حين اشتراه .

قال لخازنه : انظر هل بقى فى الخزائن شىء ؟ فذهب فنظر ، فإذا هى لم ينقص منها شىء ، فرجع ضاحكا ، وأخبر الملك فقال له : كيف ذلك ؟ فقال : لا أدرى إن شئت علم ذلك على الحقيقة فاسأل هذا الغلام ، فإنه يعلم . قال : وكيف ذلك ؟ قال له : إنه يدعى أن له إلها يفعل ما يريد ، قال : ومن أين علمت ذلك ؟ قال : لما اشتريته وأنا بجنبه

تنزّل عليه طائر أبيض فقال له : يا يوسف انظر كيف بيعك لنفسك ، باعوك ببخس ، والآن باعك ربك بخزائن مصر كلها •

فتعجب الملك من كلامه ، ثم سأل يوسف عن ذلك فقال : إن الله تعالى فعل ذلك إكراما لى لئلا تلومنى إذا بدرت منى زلة وتندم على ما وزنت ، فليس لك علىّ منة ، بل المنة لله عليك ، وأنا لك والمال لك ، وأقبل التاجر على يوسف يودعه ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك نبى الله ، ووهب له المال وانصرف ، فتبسم يوسف وقال للعزيز : رده فى خزائنك ، فكبر عند ذلك يوسف فى عين الملك وقال : قد جعلت خزائنى بيدك فافعل فيها ما شئت •

قال كعب الأحبار رضى الله عنه : لما أخذ العزيز يوسف عليه السلام ، وأتى به إلى زليخا ، وقال لها : أكرمى مثواه ، قالت : لم ذلك ؟ قال : لأنه كريم ، فأكرمه الله تعالى بالإيمان بعد ذلك ، فروى أنها زينته بعشرة أنواع من الثياب : الأبيض والأخضر والأصفر والأحمر والأسود والمذهب ، وهكذا اتخذت لكل يوم دستا من الثياب ، فذلك ثلثمائة وستون دستا لكل عام ، واشتغلت بذكره لا تذكر سواه ، ولا تنظر إلى غيره ، ولا يخطر ببالها سواه •

وفى خبر : كانت صماء لا تسمع إلا كلام يوسف ، وأخذت يوسف ودخلت به بيت الصنم وقالت له : أيها الصنم المعظم بعبادتى لك ، وحبى فيك ، هل وجدت مؤنسا مثل هذا ، فتحرك الصنم وكان من ذهب أحمر ، فوقع على وجهه ، وتقطع إربا ، فقالت له : ما الذى أصابك أيها الصنم ، فقال لها يوسف : ربى فعل به ذلك لسجودك له ، قالت : من ربك ؟ قال لها : رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، الرب الذى خلقنى وخلقك •

قالت : كيف يعلم بسجودى ؟ قال لها : هو غائب عن الأبصار ، ولا تغيب عنه ، قالت : إنى أحببته بحبك إياه ، حيث صور مثلك إلاهه إلهك ، ولولا أن لى إلها أعبده لعبدت إلهك ، لأن عبادة إلهين قبيحة .

فتبسم يوسف عليه السلام وخرج ، فتعلقت به وقالت له : إن الملك إذا رأى هذا الصنم هكذا يسأل الجوارى من فعل هذا به ، فأخشى أن يقلن : رب يوسف ، ولكن اسأل ربك أن يجعله كما كان .

زعمت القصاص أنه وقف وحرك شفتيه ، فقام الصنم كما كان ، فقالت : يا يوسف ظننت أنى أحبك وحدى ، فالآن إله السماء أيضا يحبك ، فألبسه ثوبا أبيض مكللا عليه ألف لؤلؤة تساوى ألف دينار ، وأعطته منطقة مكللة بما لا يعلمه إلا الله من الياقوت والزبرجد ، فقال لها : كيف يجوز للعبد أن يلبس هذا والسيد دونه ؟

فقالت له : أنت السيد وهو العبد ، وأنا الخادم ، أليس قال : « أكرمى مثواه » لو قدرت على أكثر من هذا لفعلت ، ثم فصلت ثلاثمائة قميص وستين قميصا ، ومثل ذلك أقبية ، ومثل ذلك عمائم ، لكل يوم دست : وكانت كل يوم تزينه بزينة جديدة لا تشبه الأخرى ، وقالت لحكمائها : إنى أريد أن تبنوا لى بيتا ، إن كان يوسف نحو المشرق أراه نحو المغرب ، وإن كان نحو المغرب أراه نحو المشرق ، وإن كان فوق أراه أسفل ، وإن كان أسفل أراه فوق ، وإن كان على الأرض أراه فوق السطح ، وهو يرانى حيث توجهت .

فقال بعضهم : إن هذا ينبغى أن يكون من زجاج ، فبنى لها بيتا مربعا ، ربع من الزجاج ، وربع من المرمر المزجج ، وربع من الفيروزج ،

وربع من العقيق ، وكان بين الزجاج والمرمر قضبان الذهب ، وبين الفيروزج والعقيق قضبان الفضة ، ورصع بأنواع الجواهر ، وجعلت تحت كل عمود ثورا من ذهب ، وفرسا من ذهب مرصعين بالجوهر ، وأعينهما من ياقوت أحمر ، وصورت فيه كل نوع من الطير والدابة والوحش ذهبا وفضة ، ورصعت أسفل البيت بذهب وجوهر ، وجعلت سقفه ساجا مضروبا بصفائح الذهب ، ونصبت فى وسط البيت مائدة مزينة بكل زينة حسنة ، ووضعت سريرا بقرب المائدة ، وجعلت فى كل زاوية من البيت غزالا من فضة ، ووصيفة من فضة ، بيدها قنديل ومجمرة من ذهب ، وجعلت أبواب البيت من الصندل والعاج ، وعلى كل باب طاووسا من ذهب رجلاه من فضة ، ورأسه من زمرد أخضر ، ومنقاره عقيق ، وذنبه وريشه من فيروزج ، وملأت جوفه مسكا كثيرا ، ثم بنت فى وسط البيت بيتا كله من زجاج .

ثم قالت لها الجارية : تزينى بكل زينة حسنة حتى أدعوه ففعلت ذلك ، ثم قالت لجاريتها : إنى قد غرقت فى محبة هذا الغلام ، وجاء يوسف عليه السلام وقت الظهر ، فلما دخل عليها ونظرها قال : لا ينجو من هذا إلا معصوم فاعصمنى يا رب برحمتك ، وارحمنى يا أرحم الراحمين .

(وكذَلكَ) أى كما أنجيناه من كيد إخوته ، وعطفنا عليه قلب العزيز ، أو كما مكنا محبته فى قلب العزيز (مكنّا) أثبتنا وأرسخنا الأمر أو الملك ، أو المنزلة أو الرسالة (ليُوسفَ فى الأرْضِ) أرض مصر ، أو حقيقة الأرض الصادقة بأرض مصر المرادة ، قال بعض : مكنا له من النبوة والملك والحكمة حتى أسبلها ، وعلى الخزائن حتى ملكها ،

وعلى الأعناق حتى استبعدها ، وعلى مصر حتى ملكها ، وقد علمت أن مفعول مكنا محذوف ، وأن كذلك متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف ، أو الكاف اسم مضاف لذا صفة لمصدر محذوف مقدم ، أى مكنا ليوسف فى الأرض تمكينا ثابتا كذلك ، أو مثل ذلك الإنجاء أو التعطيف أو التمكين فى قلب العزيز ، للتصرف فيها بالعدل .

(ولنُعلِّمهُ) معطوف على تعليل محذوف كما رأيت (مِنْ تَأويلِ الأحاديثِ) الرأى المنبهة على الحوادث يستعد لها ، قبل أن تحل ، وذلك إنما يصلح ممن أمكن له فى الأرض ، ليكون الناس فى الاستعداد طائعين ، أو الأحاديث ، كتب الله يعلمها وينفذها كما مر ، وقيل : الأحاديث الرأى والكتب ولغات الخلق وهى تسعمائة لغة ، كان يوسف يعلمها ويفهمها ويقرؤها بتعليم الله إياه .

قال فى عرائس القرآن : قال أهل الكتاب : لما تمت ليوسف بالأرض ثلاثون سنة ، استوزره فرعون مصر ، وجعله عن خزائن الأرض ، فذلك قوله تعالى : « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث » .

(واللهُ غَالبٌ عَلى أمرِهِ) أى أمر الله لا يصرفه أحد عما أراد ، كذا يتبادر لى ، وبه قال سعيد بن جبير ، وقال الطبرى : على أمر يوسف ، والأول أعم ، والثانى خاص فى أمر يوسف ، أراد إخوته شيئا ، وأراد الله عز وجل ضده ، فلم يكن إلا ما أراد ، ويناسب الأول قوله تعالى : « إن الله بالغ أمره » .

(ولكنَّ أكْثَرَ النَّاسِ) ذلك الأكثر هم المشركون (لا يعلمُونَ) أن الأمر كله بيد الله سبحانه ، أو لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا أمره ،

كما لطف فى أمر يوسف بما ظاهره شر وإهانة يئول إلى خير وإعزاز ، وعلى هذا يصح أن يراد أكثر الناس مطلقا مشركين أو موحدين .

(ولما بلَغَ) يوسف (أشدَّه) منتهى كمال شدة جسمه وقوته ، قال السدى : هو ما بين الثلاثين والأربعين ، قال : الجسم يقف فى ذلك لا يزيد قوة ولا ينقص غالبا ، وقيل : ذلك الوقوف ما بين ثلاثة وثلاثين ، وبين أربعين ، وكذا حفظت ، وبه قال مجاهد ، ويسمى أشد كما قال مجاهد ، وقال الضحاك : الأشد عشرون سنة ، وقال الكلبى : ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين ، وقيل : ما بين خمس عشرة إلى ثلاثين ، وقال مالك : الأشد الحلم ، وقيل : منتهى الأشد اثنتان وستون (آتيْناهُ حُكماً) وحكمة وهى العلم المؤيد بالعمل ، وقريب منه قول ابن العربى : العمل بالعلم ، وقيل : إصابة فى القول ، وفسر بعضهم الحكمة حبس النفس عن هواها ، وصون نيتها عمالا ينبغى ، وقيل : المراد الحكم بين الناس ، وقيل النبوة ، وقيل : السلطان ، وقال الحسن : الرسالة (وعِلْماً) علم تأويل كتب الله والرأى واللغات وفقها فى الدين .

(وكذَلكَ نجْزِى المحْسنينَ) لنبيه على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاء على إحسانه فى علمه ، إذ عبد الله واتقاه فى أول شبابه ، قال الحسن : أعطاه الله الرسالة لما بلغ أشده ، وقد أعطاه النبوة قبل ذلك فى الجب ، كذلك من أحسن عبادة الله فى شبيته ، أتاه الحكمة فى اكتهاله ، انتهى ، وعن ابن عباس : المحسنون المؤمنون أو المهتدون روايتان عنه ، وقال الضحاك : الصابرون على النوائب كما صبر يوسف ، وفى ذلك وعد للنبى صلى الله عليه وسلم ، أى لا يهولنك فعل الكفرة ، فإن الله سبحانه يصنع للمحسنين أجمل صنع .

(وَرَاوَدَتْهُ) طلبت منه الجماع بتلطيف وخداع وحرص ، مرة بعد أخرى وذلك فى وقت واحد (الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا) وهى زليخا (عَنْ نَفْسِهِ) كناية عن غرض الجماع وغيره بموصول ليقرر بصلته الغرض المسوق له الكلام ، وهو نزاهة يوسف ، فإنه إذا كان فى بيتها وتمكن منها ولم يفعل ، كان غاية فى النزاهة ، ولو قال وراودته امرأة العزيز أو زليخا ، أو راعيل لم يفت ذلك إلا بخارج ، وقيل : عبر به تقريرا للمراودة ، لما فيه من فرط الاختلاط والألفة ، وقيل : تقرير المسند إليه لإمكان وقوع الإبهام فى امرأة العزيز أو زليخا ، أو راعيل ، واشتهر أن ذلك زيادة تقرير ، واختير أن ذلك لزيادة تقرير واستقباح التصريح بالاسم .

(وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ) قيل : كانت سبعة متتابعات ، وقيل : كل فى جهته لا متتابعة فى جهة واحدة ، وقيل : أربعة ، والتشديد المبالغة فى الإثاق لئلا يهرب ، ولئلا يطلع عليها أحد ، ولشدة الخوف ، ولأن هذا لا يقع إلا فى خفية ، أو التشديد للتكثير ، فإن الأبواب كثيرة فالغلق كثير .

(وَقَالَتْ هِيتَ) بكسر الهاء ، وإسكان الياء ، وفتح التاء عند نافع ، وابن عامر فى رواية ابن ذكوان عنه ، وكذا قرأ هشام عنه ، لكنه أبهم مكان الباء ، وروى عن هشام ضم التاء ، وقرأ ابن كثير بفتح الهاء وضم التاء تشبيها بحيث ، والباقون بفتحها ، وفى رواية عن أبى عمرو بكسر الهاء وبالهمز وضم التاء ، وقرىء هيت بكسر الهاء والتاء ، وعلى كل حال فهو اسم فعل بمعنى أقبل وبادر ، ومثل هذا قول الحسن : إن معناه هلمَّ ، وقول عكرمة : هيت بالحورانية هلم ، وقول ابن جبير :

تعال ، وكذلك قال الكسائى : إنها لغة لأهل حوران ، رفعت إلى الحجاز ، وقيل : هى بالعبرانية فعربت ، وعن مجاهد وغير : إنها غربية .

واللام فى قوله : (لَكَ) لتبيين الفاعل ، فإن يوسف هو المطلوب منه الإقبال ، وقيل فى قراءة كسر الهاء بعدها همزة ، وضم التاء فعل وفاعل ، واللام متعلقة بالفعل من هاء يهىء أى تهيأت لك من هيؤ الرجل بمعنى حسنت حاله ، أى قد حسنت حالى وزينته لك يا يوسف .

وقال ابن هشام : وأما قوله تعالى : « وقالت هيت لك » فيمن قال بهاء مفتوحة وبياء ساكنة وتاء إما مفتوحة أو مكسورة أو مضمومة ، فهيت اسم فعل ، ثم قيل : سماه فعل ماض أى تهيأت ، فالدم متعلقة به كما تتعلق بمسماه لو صرح به ، وقيل : مسماه فعل أمر بمعنى أقبل أو تعال ، واللام للتبيين أى إرادتى لك ، وأقول لكُ ، وأما من قرأ : هئت كجئت فهى فعل بمعنى تهيأت ، واللام متعلقة به ، وأما من قرأ كذلك ، ولكن جعل التاء ضمير المخاطب فاللام للتبيين مثلها فى اسم الفعل ، ومعنى تهيئة تيسيرا تفرادها به ، لا أنه قصدها ، بدليل « وروادته » ولا وجه لإنكار الفارسى هذه القراءة مع ثبوتها واتجاهها ، ويحتمل أنها أصل قراءة هشام بكسر الهاء وبالياء ، وبفتح التاء ، ويكون على إبدال الهمزة ، أى إبدالها ياء ا . ه

(قالَ مَعَاذَ الله) مفعول مطلق نائب عن عامل محذوف وجوبا كسبحان الله ، الأصل أعوذ بالله من موافقتى لك فى معاذا ، أى عوذا فهو مصدر ميمى ، ولما حذف العامل أضيف المصدر إلى المجرور المتعلق به (إنَّه) أى الله (رَبِّى) خبر أول ، وسكن الياء غير نافع وابن كثير وأبى عمر .

(أحْسَنَ مَثْوايَ) هذه الجملة خبر ثان ، أو الهاء ضمير الشأن ، وربى أى الله مبتدأ ، والجملة خبر ، وجملة المبتدأ والخبر ضمير الشأن ، والمراد أنى لا أعصى خالقى ، وقد أحسن منزلتى بأن عطف علىّ قلب العزيز ، ونجانى من الجب ، أو الهاء للعزيز وهو قطفير زوج زليخا ، وربى بمعنى سيدى خبر ، والجملة بعده خبر ثان ، أو الهاء للشأن وربى أى سيدى قطفير مبتدأ ، والجملة بعده خبر ، والمجموع خبر الأن ، والمراد أنى لا أخونه فى زوجته وقد ائتمننى وتنزلين منزلة الولد ، وأحسن إلىّ وأمرك بإكرامى ، وإذا حفظ حق مخلوق فأحرى أن يحفظ حق الله ، قيل : لما لم يدافع إلا بالاحتجاج والملاينة ، امتحنه الله بالهم بما هَمّ به ، ولو قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ودافع بعنف ، لم يهم بشىء يكره (إنَّه) أى الشأن (لا يُفْلِحُ الظَّالِمونَ) أى ظلم كان ، ومنه الزنى ، وجزاء الإحسان بالإساءة فان الزنى ظلم لانفس ، والمزنى بأهله ، وقيل : الظالمون المجازون المحسن بالسوء ، وقيل : الزناة .

قال فى زهر الأكمام ، عن الحسن : خرج يوسف عن أبيه وهو ابن سبع عشرة سنة ، واجتمع به وهو ابن ثمانين ، وعن مجاهد : خرج ابن ست ، واجتمع ابن أربعين ، وعن وهب مكث فى دار العزيز ثلاث سنين ، ثم بلغ وكانت زليخا تخدمه بنفسها ، وتمشط شعره بيدها ، ومالت إليه بالكلية ، وتكاثر وجدها ، ولا يلتفت إليها فكثرهمها ، وشجنت ونحلت ، ودخلت عليها حاضنتها يوما فقالت : يا سيدتى إن غصنك ذابل : وجسدك ناحل ، وقلبك ذاهل .

فقالت : كيف لا يكون ذلك وأنا أخدم هذا الغلام العبرانى منذ سبع سنين ألاطفه بلسانى ، وأتحبب إليه بإحسانى ، فكلما زدت ميلا

إليه ، زاد إعراضا عنى ، وكلما قربت منه ، بعد عنى ، فقالت : ياسيدتى لو نظر إليك لكان أسرع إليك منك إليه ، ولو نظر حسنك وجمالك وصفاء لونك لما قر له قرار دونك ، قالت : فكيف ذلك ؟ قالت لها : مكنينى من الأموال ، قالت : خزائنى بيدك لا حساب عليك فيها .

فدعت أهل البناء والهندسة وقالت : أريد بيتا ترى الوجوه فى حائطه كالمرآة المصقولة ، فبنوا لها بيتا تقدم ذكره وسمته القبطون ، وصور فيه صورة يوسف وزليخا متعانقين وأمرت بسرير من ذهب مرصع بالجواهر واليواقيت واللآلىء ، فوضعته فى وسط البيت ، وجعلت عليه أفشة الديباج وألوان الحرير ، وفرشت البيت : وأرخت الستور ، وألبست زليخا من أنواع الحلل غير قليل ، وحلتها بالحلى الكثيرة ، وأجلستها على مرتبة عظيمة ، وخرجت إلى يوسف مستعجلة وقالت : يا يوسف أجب سيدتك زليخا فإنها تدعوك فى بيتها القبطون .

وكان سميعا لها مطيعا ، وكان بيده قضيب من ذهب يلعب به ، فرمى القضيب من يده ، وأسرع لباب البيت ليدخل ، فكأن قلبه أحس بالشر فأراد الرجوع ، فأسرعت إليه وجذبته إلى السرير وقالت : هيت لك ، فأغمض عينيه ، وكف يديه ، وأدلى رأسه حياء من ربه سبحانه وتعالى .

قالت : يا يوسف ما أحسن وجهك !

قال : الله صوره فى الأرحام ، دعينى يا زليخا .

قالت : ما أحر عينيك !

قال : هما أول ما يسقط فى قبرى .

قالت : ما أحسن شعرك !

قال : هو أول ما يبلى منى •

قالت : ما أطيب ريحك !

قال : لو شممتى رأيحتى بعد ثلاثة فى قبرى لفررت منى •

قالت : يا يوسف أتقرب إليك وتتباعد منى ؟

قال : أرجو بذلك القرب من ربى •

قالت : انظر إلىّ نظرة واحدة •

قال : أخشى العمى فى آخرتى •

قالت : ضع يدك على فؤادى •

قال لها : إذن تغلى فى النار •

قالت : اشتريتك بمالى وتخالف أمرى ؟

قال : الذنب لإخوتى إذ باعونى حتى ملكتنى •

قالت : اصبر معى فى البيت ساعة واحدة •

قال لها : ليس فيه شىء يسترنى من ربى •

قالت : يا يوسف بأى وجه تخالفنى ، وبأى حكم ترجع عن مرادى ؟

قال : بحكم إلهى الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وإكرما لسيدى الذى أحسن مثواى •

قالت : أما إلهك الذى فى السماء فأنا أفتح بيوت الأموال ، وأتصدق عنك بها ، وأهديها إليه حتى يرضى عنك ، ويغفر لك ، ولا أبالى أنا مافعل بى فى حق مرادى وقضاء إربى •

فقال : إن الله لا يقبل الرشاء •

قالت : بل يقبل مثقال ذرة •

قال : ما يقبل ذلك إلا من المتقين •

قالت : أنا أسلم إن شاء الله ، وأما سيدك الذى أكرم مثواك فأنا أطعمه السم حتى يسقط لحمه عن عظمه ، وأكون أنا وأموالى وما ملكت يداى ملكا لك ، وطوع يمينك •

قال : فما يكون عذرى عند ربى يوم القيامة •

(ولَقدْ هَمَّت بهِ) قصدت منه الجماع ، (وَهمَّ بها) قصد ذلك فيما قيل •

وروى أنها همت به حتى اضطجعت له ، وهم بها فحل سراويله ، قلت : هذا لا يصح فى جنبه ، وأما الأول فإن كان هم عزم فالواجب أن ننزهه عنه ، وإن كان هم طبع ضروريا ، فلا إشكال بل بمدافعته يقوى الأجر له لشدة مكابدته بالدفع ، ولا وزر فى الهم ما لم توطن عليه النفس ، وإن وطنت ولم تعمل كتبت عليها خطيئة الهم وهى أدنى من خطيئة العمل ، وبهذا يجمع بين حديث : لا تكتب خطيئة على الهم ، وحديث : تكتب عليه •

قال عياض : والصحيح تنزيههم قبل النبوة أيضا من كل عيب ،

قيل : لو كان همه كهمها عن عزيمة لما مدحه الله بأنه من المخلصين ، وقيل : هم بضربها ودفعها ، وقيل : بالنظر إليها ، وهذا أيضا لا يجوز أن يعتقد فيه ، فإن كان هم عزم ، والنظر نظر شهوة وإلا فلا بأس .

قال فى زهر الأكمام : ليس كما يقول القصاص والمكذبون والمتشدقون أنه حل العقد وهمّ بها حتى صرفه الله عز وجل بالبرهان اهـ .

وقد زعموا عن ابن عباس : أنه حل العقد ، وقعد بين شُعَبها الأربع مستلقية على قفاها ، إن ذلك قبل النبوة غير قادح ، وذلك زعم باطل وكذب ، عن ابن عباس ، عن مجاهد : حل سراويله وجعل يعالج ثيابه ، قيل : هذا قول الأكثر ، ونسب لابن جبير والحسن ، وذلك كذب وضع على مجاهد ، ومن ذكرهما قال الفخر .

وعن الضحاك : جرى الشيطان بينهما وضرب بيده إلى عنق المرأة حتى جمع بينهما ، وهذا ضعيف لا يعتقد ، وعن ابن عباس : هم بها تمنى أن تكون لـه زوجة .

وفى عرائس القرآن : وأماما كان من هم يوسف بها وهمها به فقال السدى ، وابن إسحاق : لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف ، جعلت تذكر محاسنه وتشوقه إلى نفسها ، فقالت : يا يوسف ما أحسن شعرك ! قال : هو أول ما يبلى منى بعد موتى ، وأول ما ينتثر من جسدى ، قالت : يا يوسف ما أحسن عينيك ! قال : هما أول ما يسيل ، قالت : يا يوسف ما أحسن وجهك ! قال : ربى تعالى صورة فى الرحم ، قالت : يا يوسف صورة وجهك قد أنحلت جسمى ، قال : الشيطان يعينك على ذلك ، قالت : يا يوسف الحبيبة قد التهبت ناراً قم فأطفها ، قال : إن أطفأتها

ففيها إحراقى ، قالت : يا يوسف الحبيبة قد عطشت قم فاسقها ، قال : من كان المفتاح بيده هو أحق بسقيها ، قالت : يا يوسف فراش الحرير قد بسطته قم فاقض حاجتى ، قال : إذن يذهب نصيبى من الجنة . قالت : يا يوسف ادخل تحت الستر منى فأسترك به ، قال : لا ساتر عن الله إن عصيته ، قالت : يا يوسف ضع يدك على صدرى أشتف بذلك ، قال : سيدى أحق بذلك منى ، قالت : أسقيه سماً ويموت ، قال : لا أنجو يوم القيامة إن أطعتك . وقيل : معنى همّ بها هم بالفرار عنها ا هـ .

ويجوز أن يكون معنى وهم بها شارف وقارب الهم بها ، وعلى هذا فلم يهم أصلا ، قال ابن هشام : يعبرون بالفعل عن وقوعه وهو الأصل ، وعن مشارفته نحو : « فبلغن أجلهن » أى شارفن انقضاء أجلهن « والذين يتوفون منكم » الآية أى شارفوا التوفى بدليل قوله : « وصية لأزواجهم » « وليخش الذين لو تركوا » أى شارفوا الترك ، بدليل : خافوا ، وعن القدرة عليه نحو : « إنا كنا فاعلين » أى قادرين على الإعادة .

(لَوْلا أنْ رَأى بُرْهَانَ ربِّه) جواب لولا محذوف ، أى لطاوعها وقضى حاجتها ، ويجوز أن يقدر لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ، وعلى هذا يكون قوله : « لولا أن رأى برهان ربه » مرتبطا بقوله : « وهمّ بها » هو دال على جوابها ، فيكون لم يهم بها أصلا ، كقولك : قام زيد لو قام عمر ، فإن زيدا لم يقم لعدم قيام عمرو ، وحين كونه بمعنى أنه دليل الجواب ، وليس جوابا مقدما ، لأن الجواب لا يتقدم خلافا لبعض ، إذ الشرط وأداته والجواب ككلمة ، وبعض الكلمة لا يتقدم .

وأما قول الحسن بن الفضل : أن فى الكلام تقديما وتأخيرا معناه : ولقد همت به لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ، فتقدير معنى ، وإن أراد تقدير إعراب فمن القول الضعيف ، ورأى فى تأويل مصدر مبتدأ محذوف الخبر ، أى لولا لرؤيته لبرهان ربه موجودة ، وذلك البرهان مختلف فيه .

قال فى عرائس القرآن : عن ابن عباس أنه مثل له يعقوب فضربه بيده على صدره ، فخرجت شهوته من أنامله ، وعن الحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك : انفرج ليوسف سقف البيت ، فرأى أباه عاضا على أصبعه ، وكان قد ولد كل واحد من أولاد يعقوب اثنى عشر ولدا إلا يوسف ، فإنه ولد له أحد عشر ولدا من أجل ما نقص من شهوته ، حين رأى صورة أبيه وقت همّ بها استحياء منه .

وقال قتادة : رأى صورة يعقوب قال له : يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء ، وعن السدى : نودى : يا يوسف أتواقعها إنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير الذى فى جو السماء لا يطاق ، ومثلك إذا واقعتها مثله إذ مات ووقع فى الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه .

وعن مجاهد ، عن ابن عباس : حل سراويله ، وقعد منها مقعد الرجل من امرأته ، وهو كذب كما مر ، فإذا بكفّ قد بدت فيما بينهما لا عضد ولا معصم لها ، مكتوب فيها « وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون » فقام هاربا وقامت ، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته : إذا بكف كذلك مكتوب فيها : « واتقوا يوما ترجعون فيه » إلى « يظلمون » فقام وقامت ، ولما ذهب

الروع عادت وعاد ، فلما قعد منها كذلك قال الله جل وعلا : أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة ، فانحط جبريل عليه السلام عاضا على أصبعه يقول : يا يوسف أتعمل عمل السفهاء ، وأنت عند الله مكتوب من الأنبياء ، وفى رواية : أتعمل عمل الأشقياء وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء ، وإن فى الكف فى المرة الأولى : « وإن عليكم لحافظين » الخ ، وفى الثانية : « ولا تقربوا الزنى » الخ ، وفى الثالثة : « واتقوا يوما ترجعون » ولم يؤثر ذلك فيه حتى نزل جبريل فقال ذلك .

وذاك كله خطأ فى حق نبى ، كيف ينهاه ربه ثلاث مرات ولا يؤثر فيه ذلك ، ولو أن أقبح الزناة وأوقحهم رأى تلك الكف أو نحوها لم يبق فيه عضو يتحرك ، فضلا عن أن ينتشر له ذكر ، ولو صدر منه حاشاه لتاب عقب ذلك ، فيذكر الله توبته بعد ذكر ما صدر منه ، فإنه ما ذكر عن نبى زلة إلا عقبها بذكر توبته كآدم ونوح وداود وأيوب وذى النون ، وقد وصفه الله تعالى بصرف السوء عنه ، وذلك من جملة السوء لو فعله .

وقد جزم بعض بأن همه إنما هو بضربها ودفعها ، وأن فائدة البرهان مع هذا الامتناع من ضربها ، إذ لو ضربها لقتلته ، فالبرهان إعلامه بأن لا يضربها ، وحرفه عن ضربها ، وأنه لو اشتغل بدفعها وضربها لتعلقت به ، فيتمزق القميص من قبل ، وكان فى علم الله أنه يتمزق من دبر ، فتتم به شهادة الشاهد .

وعن الكلبى : انفرج سقف البيت ، وتمثل له ملك بيعقوب ، وذلك البرهان ، وعن السدى : مثلك ما لم تواقعها كالطائر فى الجو ، وكالثور الصعب ، ومثلك إذا واقعتها مثلهما إذا ماتا ووقعا فى الأرض ، فتعلق النمل بأذن الثور وبالطائر ، ولا يدفعان عن نفسهما .

وعن محمد بن كعب : رأى فى حائط بعد ما رفع رأسه للسقف مكتوبا : « ولا تقربوا الزنى » إلى : « سبيلا » وكذا عن ابن عباس .

وقال على بن الحسن : كان لها صنم فسترته ، فقال : لم ؟ فقالت : وقد استحييته أن يرانى على ذلك ، فقال : هو لا يسمع ولا يبصر ولا وقد استحييت منه ، فكيف لا تستحيين ممن يرى ويسمع ، فهرب .

وقال جعفر بن محمد : البرهان النبوة ، وقيل : علمه بتحريم الزنى من قبل ذلك ، وهوحجة الله عليه ، وعلمه بالعقاب ، وقيل تطهير الله جل وعلا نفوس الأنبياء عن الدنس ، وقد أعطاه العلم والحكمة ، ليغلب شهوته ، ويكون سببا للعصمة ، وقيل : تمثل له قطفير فاستحى ، وقيل : البرهان كف بلا ذراع مكتوب فيها : « وما تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه » وقيل هو طائر وقع بكتفه وقال فى أذنه : لا تفعل ، فإن فعلت سقطت عن درجة النبوة .

(كذلك) خبر لمحذوف ، أى الأمر ثابت كذاك ، أو الأمر مثل ذلك ، أو نعت لمصدر محذوف مع عامله ، أى ثبتناه تثبيتا كاتبا كذلك ، أو تثبيتا مثل ذلك ، والإشاة لما يتضمنه قوله : « لولا أن رأى برهان ربه » من امتناعه من موافقتها ، أو لما يتضمنه قوله : « معاذ الله » الآية من ذلك ، أو قوله : « آتيناه حكما وعلما » ويجوز أن يقدر عصمتنا له كذلك ، أو أريناه البرهان كذلك ، أو جرت أقدارنا كذلكَ .

(لِنَصْرِفَ) متعلق بما يقدر للكاف على الأوجه المذكورة (عَنْهُ السُّوءَ) خيانة السيد (والفَحْشَاءَ) الزنى ، وقيل : السوء مقدمات

الزنى من نظر ومس وقبلة ، والفحشاء الزنى (إنَّه مِنْ عِبادِنا المخْلَصِينَ) بفتح اللام أى الذين أخلصهم الله لطاعته ، واصطفاهم للنبوة ، قال أبو عمرو الدانى : الكوفيون ، ونافع المخلصين بفتح اللام حيث واقع إذا كان فيه ألف ولام ، والباقون بكسرها ، اهـ .

وكذا يعقوب يكسر إذا كان أل والمعنى على الكسر الذين أخلصوا دينهم لله ، والمراد بالمخلصين بفتح أو كسر العموم فى الأنبياء ، وقيل : العموم مطلقا وهو أصح ، وقيل آباء يوسف أى هو متولد وناشىء منهم لأنه من ذرية إبراهيم .

(واسْتَبَقَا) أى تسابقا ، فإن الافتعال يأتى بمعنى التفاعل كاجتوروا بمعنى تجاوروا ، وازدوجوا بمعنى تزاوجوا ، والألف المحذوف نطقا لالتقاء الساكنين الثابت فى الخط ليوسف عليه السلام ، والتى هو فى بيتها .

(البابَ) الأخير الذى يلى خارج البيت ، ولذا أفرد الباب بعد جمعه فى قوله : « وغلقت الأبواب » أو جمعه نظر إلى أبواب كل باب فى جهة ، وأفرد هنا لأنه كل باب تلك الأبواب إن خرج منه تخلص ولم يحبسه آخر إذ لم تجعل بابا خلف باب ، والنصب على نزع الخافض ، أى تسابقا إلى الباب ، أو على المفعولية لتضمين استبق بمعنى تبادر ، هرب يوسف منها وتبعته مسرعة لتمنعه من الخروج ، وعن كعب الأخبار رضى الله عنه أنه جعلت أبوابا متتابعة واحدا بعد واحدا ، ولما هرب تساقطت الأقفال حتى خرج من الأبواب كلها .

(وقَدَّتْ قميصهُ مِنْ دُبُرٍ) قطعته باجتذابه من ورائه

والمراد ، والله أعلم ، الإخبار بأنها جبذته ، فذكر القدر وهو القطع ، ولم يذكر الاجتذاب ، لأنه سبب القد وملزومه ، وأكثر ما يستعمل القد فى القطع طولا ، وأما القطع عرضا فهو القط ، وذكر بعضهم أنها قبضت بأعلى قميصه حيث تخرج العنق فتخرق ، نزل التخريق إلى أسفل القميص ، وهو قميص ألبسته إياه ، وتحته القميص الذى ألبسه يعقوب فيما زعم بعض .

(وألْفَيا) وجدا (سَيِّدهَا) زوجها ، لم يقل سيدهما لأن ملك قطفير وهو العزيز جرى عليها بالزوجية ، ولم يجر على يوسف بالشراء ، لأن شراءه مفسوخ غير منعقد فى الحقيقة ، لأنه حر ، بخلاف المرأة فإن تزويجها لرجل تمليكها له ، واذلك يقول الولى : أملكتكها وملكتكها بالتشديد ، ويقال فى زوج ملكها بالتخفيف ومالك لها ، ولو كان ملك الزوج الزوجة غير ملك الرجل العبد ، ولو لم يكن فى تعظيم شأن الرجل على زوجته إلا تسميته فى الآية سيداً لها لكفى .

(لَدَى) عند (البَابِ) قيل : صادفاه مقبلا يريد أن يدخل ، وقيل : جالسا مع ابن عمها عند الباب ، ولما رأته هابته وكذا تهاب ابن عمها ، وخافت أن يتهماها ، احتالت على يوسف بما تبرىء نفسها وتنتقم به من يوسف ، إذ لم يوافقها ، وتخوفه لعله يوافقها مما يفضح به قولها ، « ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » فقالت : مـا حكى الله عنها بقوله :

(قالَتْ) لسيدها (ما جَزَاءُ مَنْ أراد بأهْلِكَ) زوجتك (سُوءاً) أى فاحشة تعنى الزنى ، لم تصرح بيوسف لأن العموم أبلغ ، فإنها قالت : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً » كائنا ما كان لا كذا وكذا ، فإن هذه

العبارة آكد فى أن يوسف لا يخلصه مخلص من الجزاء إذا أراد بها سوءاً فيما زعمت ، وهو برىء وما نافية ، وتجوز أن تكون للاستفهام الإنكارى ، وهو نفى أى أى شىء جزاء .

(إلاَّ أنْ يُسجَنَ) أى إلا سجنه (أو عَذابٌ أليمٌ) موجع كما قال الله تعالى : « هل يهلك إلا القوم الفاسقون » أو العذاب معطوف على المصدر المسبوق من الفعل قبله كما رأيت ، وهو الضرب بالسياط أو غيره من سائر التعذيب ، لكنها مشفقة عليه جدا ، ولذلك لم تذكر القتل مع أنه أسبق شىء إذا غضب من له بطش وتمكن بهتك الستر العظيم ، حاشاه عليه السلام ، بل ابتدأت بذكر السجن ، وأخرت العذاب ، لأن المحب لا يشتهى إيلام المحبوب ، ولم ترد السجن الطويل بل أرادت ما يعطفه عليها ويلين عريكته ، مثل أن يسجن عبدها يوما أو يومين ، ومثل أن يضرب ضربتين أو ثلاثا .

وهذا كالمثل السائر خذ اللص قبل أن يأخذك ، إذ سابقت بالشكوى لما تبادر البـاب توافق أن العزيز بالباب فى بعض حوائجه فإذا الصـوت من وراء الباب ، فرأى ما هما عليه ، وأصابها الخجل ، ولكن لـم ترد عليه أن يفلت من يدها فنظر إليهما متسائلا : ما هذا الذى أرى فقـال يوسف :

(قالَ هى رَاودَتْنى عن نَفْسِى) أى قال يوسف مكذبا لها : هى التى دعتنى إلى مقارفة الفاحشة وأنا لم أرد بها السوء .

(وشَهِدَ شاهِدٌ من أهلها) وكان هذا الشاهد طفلاً صغيراً مع والده ، فسئل ابن عباس رضى الله عنهما فقال : تكلم فى المهد أربعة :

عيسى بن مريم ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وهذا الصبى وهى امرأة حزقيل مؤمن آل فرعون ، والمشهور عن أبى هريرة ثلاثة بإسقاط الشاهد ، قيل : وبعد هذا قيل علمه صلى الله عليه وسلم بالزيادة ، وقيل : تكلم فى المهد أحد عشر إنسانا نظمها السيوطى فى قلائد الفوائد فقال :

تكلّم فى المهد النبى محمد
ويحيى وعيسى والخليل ومريم

ومبرى جريج ثم شاهد يوسف
وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم

وطفل عليه مر بالأمة التى
يقال لها تزنى ولا تتكلم

وماشطة فى عهد فرعون طفلها
وفى زمن الهادى المبارك يختم

ومبرى جريج هو الطفل الذى أبرأ هذا الراهب المسمى جريجا مما رمته به بغية ، بأنه ولده منها بزنى ، صلى ركعتين فطعن بيده فى بطنه فقال : أبى الراعى الفلانى .

وطفل الأخدود هو الذى أرادت أمه أن تتأخر عن الأخدود الذى حفره الجبار ، وأوقد فيه النار لمن آمن ، قال لها : قعى ولا تتقاعسى كما تراه فى محله إن شاء الله .

والطفل المرور عليه بالأمة هو الذى كان يرضع فمروا بها عليه ، وقالت أمه : اللهم لا تجعل ابنى مثلها ، فقال : اللهم اجعلنى مثلها .

وطفل الماشطة هو الذى أراد فرعون ذبحه لما آمنت أمه تخويفا لها لعلها تكفر فأشفقت عليه فقال لها اصبرى .

والذى فى زمان الهادى مبارك اليمامة ، دخلت به أمه على الهادى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فجعل ينظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « من أنا ؟ » قال : أنت رسول الله ، وفى قصة كل منهم طول .

وقال الحسن ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن عباس فى رواية عنه : لم يكن شاهد يوسف صبيا ، ولكنه رجل حليم ذو رأى يرجع إليه الملك ، ويستشيره : وقال السدى : هو ابن عم راعيل الذى كان جالسا مع العزيز عند الباب ، وقيل أخوها ، ويجوز أن يكون بعض أهلها فى المهد يبصر من حيث لا يشعر .

(إنْ كان قَميصُهُ) الخ محكى قول محذوف ، أى فقال : إن كان قميصه الخ ، ويشهد لأنه فى معنى قال (قُدَّ مِنْ قُبُلٍ) قدام (فَصَدَقَتْ) أدخل إن الشرطية وهى الاستقبال على كان ، وهى للماضى : لأن المراد أن يعلم أنه كان قميصه قُدَّ من قُبُل ، أو إن ظهر أنه إن كان قميصه الخ ، وعبارة بعض إن كان تبقى على المضى إذا كانت شرطا ، وقرن الجواب بالفاء مع أنه ماض منصرف مجرد من موجب القرن بها ، لأنه ماضى المعنى على ما قال ابن هشام ، وقيل : بتقدير المبتدأ ، أو قد ، أى فهى صدقت أو فقد صدقت .

(وهُوَ مِنَ الكاذِبِينَ) لأنه لو كان هو الهارب عنها ، وكانت الطالبة له التابعة لم يُقدَّ من قُبُل ، لأنه يُقدُّ منه إذا طلبها ودافعته عن نفسها ، وإذا أسرع خلفها فتعثر بذيله .

(وإنْ كانَ قَميصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ) خلف ، وقرىء من قُبُل ومن دُبُر بإسكان الباء تخفيفا ، وقرأ أبو إسحاق بفتح اللام والراء ، كأنه جعلهما علمين للجملتين فمنعهما الصرف للعلمية والتأنيث ، وقرىء بضمهما قطعا من الإضافة لفظا لا معنى .

(فَكَذَبَتْ وهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) لأنه لا يقدّ من دبر لو لم يهرب فتمسكت به ، وفى رواية عن مجاهد ، أن الشاهد فى قوله تعالى : « وشهد شاهد » وهو القميص المقدود من دبر عليه ، فمعنى كون القميص من أهلها أنه من مال زوجها الذى بين يديها ، فيكون الشرطان والجوابان تفصيلا وبيانا لشهادة القميص ، وقد أجاز بعض العلماء الحكم إذا عدم سواها اعتمادا على هذه الآية .

(فَلَمَّا رَأَى) قطفير العزيز (قَميصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ) علم براءة يوسف (قالَ) أى قطفير العزيز أيضا ، وقال الكلبى ، وابن عباس فى رواية عنه : إن الضمير فى رأى وقال للشاهد ، وأنه ابن عمه ، والذى يتبادر هو الأول ، وبه قال الطبرى (إنَّه) أى إن قَدّ القميص ، وقولك : « ما جزاء من أراد » الخ ، أو أن طمعك فى يوسف أو أن هذا الأمر وأن السوء .

(مِنْ كَيْدكنَّ) خطاب لها ولأمثالها ، أو لسائر النساء ، والكيد الحيل والمكر ، قل لو لم يشهد ليوسف شاهد لعلمت براءته من هروبه ، فإن الطالب لا يهرب ويبحث فيه بإمكان هربه منها لإغضابه إياها بالطلب واتباعهم إياه للانتقام ، ولعلمت براءته من تزينها بأكمل زينة ، فكانت أولى بإلحاق التهمة ولعلمت براءته أيضا من أنه معهم مدة طويلة ، ولم يروا منه ما يناسب إقدامه على ذلك .

(إنَّ كَيْدكنَّ عَظيمٌ) مجرد استئناف أو تعليل مستأنف ، لكنه من جملة المقول ، استعظم كيد النساء لأن الرجال ولو كانوا أقوى إلا أن النساء ألطف كيدا ، وأعلق بالقلب ، وأشد تأثير ، وأنفذ جبلة بمالهن فى ذلك من جودة ومبالغة ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال ، والمرأة القصيرة فى ذاك أشد ، ويواجهن الرجال بذلك ، والشيطان يوسوس به مسارقة .

ومن حديث أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان » ثم تلى قوله تعالى : « إن كيد الشيطان كان ضعيفا » وقوله سبحانه وتعالى : « إن كيدكن عظيم » ، ومثله قول بعض العلماء : إنى أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان ، لأن الله تعالى يقول : « إن كيد الشيطان كان ضعيفا » وقال : « إن كيدكن عظيم » .

ذكر الله عشرة أشياء فى القرآن باسم العظمة : نفسه ، وعرشه ، وخلق نبيه صلى الله عليه وسلم ، وسحر سحرة فرعون ، وكبش إبراهيم ، ويوم القيامة وزلزلتها ، والشرك ، وكيد النساء ، والبهتان ، وروى الطبرانى فى كبيره ، عن أم سلمة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هن أغلب يعنى النساء » .

(يوسُفُ) أى يا يوسف هذا وما بعده من جملة المقول ، وقائله العزيز كما مر ، وحذف حرف النداء تلطفا بيوسف وتقريبا له ، ولقربه مسافة وتفطنة للحديث ، وقيل : قائله الشاهد الذى هو ابن عمها على حد ما سبق شفقة على عرض بنت عمه (أعْرِضْ عَنْ هَذا) اكتمه ولا تذكره لأحد ، وقيل : لاتكترث به فقد ظهرت براءتك .

(واسْتَغفرِى لذَنْبكِ) يا زليخا أو راعيل ، أى توبى إلى الله

سبحانه وتعالى من مراودة يوسف ، ومن رميه بما هو منه برىء ، رضى منها بالاستغفار لشدة حبه لها ، وكان إذا سافر بعث إليها الرسائل بشوقه ، وما يقاسى من ألم فراقها أو اسألى زوجك يصفح عنك ولا يعاقبك على مراودة يوسف ، وهذا على أن القائل هو الشاهد ، وكان زوجها حليما • وروى أنه كان قليل الغيرة ، والله أعلم بصحة ذلك أو عدمها •

(إنَّكِ) تعليل مستأنف ، أو مجرد استئناف (كُنتِ مِنَ الخَاطِئِينَ) أى من القوم الخاطئين ، أى المتعمدين للذنب ، يقال : خطىء إذا تعمد الذنب ، والتذكير للتغليب ، واشتهر الخبر وشاع أنها راودت يوسف •

(وقالَ نِسْوَةٌ) اسم جمع امرأة ، وضم النون لغة لبعض العرب ، والتأنيث باعتبار أنه اسم لجمع غير حقيقى ، ولذلك لم يقل : وقالت نسوة ، وهن خمس : امرأة الساقى ، وامرأة الخباز ، وقيل أمين الخبازين ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب ، وقيل : أربع بإسقاط امرأة صاحب الدواب ، وقيل : امرأة صاحب الملك ، وامرأة صاحب ديوانه ، وامرأة خبازه ، وامرأة ساقيه ، وامرأة السجان وهن خمس وعبارة بعضهم نسوة من أشراف مصر •

(فى المدِينَةِ) هى مصر ، وقيل : هى مدينة تسمى عين الشمس ، والجار متعلق بقال ، أى أشعن فى المدينة وشهَّرن ، أو لمحذوف نعت نسوة (امْرأَةُ العَزيزِ) قطفير والعرب تسمى الملك عزيزا (تُراوِدُ فتَاهَا) غلامها يوسف ، والفتى فى اللغة الشاب ، ولكن لما كان جل الخدمة شبابا شاع استعمال لفظ الفتى فى معنى الخادم والعبد •

(قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) تمييزا محول عن الفاعل ، أى شغفها حبه ، أى دخل حبه شغاف قلبها ، أى غلاف قلبها ، وهو حجابه ، وشق حتى وصل قلبها •

قال بعضهم : شغاف القلب جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب كالجلدة الملتصقة بالكبد ، وذلك أشهر ، وقيل : الشغاف داء يصل القلب ، فمعنى شغفها وصل قلبها ذلك الداء المسمى شغافا منه ، وقال الكلبى : حجب حبه قلبها حتى لا تعقل شيئا سواه ، وهو بمنزلة قول بعضهم : إن المعنى أن حبه أحاط بقلبها إحاطة الشغاف بالقلب وهو غلافه .

وقال عكرمة ، ومجاهد : دخل حبه شغاف قلبها ، وقال الحسن : لوصل الحب شغاف قلبها لماتت ، ولكن الشغاف الجلدة اللاصقة بالكبد ، وهى جلدة بيضاء ، لصق حبه بلقبها التصاق الجلدة بالكبد ، ويناسبه ما روى عن الضحاك : أن المعنى هلكت عليه حبا ، بأن يريد أنه شبه شدة حبها بوصول الحب الشغاف فى التأدية إلى الموت ، وقيل : المعنى خالط جميع بدنها ظاهرا وباطنا لحملها وعرقها وعظمها ، وقيل : الشغاف الدماغ ، وقيل وسط القلب ، وقيل : مكان الروح ، وقرىء بالعين المهملة من شعف البعير إذا طلاه بالقطران فأحرقه بالقطران .

(إنَّا لنَرَاهَا فى ضَلَالٍ مُبِينٍ) فى خطأ عن الصواب ، خطأ واضح عكس ما يجب على أمثالها من العفاف والستر وتحرّت الرشد حيث راودت فتاها عن نفسه .

(فلمَّا سَمِعتْ بمكْرهنَّ) أى بقولهن المذكور ، وسمى مكرا لأنهن قلنه فى خفية عنها ، وهو ضرر لها ، كما أن المكر يخفى وهو مضر ، وقيل : لأنها قد ذكرت لهن أمرها واستكتمتهن إياه فأفشينه ، وقيل : لأنهن قصدن بذلك رؤية يوسف ، وقد وصف لهن بالجمال الفائق ، فأظهرن تخطئتها فى عشق عبد إزراء به فى الظاهر ، لتستظهر عليهن بإرأتهن إياه ، وظاهر بعضهم أنه مروى عن ابن عباس .

(أرْسلتْ إليهنَّ) رسـلا يدعوهن للضـيافة ، وتريد أن تقيم الغدر لنفسها ، صنعت طعاما ، ودعت أربعين امرأة شريفة منهن هؤلاء اللاتى قان امرأة العزيز تراود فتاها الخ ، وعن وهب : أنها ادعت سبعا وأربعين امرأة ، وقيل : دعت عشر نسوة ذوات الأزواج من بنات الملوك ، وعشرا عذارى من بنات الملوك ، فذلك عشرون ، منهن هؤلاء القائلات .

وروى أنها أمرت جاريتها أن تدعوهن ، وزينت بيتها بأنواع الزينة ، وبسطت فرشا من ديباج مذهب ، ونصبت الكراسى من الزمرد الأخضر ، والياقوت الأحمر ، والذهب والفضة ، وقالت لها جاريتها : يا سيدتى قد وقعن فى عرضك وأنت قد أعددت لهن ذلك ؟ قالت : نعم إنى لأعذبهنَّ برؤية يوسف أعرضه عليهن حتى يرينه كلهن ، ثم أحجبه عنهن حتى يمتن من عشقه .

(وأعْتَدتْ) أحضرت هو من عتد بمعنى حضر ، دخلت عليه همزة التعدية (لهنَّ مُتَّكأً) اسم مفعول على الحذف والإيصال ، أى متكأ عليه أى ما يتكىء عليه من الوسائد ، وما يستند عليه ليتكئن أو يستندن .

قال ابن عباس ، وابن جبير ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد : المتكأ ، وسمى الطعام متكأ لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب تترفا ، ويعدون لمن دعوه للطعام ما يتكىء عليه ، ولذلك نهى صلى الله عليه وسلم عن ذاك وقال : « لا أكل متكئاً » فسمى باسم ما يجاوره ، حتى أنهم يقولون : اتكاؤنا عند فلان ، أى طعمنا عنده .

وقيل : المتكأ مجلس الطعام ، وقيل : طعام يجز بالسكين ، سمى

لأن القاطع يتكىء عليه بالسكين ، وقرأ الحسن متكاء بالمد للإشباع ، وقرىء : متكى ، بإبدال الهمزة ألفا ، وقرأ ابن عباس فى رواية وغيره : متكاً بإسكان التاء فقيل : هو الأترج لعلها أهدت أترجة على ناقة ، وكأنها الأترجة التى ذكرها أبو داود فى سننه ، أنها شقت بنصـــفين ، وحملا كالعدلين على جمل ، فإن الأترجة يقال لها : متكة ، وقيل : كل ما يقطع بالسكين من الطعام ، وقرىء متَّكاً بالتشديد والتنوين على الكاف ، وعليها الإعراب من متك الشىء بتشديد يمتكه أى قطعه ، أى أحضرت لهن مـــا يحتاج للقطع ، وعن وهب أعدّت أترجا وموزا وبطيخا ، وقرأ الأعرج متكأ بفتح الميم وإسكان التاء من تكأ يتكأ بمعنى اكتكى ، أى موضـــع اتكاء .

(وآتتْ كلَّ واحِدةٍ منْهنَّ سكِيناً) خنجرا ، وكان من عادتهم أن يأكلوا اللحم والفواكه بالسكين ، وروى أنهـــا أعطت لهن الشراب ، والأترج ، والرمان ، والخمر ، والخبز ، والحوار فيه اللحم المدقوق ، والبيض ، والبقول ، على فرش ومساند حشوها الريش ، وأعطت كل واحدة سكينا لقطع الأترج .

قيل : وكان يسمى بالقبطية متكا ، وعن زيد أنها أعطت كل واحدة صحيفة من عسل وأترجة وسكين حاد ا هـ .

وقالت : لا يخفى عليكن ألا ما قطعتن لفتاى يوسف إذا جاء ؟ فقلن : نعم ، وكان فى بيت آخر قد زينته بكل زينة .

(وقالَتْ اخرُجْ علَيهنَّ) يا يوسف ، فخـــرج كالبدر ليلـــة الكمال من حسنه وجماله ، يهتز كأنه عرج من جنة الخلد ، روى أنها قالت :

ما حقى عليكن ؟ فقلن : أنت سيدتنا ، والكبيرة والمطاوعة فينا ، نسمع لك ونطيع ، فقالت : فحقى عليكن إذا خرج إليكن يوسف فتـاى ، أن تقطعن له مما فى أيديكن وتعطينه يأكل إذا خرج عليكن ، فقلن : حبـًّا وكرامة .

فأقبلت على يوسف وقالت : أطعنى اليوم واعصنى أبدا قال : أما ما لا يكون فيه سخط ربى فلا أبالى ، فقالت : دعنى حتى أزينك ، وإن كنت مزينا ، قال : اصنعى ما بدا لك ، فرصعت ذوائبه بالياقوت ، وكللت جبينه بالدر ، وألبسته قباء أخضر ، ومنطقة من ذهب ، ووضعت منديلا من السندس على عاتقه ، وكأسا من ذهب فى يده ، ووضعت التاج على رأسه ، والإكليل على جبينه ، وألبسته قميصا مرصعا بالدر والياقوت ، ومنطقته بمنطقة من ذهب ، ونعلته بنعلين من در منسـوج ، وطيبته وأرسلت ذؤابتين على كتفيه وأمرته بالخروج عليهن ، وكل واحدة منهن على سرير تقطع الأترج أو نحوه ، وقيل : قـالت لهن : لا تقطعن حتى آمركنّ فخرج عليهن .

(فلمـَّا رأينـَه أكـْبرنـَه) عظمنه جميعا ، وهابت كل واحدة منهن حسنة الفائق ، وكان فضل يوسف على الناس فى الجمال والحسن ، كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء .

وعن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مررت بيوسف الليلة التى عرج بى إلى السماء فقلت لجبريل : مـن هذا ؟ فقال : يوسف » فقيل : يا رسول الله كيف رأيته ؟ قال : « كالقمر ليلة البدر » ومن حديث الإسراء : « ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة ففتح

لنا ، فإذا بيوسف عليه السلام ، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن ، فرحب بى ودعا لى بخير » .

قال إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة : كان إذا سار فى أزقة مصر تلألأ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها ، وقيل : ما كان أحد يستطيع وصف يوسف ، وقيل : كان يشبه آدم يوم خلقه الله تعالى قبل أن يصيب الخطيئة ، وقيل : ورث الجمال من جدته سارة .

قال كعب الأحبار رضى الله عنه : إن الله تعالى مثل لآدم ذريته بمنزلة الذر ، فأراه الأنبياء نبيا نبيا ، فأراه فى الطبقة السادسة يوسف متوجا بتاج الوقار ، ومتآزرا بحلة الشرف ، مترديا برداء الكرامة ، متقمصا بقميص البهاء ، وفى يده قضيب الملك ، وعن يمينه سبعون ألف ملك ، وعن يساره سبعون ألف ملك ، ومن خلفه أمم الأنبياء ، لهم زجل بالسبيح والتقديس ، وبين يديه شجرة السعادة تزول معه حيث زال ، فلما رآه آدم قال : إلهى من هذا الذى أبحت له بحبوحة الكرامة ، ورفعت له الدرجة العالية ؟ قال الله تعالى : هذا ابنك المتوج يا آدم انحله ، قال : أنحلت له ثلثى حسن ذريتى ، ثم ضمه إلى صدره وقبله بين عينيه ، وقال : يا بنى لا تأسف فأنت يوسف .

فأول من سماه يوسف آدم : ولما عصى نزع منه الجمال كله ، فلما تاب رد له الثلث وتوارثه أولاده قسما بتفاوت إلا يوسف فله الثلثان الباقيان ، وكان كضوء النهار على الليل أبيض اللون ، حسن الوجه ، جعد الشعر ، مستوى الخلق ، غليظ الساقين والعضدين والساعدين ، أخمص البطن ، أقنى الأنف ، صغير الصفرة ، بخده الأيمن خال أسود

يزين وجهه ، وبين عينيه شامة بيضاء ، وكانت أهداب عينيه تشبه قوام النون ، إذا تبسم رأيت النور من ضواحكه ، وإذا تكلم رأيت فى كلامه شعاع النور ، يتبين من ثناياه ، ولا يقدر بنو آدم ولا أحد على وصفه .

ويقال : إنه ورث الحسن من جده إسحاق ، وكان إسحاق أحسن الناس ، وإسحاق بالعبرانية الضحاك ، وإسحاق ورث الحسن من أمه سارة ، لأن الله تعالى صورها على صورة الحور العين ، ولكن لم يعطها صفاءهن ، وسارة ورثت الحسن من جدتها حواء ، وكان يوسف يـأكل البقول والفواكه ، فترى فى حلقه وصدره حتى تصل بطنه .

وقال وهب : الحسن عشرة أجزاء ليوسف تسعة ولسائر الخلق واحد ، قال عبد الله بن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هبط علىّ جبريل وقال لى : يا محمد إن الله تعالى يقول لك كسـوت حسن وجه يوسف من نور الكرسى ، وكسوت نور وجهك من نور عرشى » .

قيل لحكيم : يوسف أحسن أم محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يوسف أحسن الناس ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أحسن الخَلْق ، ويناسبه حديث جابر بن عبد الله قال : نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه حلة حمراء ، ونظرت إلى القمر ليلة البدر فهو أحسن فى عينى من القمر .

وقيل : معنى أكبرنه حضن له ، فالهاء على نزع الخافض ، يقال : أكبر المرأة إذا حاضت ، لأنها تخرج من الصغر بالحيض ، فمعنى أكبرنه حضن لأجله من شدة اشتهاء الجماع ، ويجوز على تفسير الإكبار بالحيض

رجع الهاء إلى المصدر ، فلا يقدر جار ، ولا يجوز أن تكون للسكت ، لأن هاء السكت لا تحرك ، وادعاء تحركها بنية سكون الوقف تكلف ، وكون أكبرن بمعنى حضن رواية عن ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، قال : حضن من الفرح وأنكر الزجاج صحة أكبرت بمعنى حاضت ، ولما رأينه رمن أن يقطعن الأترج أو نحوه له ، أو لأنفسهن ، أو رأينهن وهن يقطعن فصرن يكثرن القطع فى أيديهن دهشا منه ، كما قال الله سبحانه وتعالى :

(وقَطَّعْنَ) بالتشديد للمبالغة (أيْديهنَّ) وحسبن أنهن يقطعن نحو الأترج ، ولم يحسسن الألم لشغل قلوبهن به ، واختلط دم الأيدى بدم الحيض على القول بأن أكبرن بمعنى حضن ، ولم تبن أيديهن بالقطع ، بل بقيت متصلة على الصحيح .

وقال قتادة : فصلن الأيدى بالقطع ، وفى ذلك مكر بهن تبكيتا لهن بما فعلن برؤيته مرة واحدة ، وتجبيلا لهن إذا انتبهن ، ومكر به بتهويل الأمر عليه إذا خرج وهو صغير على أربعين نسوة مجتمعات فى أيديهن الخناجر ، توهمه أنهن يثبن عليه بالخناجر مع من ضم إلى ذلك من رؤيته لهن يقطعن أيديهن ولا يتألمن ، فكأنهن نساء من الجن ، ولم يخف شيئا من ذلك ، ولم يؤثر به ، بل علم أن ذلك دهش منهن به .

(وقُلْنَ حَاشَ للهِ) بغير ألف بعد الشين وصلا ووقفا ، وقرأ أبو عمرو هنا وفيما يأتى بالألف وصلا ، وإذا وقف حذفها اتباعا للخط ، وروى ذلك عن اليزيدى أبو عبد الرحمن ، عن أبيه ، وأبـــو حمدون ، وأحمد بن واصل ، وأبو شعيب من رواية أبى العباس الأديب عنه ، والأصل إثبات الألف ، ولكنها حذفت تخفيفا وهو حرف يفيد معنى التبرئة

لا فعل ، ولكنه وضع موضع قولك تنزيها لله ، حتى أن اللام بعده للبيان لعمل اللام ، وأما حاش فلم تعمل هنا ، وساغ ذلك لتنزيله منزلة المصدر كتنزيها ، ولهذا لحقها التنوين أيضا مع أنها حرف فى قراءة أبى الشمائل حاشا لله ، وقرأ ابن مسعود حاش الله بلا تنوين ولا لام ، فيكون حاش جارا للفظ الجلالة ، منزلا معه منزلة قــولك : تنزيه الله ، وبراءة الله ، سبحان الله .

وقرأ الأعمش حشى الله بإسقاط الألف الأولى وإثبات لام الجر ، والحكم ما مر وقرأ حاش لله بإسكان الشين ، حذفت الهمزة تبعا لحذف الألف وهو ضعيف لالتقاء الساكنين على غير حدة ، وقرىء حاشى الإله بألفين .

وإن قلت : ما معنى تنزيه الله هنا ؟

قلت : المراد تنزيهه عن صفات العجز ، وفى ذلك أيضا تعجب مــن قدرته تعالى على خلق مثل يوسف ، وقيل : المراد حاش يوسف لطاعته لله ، أو لمكانه من الله أن يرمى بما رمته [به] لأن هذا من فعل البشر وليس منهم .

قال ابن هشام : حاش فى الآية الآتية تنزيهية ، وأنها عند المبرد وابن جنى والكوفيين فعل للتصرف فيها بالحذف ، ودخولها على اللام ، وأن المعنى جانب يوسف المعصية لأجل الله ، ويضعف ذلك أن هذا التأويل لا يتأتى فى « حاش لله ما هذا بشرا » وأن التصرف بالحذف والدخول على اللام إنما ينفيان الحرفية ، ولا يثبتان الفعلية ، والصحيح أنها اسـم مرادف للبراءة من كذا ، بدليل قراءة بعضهم حاشا لله بالتنوين كمـا

يقال براة الله من كذا ، أى فهى مفعول مطلق ، وعلى هـذا فقراءة ابن مسعود حاش الله بالإضافة كمعاذ الله ، وليس جارا ومجرورا كما توهم ابن عطية ، لأنها إنما تجر فى الاستثناء ولتنوينهـا فى القراءة الأولى ، ولدخولها على اللام فى قراءة السبعة والجار لا يدخل على جاره .

قلت : قد مر الجواب قبل هذا التعايل ، قال وإنما ترك التنوين فى قراءتهم لبناء حاش لشبهها بحاش الحرفية ، وزعم بعضهم أنها اسم فعل معناه أتبرأ أو برئت ، وحامله على ذلك بناءها ، ويرده إعرابها فى بعض اللغات انتهى . وقيل فى قراءة حاشى الله بألفين بلا تنوين أن حاشى فعل من الحشا الذى هو الناحية وفاعله ضمير يوسف ، أى صار فى ناحية الله مما يتوهم .

(ما هَذا بَشَراً) آدميا ، عملت ما عمل ليس لمشاركتها فى نفى الحال ، وذلك لغة الحجازيين ، وقرأ ابن مسعود برفع بشر بالإهمال على لغة تميم ، وقرىء ما هذا بشرى بكسر الباء وبالقصر ، لكن حـذفت الألف نطقا للتنوين على أن ذلك مصدر بمعنى اسم مفعول ، أى ما هو هو بعبد مشترى لئم ، أو تقدير مضاف أى ما هذا بأهل شرى ، أى ليس أهلا أن يشترى .

(إنْ) أى ما (هذا إلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ) فإن حاله غير معهـودة للبشر ، إذ جمع الجمال والكمال اللذين لا يوجدان فى مثله ، والعصمة البالغة مع ذلك الداعى للجمال والكمال الداعيين إلى عدمها أسباب عدمها ، كخضوع النساء لهما ، ودعائهن لحاجتهن ، ولأن جماله فوق جمال البشر ، وإنما يفوقه فيه الملك ، وذلك أن الله جل وعلا ركز فى الطباع أنه لا أحسن

من الملك ولا خير منه غير عقولنا قابلة لتفضيل المؤمن الصادق لكده فى الطاعة وترك المعصية ، ولاسيما الأنبياء ، ولاسيما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عن الملائكة .

وخطأ المزمخشرى قائل ذلك وهو الخاطىء ، وركز فى الطباع أن لا أقبح ولا شراً من الشيطان ، وقرأ الحسن وغيره : إن هذا إلا ملك بكسر اللام ، أى ما هو عبد بل سلطان ، وعلى كل حال فمعنى كريم حسن أو عظيم القدر عند الله سبحانه ، ويجوز أن يكون قولهن : « حاش لله » إلى قوله : « كريم » وصفا بالهيبة والجلالة من جانب نور النبوة ، والثبات فى الأمر ، وبالرعب منه فى ذلك لا وصفا بالجمال من حيث العشق والميل للجماع ، واختاره الفخر .

والمشهور المتبادر المدلول عليه بالسياق واللحاق أن ذلك وصف من حديث العشق والميل للجماع ، نعم يصح أن يردن ذلك كله ، وأنه كالملك فى عدم الباعث للشهوة ، وإنما عددن اسم الإشارة ومقتضى الظاهر أن يقلن إن هو إلا ملك كريم تلذذا بالإشارة إليه .

وروى أنه خرج عليهن وهن يقطعن الأترج ، ولما رأينه ظنن أنه صنم زليخا التى تعبده ، وكن يسمعن به ويتمنين ، وتحيرن وصرن شبه السكارى ، ورمن أن يقطعن له مما فى أيديهن كما شرطت عليهن زليخا فصرن يقطعن أيديهن ، وجعلت الدماء تسيل فى أحجارهن ، ولا يجدن ألم القطع ، ولا وقوع الدم على الأجسام ، ويوسف يقول : ويحكن ماذا تصعن بأنفسكن ، إنما أنا عبد من عبيد ربى ، وزليخ تضحك مما ترى منهن .

ولما غاب عن أعينهن رجعن مع حبهن فقالت لهن : ويحكن هذا ما صنعتن من لحظة واحدة ، وأنا منذ سبع سنين أقاسى ما أقاسى ، وأخدمه على أطراف البنان ، ولا يعيرنى طرفة عين ، ولا يلتفت نحوى ، فقلن لها : ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم من ملائكة ربنا ، وأدركهن الخجل لما انتبهن وذكرن ما لمنها به ، قيل : أمر الله سبحانه السكاكين أن تقطع أيديهن ليختلط دم الحيض بدم القطع لئلا يفتضحن ، ولم تقطع زليخا يديها لأنها اعتادته وتناهى حبه فيها وقيل : أحسسن بالدم ولم يحسسن بالألم .

(قالت) زليخا لهؤلاء القائلات : « امرأة العزيز تراود » إلى آخره (فَذَٰلكنّ) الفاء عاطفة لكلامها على كلامهن الذى هو « حاش لله » إلى آخره ، أو رابطة لجواب شرط المحذوف ، والإشارة إلى يوسف ، وأشارت إليه بإشارة البعيد لأنها قالت بعد ذهابه عنهن وغيبته ، أو قالت ذلك وهو حاضر تنزيلا لعلو شأنه فى الحسن منزلة بعد المسافة الحسية ، أو أشارت إليه باعتباره فى قولهن : تراود فتاها ، وعلى الأولين اسم الإشارة مبتدأ والخبر هو لفظ الذى قوله :

(الَّذِى لمتننَّنى فيه) وعلى الأخير اسم الإشارة خبر المحذوف ، والذى نعت أو بيان أو بدل ، أى هو ذلك العبد الكنعانى الذى لمتننى فيه حين لم تشاهدنه ، والكاف حرف خطاب ، والنون المدغمة بدل من ميم مطلق الجماعة ، والمفتوحة علامة على أن الجماعة إناث ، وقيل : النونان علامة على ذلك ، وضمت الكاف لوقوعها قبل النون القريبة من الواو وقيل : النون المبدلة من الميم التى هى أقرب إلى الواو ، وكذا التاء هى ضمير فى المعنى ، وأصلهما الكسر ، وليس اللوم مختصا بعتاب الحضور ، ولذلك سمت قولهن فى غيبتها يوما .

(ولَقَد رَاودْته عَن نفْسه فاستَعصم) أى طاب العصمة بنفاره ، أو من ربه ، أو عالجها بجهده ، فالسين والتاء للطلب أو للتأكيد ، قال الصفاقصى : تفسير استعصم باعتصم ، أى امتنع ، أو المراد لا يلزم من طلب الشيء حصوله ، قلت : لا إشكال لظهور أن المراد طلب العصمة فنالها ، أقرت لهن بالمراودة لزوال الحياء عنها بفعلهن حين رأينه أكبر مما فعلت فى رؤية واحدة ، فهن يعذرنها ، وليعاونَّها على الإلانة عريكته .

(ولَئنْ لَم يفْعَل مَا آمرُهُ) هذه الهاء رابطة للصلة بالموصول على نزع الخافض ، أى ما آمر به إياه ، فإياه به ، فهى مفعول به بواسطة الجار ، والمفعول الصريح محذوف ، أى ما آمره إيا عائد ليوسف ، واو ذكر الجار لأوصل ضمير يوسف وقدمه ، أى ما آمره به ، وذلك أولى من أن تجعل الهاء المذكورة ليوسف ، والرابط محذوف أى ما آمره به ، ويجوز كون ما مصدرية ، فالهاء ليوسف ، فيقدر مضاف ، أى موجب أمرى إياه بفتح الجيم أو مقتضى أمرى إياه .

(ليُسجننّ وليكُوناً) بكتابة نون التوكيد الحقيقية ألفا ، لأنها تقلب ألفا فى الوقف ، كما يكتب التنوين بعد النصب ألفا ، لأنه يبدل ألفاً فى الوقف نحو : أكرم الله زيدا ، وقرأ ليكونن بنون التوكيد الشديدة ، وهو مخالف للخط ، لأن الشديدة لا تبدل فى الوقف ألفا فلا تكتب ألفا .

(مِنَ الصَّاغِرينَ) من الأذلاء المهانين ، وهو من صغر بكسر العين صَغر بفتحها ، توعدته بذلك وهو يسمع فى الحضرة ومن زاوية البيت ، وقيل : المعنى أجعله فقيرا حقيرا بنزع ما عليه من الثياب ، وسلبت ما وهب له من الأموال .

وروى أنه لما راودته فامتنع ، قالت : يا يوسف فضحتنى لأسلمنك المعذّبين يعذبونك حتى يتسلل جسمك ، كما سللت جسمى ، فقال لها : إن كنت احتقرتنى لغربتى فالله حسبى ونعم الوكيل ، ولما دعتهن للضيافة فرأينه وقطعن أيديهن ، وعذرنها قلن لها : إن شئت راودناه لك ، فقالت : نعم ، فجعلت كل واحدة منهن تدعوه لتراوده لزليخا بحسب الظاهر ، فإذا حضر جعلت تدعوه لنفسها وتشتكى إليه بوجدها وشوقها إليـه ، فقال : يا رب كانت واحدة وصرن جماعة ، فلدعائهن إياه إلى أنفسهن قال : ما ذكر الله سبحانه وتعالى عنه بقوله :

(قالَ ربِّ السِّجْن أحبُّ إلىَّ) أى يـا ربى السجن الـذى توعدننى به أحب إلىَّ (ممَّا يدْعُونَنى إليْه) الواو لام الكلمة ، وهى حرف والنون الأولى فاعل ، والفعل مبنى على السكون لاتصاله بنون الإناث ، وجد السجن محبوبا فى قلبه أكثر مما تميل إليه نفوس البشر من الزنى ، وهو الذى دعون يوسف إليه ، وذلك لأن فى السجن السلامة من غضب الله ، والفوز من النار إلى الحور العين وغيرهن من نعيم الجنة .

وقيل : إنما قال : « يدعوننى » والداعية واحدة وهى زليخا لأنهن قلن له أطع مولاتك ، والأمر بالطاعة فى شىء دعاء إلى الشىء ، وقيل : قال : يدعوننى خروجا من التعريض إلى التصريح .

قال بعضهم : لو لم يقل السجن أحب إلىَّ لـم يبتل بالسجن ، والبلاء موكلٌ بالمنطق ، والأليق بالعبد سؤال العافية ، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يسأل الله الصبر ، فقال له : « سألت الله البلاء فاسأله العافية » كذا قالوا ، والظاهر عندى ما قال يوسف ليس مخالفا

للحديث ، لأنها ألزمته السجن إن لم يطاوعها ، فاشتكى إلى الله بأن قال : كان لابد من أحد الأمرين فالسجن أحبّ إلىّ ، أى المكث فى السجن أحب ، وقرىء السجن بفتح السين على المصدرية ، أى حبسها إياى أحب .

(وإلاّ تَصْرف عنّى كَيْدهنّ) أى احتيالهن فى تحبب الزنى إلىّ إيقاعى فيه ، وأدغم نون إن الشرطية بعد إبدالها لاما فى لام لا النافية (أصْبُ) مضارع مجزوم على الجواب ، وعلامة جزمه حذف الواو والمعنى أمِلْ (إليهنّ) أى إلى أنفسهن بالطبع ، ومقتضى الشهوة ، أو إلى إجابتهن ، والصبوة الميل إلى الهوى ، ومنه الصبا بمعنى الريح المخصوصة ، لأن النفس تستطيبها وتميل إليها لطيب نسيمها ، وقرىء أصبّ بفتح الصاد وتشديد الباء مضمومة من الصبابة وهى الشوق ، أو رقته أو رقة الهوى ، أو إفراط الشوق أقوال ، وعلامة جزمه السكون المقدر على آخره المانع من ظهوره التخلص من التقاء الساكنين ، ولم يتخلص بالكسر مع أنه الأصل فى التخلص منه ، ولا بالفتح مع أنه أخف ، لأن الضمة هى حركة الأصل قبل الجازم .

(وأكُنْ مِنَ الجاهِلِينَ) المذنبين ، فإن الجهل كما يكون بمعنى عدم العلم يكون بمعنى الذنب ، وبمعنى فعل ما لا ينبغى ، ولك أن تقول : هو أبدا بمعنى عدم العلم ، فكل من أذنب أو فعل ما لا ينبغى فللجهل بحقيقة حق المجهول عليه ، ولو عرف ظاهره حيث لم ترسخ معرفته بها ، ويجوز أن يكون المعنى : أكن من الذين لا يعلمون بما يعلمون ، فإنهم والجهال سواء ، حيث لم تكن منفعة فى علمهم بالاقتداء به .

(فاستَجاب لَه ربّه) أى أجاب دعاءه ، لأن قوله : « رب السجن

أحب إلى » إلى قوله : « من الجاهلين » يتضمن الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى من حاله معهن ، ولأن قوله : « وإلا تصرف » الخ فزع إلى الله سبحانه وتعالى إلى ألطاف الله وعصمته .

(فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) بأن ثبته فاعتار السجن على اللذة المحرمة (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ) لدعاء الملتجئين (العَلِيمُ) بأحوالهم ، وما يصلح لهم .

(ثُمَّ) العطف على محذوف أى قالوا ما قالوا ثم (بَدَا) ظهر (لَهُم مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ) أرادوا أولا أن يقتصروا من أمر يوسف بالإعراض وكتم الحال ، ثم ظهر لهم أن يسجنوه ، وفاعل بدا ضمير مستتر عائد إلى المصدر المفهوم منه ، أى بدا لهم بداء كما صرح به الشاعر فى قوله :

* بدا من تلك القلوص بداء *

وجملة ليسجننه جواب قسم محذوف ، ومجموع القسم وجوابه مفسر لذلك البداء ، ولا يمنع من هذا كون القسم إنشاء ، لأن المفسر هنا المعنى المتحصل من الجواب الذى هو خبر ، وهذا المعنى سجنه عليه الصلاة والسلام ، وهذا هو البداء الذى بدا لهم ، قاله ابن هشام ، وقيل : الفاعل ضمير مستتر عائد إلى السجن المدلول عليه بقوله : « ليسجننه » أى بدا لهم السجن بفتح السين ، أو عائد إلى السجن المذكور قبل ، أى بدا لهم أمر السجن ، أو عائد إلى الرأى المدلول عايه بقوله : « ليسجننه » أى بدا لهم رأى ليسجننه ، وقال هشام وثعلب : الفاعل القسم وجوابه ، قال ابن هشام : المشهور منع كون الفاعل جملة مطلقا ، وأجازهما هشام

وثعلب مطلقا ، والفراء وجماعة بشرط كون الفعل قلبيا معلقا عن العمل ، ونسبوه لسيبويه ، والأكثر علـى المنع مطلقـا •

وضمائر الجمع عائدة إلى العزيز وأصحابه ، أو للعزيز وأهله ، أو لكل ذلك ، والآيات : بيعه بأعلى ثمن ، وشهادة الصبى فى المهد ، وقد القميص ، وخمش فى وجهه ، وقطع النساء أيديهن ، واستعصامه عنهن ، قيل : وسجود صنم زليخا له ، ورد الله جل وعلا مثل ما اشتراه به فى الخزائن ، وذلك عادة الآدمى ، يرى الآيات ويعرض عنهن « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » •

قال الملك ريان : قد صح عندى أن الذنب لزليخا ولكن أضعه عليه لئلا ينكشف سترها ، وأسجنه لكى يعذبها بما وجدت عذابا شديدا من حجابها به عنها •

وقرأ الحسن لتسجننه بتاء الخطاب إما خطابا للعزيز وأصحابه ، أو له أو لأهله خاطبهم به ببعض أو له وحده تعظيما ، وذلك أن واو الجماعة مقدر فى لتسجننه ، وكذا فى قراءة الجمهور حذف لإلتقاء الساكنين •

وقرأ ابن مسعود عتّى حين بالعين على لغة هذيل وأقرأها رجـلا وسمعه عمر يقرأ بها فقال له عمر : من أقرأك ؟ قال : ابن مسـعود ، فكتب إليه إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربيا ، وأنزله بلغة قريش فأقرىء الناس بلفظ قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل والسـلام ، والخبر مطلق ، وقد يرون فنه رأيهم ، وقال عطاء ، أرادوا حينا تنقطع مقـالة

الناس فيه ، وقال عكرمة : سبع سنين ، وقال الكلبى : خمسين سنة ، وقضى الله سبحانه بسبع سنين .

قال الكلبى : بلغنا أنها قالت لزوجها : صدقته وكذبتنى وفضحتنى فى المدينة ، فأنا غير ساعية فى رضاك إن لم تسجنه وتسمع به وتعذرنى ، فأمر أن يحمل يوسف على حمار ، فضرب الطبل أن هذا يوسف العبرانى ، راود سيدته على نفسها ، وطيف به فى أسواق مصر كلها ، ثم أدخل السجن .

قال أبو صالح : لم أر ابن عباس قط يذكر هذا الحدنث على يوسف إلا بكى ، وذلك ليحسب الناس أنه المجرم ولإياسها من طاعته ، ولطمعها أن يذلله السجن ويسخره لها ، وتبصر ما يكون منه .

وروى أنها قالت : إن هذا الغلام العبرانى قد فضحنى فى الناس ، وهو يعتذر إليهم ، ويصف الأمر بحسب اختياره ، وأنا محبوسة محجوبة فإما أن تأذن لى فأخرج أعتذر وأكذبه ، وإما أن تحبسه كما حبستنى ، وإلا لم أطق أن أعتذر بعد ، وقد نكس رأسى عند تطايرى ، وشاع خبرى وخبره بمصر .

وروى أنها قالت : لا براءة لى عندهم إلا أن أسجنه ، فسجنه ، وقد علم ببراءته .

وروى أنه قال لها : لا يسجن إلا الملك ريان بن الوليد ، وكان مراده فيما قيل أنه يخرج أمره من يدها ، لأنها ربما حنت عليه وأخرجته ، فأذن لها فى الخروج إلى ريان ، فلبست ثيابها وجعلت تاجها على رأسها ،

وأقبلت حتى أتت ريان بن الوليد ، وكان فى بيته الأعظم ، وهو من حديد ونحاس مرصع بالدر والجواهر ، وكان إذا أراد أحد الدخول عليه نظر إليه الملك قبل الدخول من كوة ، ولما رأى زليخا مقبلة استوى جالسا ، وأمر الغلمان بفتح الأبواب ففتحوها لها ، وكانت ذات قدر عظيم عند مطاعة إذا أمرت ، لأنها كانت من بنات الملوك ، فلما دخلت خرت ساجدة له ، فقال لها : ارفعى رأسك فأنت المقربة المرضية ، وحاجتك عندى مقضية ، فرفعت رأسها إليه ، وأخذت بالثناء عليه ، لأنه من أدب السؤال .

فقالت : أيها الملك دام لك البقاء ، وألبست ثوب النعمة والرخاء ، لم تزل لى مكرما ، وإلى حوائجى مسرعـا ، وإن عبدى العبرانى قـد استعصى علىّ ، وأحب أن تأذن لى فى حبسه فى سجن المجرمين حتى يتأدب ولو بعد حين .

فقال لها : قد جعلت أمر السجن ومن فيه بيدك ، فأطلقى من شئت وأقبلت إلى منزلها وأمرت بإحضار حدادين إليها ، فمثلوا بين يديها ، فقالت : أريد أن تصنعوا لى قيدا محكما لعبدى العبرانى ، فقالوا لها : أيتها الملكة المطاعة فى أمرها ، والعظيمة فى قدرها ، إنا نرى بدناً ناعماً وساقا رقيقا ، ووجها أنيقا ، ولا يخفى أنه ربى فى نعمة شاملة ، وعافية كاملة ، وكيف يقوى هذا على ثقل الحديد ، وثقاف التقييد ؟

قالت : قيدوه ولابد ، فقال : قيدونى فإنى من أهل بيت البلاء ، فقيدوه واحتملوه على الاكتاف إلى السجن ، وتسامع الناس به ، وأقبلوا من كل مكان ، وصعدوا على الجدران ، وامتلأت الطرق ، ولما كثر نظر الناس إليه نكس رأسه ، وألقى يده على صدره ، والناس يقولون : عصى

سيدته الملكة ، وهو يقول : هذا خير من عصيان ربى ، ومن مقاساة النيران ، وسرابيل القطران ، بين حميم آن .

والناس يقولون له : يا يوسف تركت بيت الرخاء والسرور والنعمة والحبور ، واخترت السجن ، ولو اخترت الموت لكان خيرا لك من هذا ، وهو يقول : اخترت ما اختار الله لى إذا كان راضيا عنى فلا أبالى ، ولما وصلوا السجن قالوا للسجان : خذ هذا الغلام واحبسه ، فإن سيدته غضبت عليه ، وأمرت أن يحبس فى سجن المجرمين ، فأدخله السجان إلى السجن ، وأقعده بين أصحاب الكبائر والجنايات .

ودخل العزيز على زليخا فقال لها : ما فعلت بيوسف ؟ فقالت : قيدته وسجنته ، وكان مرادها أن تخرجه عن قريب ، فقال لها العزيز : أقسمت عليك بحرمة الملك ريان بن الوليد ورأسه ، ألا ما أبقيته فى السجن مؤبداً ما دام الملك حيا ، فلم يمكنها إلا إبرار القسم ، وأدركها الندم فلم تجد عذرا تخرج به عن الذى فعلته ، فكانت تصعد إذا جنّ الليل على قصرها ، وتنظر إلى السجن وتبكى وتقول : حبيبى يوسف ، ليت شعرى أنائم أنت أم يقظان ؟ ليت شعرى أجائع أم شبعان ؟ وتبكى الليل وتنتحب حتى ينفجر الصبح وجدا عليه ، وشوقا إليه ، قد أنحلها الغرام ، وخالطها الهيام ، وداخلها السقام ، وهجرها المنام ، ولا تسلوا بشىء إلا تذكره ، ولا تسأل إلا عن أمره .

قال وهب : مات جماعة منهن يعنى بالعشق لا بقطع الأيدى كما قد يتوهم ، وفى زهر الأكمام : مات من النسوة التى رأيته تسع نسوة شوقا إليه ، ووجدا عليه ، وروى أن زليخا أرسلت إلى السجان تشكو إليه الأشجان .

وفى عرائس القرآن : جعل الله تعالى ذلك السجن تطهيرا ليوسف من همه بها ، وكذا عن السدى .

(ودَخَلَ مَعَه السِّجْنَ) خادمان للملك ، قال بعض : هما عبدان له غير حرين ، اتفق دخولهما ودخول يوسف بوقت واحد ، كما تدل عليه لفظة مع ، فإنها للصحبة ، وقد تستعمل بمعنى جميع ، والغالب دخولها على الفاضل كما هنا ، وكما فى قولك : جاء الجند مع الأمير ، وتدخل مع المفضول .

والفتيان : صاحب شراب الملك ، وصاحب طعامه ، سمع الملك أنهما يريدان أن يسماه فسجنهما وهو الملك الأكبر ريان بن الوليد العملقى ، واسم صاحب الشراب : بنوى ، واسم صاحب الطعام : مجلة ، وذلك أن جماعة من أهل مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله ، فأتوهما وضمنوا لهما مالا على أن يسماه فى طعامه وشرابه ، فأجابوا إلى ذاك ، ثم ندم الساقى ، وقبل صاحب الطعام الرشوة ، فسم الطعام ، فلما حضر وقت الطعام قال الساقى : أيها الملك لا تأكل الطعام فإنه مسموم ، وقال الخباز : أيها الملك لا تشرب فإن الشراب مسموم ، وكان لم يلق فى الشراب [سم] .

وروى أنه جعله بين أصبعيه ليلقيه فندم ، فطرحه فى غير الماء ، فقال الملك للساقى : اشرب فشرب فلم يضره ، وقال للخباز : كل من طعامك فأبى فجرب ذلك الطعام فى دابة فهلكت من حينها .

ورواية السدى : أن الملك اتهمهما بأن الخباز منهما أراد أن يسمه

ووافقه الساقى فسجنهما ، قال فى زهر الأكمام : إن قوما من أهل مدين ضموا لهما مالا على أن يسماه فقبلا ، وانتهى خبرهما إلى الملك ، وكان الساقى فطنا كيسا ، راجع عقله وقال : لا أعجل بإلقاء السم فلعل الملك قد يسمع فيأمرنى أن أشرب ، فإن لم أشرب افتضحت ، وإن شربت مت ، فجعل السم بين ظفرين من أظافره ، وقال : إن بلغه ذلك وأمرنى أن أشربه شربت ، وإن لم يبلغه وأمرنى أن أناوله شرابه جعلت السم فيه .

وأما صاحب الطعام فلم يدبر شيئا فألقى فيه السم ، فلما قدم الساقى الشراب قال له : اشرب فشرب ، ورمى السم من يده ، ولما قدم الخباز طعامه المسموم قال له : كل ما قدمت إلى ، فتغير لونه واضطربت مفاصله ، واصطكت ركبتاه ، وامتنع أن يأكل ، فدعا الملك بسنور وأمر بتقديم الطعام إليه فأكله فهوى من ساعته ، وانتفخ وانتثر ، وتحقق الملك خيانته ، وارتاب فى صاحب الشراب فسجنهما معا ليرى رأيه فيهما .

(قالَ) ليوسف بعد استقرارهما فى السجن (أحدُهُما) وهو ساقيه (إنِّى) وسكن الياء غير نافع وأبى عمرو (أرانى) سكنها غيرهما وغير ابن كثير ، أى أرى نفسى فى المنام ، والرؤيا الحلمية يجوز أن تعمل فى ضميرين متصلين مرجعهما واحد كالرؤية العلمية والظنية ، وقد عملت الحلمية هنا فى الضمير المستتر وفى الياء .

(أعْصِرُ خَمراً) أى أعصر عنبا وسماه خمرا ، لأنه يئول بعد العصر خمرا ، فهو مجاز مرسل ، وعلاقته الأول وهذا هو المشهور فى كتب المعانى والبيان وغيرها ، ويجوز أن يكون أعصر مضمنا معنى أستخرج ، فالتجوز على هذا فى أعصر لا فى خمرا ، وقيل ذلك بلغة أزد عمان ، وكانوا

يسمون العنب خمرا ، وعليه فلا مجاز ، وقرأ ابن مسعود أعصر عنبا ، ويحتمل أن تكون قراءة تفسير ، والمضارعان فى أرانى أعصر خمرا حكاية حال ماضية ، كان الساقى حال إخباره يوسف بذلك ملتبس بالرؤيا والعصر للخمر .

روى أن الساقى قال : رأيت كأنى فى بستان فيه أصل شجرة عنب فيها ثلاثة قضبان فى كل قضيب عنقود ، وكان كأس الملك فى يدى ، فجنيت العناقيد فعصرتهن فى الكأس ، فسقيت الملك فشرب . وفى رواية رأيت كأن الملك دعانى وردنى لقصره ، فبينما أنا أدور فى القصر إذا بثلاثة عناقيد عنب فعصرتها ، فجعلتها فى كأس لأسقى الملك ، وفى رواية أنه استيقظ فرحا وقال : إنى رأيت فى منامى كأن بين يدى ثلاث طسوس من ذهب فى طبق ، فى كل طست ثلاثة أصول من الكرم ، وعلى كل أصل ثلاثة عناقيد من العنب ، فأخذت العناقيد وعصرتها خمرا ، وسقيت الملك .

(وقال) ليوسف أيضا (الآخرُ) وهو صاحب طعام الملك (إنِّى أرانى) فى الياءين ما مر (أحْملُ فوقَ رأسى خبزاً تأكلُ الطَّيْر منْهُ) نهشا بأفواهها ، وهكذا أكل الطير فى الكشاف : رأيت أن فوق رأسى ثلاث سلال فيها ألوان أطعمة ، وإذا سباع الطير تنهش منها ا هـ .

ولم يذكر الله فى الآية إلا الخبز ، ولكن لم يذكر بصيغة حصر ، فإن صح أن مع الخبز سواه لم يناف الآية ، وفى رواية : رأيت كأن الملك أخرجنى ودفع إلىَّ طيفورة عليها خبز فوضعتها فوق رأسى ، والطير تأتى وتأكل منها .

وفى رواية كأنى خرجت من مطبخة الملك ، وعلى رأسى ثلاث سلال من خبز ، فأكل الطير من أعلاها ، وفى رواية كأن فوق رأسى ثلاثة تنانير من حديد ، مضرمة بنار ، فخبزت خبزا كثيرا ، وملأت منه ثلاث سلات وحملتهن على رأسى ، وكانت السلة العليا مكشوفة ، والطير تسقط عليها من الهوى فتأكل منها .

أما الساقى فرأى تحقيقا ، وأما الخباز فلم ير شيئا ، ولكنه ابتدع الرؤيا المذكورة ، وقيل كلاهما رأيا تحقيقا ، وعن ابن مسعود ما رأى أحدهما شيئا ، ولكنهما تحالما أى ادعيا رؤية المنام ، وقال : تعال نجربه ، وذلك أنه أخبرهم أنى عالم بتأويل الرؤيا . وروى أنهما رآهما مهمومَيْن فسألهما فذكرا أنهما غلامان الملك حبسهما ، وأنهما رأيا رؤيا .

(نبّئْنا) أخبرنا (بتَأويلِهِ) أى بتعبير ما رأينا إن كنت تعرفه (إنّا نَراكَ من المحْسِنينَ) إلى أهل السجن بالإقامة على مريضهم ، ومداواة الجريح ، والتوسيع لمن ضيق عليه فى المكان ، ومواساة من احتاج من وظيفته ، وبالجمع له ، وتصبير المحزون .

وكان فى السجن ناس انقطع رجاؤهم ، وطال حزنهم ، فجعل يقول : أبشروا واصبروا تؤجروا ، إن لهذا لأجراً ، فقالوا : بارك الله عليك ، ما أحسن وجهك ، وأحسن خلقك ، لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يا فتى ؟ قال : أنا يوسف ، ابن صفى الله يعقوب ، ابن ذبيح الله إسحاق ، ابن خليل الله إبراهيم ، قال الفتيان : أحسن إلينا بتأويل ما رأينا ، بما تفرج به الغمة .

ومع ذاك الإحسان ، كان يقوم الليل كله بالصلاة ، ويصوم النهار ،

ويجتهد فى العبادة ، وذلك قول الضحاك وقتادة ، وقيل : المعنى إنا نراك من الذين يحسنون تعبير الرؤيا ، وكانا قد رأياه يجيد تعبيرها إذا قصها عليه بعض أهل السجن ، وقيل : إنا نراك من العلماء ، لأنهما سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم ، وهذا قول الجمهور .

وروى أن الفتيين قالا له : إنا قد أحببناك مذ رأيناك ، فقال : أنشدكما بالله لا تحبانى ، فوالله ما أحبنى أحد إلا دخل علىّ من حبه بلاء ، لقد أحبتنى عمتى فدخل علىّ من ذلك بلاء ، وأحبنى أبى فألقيت فى الجب ، وأحبتنى امرأة العزيز فحبست ، فلا تحبانى بارك الله فيكما .

وقال له عامل السجن : لو استطعت لخليت سبيلك ، ولكن أحسن جوارك ، فكن فى أى بيوت السجن شئت ، وقال : لقد أحببتك حبا شديدا ، فقال له : لا تفعل ، فإنى أعوذ بالله من حبك ، قال : ولم ذلك ؟ قال : أحبنى أبى ففعل بى إخوتى ما فعلوا ، وأحبتنى سيدتى فكان من أمرى ما ترى .

(قَالَ لا يأتيكُما طَعامٌ) فى المنام (تُرزَقانه) الهاء مفعول ثان ، والأول ناب عن الفاعل وهو الألف (إلا نبأْتكُما بتَأويلهِ) بتعبيره (قَبْلَ أنْ يأتِيكُما) فى اليقظة فتجدانه على ما وصفت من هيئة وعدد ، أو لا يأتيكما طعام فى اليقظة إلا بينت لكما هيئته ونوعه ، وكونه حلوا أو حامضا ، باردا أو سخنا ، وعدده فتجدانه إذن كما بينت ، وذلك كقول عيسى عليه السلام : « وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم » والوجه لأول يقول به السدى ، وابن إسحاق ، والثانى يقول به ابن جريج وهو الصحيح .

وعلى كل حال فذلك شروع من يوسف عليه السلام من غير ما أراد فى تبير رؤياهما ، لأن فى رؤيا أحدهما مكروها ، فإن رؤيا الخباز تأويلها الصلب فكره الإخبار بها وأعرض ، لعلهما ينسبان ، وقيل : لأنه أراد أن يبين لهما درجته فى العلم والنبوة والمعجزة ، أعظم وأعلى مما طلبا منه من التعبير للرؤيا المبنى على التخمين والظن ، ولا شك أن الإخبار عن الغيب على سبيل اليقين أعظم ، والعالم به عالم بتعبير الرؤيا بطريق أولى .

وقيل : لأنه علم أن أحدهما يصلب فأراد أن يدخله فى الإسلام ويخلصه من الكفر ودخول النار ، فيأخذ بحظه من الإسلام ، وتمام له آخرته فلا يخسرها كما خسر دنياه ، ولا مانع من أن يريد جميع ما فى تلك الأقوال كلها ، بل هو أولى ويريد مع ذلك زيادة هى أنه إذا أخبرهما بدرجته زادا له تصديقا فقصداه بالانتفاع فى الدين ، وأنه دلهما على ما هو أولى أن يسألا عنه وهو التوحيد ، فإنه أراد إرشادهما إليه كما دل عليه ما يأتى ، وهكذا طريق الأنبياء والعلماء والصالحين مع الفسقة والسفهاء ، إذا استفتوهم أن يقدموا الموعظة والإرشاد إلى ما هو أعظم مما سألوا وأنفع ، ثم يفتوهم ، وغرض يوسف ذلك لا التزكية حاشاه ، ولما قال لهما ذاك ، قالا له : ذلك من علم العرافين والكهنة والنجامة ، فمن أين لك ذلك ومن علمكه ؟ قال :

(ذلِكُما) أى التأويل (ممَّا علَّمنى ربِّى) بالإلهام والوحى ، لا تكهن ولا تعرف ولا تنجم ، وكان يعتقدان أن لا رب سوى الملك ريان ابن الوليد ، وسكن الياء غير نافع وأبى عمرو (إنِّى) استئناف مجرد للترغيب أو تعليل لتعليم الله عز وجل ذلك له (تركْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يؤمنُون بالله) أى رفضت دين قوم غير مؤمنين بالله ، ولم أدخله قط قبل كونى

مع العزيز ، وبعد كونى معه ، وإنما عبر بالترك مع أنه لم يدخله قط استجلاباً لهما عسى أن يتركا ما هما فيه من الشرك ، والمراد بالقوم المشركون مطلقا ، وقيل : الملك وأتباعه .

(وهُم بالآخِرة هُم) تأكيد لشدة إنكار البعث والجزاء ، وللدلالة على اختصاصهم بالكفر ، وأن غيرهم مؤمنون ، وهم الذين على ملة إبراهيم ، وللتعريض بما أصيب به من جهتهم إذ سجنوه بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته (كافِرُونَ) .

(واتَّبعتُ مِلَّة آبائى إبْراهِيم وإسْحاقَ ويعْقُوب) استئناف أو عطف على التعليل ، أى علمنى ذلك لأنى تركت ملة قوم لا يؤمنون الخ ، ولأنى اتبعت ملة ، وعلى الوجهين فالكلام تضمن التمهيد للدعوة إلى الإيمان ، لكن إن جعلناه مستأنفا فهو لمجرد التمهيد ، أو عطفا على التعليل فللتمهيد ، والتعليل أظهر أنه متبع لملة هؤلاء الكرام المشهورين بالرسالة والدرجة العليا فى الآخرة والدنيا المرضيين عند الناس ، وأنه من ذريتهم ترغيبا لهما فى الاستيثاق به ، والاقتباس منه ، فإنه يجوز لمن لا يعرف أن يصف نفسه حتى يعرف ويرغب فيه إذا كان غرضه أمر الآخرة أو أمرا مباحا .

(ما كانَ لنا أن نُشْرِكَ بالله مِنْ) صلة للتأكيد (شَىءٍ) مفعول نشرك ، والإشراك اسم كان ، ولنا خبرها ، أو هى تامة والإشراك فاعل ، ولنا متعلق بها ، أو صلة للتأكيد ، ولنا خبر المبتدأ الذى هو الإشراك ، والضمير فى لنا لمعشر الأنبياء أو ليوسف وآبائه المذكورين ، أو للناس كلهم ، وعلى الوجهين الأولين ، فالمعنى ما يصح ، أو ما ينبغى

لنا أن نشرك بالله شيئا بعصمتنا ، والمراد بالشيء العاقل كالملك والآدمي والجنى ، وغير العاقل كالأصنام ، وقيل : المراد هنا العاقلين لينبه على خطئهم فى عبادة جماد لا يضر ولا ينفع ، ولا يسمع ولا يبصر بالطريق الأولى .

(ذَلِكَ) المذكور من تعليم الله إياه ، واتباعه ملة آبائه (مِنْ فَضْلِ الله عَلَيْنا) أى علىّ وعبر بلفظ « نا » تعظيما لتلك المنزلة ، لا تعظيما لنفسه بالذات ، أو الإشارة إلى التوحيد ، فيكون ضمير علينا ليوسف وآبائه (وعلى النَّاسِ) إذ نصيب لهم الأدلة بواسطتنا معشر الرسل ، وبين لهم طريق الهداية بنا .

(ولكنَّ أكْثَرَ النَّاس) وهم الكفار (لا يشْكُرونَ) الله على ذلك لعدم تنبههم له ، أو ذلك الذى نصب الله أدلة التوحيد من فضل علينا ، أو على الناس جميعا ، ولكن نظرنا فاسد للنا فشكرنا ، وأكثرهم لم ينظر فلم يستدل فلم يشكر بأن بقى كافرا .

(يا صَاحِبِى السِّجْنِ) أضافهما للسجن لملابستهما له ، وكأنه قال : يا ساكنى السجن ، كما يقال : أصحاب الجنة ، وأصحاب النار ، أو الإضافة بمعنى فى كأنه قيل : يا مصاحبين لى فى السجن (أأرْبابٌ) آلهة (مُتفرِّقونَ) أى متعددون ، فإن المتعدد متفرق كل منه على حدة كذا ظهر لى ، أو معنى تفرقها تخالفها ، هذا من شجر ، وهذا من حجر ، وهذا من فضة ، وذاك من ذهب ، وذلك من نحاس وغير ذلك ، وواحد طويل ، وآخر قصير ، وآخر متوسط ، ولا تضر ولا تنفع تلك التسمية والعبادة بالذات ولا بغيرها ، وجمع السلامة للمذكر تغليب للعقلاء

المربوبين ، أو تنزيل لغير العقلاء منزلتهم ، لأنهم كذلك عند عائديها وهذا على أن المراد غير العقلاء (خيرٌ أمِ اللهُ الوَاحِدُ) لم يزل وحده ، أو المعدم للشريك والقرين ، أو المنفرد فعلا وقولا وصفة وذاتا ، واستحقاقا للعبادة بالحقيقة ولو لم تفطنا لها (القهَّارُ) أى الذى لا يقاومه غيره ، فضلا عن أن يغبه ، وقد قهر الجبابرة من خلقه بالعقوبة فلم يردوها إذا جاءتهم ، وقهر الخلق كلهم بالموت ، وانقادت له الأجسام والأعراض ، وتلك الأرباب معبودة من دون الله ، مقهورة ، والاستفهام للتقرير أو لإنكار أن تكون الأرباب خيرا ، وذاك جلب لهم إلى التوحيد بألطف وجه ، إذ حاجهما بدرجة يسيرة متى سلمهاها لزمت عنها درجة فوقها حتى يتوصل بهما إلى الحق ، ولو حاجهما بما هو الحاصل دفعة لزاد نفورا .

(ما تَعبُدونَ مِنْ دُونه إلا أسماءً سميتمُوها أنتم وآباؤكم) خالية عن معنى الربوبية والألوهية ، وذاك أنهم يعبدون الأوثان ويسمونها آلهة وأربابا ، وما تحصلوا فى ذلك إلا على أسماء ليست تحتها ذوات تستحقها ، وإن قلنا : المراد بالأسماء المسميات ، احتاج الكلام إلى تقدير مفعول ، أى سميتموها آلهة أو أربابا ، والمختار الأول ، والمراد بالآباء الوالدون والأجداد .

(ما أنْزَلَ اللهُ بهِا) أى بعبادتها أو بثبوتها أربابا وآلهة ، أو بتسميتها كذلك (مِنْ) صلة للتأكيد فى المفعول به (سلْطانٍ) أى حجة وبرهان ، قيل : كانوا يدعون أن الله أمرهم بتسمية الأوثان آلهة وأربابا ، فرد عليهم يوسف بأن الله سبحانه وتعالى ما أمر بذلك ، بل عبدتم وسميتم تشبها وتقليدا ، ولا حجة عقل ولا نقل فى ذلك ، ابتدأ الخطاب أولا لصاحبيه الخباز والساقى ، فكان الضمير ضمير اثنين ، ثم جميع

من كان فى السجن ، فكان الضمير ضمير جمع ، أو خاطب بضمير الجماعة من فى السجن وأهل مصر تغليبا للحاضر على الغائب .

(إنِ) ما (الحُكْم) القضاء فى أمر العبادة والديانة ، والأمر والنهى (إلاّ لله) لا يشاركه الأوثان ولا غيرها فيه (أمَرَ ألا تعبُدُوا إلا إيّاه) أمركم على لسان رسله أن لا تعبدوا إلا إياه ، لأنه المستحق للعبادة ، لأنه الواجب الوجود لذاته ، الموجد لما سواه ، والملك له ، الدال عليه بالحجج .

(ذلكَ) المذكور من التوحيد ، واختصاص الله بالعبادة (الدِّينُ القيِّمُ) المستقيم بالبراهين والعقل (ولكنَّ أكثَرَ النّاس) وذلك الأكثر هم الكفار (لا يعْلَمونَ) ذلك ، ولا الجزاء على خلافه ، فهم يتخبطون فى جهلهم .

وروى أن الساقى والخباز قالا : بأى شىء توصلت إلى معرفة الغيب ؟ ومن علمك ؟ فقال : « إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون » فقالا : وما دينك ؟ وما تعبد ؟ قال : « واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب » قالا : أولا عبدت إلهنا ؟ قال : « ما كان لنا أن نشرك » الخ فآمن الساقى دون الخباز ، وآمن كل من فى السجن وهم ألف وأربعمائة رجل ، فقال : أيما أحب إليكم المكث معى أو الخروج ؟ فقال الألف : نريد الخروج ، فقال لهم : اخرجوا ، فقالوا له : كيف نخرج والقيود على أرجلنا ، والأغلال فى أعناقنا ، والسلاسل فى أيدينا وأرجلنا ، وإذا خرجنا على هذه الصفة يرانا حرس الملك فيعرفوننا ، فقال : أنا أدعو الله أن يغير صوركم حتى لا يعرفكم إلا أهليكم ، ثم

أشار إلى القيود والأغلال فتساقطت وتقطعت ، وخرجوا فلم يعرفهم أحد حتى دخلوا بيوتهم ، وأخبروا أهليهم بما فعل يوسف ، واختار الباقون البقاء معه فى السجن ، وكان الرجل إذا فارق السجن يعود إليه ويتمنى أن لا يكون قد فارقه ، وبعد ما تلطف لهما بما يجلبهما للإسلام رجع لتعبير رؤياهما •

(فقال يا صَاحِبَىِ السِّجن أمَّا أحدُكما) وهو صاحب شراب الملك (فَيَسْقِى ربَّه) سيده وهو الملك (خَمراً) كما كان يسقيه قبل الخمر وغيرها ، وخصها بالذكر لأنه رأى أنه يعصر خمراً ، يعنى أنه يعود بمنزلته كما كان ، وتحسن حاله مع الملك والقضبان الثلاثة ، ثلاثة أيام يبقى فى السجن فيها فيخرج ، وقيل : إنه قال : اتبعنا قيد الثلاثة ثلاثة أيام للبقاء ثم تخرج ، وأما ظل الشجرة وحسن ورقها فهو عملك الذى كنت عليه ، وحسن حالك عند الملك ، يسأل عنك الملك فيردك إلى عملك وتعطيه الكأس فيأخذها ويشرب ، وقرأ عكرمة فيسقى ربه خمرا بالبناء للمفعول ورفع رب •

(وأمَّا الآخرُ) وهو صاحب طعام الملك (فيُصْلَب) على خشبة نخلة (فتأكُلُ الطَّير مِنْ رأسِهِ) والسلال الثلاث الآتى على رأسه ثلاثة أيام يمكثها فى السجن ، وأكل الطير الخبز منها أكلها من دماغه إذا خرج بعد الثلاثة وصلب ، وروى التنانير الثلاثة بدل السلال الثلاثة ، فصاح فقال : ما رأيت شيئا إنما جئت لأجربك ، وروى أنهما قالا : ما رأينا شيئا فقال :

(قُضِىَ الأمر الَّذى فِيه تَسْتَفْتيان) صدقتما أو كذبتما ،

وإنما وحد الأمر مع أنهما استفتياه فى أمرين ، لأن المراد حقيقة الأمر أو لأن المراد بالأمر ما اتهما به من سم الملك وسجنا من أجله ، بل الخباز قطع بأنه سمه ، وكأنهما استفتياه فى أمر السم عاقبتهما النجاة أو الهلاك ، وظاهر كلام كثير أن ذلك وقع فى الليلة الأولى من سجنهما ، ومكث بعدها ثلاثا فخرجا ، فصلب الخباز فكانت الطير تأكل من رأسه ، وأعيد الساقى على عمله مع الملك ، فلما رأى السجان صدق تعبيره أحبه وقال لـه : أحبك كما مر .

وقيل : إن ذلك بعد أربع سنين من يوم سجنهم ، لما تمت أربع سنين أوحى الله سبحانه إلى جبريل : يا جبريل انزل على عبدى يوسف بتعبير الرؤيا ، فإنى قد رحمت غربته ، واستجبت دعاءه ، فهبط فقال : السلام عليك يا رأس الصديقين ، فقال : وعليك السلام يا أمين رب العالمين ، فقال : افتح فاك وخذ ما أتحفك به مولاك ، ففتح فاه فألقى فيـه جبريل لؤلؤة صفراء ، ولما استقرت فى جوفه خرج من بين عينيه نور كالشمس ، فعلم تعبير الرؤيا كلها لوقته بلا دراسة ولا تعليم ، فازداد حبا فى أهل السجن ، وكان يعبر لهم ، وتكامل حبهم له ، فرأى الساقى رؤياه وقصها على الخباز ، فقال الخباز : أما أنا فلم أر شيئا ، وسابتدع رؤياه ، فابتدع رؤياه المذكورة .

(وقالَ الَّذى ظَنَّ أنه ناجٍ مِنْها) أى علم أنه ناج بدليل قوله : « قضى الأمر » فإن المعى قضى الله ، وهو مقضى ما مر من أن الله جل وعلا أتحفه بتأويل الرؤيا ، وإلقاء جبريل لؤلؤة صفراء فى فيه ، وإن كان الأمر فى ذلك موكولا إلى اجتهاد ، فكان على شك فى التعبير ، ولو كان لابد من صدق تعبيره فالظن رجحان ، فمعنى « قُضى الأمر » فرغت من التعبير

والحكم ، وعلى هذا الوجه قتادة ، والضمير فى ظن ليوسف كالذى فى قال ، ويجوز كونه لصاحب الشراب ، وعليه فيحتمل أنه رجحان ، ويحتمل أنه جزم بصدق يوسف ، والاحتمالان فى جانب صاحب الشراب ، ولو كان تعبير يوسف بوحى لا باجتهاد إن لم يؤمر إلا بعد ذلك ، أو قد آمن وضعف إيمانه ، أو لم يعلم أنه بالوحى ، وذلك الناجى هو صاحب الشراب المذكور .

(اذْكُرنى) اذكر حالى (عِنْدَ ربِّكَ) سيدك وهو الملك الأكبر ايخلصنى من السجن ، وقل له : إن فى السجن غلاما محبوسا ظلما ، وفى رواية بعد ذلك طال سجنه ، وفى رواية : قل له : إن فى حبسك غلاما عبرانيا منذ خمس سنين ظلما ، ونسبة إلى ما هو منه برىء ، ويجوز أن يكون المراد اذكر منزلتى فى الحسب والنسب ، والعلم والمكانة ، أو اذكر هذا وكونى مظلوما إذ سجنت بما أنا برىء منه ، فقال صاحب الشراب : إن شاء الله .

(فأنْساهُ الشَّيطانُ) وسوس له بما يشغله حتى يقع فى النسيان ، وأما الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله (ذِكْرَ ربِّه) أنسى الشيطان ذلك الساقى ذكر يوسف عند ربه ، أى سيده ، وأضاف الذكر لربه ، لأن ذكر يوسف إنما يقع من الساقى عند الملك ، والإضافة تصح لأدنى ملابسة ، ويجوز أن يقدر مضاف ، أى ذكر إخبار ربه بكسر الهمزة ، ويجوز أن تعود الهاءان إلى يوسف ، فيكون الرب هو الله جل وعلا ، أى أنسى الشيطان يوسف أن يذكر الله حين وكّل أمره إلى غيره ، وعليه الأكثر ، وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقل أحدكم

عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى ، ولا يقل المملوك لسيده وسيدته ربى وربتى وليقل سيدى وسيدتى كلهم عبيد والله هو الرب » .

(فَلَبِثَ فى السِّجنِ) الفاء سببية ، والسبب إنساء الشيطان ، والمعطوف عليه قوله : « أنساه الشيطان » أو السبب هو قوله : « للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى » وعليه فالعطف على قوله : « قال » ويدل لهذا قوله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك ما لبث فى السجن ما لبث » وعن ابن عباس : عند يوسف ثلاث عثرات : هم بها فسجن ، وقال اذكرنى عند ربك فلبث فى السجن بضع سنين ، وقال لإخوته إنكم لسارقون ، قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل .

(بِضْعَ سِنِينَ) قال قتادة : يطلق البضع على ما بين الثلاث إلى التسع ، وقيل : إلى العشر ، وعليه ابن عباس ، والمراد هنا سبع سنين لبثها بعد خمس سنين ، وذلك اثنتا عشرة سنة ، وقيل : إنه ما لبث فى السجن إلا سبع سنين أو أنها البضع ، وأن تمامها فى السجن مسبب الإنساء ، وعن قوله : اذكرنى ، وذلك عقوبة على قوله : اذكرنى .

قال الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى » وقال عيسى : « من أنصارى إلى الله » وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإعانة وتفريج الكرب ، ولم يأخذه النوم ليلة ، وكان يطلب من يحرسه حتى جاء سعد فأخذه النوم ، ولو كان الملك كافرا إذ يجوز الاستعانة بالكفار فى دفع المضار ، لكن لما كانت مناصب الأنبياء أعظم منصب عند الله سبحانه ، كان اللائق بهم أن يتمسكوا بأعلى درجة فى الصبر ، وعدم ملاحظة

الخلق ، ولا سيما أن هذا ملك كافر ، فإذا استعان به قال الكفرة لو كان الأمر كما قال لأغناه ربه عن الملك ، وكان الحسن إذا قرأها بكى وقال : نحن إذا أنزل بنا أمر فزعنا إلى الناس .

روى أنه لما قال يوسف : « اذكرنى عند ربك » أوحى الله إليه : اتخذت من دونى وكيلا ، لأطيلن حبسك ، فبكى وقال : يا رب أنسى قلبى كثرة البلوى فقلت ما قلت فويل لإخوتى .

قال فى عرائس القرآن : يحكى أن جبريل عليه السلام دخل عليه فى السجن فعرفه يوسف فقال : يا أخا المنذرين ما لى أراك بين الخاطئين ؟ فقال له جبريل : يا أطهر الطاهرين يقرىء عليك السلام رب العالمين ويقول لك : أما استحيت منى أن استشفعت بالآدميين ، فوعزتى وجلالى لألبثنك فى السجن بضع سنين ، قال يوسف : وهو عنى فى ذلك راض ؟ قال : نعم ، قال : إذن لا أبالى .

قال كعب : قال جبريل : يقول الله عز وجل : من خلقك ؟ قال : الله ، قال : فمن رزقك ؟ قال : الله ، قال : فمن حببك إلى أبيك ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن آنسك فى البئر ؟ قال : الله ، قال : فمن نجاك من كرب البئر ؟ قال : الله ، قال : فمن علمك تأويل الرؤيا ؟ قال : الله ، قال : فمن صرف عنك السوء والفحشاء ؟ قال : الله ، قال : فكيف استغثت بآدمى مثلك ؟ فسكت ولم يجبه . انتهى كلام عرائس القرآن .

وروى أنه قال : زلة منى ، ولا أعود لمثلها ، وفى زهر الأكمام : أوحى الله إلى جبريل عليه السلام : اهبط على عبدى يوسف وعاتبه كيف

استشفع بعبد دونى لا يعرفنى ، قد وكلته إلى الملك ريان سبع سنين ، فهبط ونادى : السلام عليك يا طيب الطيبين ، يقرئك السلام ربِ العالمين ويقول لك : من خلقك ولم تكن شيئا ؟ قال : الله ، قال : ومن نجى أباك يعقوب من أخيه بعد ما هم بقتله ؟ قال : الله ، قال : ومن فدى جدك إسماعيل بذبح عظيم ؟ قال : الله ، قال : ومن نجا جدك إبراهيم من النار وصيرها عليه بردا وسلاما ؟ قال : الله ، قال : ومن خلصك من أيدى إخوتك إذ هموا بقتلك ؟ قال : الله ، قال : ومن أخرجك من ظلمات الجبّ وحببك للسيارة ؟ قال : الله ، قال : ومن عطف عليك قلب العزيز حتى آثرك منزلة وسلطانا ؟ قال : الله ، قال ومن صرف كيد النسوة عنك ؟ قال : الله ، قال : يا يوسف انظر إلى الأرض ، فنظر فسعت الأرضون السبع فرأى تحت الثرى حجرا أبيض ، فضربه جبريل فانشق ، فخرجت من الحجر دودة صغيرة فى فمها ورقة خضراء ، فقال : يا يوسف يقول لك ربك : أنا الذى خلقتها وأوصلت إليها رزقها ولم أنسها ، ولا أنس أحدا من خلقى ، والكل يسعهم علمى ، فكيف أنساك وأنت نبيى ، وابن صفيى ، وابن ذبيحى ، وابن خليلى ، حتى تقول لعبد لا يعرفنى ولا يملك لك ولا لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا خفضاً ولا رفعا : « اذكرنى عند ربك » بقاؤك فى السجن بعدد حروف كلماتك .

وكان يقف على كوة فى حائط السجن ، يرى الناس و يرونه ، إذ أتت قافلة من الشام يوما من الأيام ، وكان معهم أعرابى معه ناقة من ناحية كنعان يسمى شمردال ، فلما رآها يوسف ورأته بركت بإذن الله تعالى تحت الكوة ، ونادت بلسان فصيح : يا يوسف أبوك قد نحل من الاشتياق إليك ، فبكى ولم يسمع كلامها غيره ، فضربها صاحبها فابتلعته الأرض إلى ساقية ، فقال له يوسف : دعها يا أعرابى وألق العصى من

يدك لئلا تهلك ، فألقى العصى فخرج من الأرض ، فدنا من الكوة فقال له يوسف : من أين أنت ؟ قال : من أرض كنعان ؟ فقال : يا أعرابى أقسمت عليك بربك الذى أنشأك هل تعرف بأرض كنعان شجرة باسقة لها اثنا عشر غصنا ، فقطع منها غصن واحد فالشجرة تبكى عليه بكاءً شديداً ، وكان الغصن الذى قطع منها أحسن أغصانها ؟ فبكى الأعرابى ، فقال : والله هذه صفة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أو أولاده ، فبكى بكاء شديدا .

وقال يوسف : كم نويت أن تربح ؟ قال : ما شاء الله تعالى ، فرمى إليه سوارا من ياقوتة حمراء ، وقال خذ هذه فإنه يساوى عشرين ألف دينار ، على أنك تؤدى رسالتى إلى تلك الشجرة ، وأنت مأجور إن شاء الله تعالى ، فإذا وصلت عند بيت الأحزان بأرض كنعان ، فاصبر إلى الليل ، ثم اقصد ذلك الحزين ، وقل له : غريب بمصر محبوس فى السجن يقرئك السلام ، فقال له الأعرابى : ما اسمك يا فتى ؟ قال : ما أخبرك باسمى .

فركب ناقته وخرج فرحا حتى وصل أرض كنعان ، ولما جن الليل أتى منزل يعقوب عليه السلام ، ونادى يا آل إبرهيم ، فأجابته زينة أخت يوسف عليه السلام : لبيك يا هذا من تكون ؟ ومن أين أقبلت ؟ قال لها : أين يعقوب ؟ قالت : ماذا تريد ؟ قال : أنا رسول غلام غريب إليه ، فقامت وقعدت ونادت يا والدى وكان واقفا يصلى ، فأوجز فى الصلاة ، فقال : مالك يا زينة ؟ قالت له : يا والدى هـذا رسول إليك مـن بعض الغرباء ، فقام فقعد فأخذت بيده حتى خرج إليه .

فقال له : من أين أنت أيها الرسول ، فإنى أشم منك ريحا طيبا ؟ قال : أنا رسول غلام غريب من شأنه كذا وكذا ، فقال له : هل رأيت

وجهه ؟ قال : لا ، ولكن ناجانى من وراء حجاب ، فبكى يعقوب عليه السلام وزينة وانتحبا ، فقال يعقوب : هل ذكر لك اسمه ؟ قال : لا ، قال : اسأل حاجتك يا أعرابى ؟ قال : مالى حاجة إلى الدنيا ، فإن ذلك الغريب أغنانى ، فقال : إذن هون الله عليك سكرات الموت .

وفى رواية أن ذلك قبل أن يسجن ، وأن زليخا تلبسه الديباج وتوقفه على رأسها وتأمره بما تريد ، فإذا فرغ من خدمتها خرج يتحسس الأخبار فبينما هو يمشى يوما فى أزقة مصر إذا بأعرابى راكب على قعود يقول :

حمدتُ ربِّى وهو الحميدُ
بالحمد يُبْدى وبه يعبد
ليسَ له ندٌ ولا عنيدُ
يفْعل فى الأشياء ما يريد

فلما سمعه يوسف علمه غريبا فقال : يا أعرابى ما سمعت بهذا الكلام فى هذه البلاد ، كأنك لست منها ؟ قال : نعم ، قال : فمن أين أنت ؟ قال : من مراعى آل يعقوب من كنعان ، من وادى الأردن ، فلما سمع يوسف باسم يعقوب صاح وصعق ، فرق له الأعرابى ونزل عن قعوده ، ومسح العرق عن وجهه ورأسه ، فى حجره ، فقال : مالك يا غلام ؟ فقال ذكرت بلادا أودعتنى ، وإلى الغربة رمتنى ، فهل تعرف الشيخ يعقوب ؟ قال : ومن لا يعرفه ، وهو نبى الله ، ابن ذبيح الله ، ابن خليل الله ، به نتوسل إلى ربنا ، وبحرمته نستسقى إذا قحطنا .

قال : فأسلك بالله إلا أخبرتنى كيف تركته ؟ قال : تركته وقد

انحنى صلبه ، وتقوس ظهره ، وتضعضع ركنه ، وكابده الشيب قبل أوانه ، وترك أهله ، وهجر أولاده ، وبنى على تل كنعان بيتا يسمى بيت الأحزان ، يبكى فيه وينوح على قرة عين له يسمى يوسف ، اختلس من بين يديه .

فزاد يوسف بكاء وقال : ليت أمى لم تلدنى ، وليت السباع أكلت لحمى ولم يصب حبيبى ذلك من أجلى ، فبكى الأعرابى معه ، فقال يوسف : إنى محملك رسالة البركة والدعوة والأمانة ، أما الأمانة فتؤديها إلى يعقوب دون غيره ، وأما البركة فتصيبك بركة آل يعقوب ، وأما الدعوة فأدعو الله أن يكثر مالك وولدك ، ويطيل عمرك .

قال : فاذكرها إذن ، فقال : إذا وصلت كنعان وقد سألت الله أن يبلغك سالما فأت باب يعقوب إذا ذهب هون من الليل ، وجاء وقت قيام الأنبياء لرب الأرض والسماء ، فقف واستمع صوت يعقوب ومناجاته وتسبيحه ودعاءه وبكاءه ، فناد بأعلى صوتك وقل : السلام عليك أيها المكظوم ، يقرأ عليك السلام المهموم المغموم ، الذى بيع بيع العبيد ، وصير حيرانا طريدا ، ويقول لك : إنى حرمت على نفسى النوم على فراش وطىء والتوسد حتى ألقاك ، فكن أنت كذلك فقال الأعرابى : سبحان الله ، من يطيق تأدية هذه الرسالة ، قال : من يريد الأجر والبركة .

فركب الأعرابى قعوده ، ووصل كنعان ليلا ، ففرح أهله وحط رحله ، فقالوا له : انزل ، فقال : لا والله لا رأيت أحدا منكم ، ولا عملت عملا حتى أؤدى رسالة المغموم إلى المكظوم ، فأتى البيت ينتظر الوقت ، فلما سمع حركته وبكاءه ، رفع صوته ونادى : السلام عليك أيها المكظوم ، يقرأ عليك السلام المهموم المغموم .

ولما سمعت زينة ذلك قالت : مه يا هذا ، فإنى أخشى أن ينفطر قلبه ، فإن كنت حملت رسالة فأدها إلىَّ أؤدها إليه فى وقت غير هذا ، قال : والله لا أؤديها إلا لمن أرسلت إليه ، وكانت أختا ليوسف من أبيه ، وقد بنت بحذاء بيت يعقوب بيتا ، وحلفت لا تضحك حتى تراه يضحك ، فتقدمت إلى الباب ونادت : السلام عليك يا أبت ، فقال : وعليك السلام يا بنيتى ما الذى جاء بك فى هذا الوقت ؟ قالت : البشارة ، قال : أما المال فلا حاجة لى إليه ، وأما الأولاد فلا سبيل لى إليهم ولا حاجة ، قالت : بل البشارة بقرة عينك ، وحبيب قلبك ، قال : يوسف ؟ قالت : نعم ، فقام يخرج يسقط ويقوم يبادر الباب ، فوصل الباب وصعق كأنه ميت ، ولما أفاق أدى الأعرابى الرسالة على نحو ما تقدم .

فقال له يعقوب : صفه لى يا أعرابى ، فوصفه كما هو ، ولم يذكر الخال الذى على خده ، وقال : ولِمَ لم تذكره ؟ قال : قال لى : إن سألك عنه فقل محنه كثرة البكاء ، فقال : وأنا أيضا ذهبت عيناى لكثرة البكاء عليه ، ثم قال : يا أعرابى لا أجد ما أكافئك بـه ، فهل أبصرته بعينك ؟ قال : نعم ، قال : فقدمهما إلى أقبلهما ، وقبلهما وقال : لا تأكل النار عينا رأته ، سل ما شئت من أمر الدنيا والآخرة أجمعهما إليك ، قال : يا نبى الله سل الله أن يهين على سكرات الموت ، وأن يجعلنى رفيقك فى الجنة ، وأن يكثر مالى وولدى ، فإن بنى عمى يعايروننى بالفقر .

فرفع يعقوب يديه إلى السماء وقـال : اللهم إن كنت رحمت لى عبرة ، وأجبت لى دعوة ، فاجعل هذا الأعرابى رفيقى فى الجنة ، وهوّن عليه سكرات الموت ، وكثر ماله رولده .

ولما تم ما قضى الله أن يلبث يوسف فى السجن سجد وقال فى سجوده

إلهى خلصنى من السجن ، فكان يدعو والملك يرى ما ذكره الله عز وجل من أمر البقرات والسنبلات ، وكانت رؤياه سبب لخروج يوسف من السجن •

وروى أن الله جل جلاله أرسل جبريل إلى يوسف على هيئة جميلة ، ووقف على باب بيته وسلم عليه ، فرد يوسف السلام ، وجعل ينظر إليه ويتعجب من حسنه ، وأنكر أن يكون مثله فى السجن ، فقال : هل تعرفنى أيها الصديق ؟ قال : يوسف صوت شيخ ، وريح طيب لا يشبه ريح الخاطئين فمن أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا أخوك جبريل ، قال : كيف أنت ياأطيب الطيبين ، ورأس المقربين ؟ فقال له : أبشر فقد جعلك الله رأس الصديقين ، وعدك مع آبائك المخلصين ، وأوجب لك جزاء الصابرين ، لأنه لم يغيرك ما جرى عليك عن أمر الله ولم تطأ فراش سيدك فى طاعة ربك ، وأن الله سبحانه يقرئك السلام ويقول : كيف حالك وهو أعلم بحالك منك ؟ فقال : لربى الحمد على كل حال ، وهل لك علم بأبى ؟ قال : وهبه الله تعالى الصبر الجميل ، وقد عدل حزنه حزن مائة ثكلى ، وصبره ما استوجب به أجر مائة شهيد ، لأن الله جل جلاله كتم أمرك عليه ، ولم يدر أحى فيرجوك ، أو ميت فيحتسبك ، وذلك ليعظم أجره ، وهذا هو الوقت الذى يظهرك فيه الله ، ويجعلك لك اليد العليا على إخوتك وغيرهم ، ويصدق رؤياك •

وسبب ذلك أن الملك ريان بن الوليد ، يرى الليلة كذا وكذا ، وتأويلها كذا وكذا ، ثم خرج وتركه ، ولما جن الليل ، وذهب ثلثاه ، نام ريــان وحاجبه ومضحكه وساقيه ومسامره ، وطائفة من عظماء دولته ، وانتبه الملك ريان فزعا ، فقال هؤلاء : ما الذى أفزعك أيها الملك جعلنا الله فداءك ؟ فقال : على بعلماء قومى ومنجميهم وكهنتهم ، والعقلاء منهم ، فإنى رأيت

رؤيا أفزعتى أعلم بأن الله شأنا ، وأنى عـلى رجل منها ، فأشفقوا لـه وأسرعوا فى إحضار هؤلاء ، فقال لهم ما حكى الله عز وجل بقوله :

(وقالَ الملكُ) ريان بن الوليد (إنـِّى) وسكن الياء غير نافع ، وأبى عمرو (أرَى) فى المنام (سَبْعَ بقَرَاتٍ سمانٍ) غار ماء النيل عنه ، وإنى على شاطئه فخرجن ، وروى أنهن رآهن خرجن من نهر يابس ، ويجمع بين الروايتين بأن النهر النيل ، وقد ملئت ضروعهن لبنا وكأنهن حشين لحما وشحما ولبنا وسمنا ، وإنما أضاف سبع إلى جمع السلامة لإهمال تكسير البقرة ، وأما البقر فاسم جمع على الصحيح ، ولا يقال فى الفصيح ثلاث بقر ، وإنما أضاف سبع إلى سنبلات مع أن للسنبلة تكسيرا وهو سنابل لمجاورة ما أهمل تكسيره وهو بقرة ، ذكر ذلك ابن هشام وغيره ، ورويته عن شيخى فى توضيح ابن هشام ، وسمان جمع سمينة ككريمة وكرام ، وإنما جر سمان فكان نعتا لبقرات ، ولم ينصب فيكون نعتا لسبع ، لأن المراد تمييز السبع ببقرات ، وأن تلك البقرات سمان لا تمييزها من أول الأمر بسمان البقر فافهم .

(يأكلهنَّ سبْعٌ) سبع بقرات (عِجافٌ) مهازيلَ جدا ، وخراطيمهن كخراطيم السباع ، خرجن أيضا من حيث خرجت السمان ، فأكلن لحوم السمان وشحومهن وجلودهن ، وعصبهن ومخهن وعظامهن ، وشربن دماءهن ، ولم يظهر فى المهازل شىء .

روى أنهن ابتلعن السمان ابتلاعا ، وقد خرجن بعد السمان ، وعجاف نعت سبع جمع عجفاء ، والقياس عجف بضم العين وإسكان الجيم كبكاء وبكم ، ولكن جمع على عجاف حملا على سمان ، لأن من عادة العرب حمل

الشيء على نقيضه ، وحمل أحد المتجاورين على الآخر كقولهم : أخذه ما قدم وما حدث بضم دال حدث حملا على ما جاوره وهو قدم كما قال ابن هشام ، ومثل ذلك كثير ، وإنما لم يضف سبع إلى عجاف لأن عجاف صفة إذا كان جمع صفة ، والعدد لا يضاف للصفة لأن البيان لا يقع بهـا دون موصوفها إلا إن تغلبت عليها الاسمية كفرسان وأصحاب ، فتقول : ثلاثة فرسان ، وخمسة أصحاب ، فلكون الأصل ما ذكرت لم يضف لعجاف ، ولو كان القرينة ، على أن المراد بالعجاف البقرات العجاف موجودة .

(وسَبْعَ سُنْبلاتٍ خُضْرٍ) جمع خضراء ، والعطف على سبع بقرات ، فكأنه قال : ورأيت أى بعد ذلك سبع سنبلات ناعمات مملوءات حبا منعقدا لما يتيبسن (وأخَرَ) جمع أخرى كالكبرى والكُبرَ أى وسبعا أخر (يابسَاتٍ) قد أدركن ، ولا خضرة فيهن ، وقيل : لا خضرة فيهن ولا ماء ولا حبةً ، فالتنوين على الخضر ، وغلبن عليهن ومصصن ما فيهن من ماء وخضرة حتى يبسن ، ولم يظهر أثر فى اليابسات ، ولـم يذكر الالتواء والمص استغناء بذكر أكل البقرات العجاف البقرات السمان .

وروى أن كل سنبلة خضراء نبتت تحتها سنبلة يابسـة ، فالتوت ومصتها ، وكل من اليابسات والخضر فى ثرى ، وما نظر ذلك فى منامه ، وتعجب فيه كيف كانت هؤلاء يابسات ، وهؤلاء خضرا ، والموضع واحد ، وتعجب كيف غلبت العجاف السمان واليابسات الخضر ، وكيف لم يتبين أثر فى العجاف واليابسات واستيقظ فزعا لما رآى من تغلب الضعيف على القوى وخاف على نفسه .

(يا أيُّها المَلأُ) الأشراف (أفتُونى فى رُؤيايَ) أخبرونى بتأويلها

(إنْ كنتُم للرُّؤيا تَعْبرونَ) إى إن كنتم تعبرون الرؤيا ، ولما قدم المفعول ضعف عنه الفعل فقوى باللام ، فهى لام التقوية كما قال ابن هشام ، ويجوز أن تكون أصلية متعلقة بمحذوف خبر لكان ، فهى للبيان كقولك : كان فلان لهذا الأمر ، أى إذا كان مستقلا به متمكنا منه ، وحاتم لمن احتاج ، ومن ذلك قول ابن النظر أبا عمر : من للمكارم والعلا البيت .

وعلى هذا يكون تعبرون تفسير المعنى كونهم للرؤيا أو خبر أخر ، أو حالا ، ويجوز أن تكون أصلية متعلقة بالفعل بعده لتضمنه معنى ليتعدى باللام ، أى إن كنتم تنتدبون للرؤيا ، وتعبير الرؤيا تفسيرها ، وسمى تفسيرها تعبيرا ، لأن مفسرها جائز من ظاهر لباطنها استخراجا لمعناها ، ولأنه يذكر آخر أمرها وعاقبتها ، كقولك : عبرت النهر إذا قطعته وبلغت شاطئه عرضا ، والتأويل يقال فى تفسير الرؤيا وغيرها ، وهو أهم ، وعبارة الرؤيا الانتقال من الصور الخيالية إلى المعانى النفسانية ، والفصيح عبرت بالتخفيف ، ويجوز التشديد كقوله :

رأيتُ رؤيا ثمَّ عبرتها

وكُنتُ للأحْلام عبَّارا

فجمع بين اللغتين ، لأن عبارا لا يكون إلا من الثلاثى ، والشاهد فى عبرتها .

(قالُوا أضْغَاثُ أحْلامٍ) خبر محذوف ، أى هى أضغاث أحلام ، والأضغاث الأخلاط ، والواحد ضغث ، وأصله ما جمع من أخلاط النبات الرقيق وجعل حزمة ، وربما كان من جنس واحد ، وقيل الضغث من ذلك

أقل من الحزمة وأكثر من القيضة ، والأحلام جمع حلم وهنا الرؤيا ، شبهوا الرؤيا الكاذبة ، وهى ما كان من حديث نفس ، ووسوسة شيطان ، بالضغث ، وإنما جمعوا مبالغة فى وصف الحلم بالبطلان ، وإلا فهى رؤيا واحدة ، وذلك كقولك : فلان يركب الخيل ولو لم يركب إلا فرسا واحدا وصفته بركوب الخيل تزايدا فى وصفه ، كذا قال جار الله .

والظاهر عندى أنهم جمعوا لأنها ولو كانت رؤيا واحدة لكنها مشتملة على رؤًى كثيرة ، إذ رأى بقرات سمانا ، ورأى بقرات عجافا ، ورآهن يأكلنهن ، ورأى سنبلات خضرا ، ورأى سنبلات يابسات ، ورآهن التوين ومصغنهن ، فاعتبروا كل واحد من ذلك رؤيا على حدة .

ثم رأيت القاضى أشار إلى ذلك قبل ، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا غيرها ، لما عجزوا عن تفسيرها نسبوها للبطلان ، وهى حق كذبا منهم ليسكنوا غضبه فقالوا : إنها باطلة لا عاقبة لها ، فلا تهتم بها ، وقد كان توعدهم بقتلهم جميعا إن لم يعبروها له ، وظن الأمر على ما وضعوا .

(ومَا نَحْنُ بِتَأوِيلِ الأَحْلامِ) الباطلة (بعَالمين) إنما نعبر صحاحها ، وذلك كله اعتذار واحد ، وإن أرادوا إنا لسنا عالمين بتأويل الأحلام مطلقا صادقة أو كاذبة ، فقد اعتذروا بعذرين :

الأول : أن رؤياك أيها الملك باطلة لا أثر لها .

والثانى : أنا لسنا محققين فى تأويل الرؤيا ، والباء الأولى للإلصاق لتضمن العالمين معنى المتمسكين ، فإن من علم شيئا فقد اتصل به

وتمسك به قلبه ، أو صلة للتأكيد فى مفعول عالمين على أنه متعد لواحد بمعنى عارفين ، أو بمعنى لام التقوية كذلك ، والثانية صلة للتأكيد فى خبر ما .

(وقَالَ الَّذى نَجَا مِنْهُمَا) أى من صاحبى السجن الساقى والخباز وهو الساقى ، ومن للتبعيض ، والنجاة إنما هى من القتل (وادَّكَرَ) بدال مهملة ، ووزنه افتعل ، والأصل إذْتكر بذال معجمة فتاء ، أبدلت الذال المعجمة دالا مهملة ، ثم أبدلت التاء دالا مهملة ، وأدغمت الدال فى الدال ، هذا ما رأيت عن شيخى ، وذكره ابن هشام وهو الأفصح الوافق للقياس .

وقرأ الحسن بالإعجام ، على أن الأصل اذتكر أبدلت التاء دالا مهملة ، ثم أبدلت المهملة معجمة ، وأدغمت المعجمة فى المعجمة وهو لغة ، كما يدل له كلام ابن هشام ، ويصرح به كلام غيره ، وتحتمل هذه القراءة أن تكون على وزان تفعّل ، والأصل تذكر بتقديم التاء على الذال المعجمة ، سكنت وأبدلت دالا معجمة وأدغمت الذال فى الذال ، وجىء بهمزة الوصل لأنه لا يبتدأ بساكن ، وتحتمل قراءة الإهمال أن تكون على لغة لربيعة ، يقولون : دكر بالإهمال بمعنى ذكر بالإعجام ، وأن تكون أيضا بوزن تفعل ، وزعم بعض أن ربيعة غلطت ، وأن الذكر بالإهمال لعب للزنج والحبشة ، والواحد ذكرة أدغمت لام أل فى الدال ، وأنه إذا قلت : ذكر بدون أل قلته بالذال المعجمة .

ومعنى ادكر فى الآية تفكر قول يوسف : « اذكرنى عند ربك » وما شاهد منه فى تعبير رؤياه ورؤيا الخباز .

(بَعْدَ أُمَّةٍ) بعد زمان ، وهو هنا سبع سنين ، سمى أمة لأنه جماعة من أيام أو شهور أو أعوام مجتمعة ، وقرأ الأشهب العقيلى : بعد إمة بكسر الهمزة أى بعد نعمة ، أى بعد ما أنعم الله عليه بالنجاة من السجن والقتل على يد يوسف ، إذ عبر رؤياه بما يستحسنه ، وقرأ ابن عباس وجماعة : بعد أمه بفتح الهمزة والميم المخففة ، وبالهاء غير منقوطة لا بالتاء أى بعد نسيان ، يقال أمه يا أمه أمها إذا نسى ، وعن مجاهد بعد أمه كذلك ، لكن بإسكان الميم قال جار الله : وهو خطأ ، وجملة ادكر بعد أمة معترضة بين القول ومقوله ، أو حال بلا تقدير قد ، وبلا تقدير المبتدأ ، وقيل : بتقدير أحدهما ، ويجوز العطف على نجا .

(أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ) أى بتأويل ما رأى الملك فى منامه ، وقرىء : أنا آتيكم بتأويله ، والخطاب للملك ومن حضر من سحرة وكهنة ومعبرين ، وعقلاء أو للملك وحده تعظيما له بخطاب الجماعة .

(فَأَرْسِلُونِ) إلى من عنده علمه ، أو إلى السجن ، أو إلى يوسف وهو مقصوده على كل حال ، ومعنى أرسلون إلى من عنده علمه أرسلونى فى استكشاف علم ما أرى ممن وجدت ، ومراده يوسف كما مر قبل عن ابن عباس لم يكن السجن فى المدينة ، ولذلك قال أرسلون ، وما أظنه صحيحا منه ، لأن الإرسال يصح ولو كان بجنب دار الملك .

(يُوسُفُ) حذف حرف النداء ومتعاطفات أى فأرسلوه فأتى يوسف فى السجن فقال له : يا يوسف الخ ، وروى أن الذى نجا قال : إن قول هؤلاء بأنها أضغاث أحلام باطل ، بل رؤياك حق ، وأن لها برهانا وإن أرسلنى إلى السجن آتك بالعجب العجاب ، إن فى حبسك رجلا حكيما

عليما عنده من رؤياك علم عجيب ، وقد كنت أنا وصاحبى فى السجن فى المدة التى غضبت علينا فيها ورأينا كذا وكذا ، وعبر لنا كذا وكذا ، فكان كما قال ، فقال الملك : ما منعك أن تعرفنى بأمره ؟ فقال : أيها الملك خفت أن تذكر ما قيل عنا ، فيكون سببا للمعاقبة ، فقال له : انطلق إليه ، فقد أذنت لك .

وروى أنه لما قال الملك : إن لم تخبرونى بتأويلها أقتلكم ، حرك الساقى رأسه وبكى ، فقال له الملك : مالك تبكى ؟ فقال : أيها الملك إن رؤياك هذه لا يعرفها ولا ينبئك بها إلا الغلام العبرانى الذى فى السجن ، فتغير وجه الملك وقال له : إنى لم أذكره سبع سنين ، ولا خطر ببالى إلا الساعة ، وقال له الساقى : وأنا كذلك ، فقال : من أين تدرى أنـــه الم بتأويل الرؤيا ، فقص عليه قصته وقصة الخباز ، فقال له : امض إليه واسأله عن تلك الرؤيا ، فقال له : والله إنى أستحى منه ، فقال له الملك : لا تستحى منه ، فإنه على دين يرى أن الخير والشر من مولاه ، فلا يلومنك .

فأتاه الساقى يبكى وكمه على وجهه استحياء من يوسف ، وتمالك واعتذر بأنه لم يقصر ، ولكنه نسى ، فقال له : ارفع كمك ، فإن الشيطان أنساك أن تذكرنى عند ربك ، فسجد الساقى بين يديه حين رضى عنه ، فقال له : لمن سجدت ؟ فقال : لمن أرضاك عنى ، فإنى كنت خائفا مـــن سطوتك ، فقال : من أين لى سطوة ؟ فقال : تيقنت أنك تصير ملكا ، ثم قال له : ما حاجتك ؟ فقص عليه رؤيا الملك ، وأنه يريد تعبيرها ، وقيل : إن الملك نسى رؤياه ، فقال لهم : إن لم تخبرونى بها وبتأويلها أقتلكم ، فذهب الساقى إليه فسأله فقال له : رأى كذا وكذا وتأويلها كذا وكذا ،

فرجع الساقى إلى الملك ، وقد تذكرها الملك فأخبر بها الحاضرين بعد ذهاب الساقى ، فأخبره الساقى بما قال يوسف ، فتعجب فقال : كأنه الذى رآها ، وأقر هو والحاضرون بفضله ، وما قيل من أن الساقى لم يخبره الملك بالرؤيا ، وأنه قال ليوسف : أريد أن تعلم ما رأى الملك ، وأن تعلم تعبيره يرده قول يوسف :

(أيُّها الصِّدِّيق أفْتِنَا فى سَبْع) أى فى رؤيا سبع (بقَرات سمانٍ يأكلهنَّ سبعٌ عِجافٌ وسَبع سُنْبلاتٍ خُضْرٍ وأخر يابِسات) وإن صح ذلك من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالآية حكاية للمعربات قوله : أخبرنا بما رأى بتفسيره بمنزلة قوله : إنه رأى كذا وكذا ، فأخبرنا أيها الصديق بتفسيره ، والصدِّيق المبالغ فى الصدق ، وإنما عرفه صديقا لأنه فاق أحواله ، وظهر صدقه فى تفسير رؤياه ورؤيا الخباز ، ولم يجرب عليه كذبا قط .

(لَعلِّى أرْجعُ إلى النَّاسِ) الملك ومن عنده ، أو أهل البلد على ما قيل : إن السجن لم يكن فى البلد ، فأخبرهم بتعبيرها (لَعلَّهم يعلَمُون) تأويلها أو فضلك ومكانك فى العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من السجن ، وإنما تلفظ بلعل فى الموضعين ، لأنه ليس على يقين من الرجوع لجواز أن يموت قبل الرجوع ، أو يمنعه مانع ، ولا على يقين من علمهم لاحتمال أن لا يصدقوه ، أو لا يصدقوا يوسف ، ولما سمع يوسف الرؤيا من الساقى لم يمتنع من شرحها فقال : قل للمالك إن فى رؤياك هذه بلية تدخل على رعيتك ، فأنظر لها قبل نزولها ، لأن الملك بالرعية ، والرعية بصلاح الأحوال ، وحاجة الملك للخدم كحاجة الرأس للقدم ، وانتفاع الملك بأعوانه كانتفاع الجسد بأعيانه ، ثم أخذ يفسرها كما قال الله جل وعلا :

(قَالَ) يوسف (تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا) أى تزرعون على عادتكم المستمرة ، فالجملة خبرية لفظا ومعنى ، والدأب العادة ، العادة ، قال أبو عمرو الدانى : قرأ حفص : دأبا بتحريك الهمزة ، ، يعنى تحريكها بالفتح كدال والباقون بإسكان ا هـ ، وعلى القراءتين هو مصدر دأب فى العمل ونصبه على نزع الخافض ، أى على العادة ، ولكنه نكر للتعظيم فإنهم كانوا يزرعون فى العادة بجد واجتهاد ، وقد فسر بعضهم دأبا بجد واجتهاد ، أو على الحالية من وقوع المصدر حالا مبالغة ، أو بتأويل باسم الفاعل فى دائبين ، أو تقدير مضاف أى ذوى دأب ، أو على المفعولية المطلقة لتزرعون بتقدير مضاف ، أى زراعة دأب ، أو لمحذوف أى تدأبون دأبا ، وعلى هذا فالجملة المقدرة حال ، وقيل تزرعون فى معنى الأمر ، وإنما جاء بصيغة الأخبار مبالغة فى أن يمتثلوا كأنهم قد امتثلوا قوله وقبلوه ، فهو يخبر عن قبولهم بدليل قوله :

(فَمَا حَصَدْتُم فَذَرُوه) اتركوه (فى سُنْبلِه) لئلا يأكله السوس ، على عادة طعام مصر وحنطتها التى لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها فى السنبل ، وذلك نصيحة خارجة عن عبارة الرؤيا ، سواء جعلنا تزرعون إخبارا أو بمعنى الأمر .

(إلا قَلِيلاً ممَّا تأكُلُون) فى تلك السنين فادرسوه ، أى تدرسون كل سنة قليلا يكفى السنة بمرة ، أو تدرسون ما يكفى السنة شيئا فشيئا بحسب الحاجة ، وهذا أولى تأكلونه فيها ، ويجمع الطعام هكذا للسنين المجدبة ، ويأكل الأقدم فالأقدم ، والورق ، والسوق ، والتبن ، والقشور للدواب ، كذلك الفاء الأولى رابطة لشرط محذوف ، والثانية فى جواب شرط مذكور ، ومن للبيان ، فتلك السنون السبع هى البقرات السمان ،

والسنبلات الخضر لو ألقيت الحبة فيهن على حجر يابس لنبتت وأخرجت الحب الكثير ولا تُخطىء حبة من بذر إلا نبتت ، واصنعوا فى الأرض الهواء واخزنوه فيها وفى المخازن ، ويكون التبن والسوق والأوراق علفاً للدواب •

(ثمَّ يأتى مِنْ بَعْدِ ذلِكَ) المذكور من السنين المخصبة (سَبْعٌ) سبع سنين (شِدادٌ) جمع شديدة أى صعاب على النـــاس بالقحط والجدب ، لا تنزل فيهن قطرة من السماء ، ولا تنبت خضرة من الأرض (يأكُلْنَ ما قَدَّمتم لهنَّ) أى ما أعددتم لأجلهن فى السبع المخصبة ، أو ما أعددتم لهن يأكلنه ، كما تقول : أعددت لابنى ما يأكل ، وإسناد الأكل إليهن مجاز عقلى من إسناد ما للمظروف فإن الآكلين هم الناس الذين فيهن •

ويجوز أن يكون معنى يأكلن يفنين ، فاستعمل المقيد وهو الأكل فى المطلق وهو الإفناء ، فإن الإفنـــاء واقع بالأكل ، ويقع أيضا بســـائر الإتلافات ، فذلك مجاز لغوى ، وإسناد الإفناء إليهن مجاز عقلى فعليه فهنا مجاز مبنى على مجاز ، والوجه الأول أولى وأخف ، وفـــائدة ذلك التجوز المبالغة فى الإذهـــاب ، حتى كأن الزمـــان نفسه آكل أو متلف ، والمطابقة لما رأى الملك فى المنام ، فإنه رأى السبع العجاف آكلات للسبع السمان ، والسبع اليابسات ملتويات على الخضر ، وماصات لهن ، فإن هذه السنين الشداد السبع هن البقرات العجاف ، والسنبلات اليابسات اللاتى رآهن فى المنام •

(إلا قَليلاً ممَّا تُحصِنُون) تخزنون وتدخرون ، فإن هذا القليل يبقى بعد السنين الشداد ، ليكون بذراً يزرع بعدهن •

(ثمَّ يأتى مِنْ بَعد ذَلكَ) المذكور من السنين الشداد ، أو من السنين الأربع عشرة ، وهى السبع المخصبات ، والسبع الشداد (عَامٌ فيه يُغَاث الناسُ) من الغيث وهو المطر ، أى يمطرون وهو قول ابن عباس والجمهور ، أو من الغوث وهو الفرج وإزالة الكرب ، أى يفرج الله عنهم القحط .

(وفيه يعْصِرُون) ما يعصر كالعنب ، فإنه يعصر خلا وخمرا وغيرهما ، والخمر محرمة فى هذه الشريعة المحمدية الشريفة ، وكالزيتون فإنه يعصر منه الزيت ، وكالسمسم فإنه يعصر منه الدهن ، وكقصب السكر وغير ذلك كالفجل ، ومصر بلد يعصر أشياء كثيرة ، وحذف المفعول للعموم ، أى يعصرون كل ما يصلح للعصر ، وذلك كناية عن كثرة الثمار والخضرة والخصب .

وقيل : معنى يعصرون : يحلون الضروع ، ويجوز أن يكون بمعنى ينجى بعضهم بعضا من الجوع لكثرة الطعام بتناولونه ، وقرأ حمزة ، والكسائى يعصرون بالتاء الفوقية للخطاب تغليبا للحاضر وهو الساقى على الغائب وهو أهل البلد ومن بجانبها ، وقرىء تعصرون بالبناء للمفعول والفاعل الله ، وهم أى ينجون بلبناء للمفعول أى ينجيهم الله ، أو ينجى بعضهم بعضا بالإعطاء والتصرف لإغاثة الله إياهم ، أو المعنى يعصر عليهم بالبناء للمفعول ، أى يمطر عليهم ، فحذف الجار ونائب المجرور على طريق الحذف والإيصال ، يقال : أعصرت السحابة عليها .

أو قيل : يعصرون لتضمين معنى يمطرون ، وقوله : « ثم يأتى من بعد ذلك » الخ بشارة خارجة من تفسير الرؤيا ، زاده الله علمها بالوحى

أو بالإلهام ، قال قتادة : زاده الله علم سنة قيل : أو قام بها من حيث إن انتهاء الجدب يؤذن بالخصب ، بأن السنة لإلهية أن يوسع على عباده بعد ما ضيق عليهم ، ويبحث لهم إيذان انتهاء الجدب بالخصب والتوسع ، لا يفهم الخصب الكامل الذى أشار إليه بقوله : « وفيه يعصرون » بل يفيد زواله ، مع احتمال الدرجة الوسطى من الخصب ، والأدنى والكاملة ، نعم يجوز أن يكون المراد بالغيث والعصر ذلك لمعنى العام المحتمل .

ولما انقضى كلام يوسف ، رجع الساقى إلى الملك ومن معه ، وأخبر بما قال يوسف ، فاستعظموه وعرفوا قدره كما مر ، وعرف الملك أن الذى قال كائن لا محالة ، رد الساقى إليه ليأتى به ، ويقربه ، ويسمعه الرؤيا مشافهة ، وليرى هذا الكريم الذى عبر هذه الرؤيا تلك العبارة المستحسنة كما قال الله سبحانه وتعالى .

(وقالَ المَلِكُ ائتُونى بهِ) أى ليأت به واحد منكم ، أى بيوسف هذا الذى عبرها ، فذهب إليه الساقى (فَلَمَّا جاءَهُ) أى وصل يوسف (الرَّسولُ) وهو الساقى وقال له : ائت الملك ، فإنه يدعوك ليكرمك ويشرفك ، فإنه قد عرف فضلك .

(قالَ) يوسف للرسول : (ارْجِعْ إلَى ربِّكَ) سيدك وهو الملك (فاسْأله ما بالُ) ما شأن (النِّسْوةِ) وقرىء بضم النون (اللّاتى قَطَّعْنَ أيدْيهنَّ) قدم سؤال النسوة على الخروج والتوصل بالملك لتظهر براءته مما نسب إليه من خيانة العزيز فى امرأته ، وأنه سجن ظلما ، فلا يمكن للحاسد بعد ذلك أن يوسوس للملك بأنه خائن ولا أن يتهيأ للملك فى بعض الأحيان أن هذا هو الذى خان العزيز فى زوجته ، والاجتهاد فى نفى التهم واجب .

قال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم » ومر به صلى الله عليه وسلم مع بعض نسائه فى معتكفه بعض الناس ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنها فلانة » فقال المار : ما كنا لنتهمك يا رسول الله ، قال : « كذلك ينبغى أن أخبرك » وإنما قال : « اسأله ما بال النسوة » يعنى اسأل الملك يخبرك ، ولم يقل : اسأله أن يفتش ، لأن السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل ليجيب السائل ، بخلاف ما إذا قالت : اسأل لى غيرك عن كذا ، فلا يتحرك ولا يهيج ، لأنه لا فضل فى المسئول إذا أجاب عن لسان غيره فلا تشتهيه النفس .

ولم يذكر يوسف سيدته مع ما صنعت به كرما ومراعاة للأدب ، وذلك من غاية الصبر ، وسماحة النفس ، قال صلى الله عليه وسلم : « لقد عجبت ليوسف وكرمه وصبره ، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرتهم الباب ولما انتفيت العذر فى أمر النسوة قبل الخروج ، إن كان لحيما ذا أناة » وعنه : « رحم الله أخى يوسف ، عبر لهم الرؤيا قبل خروجه من السجن ، لو كنت أنا لبادرت الخروج ، ورحم الله أخى لوطا حين قال : « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » لقد أوى إلى ركن شديد » وإنما عنى وصف يوسف بالصبر والكرم ، لا وصف نفسه بالعجلة ، ولكنه آتى بعبارة توهمها هضما لنفسه ، وليقتدى به فى الأخذ بالحزم إذ لسنا كيوسف ، فإنه نبى ، وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرم من يوسف وأصبر منه .

(إنَّ ربِّى بِكَيْدِهِنَّ عليمٌ) أى لا يعلم غاية كيدهن إلا الله ،

لبعد غوره ، ولو كان يمكن للملك وغيره أن يعلموا طرفا منه ، أو أراد أن الله عليم به ولو جهلتموه ، وفى ذكر علمه تعالى بكيدهن تلويح بعقابهن عليه فى الآخرة ، وفيها وفى الدنيا ، واستشهاد بالله سبحانه على براءته ، وكيدهن هو قولهن : أطع مولاتك ، أو مراودتهن له لأنفسهن إذا خلون به ، أو جميع ذلك فجمعهن الملك ، وهن ستة أو سبعة فيهن زليخا ، ماتت ثلاثة حسرة على يوسف وبقيت أربع وتقدم غير ذلك .

(قـالَ) الملك لهن (ما خَطْبُكنَّ) أى مـا شأنكن وكل أمر من الأمور يسمى خطبا عظيما أو صغيرا ولذلك فسره الشيخ هود رحمه الله بالحجة ، فإن الحجة أمر من الأمور ، وكثر فى الأمر العظيم وحقيقته أمر يحق أن يخاطب فيه صاحبه (إذْ) متعلق بنسبة الخبر إلى المبتدأ أو متعلق بخطب ، ولو كان خطب جامدا غير مصدر ، لأن فيه معنى القصد والاعتماد .

(رَاودْتُنَّ يوسف عن نَفْسِـهِ) وذلك أن كلا منهن راودته عن نفسه لنفسها كما مر ، أو لأنهن أمرنه بطاعة زليخا فيما راودته فيه ، فكأنهن مراودات ، أو المراود امرأة العزيز وحدها ، وخاطب الكل سـترا لها ، ولأنها فيهن ، فذلك على الأول كلية حقيقة ، وعلى الثانى كلية مجازا ، وعلى الثالث كل وحكم على المجموع ، هل وجدتن ميلا منه إليكن حتى راودنه .

(قُلْنَ حاشَ) فيه القراءات السابقة (لله) تعجب مـن لغته البالغة مع وجود أسباب عدمها ، ومن قدرة الله جل وعلا على خلق مثله (مَا عَلِمنَا عَلَيه مِن سُوءٍ) أمر قبيح من الزنى ، ولا من مقدماته ، أو من ذنب مطلقا فضلا عن ذلك .

ولأنها فيهن ، فذلك على الأول كلية حقيقة ، وعلى الثانى كلية مجازا ، رأودتنّه .

(قالَتِ امرأة العزيز الآن حَصْحَصَ الحقّ) ثبت واستقر متمكنا راسخا ، من قولك حصحص البعير إذا ألقى ركبتيه على الأرض وتمكن قاعدا ، وقال البخارى : حصحص اتضح ، وهو من قولك حص الشعر إذا استأصله حتى ظهرت جلدة الرأس ، وقرىء بالبناء للمفعول ، أى ظهر الحق وبان ، أو أثبت وأقر ، فإن الحصحصة بمعنى الثبوت تستعمل متعدية ولازمة .

(أنا رَاودْتُه عَنْ نَفْسه وإنَّه لمنَ الصَّادقينَ) فى قوله : « هى راودتنى عن نفسى » أو أرادت أنه صادق فى أقواله وأفعاله مطلقا ولا من يدل على شهادتها ببراءته ، إذ لا يبقى لأحد مقال إذا اعترف الخصم ، وإنما اعترفت بذلك لأن النسوة أقبلن عليها وقررنها ، وقيل : خافت أن يشهدن عليها فأقرت ، وهاهنا تم كلام المرأة بحضرة الملك ، ثم ذكر الله جل وعلا بقية كلام يوسف الذى تكلم به للساقى حين رجع إليه ليأتى به إلى الملك ، كما قال ابن جريج بقوله :

(ذَلكَ) المذكور من أمرى لك أيها الساقى بالرجوع إلى الملك وبسؤالك إياه ، ما بال النسوة ، أو ذلك التثبيت لأن الأمر بذلك تثبيت ، وإنما أشار بصيغة البعد لعلو شأن التثبيت ، فكأنه بعد مسافة ، ولأن الكلام إذا انقضى فقد غاب وليس بشىء حاضر فى الحس ، ولو بقى فى الذهن ، وقيل : هذا كلام يوسف حين رجع إليه الساقى ليخبره بما قالت انسوة ، إذ جمعهن الملك ، وبه قال أبو صالح عن ابن عباس ، وهو قول ابن جريج ، والبعد واضح على هذا .

وقال عطاء ، عن ابن عباس : إنه قال ذلك بحضرة الملك ، وعلى

هذا فإن كانت الإشارة لأمره الساقى بما ذكر أو للتثبيت المأمور به ، فالبعد ظاهر ، وإن كانت للتثبيت الحاصل من الملك بحضرة يوسف والنسوة ، فالبعد لانقضاء الكلام ، وعلو شأن التثبيت ، وإن قال يوسف ذلك بحضرة الملك ولم يحضر للتثبيت ، فإن أخبرته فأشار إليه ، فالبعد لذلك أيضا ولبعد إتمام التثبيت عن كلامه ، وإلا فأشار إلى أمره الساقى أو للتثبيت المأمورية ، فالبعد لهذه الأوجه .

(ليَعْلم) وضمير يعلم لله ، والهاء بعد على هذا لله ، أى لم أخن الله ، أى لم أعصه فى زوجة العزيز ، وقيل : الإشارة إلى الامتناع من مطلوبتها (أنّى لَم أخنْهُ) فى زوجته (بالغَيْب) أو للعزيز متعلق بأخن أى أخنه فى وقت غيبته ، أو فى مكان غيبته وراء الأستار والأبواب المغلقة ، أو حال من الهاء ، أى لم أخنه ثابتا فى وقت الغيبة عنى أو فى مكان الغيبة عنى ، إذ ذهب إلى الملك أو السوق أو غيرهما ، أو حال من المستتر فى أخن ، أى لم أخنه ثابتا فى وقت غيبتى ، أو مكان غيبتى عنه بأن ذهب إلى ما ذكر وتركنى خلفه فى أهله (وأنَّ الله لا يَهْدى) لا يوفق ولا يرشد (كَيْدَ الخائنينَ) ومعنى عدم توفيق كيدهم وعدم رشده أنه لا يجعله متأثرا ناقدا ، بل يفضحه ويبطله ، أو الأصل لا يهدى الخائنين بكيدهم ، فأوقع عدم الهداية على الكيد مبالغة ، وفى ذلك كناية عن أنه لو كان خائنا لم يخلصه الله من تلك الورطة الواقع هو فيها ، وعن أنه أمين ولابد ، وتعريض بخيانتها زوجها وبخيانة زوجها والملك أمانة الله ، إذ ساعداها على حبسه بعد ظهور الآيات على أن الملك قد سمع بهن ، ولما تضمن كلامه هذا تنزيه نفسه كما علمت ، قال : خروجا عن تزكية النفس والعجب .

(وما أبَرِّىء نفسى) من كل سوء على الإطلاق ، ولو برئت من هذا

يمن الله تعالى على ّ بالعصمة ، وهذا منه هضم لنفسه ، وتواضع لله عز وجل ، وسكن غير نافع ، وأبى عمرو الياء ، ويجوز أن يكون المعنى لا أبرىء نفسى فى هذه الحادثة لميل نفسه ميلا طبيعيا أنه مؤاخذ عليه لعدم القصد والعزم عليه ، ولأنه ضرورى إلى ما أحبت زليخا .

(إنّ النَّفْسَ) جنس النفوس ، وهذا استئناف للتعليل أو لمجرد بيان أمر النفس ، كأنه قيل : هل النفس أمارة بالسوء ؟ فقال : « إن النفس » (لأمارة بالسوء) بدليل التأكيد ، فإنه حسن إذا كان المخاطب طالبا متردد جنس السوء ، أكد أمر النفس بالجملة الاسمية وبأن وبلام التأكيد وبصفة المبالغة ، وذلك أنها تميل بالطبع إلى الشهوة وتستغرق فيها ، وتستعمل القوى والجوارح فيها ما وجت ، ولاتقول قطنى .

والتحقيق عندى أن النفس واحدة تميل بالطبع إلى الشهوات ، وتميل بالطبع أيضا عما يضرها ، ولكنها لا تتمالك عن اللذة بالعاجلة ، فإذا تمكنت منها وثبت إليها ، فمن ذلك وصفت بأنها أمارة بالسوء ، فإن كانت مما يترتب عليـه ضرر دنيوى أو أخروى ندمت ، فمن هـذا توصف بأنها لوّامة ، وإذا غلبها نور العقل وجبرها على الامتثال والاجتناب لم تفعل السوء وسكنت العقل ، وخضـعت فانها من ثم توصـف بأنها مطمئنة كذا ظهر لى .

(إلاّ ما رَحم ربّى) مصدرية ، والمصدر نائب عن اسم الزمان ، أى إلا رحمة ربى ، أى إلا وقت رحمة ربى ، وهذا جار على القليل من وقوع التفريغ فى الإثبات نحو : زيد يقرأ إلا يوم السبت ، أى يقرأ فى كل وقت إلا يوم السبت ، والتقدير فى الآية : إن النفس لأمارة بالسوء

فى كل وقت إلا وقت رحمة ربىّ ، وقد أجاز بعضهم قياس ذلك ، وذلك الوقت الذى لا تأمر فيه بالسوء ، هو وقت غلبة العقل عليها ، والوقت الذى لا تجد فيه سبيلا إلى شر ، أو ما مصدرية والاستثناء منقطع ، أى ما أبرىء نفسى ، لكن رحمة ربى تمنع من السوء .

ويجوز أن يكون ما اسما موصولا بمعنى من والاستثناء أيضا منقطع أى إلا من رحم ربى بالعصمة كما قال ابن عباس ، وإنما قلت : منقطع لأن الإنسان مثلا ليس من جنس النفس ، أو ما واقعة على أنواع من يعقل ، فالاستثناء أيضا منقطع ، ويحتمله كلام ابن عباس ، وذلك المرحوم كالملائكة ، ويجوز كون ما على أصلها لغير العاقل فى اصطلاح لنحو واقعة على النفس ، فيكون الاستثناء متصلا ، أى إلا النفس التى رحمها ربى بأن يعصمها أصلا عن الأمر بالسوء ، كنفس الملائكة ، فإن أنفسهم لا تأمرهم بالسوء ، وإنما قلت : إن النفس غير عاقلة فى الاصطلاح ، لأن العاقل فى الاصطلاح الإنسان يحملنه ، والملك والجنى مثلا ، فلو عبر عن العقل والنفس لعبر عنها بما لا يمن ، والمنصوص عن ورش تحقيق همزة السوء وهمزة إلا ، والمشهور عنه فى الأداء أنه يجعل الثانية من همزتين مكسورتين ، إحداهما آخر كلمة ، وأخرى أول كلمة كالياء الساكنة وكذا يفعل قليل .

وعن على بن خاقان ، عن ورش أنه يحمل الثانية ياء مكسورة فى البقرة فى قوله : « هؤلاء إن كنتم » وفى النور على البناء : « إن أردن » وقرأ قالون والبزى بالسوّ بتشديد الواو إبدالا لهمزة السوء واوا وإدغام الواو فى الواو ، وتحقيق همزة إلا ،وأبو عمرو يسقط الثانية على أصله والباقون يحققون الهمزتين .

(إنّ ربىّ غَفور) للذنوب ، من أستغفره منها واعترف بها كهم

النفس غير الضرورى (رَحِيمٌ) بالعصمة لمن يشاء وبالتوبة على من استرحمه مما ارتكب ، وروى أنه لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب قال له جبريل : ولا حين هممت بها ، فقال : « وما أبرئ نفسى » الآية ، وقيل : لما قال ذلك قال له الملك الذى معه : اذكر ما هممت به ، فقال : « وما أبرئ نفسى » الآية ، وقيل : لما قال ذلك قال له جبريل : فما فعلت السراويل ؟ فقال : « وما أبرئ نفسى » الآية .

وروى أنه لما قال ذلك قال له الملك الذى تشبه بيعقوب منفرجا عن السقف : حين راودته ولا حين حللت سراويلك ؟ فقال : « وما أبرئ نفسى » الآية وأثبت بكل تلك الروايات الشيخ هود ، وأنكرهن الزمخشرى ، وخطأ من قال بهن قال .

ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة ، فزعموا أن يوسف حين قال : « إنى لم أخنه بالغيب » قال له جبريل عليه السلام : ولا حين هممت بها ؛ قالت له امرأة العزيز : ولا حين حللت تكة سراويلك يا يوسف ، وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله أ هـ .

وما تقدم من كون قوله : « ذلك ليعلم أنى لم أخنه » إلى « رحيم » من كلام يوسف هو قول الأكثرين ، ولو وقع الفصل بكلامها لظهور المراد كما قيل فى قوله تعالى : « بماذا تأمرون » إنه من كلام فرعون مستشيرا بعد قول الملأ : « إن هذا الساحر عليم * يريد » الخ ومثل : « وكذلك يفعلون » فإنه قيل : من كلام الله لأمر كلام بلقيس ، ولم يميز بشىء ؛ وقيل : إن قوله : « ذلك ليعلم » إلى « رحيم » من قول المرأة أيضا متصلا بكلامها فيكون المعنى أن ذلك الذى قلت على نفسى من مراودتى له ليعلم يوسف أنى لم أخنه بالكذب حال الغيبة ، وجبت بالصحيح من

القول حين سئلت ، وذلك على أنها سئلت وهو فى السجن بحضرة الملك [فقالت :] وما أبرىء نفسى فإنى قد خنته حين بهتته وقلت لزوجى : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » وحين سجنته وإن النفس لأمارة بالسوء إلا نفسا رحمها ربى بالعصمة كنفس يوسف ، واستنفرت واسترحمت الله مما ارتكب .

(وقَالَ الملِكُ) عطف على محذوف ، أى ورجع الساقى مرة ثانية أو ثالثة من السجن على ما مر ، وقال الملك : أرسله أولا ليعبر له ، ثم ثانيا ليخرج فلم يخرج ، ثم ثالثا ليخبره بما قالت النسوة ، ثم طلبت الآن أن يؤتى به بلا معاودة (ائتُونى) بيوسف .

من كتب هذا إلى قوله : « المحسنين » وقد عطل عن التصرف والعمل ، وصام الخميس والجمعة أول الشهر ، وقرأ ذلك ليلة الجمعة عند دخول فراشه للنوم ، وكتبه يوم الجمعة بين الظهر والعصر ، وإذا أفطر قرأه ثم صلى العشاء ، ثم قرأه ودخل الفراش ، وقرأه أيضا وهلل مائة تهليلة ، وكبر مائة تكبيرة ، وحمد الله سبحانه وتعالى مائة حمدة ، وسبحه مائة تسبيحة ، واستغفر مائة استغفارة ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة مرة ثم نام وإذا أصبح نوى أن لا يظلم أحدا ولا يتعدى الحق ، ثم علق الكتاب خارج داره على نفسه فإنه يتصرف ويعلن من جمعته تلك أو قريب منها ، ومن لم يحسن أن يقرأ الآيات جعلها تحت رأسه وفعلَ ما مر .

(أسْتخلِصْه) السين والتاء للمبالغة ، أى أبالغ فى اختصاصى به ، وفى جعله خالصا لنفسى ، ومن عادة الملوك الانفراد بالأشياء النفيسة ، قال ذلك لما رأى من براءته وأمانته وعلمه ، وتعبير رؤياه كما روى الخباز

والساقى ، وصبره وإحسانه إلى أهل السجن ، وأدبه وثباته فى المحن ، فذهب الساقى وغيره ليأتوا بيوسف •

روى أنه أرسل إليـه عجلته التى كان يركبها ، وهى مـن ذهب ، وشدت فى أعناق الفيلة بسلاسل الذهب ، وأحاطت الفرسان بها ، واصطفت الرجال خلف الفرسان ، وضربوا له سماطا من باب السجن إلى باب الملك ، وأمر أن تزين مصر بأنواع الزينة ، وأن ترخى الستور على الحيطان ، وأرسل حوارى مكشوفات الوجوه بالمجامير فى أيديهن ، وعليهن أنواع الحرير والديباج ، وأرسل العسكر كله لاستقبال يوسف عليه السلام ، قيل : كان بين السجن ومصر أربعة فراسخ ، وبعث إليه خلعة عظيمة وقال : لا أخرج من السجن حتى لا يبقى فيه أحد ، فأمر الملك بإطلاق جميع من فيه فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ثم ركب •

وروى أنه لما أراد الخروج دعا لأهل السجون : اللهم عطّف عليهم قلوب الأخيار ولا تُعمِّ عليهم الأخبار ، فهم أعلم الناس بالأخيار فى كل بلد ، ولما خرج كتب بباب السجن : هذا بيت البلوى ، وقبر الأحياء ، وشماتة الأعداء ، وتجربة الأصدقاء • وإنما خرج بعد ما غسل نفسه من درن السجن ، ولبس الثياب الضيقة الجديدة ، ولما وقف على باب الملك قال : حسبى ربى من دنياى وحسبى ربى من خلقه ، عز جاره ، وجل ثناؤه ، ولا إله غيره ، ولما أبصر الملك قال : اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بك من شره وشر غيره ، قاله وهب بن منبه ، ولما نظر إليه الملك سلم عليه يوسف بالعبرية ، ودعا له بها ، فقال له : ما هذا اللسان ؟ أى ما هذه اللغة ؟ فقال : لسان آبائى وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا ، وكلما كلمه بلسان أجابه يوسف به ، وزاد عليه بالعربية والعبرية ، وكان

الأرْضِ) أرض مصر ، وكانت أربعين فرسخا فى كل جهة (يتَبَوَّأ) يتخذ لنفسه (مِنْها) نعتا لمفعول محذوف ، أى يتخذ منزلا ثابتا منها ، أو يتلوا بمعنى ينزل ، ومنها نعت لظرف محذوف أى منزلا منها أو من بمعنى فى .

(حَيْثُ يَشَاءُ) متعلق بـ « يتبوأ » أو نعت ثان للمحذوف ، أو حال منه ، أو من ضميره المستتر فى الجار والمجرور ، وقرأ ابن كثير نشاء بالنون ، وذلك التبوؤ تفسير للتمكين .

قال فى عرائس القرآن : روى سفيان عن عبد الملك بن المنذر ، أن الملك قال ليوسف : إنى أريد أن تخالطنى فى كل شىء ، غير أنى أحب أن لا تأكل معى ، قال يوسف : أنا أحق أن أقف عن ذلك ، لأنى ابن يعقوب إسرائيل الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله ، فصار بعد ذلك يأكل معه .

قال ابن عباس : فلما مضى ليوسف سنة من يوم سؤاله الإمارة دعاه الملك فتوّجه رداءَهُ وقلده بسيفه ، وأمر له بسرير من ذهب مكلل بالدر والياقوت ، وضرب له عليه حلة من الإستبرق ، وطول السرير ثلاثون ذراعا ، وعرضه عشرة أذرع ، وعليه ثلاثون فراشا ، وستون نمرقة ، ثم أمره أن يخرج متوجا ، ولونه كالثلج ، ووجهه كالقمر الناظر ، ووجهه يتلألأ نورا .

فانطلق حتى جلس على السرير ، ودانت له الملوك ، ولزم الملك بيته ، وفوض إليه أمر مصر ، وعزل قطفير عما كان عليه ، وجعل يوسف مكانه ، ثم مات قطفير فى تلك الليالى ، فزوج الملك يوسف امرأته زليخا ،

ويقال لها : راعيل على ما مر ، ولما دخل عليها قال : أليس هذا خيرا مما كنت تريدين ؟ قالت : أيها الملك الصديق لا تلمنى فإنى امرأة مشركة حسناء ناعمة ، فى ملك ودنيا ، وكان صاحبى لا يأتى النساء ، وكنت كما جعلك فى صورتك ، وهيئتك ، وغلبتنى نفسى وعصمك الله ، وافتضها يوسف إذ وجدها عذراء ، وولدت له ذكرين : أفرايتم وميشا ، واستوثق ليوسف أرض مصر ، وأقام العدل ، وأحبه الرجال والنساء ا هـ .

وتيقنوا أن لا ملك مثله ، وقيل : إن قطفير مات قبل خروج يوسف من السجن ، وزوجه الملك امرأته بعد خروجه ، وقيل : إنه تزوجها بعد أن كبرت وافتقرت على ما يأتى إن شاء الله ، وأسلم على يده الملك وكثير من الناس .

وروى أنه لما قال : « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » قال : صدقت إنى لا أعلم أحداً أولى بذلك منك ، فخذ هذا الخاتم والتاج والسرير ، فيهن يقوم ملكى ، ويشتد أمرى ، فلعمرى أن الذى أعطاك إلهك ، وشرفك به ليسير فى حقك ، وقليل فى خطرك ، فأنت الذى تحمل أهل مصر .

فقال يوسف : أما الخاتم فأشد به أمرك ، وأما السرير فأظهر به سلطانك ، وأما التاج فليس من لباسى ولا من لباس آبائى ، وفى رواية : أما السرير فأشد به ملكك ، وأما الخاتم فأدبر به أمرك ، ولما لم يقبل يوسف عنه التاج قال : إن لم تلبسه فأنا أضعه عن رأسى حتى يعلم الناس أنى قد وضعته إجلالا لك ، وأنى فضلتك على نفسى ، وآثرتك بسلطانى ، ثم قال : رضينا بك ، وسمعنا كلامك ، وأقررنا بعلمك وشرفك ،

فالحكم حكمك ، والقول قولك : والأمر أمرك ، وأنت المقـدم ، ونحن تبع لك سامعون مطيعون ، وقد وليتك مملكتى أربع عشرة سنة ، قدر أيام السعة والضيق ، وإذا مضت هذه المدة رددت علىّ مملكتى ، وتكون أعز أهل مملكتى ، لا أمضعك شيئا تريده ، ولا حكما تنفذه ، ودخل على ذلك الشرط .

ولما طلع هلال أول ليلة من السنين الصالحة ، جمع يوسف أهل مصر دانيها وقاصيها ، وأمرهم أن يصلحوا الأرض ، ويعمروها بالحرث ، ولا يتركوا منها شيئا ، فأنبت الله عز وجل زرعهم فوق العادة ، وظهر فيه النماء والصلاح ، حتى تعجب الناس من ذلك ، وأمر ببناء المخازن وحفرها ، فبنوا مما لا يعلم عدده إلا الله فى كل سنة ، قيل : طول كل مخزن مائة وستون ذرعا بنيت بالصخر ، ليس فيها خشب ، بعضها للبيع ، وبعضها للصدقة ، وزرعوا بطون الأودية رءوس الجبال ، فمازالت الغلات تنقل إلى الخزائن من جميع المدائن ، فيجتمع فيها ، وينفق على أهل البيت بقدر حاجتهم .

وكان النيل يفيض كل سنة فيضا عاما شاملا ، ولما طلع أول هلال من شهور سنين القحط ، أوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السـلام فى الثلث الأخير من تلك الليلة : يا جبريل أما تنظر إلى عبيـدى وإمائى ، يأكلون رزقى ، ويعبدون غيرى ، اهبط فإنى قد سـلطت عليهم القحط والجوع سبع سنين ، فهبط وصاح من الهوى : يا أهل مصر جوعوا فإن الله جل جلاله قد سلط عليكم الجوع ، فانتبه الرجال والنساء والصبيان من منامهم ، وكلهم يصيح الجوع الجوع ، فكانوا يجوعون قبل أوان الجوع ، ويأكلون من الطعام فوق الحـاجة ، ويسرع إليهم الجوع قبل الميعاد مع عدم الطعام ، حتى لا تكون لهم حاجة سواه .

وروى أن أول من أصابه الجوع الملك ، وانتبه ينــادى بالجوع ، وكان قد أمر الخبازين أن لا يفتروا عن الخبز ليلا ونهارا ، وكان من قضاء الله أن غفلوا تلك الليلة ولم يخبزوا شيئا ، فدعا الملك يوسف وشكا إليه شدة الجوع ، فجعل يوسف يده على بطنه ، ودعا له فسكن ما به ، وقال : هذا أول القحط ، واحتبس القطر ، وتعقمت الأرض ، وأذن مؤذن يوسف فى الناس أن لا يزرعوا شيئا حتى تنقضى سبع السنين ، فإنه يضيع بذركم ولا ينبت شيئا ، وفرغ الطعام من بيوت الناس حتى لم لم يبق ببيت من بيوت مصر ونواحيها طعام ، فأصبحوا متحرين لهفين ، لأنهم شاهدوا أمرا لا يستطيعون دفعه بحيلة .

ففتح يوسف الأبواب ، وجعل عليها الأمناء ، وأهل الإحصــاء ، ونادى مناديه : ألا من أراد الميرة وشراء الطعام فليصل إلى باب الصديق .

فاشتروا منه فى السنة الأولى بمــا كان فى أيديهم مــن الدراهم والدنانير ، والذهب والفضة ، حتى لم يبق عند أهل مصر دينار ولا درهم ، ولا ذهب ولا فضة .

وفى الثانية بما فى بيوتهم من الأثاث والفرش والأوانى .

وفى الثالثة بالحلى والجواهر واللؤلؤ .

وفى الرابعة بالمواشى .

وفى الخامسة بالدور والحوانيت والضياع .

وفى السادسة بنسائهم وبنيهم وبناتهم .

وفى السابعة برقابهم .

وروى أنها هربت لما ولى يوسف مصر لئلا يقتلها بما فعلت بـه ، وروى أنه نسبها وعميت وافتقرت ، وكانت فى بيت عجوز خمسا وعشرين سنة .

وروى أنها افتقرت فى أول سنين الشدة وكانت قد بنت بيتا على قارعة الطريق التى يمشى منها يوسف عليه السلام ، وكان يركب ويدور فى عمله ، وينصف المظلوم من الظالم ، وإذا ركب صهل فرسـه فتبلغ صهلته أهل المدينة بأسرها قريبها وبعيدها ، فيركبون ويأتون إلى قصره أسرع من طرفة عين ، ويركب لركوبه مائتا ألف عن يمينه ومائتا ألف عن يساره ، ومائتا ألف أمامه ، ومائتا ألف خلفه ، وبين يديه ألف سياف ، فلا يمر بأحد إلا قال : لقد أكرم الله هذا العبد ، وأتاه ملكا عظيما .

وكانت زليخا تشد وسطها بحبل من ليف ، وتلبس جبة من صوف ، وتقف على قارعة الطريق ، فإذا جاز عليها يوسف عليه السلام تناديه فلا يسمع نداءها ، ولا يذكرها أحد بين يديـه ، فأقبلت على صنمها فكسرته ، فقالت : ما أراك تغنى عنى شيئا ، وكانت تقول لخادمتها : قفى بى على طريق يوسف كى يصيبنى غبار عسكره ، ثم أسلمت وحسن إسلامها ، وقالت : لعلى ألقى يوسف عليه السلام حتى يعرفه بإسلامى ، فيتعطف علىّ الآن ، لأن إلهه كريم ، ومحبته قد دخلت [قلبى] وقالت لامرأة مصرية كانت تخدمها : خذى بيدى وأوقفينى على قارعة الطريق ، فإذا دنا يوسف منى فأخبرينى ، فلما دنا منها أخبرتهـا فنادت يوسف فلم يجبها ولم يلتفت إليها ، فنزل جبريل عليه السلام ، وأخذ بزمام بغلته ، وقال له : يا يوسف انزل وأجب هذه المرأة ، قال له : ومن هى يا جبريل ؟ قال له : انزل واسألها من هى ، فقد أسلمت وحسن إسلامها .

فنزل وقال لها : من أنت ؟ قالت له : يا يوسف كأنك ما عرفتنى ، ما أسرع ما أنكرتنى وكشفت رأسها ، وذرت عليه التراب وقالت : وا فوت عمرى حين أحببت من لا يعرفنى ، يا يوسف إن الطاعة والمعرفة تصيران العبيد ملوكا ، والمعصية تصير الملوك عبيدا أنا زليخا التى خدمتك بروحى وجميع جوارحى ، فتحير من ضعفها وهرمها ، لأنه لم يعلم أنها فى الحياة ، فدخل حبها قلبه لما أخبره جبريل عليه السلام بإسلامها ، فرق عليها ، وبكى رحمة لها •

فقال له جبريل عليه السلام : إن ربك يقرئك السلام ، ويقول لك : اقض حاجتها • فقال لها عند ذلك يوسف عليه السلام : ما حاجتك يا زليخا ؟ قالت له : أردت أن أكون فى دارك لعلى أعيش بكلامك إذا سمعته ، فما أوصلنى إلى هذه الحال إلا غيبتى عنك ، فقال لها : أتريدين أن تكونى لى زوجة ؟ فقالت له : أتهزأ بى ، فما نظرت إلىّ وقت حسنى وجمالى ، وقدى واعتدالى ، أنتظر إلىّ اليوم ، والله لقد كنت طامعة فى ذلك لرؤيا رأيتها ، إذا بها أضغاث أحلام ، وما أريد إلا أن يرجع إلىّ بصرى كى أنظر إلى وجهك نظرة ، وتعلمنى شرائع الإسلام حتى أعبد ربك الكريم ، وحقه لقد أحببته •

فقال لها : يا زليخا أتعلمين أنى أهزأ ؟ قالت : لا والله الذى لا إله إلا هو ، قال : فإنى ربى يقول لى ، على لسان ملك نزل من السماء : إن كانت عجوزا أجعلها جارية عذراء ، وإن كانت عمياء أجعلها بصيرة ، وإن كانت فقيرة أجعلها غنية ، لأنها كانت تحب من يحبها •

فقالت : يا يوسف لا شىء أحب إلى قلبى مما ذكرت لى ، فحملها

إلى قصره بعد ما مسح عليها جبريل عليه السلام بجناحه ، فصارت حوراء تخجل البدر ، لها عينان كحلاوان ، كأنهما لؤلؤ مكنون ، قد ألبسها الله بجمال أهل الجنة ، وانقلبت المحبة إلى قلب يوسف عليه السلام ، وافتتنت هى بحب الله عز وجل ، فعمل لها عرسا كبيرا ، وزفت إليه ، وغلقت الأبواب على نفسها ، واستحيت أن تجعل مع الله شريكا فى قلبها ، وأن تشتغل بغيره لما نالها من حبه ، واشتغلت بعبادته .

ولما انتصف الليل جاء يوسف عليه السلام ، وقرع عليها الباب فقالت له : يا يوسف تغيرت المسألة ، ووجدت من هو خير منك ، فكسر يوسف عليه السلام الباب ، ودخل عليها ، فتعلق بها ، فهربت منه ، فمزق قميصها ، فنزل جبريل عليه السلام وقال له : يا يوسف ليس هناك جدال ولا قتال ، محبة بمحبة ، وعشق بعشق ، وطلب بطلب ، وهرب بهرب ، وتمزيق بتمزيق ، ولكن أخبرها عن الله عز وجل أن رضاه فى رضاك ، وطاعته فى طاعتك ، فأخبرها بذلك .

ففرحت وقالت : الآن قد طابت نفسى ، وكملت والله مسرتى ، وفرح قلبى ، وانشرح صدرى ، ولما دخل عليها تعجب من حسنها وجمالها فقال لها : ما هذه الصورة البهية المليحة السنية ؟ قالت له زليخا : قد كنت ترانى منذ تسع سنين وما تعجبت منى قط ، قال لها : يا زليخا والله ما ملأت عينى منك قط ، قالت : ولم ذلك ؟ قال لها : لأنه لا يحل لى أن أنظر إلى ما ليس لى . قالت : يا يوسف وحق الذى فى السماء عرشه ، لقد بقيت مع العزيز من يوم رفعت إليه إلى أن مات وما مستنى بشرته ، ولا أعلم أنى ذكر أم أنثى ، ولا هممت بأحد غيرك .

قال لها : يا زليخا أنت الآن بكر عذراء ، قالت له : نعم أيها الصديق

كما خرجت من بطن أمى ، فقال يوسف عليه السلام : الله أكبر هذا من فضل ربى .

وعلم يوسف عند ذلك أن الله تبارك وتعالى كان يحفظها له ، وكتبها له فى الأزل ، فحمد الله وشكره ، وولدت له اثنى عشر ذكرا كلهم أنبياء مرسلون ، وفى رواية أخرى ، وهى التى سبقت فى حفظى : أن الله سبحانه وتعالى سلط على أموالها الفناء ، ومات العزيز ، وافتقرت افتقارا شديدا ، وذهب بصرها وصارت تتكفف الناس ، فقيل لها : لو تعرضت للملك لرحمك وأعانك بشىء يغنيك عن الناس ، ثم قيل لها : لا تفعلى فربما تذكر ما فعلت به من المراودة والسجن ، فيعاقبك ، فقالت : هيهات أنا أعلم بحبيبى منكم ، إن من خلقه الصفح .

ثم نهضت وجلست على ربوة فى طريقه ، وكان يركب يوما فى الجمعة ، وتركب معه العظماء والوزراء وأرباب دولته ، وتركب معه ألوف كما مر ، ولما أحست به نادت بأعلى صوتها : سبحان من جعل العبيد ملوكا بطاعتهم ، وجعل الملوك عبيدا بمعصيتهم ، فأمسك العنان ونظر إليها فقال : من أنت ؟ قالت : أنا التى كنت أخدمك دهرى على خدى وقدمى ، وأرجل جمتك بيدى ، وأبذل فى خدمتك جهدى ، وكان منى ما كان ، وقد ذقت وباله ، ولقيت نكاله ، فذهب مالى ، وتغير حالى ، وصرت أسأل الناس ، فمنهم من يرحمنى ، ومنهم من لا يرحمنى ، وهذا جزاء المفسدين .

فبكى شفقة عليها ، ثم قال : هل بقى فى قلبك شىء مما كان ؟ فقالت : : والله لنظرة منك أحب إلى من الدنيا وما فيها ، ثم قالت :

ناولني سوطك ، فناولها فوضعته على صدرها ، فوجد من طرف السوط في يده ارتعادا فقالت : يا نبي الله هو كما ترى ، فجاوزها باكيا ، ثم بعث إليها رسولا يقول لها : يقول لك الملك : إن كنت أيما تزوجناك ، وإن كنت ذات بعل أغنيناك . فقالت : إليك عنى يا عبد الله ، فإن الملك أعرف بالله من أن يستهزىء بى ، لم يلتفت إلى زمان شبابى وجمالى وغناى ، فكيف يلتفت إلىّ الآن ، فأخبر يوسف بما قالت .

وتعرضت له في الربوة في الأسبوع الثانى ، ونادت كالنداء الأول ، فقال لها : ألم يبلغك رسولى ، وقال لك ما قال ، فما ترين ؟ قالت : ألم أقل لك إن نظرة إليك أحب إلىّ من الدنيا وما فيها ، فأمر بحملها إلى قصره ، وأحضر الشهود وتزوجها ، فلما زفت إليـه ، وأدخلت عليه ، نظر إليها فزاد شفقة عليها ، فصلى ودعا بالاسم الأعظم ، فرد الله عليها جمالها ، فكانت كهيئة يوم راودته ، فلما نظرت إليـه دون رقيب دخل قلبها الوجيب ، ودلها لما رأته على السميع المجيب .

وقيل : بل رد الله عليها شبابها بعد وصول يعقوب ليوسف ، وارتداده بصيرا ، سارت إليه ووقفت بين يديه وقالت : أنت رئيس الصابرين ، وإمام المحزونين ، فتصدق على المحنة بقميص يزيل وصبها ، فأعطاها منه خيطا وهو القميص الذى كساه الله إبراهيم من الجنة ، حين ألقى في النار ، فمرت به على وجهها وجسدها ، فرد الله بصرها وشـبابها ، وتعرضت للصديق كهيئتها يوم راودته ، فدعاها إلى الإسلام فأسلمت ، فلما زفت إليه استأذنته أن تصلى لله صلاة تشكره على ما وهبها من نعمة ، فأذن لها فاستطابت حلاوة المناجاة ، فطال على يوسف انتظارها ، فدعاها إليه فلم تجبه ، فدعاها ثانية فلم تجبه فجبذها من خلفها ، فقد قميصها من دبر وواقعها ووجدها عذراء .

(نُصيبُ بِرحْمتنَا مَنْ نَشاءُ) فى الدنيـا والآخرة كالنبوة والتوفيق والملك والمال (ولا نُضيعُ أجْر المحْسِنينَ) بل نثيبهم عاجلا وآجلا ، وعن ابن عباس : المحسنون هنا الصابرون ، ومن إحسان يوسف الصبر وحب الضيف ، وكان لا يأكل إلا مع الضيف .

(ولأجْر الآخرةِ خيْر) من أجر الدنيا لعظمه ودوامـه ، وفى الآية إشارة إلى أن ليوسف فى الآخرة ما يستحقر دونه ملكه فى الدنيا (للّذينَ آمنُوا وكانُوا يتّقونَ) الشرك والمعصية ، عم القحط سائر البلاد فى السبعة [العجاف] حتى الشام ونواحيه ، وقصد الناس مصر من كل مكان لشراء الطعام ، وكان يوسف لا يبيع لأحد شريف أو وضيع أكثر من حمل بعير تقسيطا بين الناس ، ووصل يعقوب وأهله ما وصل الناس من القحط وهو بأرض كنعان من الشام ، وكانت زليخا تحب أهل الشام حبا شديدا ، وإذا أتى أحد منهم تأمر بإكرامه ، وكانت مغرمة بيعقوب وأولاده ، وكان أهل الشام إذا رجعوا من مصر نزلوا تحت بيت الأحزان ، ويذكرون محاسن سلطان مصر معهم ، وكيف أضافهم وأعطاهم ، وكيف يحبهم وما سيرته ويعقوب يسمع ويقول : والله هذه علامة العارفين ، ولم يعلم أن بمصر أو غيرها نبيا سواه ، وكان يقول : ليت لى قوة أمضى إليه لعلى أحد عنده يوسف .

وكان تحت نفقته ستون رجلا وامرأة وشكوا إليه وسألوه أن يدعو الله لهم حتى يفرج عنهم ، ودخل عليه أولاده يوما باكين ، قالوا : يا آبانا منذ أربعين سنة ما كلمتنا ولا التفت إلينا ، ولا دعوت لنا ، ولا تبسمت فى وجها ، فهب أنا قد عصيناك وقد آتيناك مضطرين مفترين مستغيثين . قد أصابنا ما أصاب الناس من الجوع ، فادع لنا ربك أن يرزقنـا وأن

يتفضل علينا ، فقال لهم يعقوب عليه السلام ، أدلكم على من عنده النعم والكرم ، ومن تقصده العرب والعجم ، ويثنون عليه بأحسن الشيم ؟ وجهه صبيح ، وكلامه فصيح ، ودينه صحيح ، قريب من الناس ، ذو حشمة وباس ، له العز والجلال ، والخزائن والأموال ، أخلاقه سنية ، وأصافه بهية ، أكرم الملوك وأسخاهم ، وأنصحهم لعباد الله وأحسـنهم خلقا ، وعنده طعام كثير ، وقد استخرت الله أن أوجهكم إليه .

فقالوا : من أين عرفت ذلك ؟ قال : من النازلين تحت بيتى إذا رجعوا قصدوه فإنه كريم ، وسلموا عليه أفضل التسليم . قالوا : يا أبانا نحن حفاة عراة حقراء فقراء ، ما عندنا شىء يصلح لحضرة الملك ، فإن الناس يحملون إليه الجواهر واليواقيت ، والذهب والفضة ، والزمرد الأخضر .

قال يعقوب : سمعت أنه كريم رحيم ، والكريم يقبل اليسـير ، ويهب الكثير ، قالوا : يا أبانا نحن ما حضرنا أبدا فى حضرة الملك ، كيف نفعل إذا وصلنا إليه ؟ قال : إذا أذن لكم بالدخول فلا تتكلموا بين يديه إلا بإذنه ، ولا تلتفتوا يمينا ولا شمالا ، فمن سوء الأدب الالتفات فى حضرت الملك إلى غيره ، فاحفظوا أدبكم ، فالبحر لا جار له ، والملك لا صديق له ، والعافية لا قيمة لها ، ومن صحب الملوك بغير علم أسلمه الجهل إلى القتل .

يا بنى إذا حضرتم بين يديه فاثنوا عليه ، وإذا أمركم بالجلوس فقفوا إلى أن يأمركم ، فإذا جلستم فلا تسبقوه بالكلام حتى يسألكم ، ولا تطيلـوا عنـده الجلوس لئلا يمقتكم ، وإن أذن لكم بالانصراف فلا تعطوه ظهوركم ، وإذا خرجتم من عنده فلا تذكروا لأحد ما جرى

بينكم وبينه ، وإن أفشى لكم سرا فلا تفشوه لغيركم ، فإن إفشاء سر الملوك صعب فأعدوا أهبة حسنة ، وأظهروا زيا بديعا •

وحملوا ما أمكنهم ولم يقصد مصر قوم أحسن حالا منهم ، ولا أبهى منظرا ، ولكنهم ما دخلوا إلا شعثا لنفاد زادهم •

وكان يوسف قد اتخذ شريعة على ساحل البحر إلى الجبل من حديد ، عليه باب واحد لا يقدر أحد يعبر فيه ، ولا يجد سبيلا إليه إلا من ذلك الدرب ، وكان على الباب حاجبه ، ومعه خمسمائة فارس ، وأمره أن لا يبيع إلا للغرباء ، ولا يبيع لواحد حتى يسأل عن اسمه واسم أبيه وبلده وأرضه وبضاعته ، وحتى يأذن له ، وأمر حاجبا آخر أن لا يبيع إلا لأهل مصر ، وكان أحدهما مصريا والآخر قبطيا ، وإذا ورد الغريب لحاجب الغرباء سأله وتركه واقفا ، وسار إلى يوسف فيفتح له البواب الباب ، فيقف عند الحجاب الأول ، فيبدى من الخضوع ما يبدى عند الملوك ، ويثنى ويقول : أيها الملك إنه ورد قوم من أرض كذا ، ويصفهم ويسميهم فيهز الحجاب ، وكان هزه علامة للقبول ، ولم يكن ذلك تجبرا وتكبرا ، بل إرهابا للأعداء ، وحفظا عمن يريده بسوء ولو انبسط إليهم لازدروا به •

وإنما بعث الرسل لتجديد الشرائع ، وتسديد الذرائع ، وكان أشد الناس تواضعا ، وأمر بالسؤال للغريب أن يعرف بإخوته إذا وصلوا ، وكان جبريل عليه السلام قد أخبره بذلك حين رأى الرؤيا وخرجوا هم عشرة ، أمسك يعقوب عليه السلام ولده بنيامين ، وهو أخو يوسف لأم وأب يتسلى به ، ونفد الزاد قبل وصولهم بمرحلتين ، فظهر عليهم أثر الجوع وتشعثوا ، ولما وصلوا سألوا الناس أين بائع الطعام ؟ فدلوا عليه ،

فجاءوه فسألوه البيع ، فقال : إنكم غرباء ، وليس أمر الغرباء بيدى ، ولكن انطلق إلى موضع كـذا ، فإن فيـه حاجتكم .

فجاءوا الذى يبيع الغرباء فسألوه البيع فقال لهم : من أنتم ؟ وما اسم بلديم ؟ وما أسماؤكم ، وما قصدكم ، وقد أعجبته رائحتهم وصورهم وأجسامهم ، فقالوا له : لم تسأل ؟ قال : لذلك جلست هنا . فقالوا له : نحن بنو يعقوب نبى الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله ، من الشام من أرض كنعان من بيت الأحزان ، قيل : وكان منزلهم بالقرب من فلسطين ، جئنا لحضرة الملك لنشترى الطعام ، وأسماؤنا كذا وكذا ، قال : وما بضاعتكم ؟ قالوا : لا تسأل عن بضاعتنا ، ونكسوا رءوسهم ، فكتب بذلك كله إلى يوسف عليه السلام ، وأنهم فى غاية الجوع والنحول وتغير الألوان ، ومع ذلك هم أهل جمال وبهاء وفصاحة .

وقيل أدى بلسانه كما مر لا بالكتابة وقال : إنهم يزعمون أنهم أولاد يعقوب نبى الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله ، قيل لما نظر فى الكتاب بكى حتى غشى عليه ، فتعجب الوزراء من حاله ولم يعلموا أى شىء أصابه ، فلما أفاق من غشيته أذن لمن حوله بالخروج فخرجوا ، ونظر فى الكتاب ثانية وبكى بكاء شديدا ثم قال للحاجب : متى قدموا ؟ قال : منذ خمسة أيام ، قال : فيما لباسهم ؟ قال : ثياب رثة وهم قوم شعث ، فبكى عند ذلك بصوت عال وقال : جاء إخوتى الذين فرقوا بينى وبين والدى .

وروى أنه قال ذلك بحضرة الوزير ، فقال له : فلم تبكى ؟ قال : لحالين : أحدهما : الحياء منهم إذ عصوا الله تعالى بسببى ، والثـانية

فقرهم ، فتعجب من قوله وقال : فما تفعل بهم ؟ قال : أفعل بهم ما يفعل القريب بالقريب ، والحبيب بالحبيب ، والملك بالغريب ، وأمر أن ينزلوا منزلا حسنا ، ويكرموا بأنواع الطعام واللحم والفاكهة والحلاوات ، ففعل الحاجب ذلك ، وقال : إذا تمت ثلاثة أيام فخرب ذلك الموضع المجعول للغرباء ، فإن المراد به هؤلاء ، وبات شاكرا الله سبحانه ، فرحا إذ أنجز له ما وعد له فى الجب .

ولما كان اليوم الرابع لبس أحسن ثيابه ، وقعد على سرير ملكه ، وجعل على وجهه برقعا من الديباج ، منظوما من جوهر ولؤلؤ ، يرى الناس منه ولا يرونه ، وأقام عن يمينه ألف جارية بزينتهن وحليهن ، وعلى يساره كذلك ، بأيديهن أعمدة الذهب والفضة ، وأمر قواده أن يلبسوا دروعهم وأسلحتهم ، ويحضروا جنودهم وجموعهم ، واصطفوا ركبانا عن يمين الكرسى ويساره ، واصطف الغلمان والرجال خلف الفرسان بأيديهم الحراب والمقاطع ، وأظهر زينة لم ير مثلها قط ، فكان الناس يتعجبون من ذلك ويتساءلون : ما بال الملك ؟ وأحضر الصواع الذى يكال به ، وكان إذا ضربه طن طنينا فيصغى بأذنه يعرف منه صدق المتكلم وكذبه ، وجعله فى حجره ، فأمر الحاجب أن يجىء بهم ، فجاء بهم فى خيله ورجاله ، فأذن لهم بالدخول بعد ما جاءوا وحضروا فدخلوا فعرفهم ولم يعرفوه ، كما قال الله عز وجل :

(وجاء إخْوةُ يُوسفَ فدَخلُوا عليْهِ) إلا واحدا فإنه أمسكه أبوه وهو بنيامين ، ويدل على هذا الاستثناء قوله : « ائتونى بأخ لكم من أبيكم » (فَعَرفهمْ) قيل : عرفهم أولا أنه لم يميز بين يهودا وشمعون ، ونزل الملك فميز له بينهما ، فعرف كلا على حدة (وهُم لهُ منْكرونَ)

قال ابن عباس ، ومجاهد : عرفهم يوسف بأول نظرة ، وقال الحسن : لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه .

قال ابن عبـاس : بين أن قذفوه فى الجب وبين أن دخلوا عليـه أربعون سنة ، ولذلك أنكروه ، وذكر بعضهم : أن المعصية تورث النكرة وتلا هذه الآية ، ومما يوجب النكرة أنهم فارقوه صغيرا ، وأنهم اعتقدوا أنه مات ، وأنه ذهب عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه ، واهتمامهم به ، ولبعد حاله التى هو فيها من السلطان والملك ، عن حاله حين ألقوه فى الجب ، وحين باعوه بدراهم معدودة ، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم ، ولأن الملك يبدل الزى ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر لـه المعروف .

وقال عطاء : لم يعرفوه لأنه كان على سرير الملك ، وعلى رأسه تاج الملك ، وقيل : لأنهم رأوه عـلى زى ملوك مصر ، عليه ثيـاب الحرير ، جالسا على سرير ، فى عنقه طوق من ذهب ، وفى رأسه تاج ، ولأنه يتكلم بالقبطية ، وقيل : لأنهم وقفوا من بعيد حيث يقف طلاب الحوائج ، وعلى كل حال ، فإن الله جل وعلا لم يخلق فيهم معرفة تحقيقا لما أخبره أنه سينبئهم بأمرهم وهم لا يشعرون ، وإنما عرفهم لأنه فارقهم وهم رجال ، ورأى زيهم قريبا من زيهم إذ ذاك ، لاهتمامه بهم ، فكان يتأمل ويتفطن .

وروى أنه أدخلهم فى ثانى يوم ، وروى أنه قال لصاحب المائدة : لا تنـزل هـؤلاء فى دار الغربـاء ، ولكن أدخلهم فى دارى ، وانصـب لهم المـائدة كمـا تنصبها بين يدى ، واحفظهم وأكـرمهم ، فقال : من هم يا مولاى ، فقد أتاك أقوام ومعهم الأموال والذخائر وما

أنزلتهم إلا فى دار الغرباء ؟ فقال : لا تكثر قولك ، افعل بهم ما أمرتك ، فنزل الخادم من القصر ، وأمرهم بدخول الدار ، وبسط لهم الفرش والمساند ، ويوسف ينظر إليهم من الكوة ويأمر الخادم بلسان القبط ويقول : ابسط لهم كذا وكذا ، وافعل بهم كذا وكذا ، ولا يدرون ما يقول •

ولما رأوا ملكه حين دخلوا إليه أول مرة ، نكسوا رءوسهم ، وكان كل ينتظر ما يؤمر به ، ويحكم فيه ، فجعل ينظر إليهم ويتذملهم ، ويطيل النظر إليهم ، ولا يدرون ، ثم يتشاغل عنهم بغيرهم ، وينظر إلى جهة أخرى ، ويكلم وزراءه بما يريد ، وأمر باعتزالهم إلى حيث أمر الخادم أن ينزلهم ولم يكلمهم ، ولما جن الليل ، وضع بين أيديهم الموائد والشموع والمجامير ، فنظروا إلى دار الغرباء من كوة ، والخدم يرفعون لكل فقير قرصة شعير للغلاء •

وكان حمل البعير بألف دينار ومائتى دينار ، والتفت لابنه ميشا وقال له : اشدد وسطك بالمنطقة الملكية واخدمهم ، قال : ومن هم يا أبت ؟ قال هم أعمامك يا بنى ، قال : هم الذين باعوك ؟ قال : نعم باعونى حتى صرت ملك مصر ، ما تقول يا بنى أحسنوا أم أساءوا فيما عملوا ، قال له : يا أبت بل أحسنوا والله فيما عملوا ، فماذا أقول لهم ؟ قال : لا تكلمهم ، ولا تفش ذلك لهم حتى يأذن الله تعالى لنا ، فبكى ميشا وبكت زليخا حين أخبرهما أنهم إخوته ، ولم يأذن لهم بالدخول بعد لاشتغاله ، وتشوشت خواطرهم •

وفى رواية أنهم عالمون بنظره إليهم ، وتشوشت خواطرهم من كثرة نظره إليهم ، فقال يهودا : يا إخوتاه إن هذا الملك يكثر النظر إلينا ،

ويكرمنا غاية الإكرام ، فإما أن يكون أعجبته أجسامنا فأراد الاستعانة بنا على عدوه ، وسد ثغر من ثغوره ، وإما أن يكون فعل ذلك غبطة لآبائنا وأنسابنا ، أو بلغه ما فعلنا بيوسف ، فأراد أن يفضحنا ويدمر علينا ، وهذا هو المصرع الذى أخوفكم ، أو رحمكم لفقركم ، ويوسف يسمع ما يقول ويبكى .

وروى أنهم يغدون عليه ويروحون وهم فى كرامة متصلة ، ويظهر لهم التجهم فتحيروا من جمعه بين التجهم والإكرام ، وكلما أرادوا مفاجأته بالكلام داخلهم الهبة والخجل ، ثم أذن لهم يوما فى الجلوس إليه ، وأكرم مجلسهم ، وسألهم بترجمان ، وكان كلما له الترجمان بما قالوا نقر الصواع فيقول : إن الصواع يخبرنى بصدقهم ، فيخبرهم الترجمان بذلك ، وكان سؤاله عن نسبهم وأسمائهم ومقصودهم وبلدهم .

وقد ثبت فى الحديث : كان يوسف يلقى حصاة فى إناء مخوص بالذهب فيطن ، وروى أيضا أنه قال : إنه طن ، وقال يوسف : إنه يخبرنى أن لكم أبا شيخا كبيرا ، وقال : هل لوالدكم سواكم ؟ قالوا : نعم كان له ولد اسمه يوسف فقده ولا ندرى كيف خبره ، وأخ شقيق ليوسف حبسه عنده يأنس به ، فنقر الصواع فخرج طنين عال فقال لترجمانه : قل لهم : إن الصواع يخبرنى أنكم كاذبون فى خبر هذا الواحد المفقود ، إذ قلتم لا ندرى كيف خبره ، فتغيرت ألوانهم ، وتجلجلت ألسنتهم ، وارتعد فرائصهم .

ثم قال : كيف كان سبب فقده ، حتى لم يعلم حقيقة أمره ؟ فقال واحد : أكله الذئب ، وقال آخر : أسره العدو ، وقال آخر : غرق فى

فى البحر ، فهز يوسف رأسه ونظر إلى الأرض ، ثم رفع رأسه وقال : ما حال والده بعده ؟ قال : هو باكى العين ، قريح القلب ، حليف الأسى ، لا يستلذ بهجوعه ، ولا يشرب إلا ماء دموعه ، قد اعتزل عن الناس ، وهجر الخدين ، واتخذ لنفسه غارا تحت الأرض ، ودخل فيه وبكى حتى ابيضت عيناه ، وليس له ليل ولا نهار ، ولا نوم ولا قرار ، فتقلقل يوسف تقلقل الواجد ، عند سماع أخبار الوالد .

فتقر الصواع فقال للترجمان : قل لهم ما ذكرتم من أنكم أنبياء وأولاد أنبياء ، فإنى لا أرى عليكم أثرة إنما أنتم لصوص أو جواسيس لأحد الملوك المجاورين ، إنما بعثكم لتطلعوا على عوراتنا ، فإذا رجعتم جئتم بأمثالكم من أهل القوة والنجدة تقاتلوننا ، ومراد التشبيه لهم بمن ذكر ، أو ذلك قول بعضهم : إنه لم يعرفهم حتى عرفوه بأنفسهم — وإن قوله هذا إنما هو قبل تعرفهم له أو ذلك منه بمنزلة قولك لمن عرفته : إنه غير فلان لعلك فلان ، وما الدليل على أنك غيره ، تريد مباحثته ، وأن يستدل لك — إنما نحن رعاة إبل وشاء ، قال لا أسرحكم من سجنى حتى أعلم خبركم ، فإن الصواع يخبرنى عنكم بأمور ، فأظهروا الخضوع ، وسكبوا الدموع .

وقالوا : نسألك أيها الملك بالذى بلغك هـذه المنزلة ، وأكرمك إلا رحمتنا وسرحتنا إلى أبينا ، فإنـه اليوم أعظم حقا عليك ، وعلى أهل الأرض ، وإن لم ترحمنا فارحم الشيخ يعقوب ، فلو رأيته لأبكاك ، قد احدودب ظهره ، وابيضت عيناه ، وكابده الوهن والشيب قبل أوانه ، وقد توسلنا إليك به فلا تضيع وسيلتنا ، ولا تخيب ظنوننا فيك .

(ألا تَرَوْن أنى أوفى الكَيْل) لا أطففه (وأنا خَيْر المنْزلينَ) للضيف إذ أنزلتكم بجوارى ، وأحسنت ضيافتكم ، أو خبر من ينزل الضيف ، أى يحضر نزوله وهو ما يقرى به الضيف أولا ، ووجه قوله هذا أنه ترغيب فى الرجوع ، بمنزلة قولك : ما يمنعكم عن الرجوع والوفاء بالميثاق ، وقد رأيتم أنى موف للكيل ، وقد ظهر لكم أنى محسن فى ضيافتكم وجملة : « أنا خير المنزلين » مستأنفة فى مقول يوسف ، أو معطوفة على « ائتونى بأخ لكم من أبيكم » ولو اختلفتا فعلية واسمية ، وطلبا وإخبارا ، لأن المراد اللفظ لا معطوفة على أنى أوفى الكيل ، وإلا قال : وإنى خير المنزلين ، إذ لا معلق للرؤية عنها ، ويجوز كونها حالا من المستتر فى « أوفى » هذا ما ظهر لى فى الإعراب .

والمعنى وبما ذكرت من أنه لم ينزههم عما مر لما رأى منهم أولا ، ومن أن ذلك ترغيب فى الرجوع يجاب عما أورده الفخر من أن الآية تضعف قول من يقول من المفسرين إنه اتهمهم ، وأن من يشافههم بذلك لا يليق به أن يقول : « ألا ترون أنى أوفى الكيل » وسكن غير نافع همزة ياء أنى ، وروى أنهم لما أوقروا دوابهم دخلوا عليه للوداع فقال : « ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين » .

(فإنْ لم تأتونى به فَلا كيْل لكُم عِنْدى) بعد هذا (ولاَ تَقْرَبُون) بعد للطعام ، أو لا تدخلوا بلدى أصلا ، ولا نافية أو ناهية ، وعلى النفى فحذف النون للعطف على الجواب ، وهذه غاية التخويف والترغيب ، إذ لا يمكنهم كيل الطعام إلا منه ، فقالوا له ما أخبر عنهم الله عز وجل بقوله :

(قالُوا سَنُرَاودُ عَنْهُ أباه) نجتهد فى طلبه من أبيه ، فإنه يعز

فراقه على أبيه ، وعلى كل من يليه (وإنَّا لفاعِلُونَ) الآتون به باحتيال لانتوانى فى مرادك •

(قالَ) يوسف (لِفِتْيانه) جمع فتى على الصحيح وهو خلاف القياس ، وقيل اسم جمع ، وقرأ حمزة والكسائى وحفص لفتيانه ليوافق قوله : « فى رحالهم » فى أن كلا جمع كثرة ، والكثرة مراده ، فإن الرجال عشرة أو أحد عشر ، ووكل بكل رجل فتى يعبىء له بضاعة ، بخلاف الفتية ، فإنه جمع قلة ففتية كإخوة ، وفتيان كإخوان وعلى قراءة الجمهور فالمراد الكثرة أيضا ، والمراد بالفتيان غلمانه الكيالون ، أو وأتباعه الذين استعملهم فى الكيل •

(اجْعَلُوا بضَاعتَهم) الإضافة للجنس ، فالإفراد كالجمع أو إفراد لأن الكيل بضاعة واحدة ، فرقت ما أتوا به للبيع وهو دراهم أتوا بها ليشتروا بها الطعام ، وقيل : ذهب وفضة ، وعن ابن عباس : نعال وأدم واقتصر عليه فى عرائس القرآن •

(فى رحَالهم) جمع رحل وهو الوعاء الذى يحمل فيه الطعام أو غيره (لَعلَّهم يعْرفونَها) أى يعرفون لها يدا وتكرمة ، أى يعرفون حقها وضمير النصب للبضاعة (إذ انْقلبُوا) متعلق بيعرف أى وصلوا (إلى أهلهِم) وبلغوهم بأن يقيموا أوعيتهم فيجدوا فيها البضاعة ، ولعل للترجى ، ويجوز أن تكون للتعليل ، أى لكى يعرفوا أنها بضاعتهم ردت إليهم •

(لعلَّهم يرْجعُون) ترجع أو تعليل ، والجملة بدل اشتمال من

قوله : « لعلهم يعرفونها » فتحصل أن الجعل فى الرحال سببه إرادة الرجوع ، أو لعل هذه ترج بالنسبة إلى المعرفة ، أى لعل معرفتهم بها تدعوهم إلى الرجوع ، وذلك أنهم إذا رأوها فى رحالهم فى الرجوع لهذا الذى يعطى الطعام فى وقت غلائه بلا قيمة .

وقال الكلبى : تخوف أن لا يكون عند أبيه من البضاعة ما يرجعون به مرة أخرى ، سواء يريدون شراء الطعام مرة أخرى وهو الأليق بتلك السنين ، أم لم يردوا إذ لا يحسن رجوعهم بلا شىء ، وقيل لا يرى أخذ الثمن من أبيه وإخوته لوما ، ولا سيما فى حال الشدة فتركها عونا لهم على شدة الزمان ، وقيل : أراد أن يحسن إليهم سرا ، حتى لا يلحقهم ذل وخضوع فى ذلك ، ولا يطمع كل من سمع بذلك فى مثله ، وقيل : لأنه علم أن ديانتهم تحملهم على الرجوع بها ، بأن يرجع كل منهم بما وجد فى رحله مخافة أن يكون قد ذهل عنه ، فلم يأخذه ، أو تحرجا من طعام بلا ثمن فيتحصل غرضه من رجوعهم .

وقد قيل : معنى « لعلهم يرجعون » لعلهم يردونها ، فالأصل لعلهم يرجعون بها ، ولا يضيف هذا بسرورهم بها حيث وجدوها فى رحالهم ، لأنه ظن أن يتحرجوا ويردوها ، وما ظنهم يغنمونها ، ولو لم يجعلها فى رحالهم لأمكنهم أن لا يرجعوا فيتعذروا بالفقر ، وقلة ذات اليد فيما قيل ، وقيل : جعلها فى رحالهم توطئة لجعل السقاية فى رحل أخيه ، ولما أرادوا المسير أمرهم بالدخول عليه ، وأقبل عليهم بكليته ، وأمر ترجمانه فقال : إن الملك قد فعل بكم فعلا جميلا ، وأولاكم طولا جليلا ، وأنه يودعكم ويقول لكم : أبلغوا سلامى إلى أبيكم وقولوا له :

إنى سمعت همه وغمه ، وإنى قائل له : عليك بالصبر الجميل ، فإن النصر مع الصبر ، واليسر مع العسر ، والله لطيف بعباده .

وساروا وتركوه كأنه يغلى فى المثلات شوقا إليهم وإلى إخيه وأخته وأبيه ، وقد أوحى الله إليه أن لا تخبرهم بذلك يوسف ، ليكتمل أجر يعقوب بمكابدة بالصبر وتتفسر الرؤيا الأولى ، ما تولوا منزلا بعد رجوعهم إلى أهلهم إلا أقبل عليهم أهله بأنواع الكرامات ، قال شمعون : ما التفت إلينا أحد حين قصدنا مصر ، ولما رجعنا صار الناس يكرموننا ، فقال لهم يهودا : ما أكرمكم إلا لأثر حضرة الملك .

(فلما رَجَعُوا إلى أبيهِم) أى وسلموا عليه وقالوا : يا أبانا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة عظيمة ، لو كان رجلا من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته وصنع بنا ما لم يصنع بأحد وأنه على دين الإسلام ، وحزين لحزنك إياك لبكائك على ولدك المفارق لك ، ومعنا العطايا والهدايا من عطاياه .

(قالُوا يا أَبانَا مُنِعَ منَّا الكَيْلُ) حكم بمنعه بعد هذا إن لم يذهب معنا بنيامين (فَأَرْسِلْ مَعَنا أخَانَا) بنيامين (نَكْتَلْ) ما نحتاج إليه ، وإن لم ترسله معنا لم نجد الاكتيال ، والأصل نكتيل بياء مكسورة قلبت ألفا لتحركها بعد فتحة حذفت ألف للساكن بعدها ، ووزنه بحسب الأصل نفتعل ، وبحسب الحال نفتل وهو افتعال من الكيل ، قال أبو عمرو الدانى : قرأ حمزة والكسائى يكتل بالياء أولا ، وعلى قراءتها يكون الضمير فيه عائدا إلى الأخ ، أى يكتل معنا فى هذه المرة الثانية (وإنَّا لَهُ لحافِظُونَ) عن أن ينالهم مكروه .

وروى أنهم رجعوا بلا كيل حتى يأتوه بهذا الأخ ، وأن هذا هو المراد فى قولهم منع منا الكيل ، وقيل اكتالوا ، ومنعهم من الكيل بنيامين يأتوا به ، وهذا هو المراد ، وقال لهم شمعون : قالوا ارتهنه الملك لنأتيه ببنيامين فأخبروه بالقصة ، قال : لِمَ أخبرتموه بذلك ؟ قالوا إنه أخذنا وقال : إنكم جواسيس إذ كلمناه بالعبرانية وبكى عند ذلك .

(قَالَ هَلْ آمنُكُمْ) أى ما آمنكم (عَلَيْهِ إلاَّ كما أمنْتُكُمْ عَلَى أخِيه) يوسف (مِنْ قَبْلُ) وقد فعلتم فيه ما فعلتم مع قولهم يومئذ : « إنا له لحافظون » كما قلتم اليوم ، وذلك كناية عن أنى لا أرسله معكم إلا على خوف عنه ، وعدم اطمئنانه ، ولم يمنعهم لما رأى فى إرساله من المصلحة ، مع ما ظهر له من أنهم قد أنابوا إلى الله عز وجل فلم يخف عليه كخوفه على يوسف ، ثم أنعم لهم بإرساله معهم متوكلا على الله سبحانه وتعالى كما قال :

(فاللهُ خَيْرٌ حافِظاً) تمييز محول عن الفاعل ، وقرأ حمزة والكسائى وحفص حافظا فهو حال لازمة ، ويضعف كونه تمييزا لضعفه فى الصفات ، والتمييز فى قولك : لله دره فارسا أولى منه فى الآية ، لأن فارسا ولو كان صفة لكن تغلبت عليه الاسمية أو كادت ، فليسا سواء عندى كما يتوهم من كلام بعضهم ، وقرأ الأعمش : فالله خير حافظ ، وقرأ أبو هريرة : خير الحافظين .

(وهُوَ أرْحَمُ الرَّاحمِينَ) فأرجو أن يرحمنى بحفظه ، ولا يجمع علىَّ مصيبتين : مصيبة فيه ، ومصيبة فى أخيه يوسف . قال كعب : لما قال يعقوب : « فالله خير حافظاً » قال الله : وعزتى وجلالى لأردنهما عليك

بعد ما توكلت علىَّ ، وقال لهم : إذا رجعتم إلى ملك مصر فأقرئوه منى السلام ، وقولوا له : إن أبانا يصلى عليك ، ويدعو لك بما أوليتنا .

(ولمَّا فتحُوا متَاعَهم) أى حملوه من مصر ، فالمراد الطعام أو أوعيته أو كليهما (وجَدُوا بِضَاعتَهم رُدَّت إليهمْ) وقرىء ردت بكسر الراء نقلا من الدال المدغمة ، والجمهور يحذفون كسرها حذفا ، فتبقى الراء على ضمها ، ولما علم يعقوب السلام برد [البضاعة] ضرب بيده إلى رأسه مرتين وقال : واخجلتاه ! قالوا : يا أبانا مالك ؟ قال : [لو كان] لكم عنده قيمة ما رد عليكم بضاعتكم كذا قيل .

(قالُوا يا أبانا ما نَبْغى) ما استفهامية مفعول لنبغى ، أى أى شىء نطلب فوق هذا الإحسان ، أكرمنا وباع لنا وردٍ بضاعتنا ، قاله قتادة ، أو نافية والمفعول محذوف ، أى لا نطلب وراء ذلك إحسانا ، فإنه لا مزيد عليه ، أو نافية ونبغى بمعنى نجاوز الحد ، أى لا تريد فيما ذكرنا لك من إحسانه ، أو بمعنى نكذب ، فإن الكذب مجاوزة للحد ، وطغيان أى لا تكذيب فيما ذكرنا لك من إحسانه ، وما أردنا بقولنا : « أرسل معنا أخانا » إلا الخير ، ويجوز أن يكون المراد لا نطلب منك بضاعة أخرى ، بل نذهب بهذه البضاعة المردودة إلينا ، وقرأ ابن مسعود وأبو حيوة : ما تبغى بالتـاء خطابا ليعقوب ، أى أى شىء تطلب وراء هذا من الإحسان ، أو من الشاهد بصدقنا .

(هَذِهِ بضَاعتُنا رُدَّت إليْنا) مستأنف استشهدوا به على قولهم : « ما نبغى » على القراءتين ، وعلى الأوجه المذكورة كلها لا على

وجه تفسير بنفى بتكذب فقط ، قد يتوهم من بعض العبارات ، وجملة ردت حال من بضاعة .

(ونَمِيرُ أهْلَنا) معطوف على محذوف ، أى ردت إلينا فنستظهر بها ، ونمير أهلنا فى رجوعنا إلى الملك ، أى نأتيهم بالميرة وهى الطعام المحمول من بلد لآخر (ونَحفظُ أخَانا) بنيامين عما يضره فى ذهابنا ورجوعنا (ونَزْدادُ) نفتعل من الزيادة ، قلبت التاء دالا للزاى قبلها (كَيْلَ بَعيرٍ) لأجله على كيل أبعرتنا فى هذه المرة الثانية ، فيكون جملة كيلنا فى المرتين معا اثنين وعشرين كيلا أحد عشر فى كل مرة ، وقيل : المراد بهذا الكيل الذى يزدادونه كيل بعير بنيامين لأنه كان يوسف لم يكل له أول مرة حتى يحضر ، وزيادته إما على كيلهم السابق ، أو على الذى يريدون تجديده ، وإذا جعلنا ما نافية جاز عطف الجمل على المحذوف كما مر وهو المتعين عند جعلها استفهامية ، وجاز عطفهن على ما نبغى .

(ذلكَ) الكيل الذى كلناه (كَيْلٌ يَسيرٌ) قليل لا يكفينا إلا بزيادة كيل أخينا ، أو كلينا وكيله ، أو ذلك الكيل الذى نزداده لأخينا كيل سهل لا يمنعنا الملك منه ، وقد أحسن إلينا وأكرمنا بأكثر منه ، وهو سخىٌ أولا يمصلنا فيه ، بل يتبرع لنا به فيرجع عن قريب إن شاء الله ، وذلك الكيل الذى يتجدد لنا ولأخينا هيِّن وما هو الأحد عشر حمل بعير ، وهى فى كرمه كحمل واحد .

ويجوز على ضعف أن يكون ذلك من كلام يعقوب أوصل بكلامهم على حد ما مر فى قوله : « ذلك ليعلم أنى » الخ أى أن كيل بعير شىء حقير لا يخاطر فيه بالولد ، قال : ما زالوا يتملقون له فى إرساله ، ويذكرون

له محاسن الملك ، وسخاءه وديانته وعطيته ، وأن سيرته كسيرة الأنبياء ، وما يجيبهم بشيء سوى قوله : « هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » ولما أعياهم قام واحد منهم ففتح رحله ، فقاموا كذلك فوجدوا بضاعتهم ، فازدادوا احتجاجا عليه ، فسكن قلبه بعض سكون إلى بعث بنيامين ، ولكن لم يجبهم حتى فنى ما عنده من الطعام ، ودخل الصبيان عليه يبكون من الجوع ، فأجابهم بأن يرسله معهم ، على أن يعطوه ميثاقا من الله كما قال الله عز وجل :

(قال لن أرْسِله معَكُم حتّى تؤتُون ِ) وأثبت ابن كثير الياء وصلا ووقفاً وأبى عمرو وصلا ، وحذفها الباقون فى الوصل والوقف (مُوْثقاً) عهدا (من الله) بأن تحلفوا به ، أو تشهدوه عليه ، وسمى الحلف به أو إشهاده موثقا لأنه تؤكد به اليهود وتعد .

(لتأْتُنَّنِى به) جواب للقسم ، لأن الموثق قسم ، أى حتى تحلفوا بالله لتأتننى به وهو من الإتيان بمعنى المجىء ، والأول من الإتياء بمعنى حمل الشىء آتيا بهمزة التعدية ، ويعبر عنه بالإعطاء .

(إلاّ أنْ يحاط بكُم) الإحاطة بشىء غالب لكم كسيل لا يطاق ، وعدو لا يطاق ، وموتكم جميعا ، والاستثناء منقطع ، أى لكن الإحاطة بكم أمر تعذرون فيه ، وبكم نائب الفاعل ، ويجوز أن يكون متصلا مفرغا على أن معنى لتأتنى به مضمنا معنى النفى ، أى لا تمتنعون من الإتيان به على كل حال ، إلا حال الإحاطة ، فيقدر مضاف للإحاطة ، أولا تمتنعون من الإتيان به لعلة إلا للإحاطة بكم ، فيقدر حرف التعليل كما ضمن المثبت

معنى المنفى فساغ التفريغ بعده فى قولهم : أقسمت بالله إلا فعلت ، أى ما أطلب إلا فعلك ، أو الآية على القليل من التفريغ فى الإتيان ، وأصل لتأتننى لتتأتوننى ، نقلت ضمة الياء لثقلها عليها إلى التاء المكسورة قبلها ، فالتقى ساكنان حذف الياء ، وحذفت نون الرفع لتوالى النونات ، فالتقى ساكنان ، حذفت الواو أو لما نقلت ضمة الياء قلبت واوا فحـذفت الواو لسكون واو الجمع بعدها ، أو حذفت ضمتها فحذفت للساكن ، ثم ضمت التاء لواو الجمع .

(فلمَّا آتوهُ مَوْثِقَهُم قالَ اللهُ عَلى ما نقُولُ) أنا وأنتم من طلب الموثق وإعطـائه (وكيلٌ) حفيظ رقيب مطلع ، حلفوا له بالله لتأتينك به ، إلا إن أحاط بنا ما لا طاقة لنا به .

وقال سعيد بن جبير : سئلَ ابن عباس عن الموثق الذى طلبه يعقوب قال : طلب منهم أن يحلفوا له بمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وسيد المرسلين ، ألا يغدروا بأخيهم ففعلوا ، وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما : قال لولده : يا معشر ولدى إن خنتمونى فى ولدى بنيامين فأنتم برءاء من النبى الأمى الذى يكون فى آخر الزمان ، له أمـة لهم صفوف فى الصلاة كصفوف الملائكة فى السماء ودوى فى الأسحار بشهادة أن لا إله إلا الله ، وهو صاحب التاج والقضـيب ، والوجه الأقمـر ، والجبين الأزهر ، والحوض المورود ، والمقام المحمود ، الـذى يسمى محمدا عليه السلام ، فانتم برءاء منه ، وهو معرض عنكم بوجهه يـوم القيامة إن خنتم لى فى ولدى . قالوا : نعم ، قالَ : الله على ما نقولُ وكيل .

فأرسله معهم ، وقالَ : يا روبيلُ اكتب عنى إلى ملكِ مصر باسم

إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، من يعقوب إسرائيل الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله ، إلى ملك مصر أما بعد :

فإنك سألتنى على لسان أولادى ، عن سبب حزنى وشيبى ، وانحناء صلبى ، وذهاب بصرى ، فاعلم أن أولى الناس بذلك وأحقهم به ، أخوفهم من ربهم ، وأذكرهم لمعاده ، فأما كبرى قبل أوانه فمن خوف يوم القيامة ، وأما شيبى قبل أوانه فمن ذكر النار وشدة عذابها ، وأما انحناء ظهرى ، ووهن عظمى ، وذهاب بصرى ، فمن الحزن على قرة عينى يوسف ، ومواصلة بكائى عليه ، فإنه كان قرة عينى ، ونور بصرى ، وهو أنسى فى الخلوة ، ومرادى فى البلاء ، وقد أصبت فيه ، وفرق بينى وبينه فلا أدرى أحى هو فأرجع ، أم ميه فاحتسبه ، وإنا أهل بيت موكل بنا البلاء ، وما ذلك لهواننا على الله ، ولكن ليكمل أجرنا .

وقد بلغنى اهتمامك بأمرى سؤالك عنى وعن حالى ، فالله يجزيك على ذلك وكفى به مجازيا ومثيبا .

واعلم أنك لا تكرمنى بكرامة هى أعظم فى صدرى ، وأبلغ فى شكرى من أن تعجل على بتسريح ولدى ، وردهم على ، فتجدد بهم أنسى ، وتبسط بصرفهم نفسى ، وتزيل وحشتى ، وتكرم شيبتى ، فلو رأيت حالى لأبكاك وقد وجهتهم لك بالأمانة .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وكتب روبل ذلك بإملاء يعقوب عليه السلام شيئا فشيئا ، وختم يعقوب الكتاب ، بما ذكر الله عز وجل عنه بقوله :

(وقالَ يَا بنىَّ لا تدْخلُوا) مصر ، وقيل ذلك فى الفرماء ، وهى من أعمال مصر (مِنْ بابٍ واحدٍ وادْخلُوا مِن أبْوابٌ مُتفرقةٍ) ولها يومئذ أربعة أبواب : باب الشام ، وباب المغرب ، وباب اليمن ، وباب الروم ، وقيل خمسة بزيادة باب النون .

وقال السدى : أراد بالأبواب الطرق ، والذى سبق فى حفظى أولا أنه أمر كل واحد أن يدخل من باب غير باب الآخر ، وطريق غير طريقه ، فيكون لمصر أحد عشر بابا أو أكثر .

ولم أر وفى المسألة شيئا من شيخى ، وقيل : أمرهم بذلك لأنه قد علم أن ملك مصر هو يوسف ، إلا أن الله لم يأذن له فى إظهار ذلك ، وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى أخيه يوسف قبل إخوته فى وقت الخلوة ، وقيل : علم يعقوب أن يوسف بمصر من رسالة الأعرابى المذكورة فيما مر ، فقال لأولاده : ادخلوا من أبواب متفرقة ، لعلكم تجدون يوسف ، قيل : ولم يدر أن يوسف وصل الملك .

وقال ابن منبه : أمرهم بذلك مخافة أن يغتالوا أحدا لما ظهر له فى أرض مصر من التهمة بالحسد ، والصحيح أنه فعل ذلك مخافة العين عليهم ، إذ كانوا ذوى جمال وقوة ، وامتداد قامة ، وكانوا أولاد رجل واحد ، وهو قول الجمهور ، وبه قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العين حق لو كان شىء يسبق القدر لقلت العين لا تزال بالرجل حتى تورده القبر ، ولا بالجمل حتى توردە القدر ، ولا بالنخلة حتى توردها التنور ، وإذ استغسلتم

فاغلسوا »، قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالعاين فيتوضأ ثم يغسل منه المعين . وقالت أسماء بنت عميس : يا رسول الله صلى الله عليك وسلم إن بنى جعفر أسرع شىء إليهم العين ، أفأسترقى لهم ؟ فقال : « استرقى لو كان شىء يسبق القدر لسبقته العين » .

وقال ابن عباس : إن يتيمة كانت عند ميمونة ، فافتقدها النبى صلى الله عليه وسلم ، فسأل عنها قيل له : اشتكت عينيها ، فقال : « استرقوا لها فإنها أعجبتنى عيناها » .

وقال سهل بن حنيف : إذا أعجب أحدكم شىء فليبارك وصفة وضوء العاين ، ما ذكروا أن سهل بن حنيف أصيب بالعين عند اغتساله ، فأمر صلى الله عليه وسلم عاينه أن يتوضأ .

وذكروا أنه يؤتى بقدح ولا يوضع فى الأرض لتؤخذ منه غرفة فيتمضمض بها ثم يمجها فى القدح ، ثم يأخذ بشماله ماء يغسل به وجهه ، ثم يأخذ ما يغسل به كفه اليمنى ، ثم بيمينه ما يغسل به كفه اليسرى ، ثم بشماله ما يغسل به مرفقه الأيمن ، ثم بيمينه ما يغسل به مرفقه الأيسر ، ولا يغسل ما بين المرفقين والكفين ، ثم يغسل قدمه اليمنى ثم اليسرى ، ثم ركبته اليمنى ، ثم اليسرى على الصفة المتقدمة ، وكل ذلك فى القدح ، ثم داخلة إزاره وهو الطرف المتدلى الذى يلى حقوه الأيمن ، وقد ظن بعضهم أن داخلة الإزار كناية عن القدح ، وجمهور العلماء على ما قدمنا .

وهذا الوضوء واجب على العاين ، ويجبر عليه ويصبه من خلفه

على رأس المعين صبة واحدة ، وهذا ونحوه هو المراد بقوله : « فإذا استغلستم فاغلسوا » والأمر للوجوب فيه على الصحيح ، وقيل : لغير الوجوب ، وحدث والد سهل المذكور أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وساروا نحو ماء ، حتى إذا كان بشعب الحرام من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف ، وكان أبيض حسن الجسم والجلد ، فنظر إليه عامر بن ربيعة فقال : ما رأيت كاليوم ولا جلد محباة ، فلبط سهل ، أى صرع ، فأتى أبوه حنيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « هل تتهمون أحدا ؟ » قال : عامر بن ربيعة ، فدعا عامرا فتغيظ عليه ، فقال : « علام يقتل أحدكم أخاه هلا إذا رأيت ما يعجبك تبركت » ثم قال : « اغتسل له » فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه ، وداخله إزاره فى قدح ، ثم صب ذلك الماء عليه رجل من خلفه على رأسه وظهره ، ثم كفى القدح ففعل ذلك ، فراح سهل مع الناس ليس به بأس .

وذكر عياض : أن المراد بداخلة إزاره ما يلى جسده من الإزار ، وقيل : أراد موضع الإزار من الجسد ، وقيل : وركه ، لأنه معقد الإزار ، وعن مالك ما يلى الجسد من الثوب مطلقا ، وتلك الرقيا لا تعرف علتها فلا ترد ، وقد عضدتها التجربة ، وصدقتها المعاينة ، فإن التوقف فيها متشرع .

قلنا له : قل : الله أعلم أو متفلسف فالرد عليه أظهر ، لأن الأدوية عنده تفعل بتواها ، وقد تفعل بمعنى لا يدرك ، ويسمون ما هذا سبيله الخواصر ، ومن المتحرز ستر محاسن من يخاف أن يعان .

رأى عثمان بن عفان صبيا مليحاً فقال : دسموا نونته وهى النقرة

التى تكون فى ذقن الصغير ، وكان رجل يقال له أبو عبد الله الساجى فى حجة أو غزوة على ناقة فارهة ، وكان فى رفقة الرجل عاين ، فما نظر إلى شىء إلا أتلف ، فقيل لأبى عبد الله : احفظ ناقتك من العاين ، فقال : ليس له إليها سبيل فأخبر العاين بقوله ، فتحين غيبة إلى الله فجاء إلى رحله فنظر إليها فاضطربت وسقطت ، فجاء أبو عبد الله فأخبر أن العاين قد عانها وهى كما ترى ، فقال : دلونى عليه فوقف عليه فقال : باسم الله حبس حابس ، وحجر يابس ، وشهاب قابس ، اردد عين العاين عليه فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ، فخرجت حدقتا العاين ، وسالتا على خده ، وقامت الناقة لا بأس بها .

والعين تكون مع الإعجاب ولو بغير حسد ولو من الرجل المحب ، ومن الرجال الصالح أو الذى يعجبه الشىء يبادر إلى الدعاء للذى يعجبه بالبركة ، ويكون دلك رقيا منه ، كما يستفاد من الحديثين السابقين ، ويستفاد منه ومن التجربة أن العين تقتل .

واشتهر أن من رأى ما يعجبه فليصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرت ، كلاما فى مختصر القواعد والحاشية ، والذى أقول به : إن العاين إذا أتلف شيئا ضمنه ، وإن قتل فالقصاص أو الدية ، وإن تكرر ذلك منه بحيث يصير عادة كما يقتل الساحر قصاصا كما قال القرطبى ، وإلا لزمه ذلك فيما بينه وبين الله تعالى ، وقيل : يقتل الساحر بكفره ولو لم يتلف نفسا ، ومنعت الشافعية قتل العاين قصاصا ، لأنه لا يقتل غالبا ولا يعد مهلكا .

أن هؤلاء أضياف الملك ، انظروا إليهم ما أحسنهم وما أحقهم بالإكرام ، أو كان الداعى إلى ذلك خوفه على بنيامين ، وما مجردهم فلم يخطر بباله أنهم يعانون ، ولو خطر ما قصر .

(وما أغْنى عنكُم من الله مِنْ شىْءٍ) أى ما أدفع عنكم من الله شيئا من الدفع أو من الضر إن قضاه الله ، فإن الحذر لا يدفع القدر ، وذلك منه جمع بين التسبب والتوكل بما أشرت عليكم من الدخول من أبوابه متفرقة .

قال الشبلى : أجل طريق عمل الأسباب فى الظواهر ، وخلوا الباطن من تعلق بغير الله ، وذلك جمع بين الحكمة وحقيقة التوحيد ، ولذا مدح الله يعقوب بقوله : « وإنه لذو علم لما علمناه » وهو توكل جميع المؤمنين إلا من شذ فى رفض السعى بالكلية ، وقنع بالماء ويقبل البرية .

(إن الحكم إلا الله) يصيبكم ما قضى أن يصيبكم إن كان قد قضى عليكم بشىء (عليْه توكّلتُ وعليْهِ فلْيتوكّل المتوكّلون) الفاء صلة وعليه متعلق بما بعدها وإنما ساغ الجمع بين الواو والفاء للفصل بينهما بعليه ، وإنما قدم عليه فى الموضعين للحصر ، وإنما لم يسقط الفاء لأنها فى الأصل للتسبب ، فأتى بما هو صورة للتسبب وصفة له ، وفعل الأنبياء سبب لأن يقتدى بـه .

(ولمّا دخلُوا مِنْ حيثْ أمرهُم أبوهُم) أى من الأبواب المتفرقة (مَا كانَ) أى يعقوب (يُغنى عنْهم منَ اللهِ من شىْءٍ) أى ما أغنى عنهم ربه فى دخولهم متفرقين إزاحة للضر عنهم بالعين بل أصابهم

الضر من حيث لم يدروا ذلك أنهم نسبوا إلى السرقة ، وأخذ بنيامين وذلك أن الصاع وجد فى رحله وتضاعفت المصيبة على أبيهم فوقع الأمر على طبق قوله : « وما أغنى عنكم من الله من شىء » (إلا حاجةً فى نفْس يعقُوب قَضَاها) يعقوب أى أظهرها لهم ووصلهم بها ، وهى أن يدخلوا من أبواب متفرقة شفقة عليهم والاستثناء منقطع ، ويجوز عود ضمير قضى إلى الله سبحانه ، أى لكن حاجة قضاها الله له هى تسهيل دخولهم من أبواب متفرقة تطيبا لنفسه ونظيره أنه صلى الله عليه وسلم سد كوة فى قبر بحجر وقال : « إن هذا لا يغنى شيئا ولكن لتطييب نفس الحى » وقيل أراد بالحاجة الغصة من فراق يوسف قضاها الله ، ثم جاءت غصة أخرى من فراق بنيامين ، فحملته الغصتان على الأمر بالتفريق .

(وإنَّه لذو علمٍ لما علَّمناه) بالوحى والإلهام ، ونصب الدلائل ، ولذلك علم أن القدر لا يدفعه الحذر ، فقال : وما أغنى عنكم من الله من شىء ، واللام للتقوية دخلت على مفعول المصدر المنون وهو ما ، ويجوز كون اللام تعليلية ، وما مصدرية ، أى لأجل تلعمنا إياه ، ويجوز أن يكون معنى علم عملا ، واللام بوجهها مع ما أو بمعنى الباء ، أى لذو عمل للذى علمناه إياه ، أو لأجل الذى علمناه او لأجل تعليمنا إياه يقال عمل علما أى أنفذه وأتبعه ، ويقال : عمل به ، وكما صح إطلاق الجهل على عمل السوء ، صح إطلاق العلم على العمل بالخير ، قال سفيان : من لا يعمل لا يكون عالما ولكن ذلك بعيد حتى قال عياض ، هذا لا يعطيه اللفظ ، ولو كان صحيحا فى نفسه .

(ولكنَّ أكْثر النَّاسِ) الموحدين والمشركين (لا يعْلَمونَ) ما علم يعقوب إذ لم يسلكوا طريقه ، ولا يعلمون شر القدر ، وأنه لا يغنى

عنه الحذر حقيقة العلم ، أو أكثر الناس هم المشركون لا يعلمون ما ألهم الله أولياءه ، وهو المروى عن ابن عباس رضى الله عنهما •

روى أنهم لما بلغوا مصر تفرقوا ، ودخل كل أخوين من باب واحد ، وبقى بنيامين وحده عند باب الشام ، ولم يدر أين يذهب ، ولم يعرف أحد لسانه ، فنزل ملك من السماء على يوسف عليه السلام وقال له : قم يا يوسف والبس ثياب الغربـاء ، واركب ناقتك لكيلا يعرفك أحد ، واقصد باب الشام ، فإن أخاك ابن أبيك وأمك واقف على ناقته يسـأل من يمر به ، ولا يعرفون كلامه •

فركب ناقته وعليه برقع ، وتنكر بحيث لا يعرفه أحد ، وقصـد باب الشام ، فوجد بنيامين فلما رآه يوسف ذرفت عيناه بالدمـوع ، فسلم يوسف عليه وقال له بالعبرانية : من أين ؟ وإلى أين ؟ وماذا تريد ؟ قال : جئت من الشام أطلب الميرة • فخلع سوارا فى يده يساوى خمسين ألف دينار من ياقوت أحمر ، ودفعه إلى أخيه بنيامين ، فأخذه ولم يدر ما هو ؟ ولا ما قيمته ؟ فقال له : يا أخى ماذا أصنع به ، فتبسم من قوله ، وعلم أنه لا يعرف ذلك ، فقال اجعله فى عضدك وتعال معى حتى أريك إخوتك ، فوجدا إخوتهما قياما على الباب ركبانا ، فقال : امض نحو إخوتك ، فبكى وقال : لا أريد فراقك ، قد والله مال قلبى إليك •

فقال له يوسف : كيف تقدر ترافقنى وأنا عبد مملوك ، أى عبد الله أو أراد تعريض إخوته إذ باعوه ، فذهب بنيامين نحوهم فرحا ، فقالوا له : يا بنيامين ما رأيناك أبدا مستبشرا مثل هذه الساعة ؟ قال لهم : نعم ، قـد طلب قلبى براكب أتانى عـلى ناقة ، وكلمنى بالعبرانية ، وأعطانى

سوارا من زجاج ، فقال له يهودا : أرنيه ، فأراه إياه قال له : مـا أحسن هذه الزجاجة يا أخى ، اجعلها فى عضدى لئلا تضيع منك قال له : أفعل ، فجعلها فى عضده فذهبت إلى عضد بنيامين ، فقال له شمعون ، وقـد خرج إليهم من موضع فى مصر إذا ارتهنه يوسف : أرنى هذه الزجاجة فتناولها فجعلها فى عضده ، فذهبت إلى عضد بنيامين ، وكذلك من جعلها فى عضده منهم رجعت منه إلى عضد بنيامين .

وروى أنه لما علم يوسف بقدومهم مع بنيامين سر غاية السرور ، وأمر بتزيين مجلسـه ، وزين وبخر وجلس على سرير ، وأمر بأوانى الذهب فصفت مملوءة بالطيب عـن يمين وشمال إلى كرسـيه ، وأمر بدخولهم ، فقدموا بنيامين ليعلم الملك بوصوله ، ودخلوا عقبه ، فجعل يأخذ الطيب من تلك الأوانى ويمسح به ، وجعل إخوته يلومونه ويزجرونه ، ويقولون ما أجهلك ! ألك وضعت هـذه الأوانى ؟ أو لأجلك ملئت طيبا ؟ هذا سوء أدب ، لأنك لم تتعود الدخول على الملوك ، إنما تعودت صحبة النعم .

فقال : يا إخوتى ليس الأمر كذلك ، هذا أعز الملوك وأطيبعهم نفسا ، وقد تعود مس الطيب فتغيره أدنى رائحـة ، ونحن قوم سـفر تغيرت روائحنا ، فقالوا : صدقه ، وأخذوا وتمسحوا ويوسف ينظر إليهم ، وقد امتلأ سرورا ، ولما وقفوا بين يديه نظروا إلى بهاء ملكه ، ووقار سلطانه ، وزيادة زينته ، وتعجبوا وقال بعضهم لبعض : لعل هذا الملك غير الملك الذى كنا لقينا .

وقال الترجمان : يقول لكم الملك : من أنتم ؟ ومن أى بلد جئتم ؟

فقالوا : نحن الذين أمرتنا أن نجىء بأخينا ، فقال : نعم ، فهل جئتم به ، فاستبشروا وعرفوا أنه الملك الأول ، فقالوا : يا أيها العزيز إنا قد امتثلنا أمرك وأتيناك به وبكتاب من أبينا ، فقال لترجمانه : خُذه منهم ، فأخذه منهم ، فقرأ يوسف ففاضت عيناه بالدموع ، وأمر بإنزالهم وإكرامهم •

وبعد أيام قليلة أمر بطعام كثير فصنع ، وجعل على موائد عظيمة ، ونصبت أمام السرير ثم أمر بإحضارهم ، فأجلسوا على الموائد فى عز وشرف ، والولدان والوصائف وقوف على رءوسهم بألوان الأشربة ، وأنواع الزينة الحسنة ، ولما أرادوا التناول قال الترجمان : إن الملك يأمركم أن يجلس على كل مائدة أخوان من أب وأم ، فجلسوا اثنين اثنين وبقى بنيامين [وحده] فتأخر عن الطعام وبكى ونادى : يا حسرتاه لفراقك يا يوسف ، لو كنت موجودا لجلست معك ، وسمع يوسف وأشفق ، وأقبل عليه بالكلية ، وقال : مالك تأخرت عن الطعام ؟ قال : مالى أخ من أب وأم كان لى أخ منهما يسمى يوسف ، لا أدرى أحى أم ميت وتذكرته فتجددت أشجانى ، وتحركت أحزانى ، فصاح وصعق ، فوقعت الصيحة فى منزل يوسف أن أحد العبرانيين مات ، فنزل يوسف عن سريره ، والبرقع على وجهه ، فرفع رأسه وجعله فى حجره وبكى حتى أفاق •

فقام يوسف وأمر الخدم بحمله إلى سريره حتى يجلس معه ، ففعلوا ، وأمر بإحضار مائدة من ذهب مرصعة بالجواهر واللآلىء ، فوضعت بين يديه ، ثم أمر الخدم أن يجعلوا عليها من ألوان الأطعمة ما يليق بالملك ، ثم قال : كل معى كالأخ إذ بقيت منفردا ، فعظم ذلك على الإخوة وقالوا : انظروا إلى بنى راحيل أخوه الأول قال : أنتم عبيدى ،

وهذا الثانى إذا رجع إلى كنعان افتخر علينا وقال : جلست على سرير الملك ، وأكلت معه .

ثم قال يوسف : ألك زوجة ؟ قال : نعم . قال : ألك ولد ؟ قال : ثلاثة . قال : فما سميت الأكبر ؟ قال : ذئبا . قال لِمَ والذئب سبع عاقر ؟ قال : لأن إخوتى زعموا أن أخى يوسف أكله الذئب ، فأحب أن أذكر ذلك . قال : فما سميت الثانى قال : دماً . قال : ولِمَ قال : لأن إخوتى جاءوا بقميصه ملطخا بالدم ، فأنا أحب أن ذكر ذلك الدم . قال : فما سميت الثالث ؟ قال : يوسف . قال : ولِمَ ؟ قال : لئلا يندرس اسمه من فمى ، فاهتز لذلك حتى كاد يفشى السر ، ثم قال : قم يا فتى إلى البيت لأخلو معك فيه ، فدخلا البيت ، وأرخى الستر ، وكشف البرقع ، وأزال النقاب ، وأبدى الوجه الجميل ، وقال : أتعرفنى ؟ قال : أرى وجها جميلا يشبه وجه حبيبى المفقود ، فقال يوسف ما ذكر الله عنه عز وجل فى قوله :

(ولمَّا دَخَلوا علَى يُوسفَ آوَى) ضم (إليه) إلى نفسه (أخاهُ) بنيامين فى الطعام ، وفى الكرسى ، وفى البيت للخلوة ، وعند رفع رأسه إلى حجره (قالَ إنِّى) وسكن الياء غير نافع وابن كثير وابن عمر (أنا أخوكَ) يوسف (فلا تَبْتَئِس) أى لا تتضرر باجتلاب الحزن ، وهو يفتعل من البؤس .

(بمَا كانُوا يعمَلُون) فينا فإن الله سبحانه وتعالى قد أحسن إلينا ، وجمعنا على خير وصفح عن إخوته ، وصفا لهم ، فأراد أن يكون بنيامين كذلك ، ولا تعلمهم بما علمتك ، وبكيا واعتنقا ، وبكت الملائكة ، وخر بنيامين ساجدا ، وغشى عليه من الفرح .

وعن وهب بن منبه : أنه لم يعرف إليه ، ولكن قال : إنى أنا أخوك بدل أخيك المفقود ، فلا تبتئس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى ، فقد أمنتهم قبل ، ويحتمل أن يريد فلا تبتئس بما يفعل فتيان يوسف من أمر السقاية ونحو ذلك .

وفى عرائس القرآن : لما دخلوا على يوسف فى الكرة الثانية قالوا : يا أيها العزيز هذا أخونا الذى أمرتنا أن نأتيك به ، قد جئنا به ، قال : أحسنتم وأصبتم ، وتجدون ذلك عندى ، ثـم أنزلهم وأكرمهم وأنزلهم وأضافهم ، وجلس كل اثنين على مائدة فبقى بنيامين واحدا ، فبكى وقال : لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه ، قال لهم يوسف : هذا أخوكم هو وحيد فريد أجعله معى على مائدتى ، فأكل معه ، فلما كان الليل أمر لهم بمثله ، فجلس كل أخوين على فراش واحد ، فبقى بنيامين وحده فقال : هذا ينام معى على فراشى ، فنام معه وضمه إلى صدره ، وجعل يشم رائحته حتى أصبح فجعل روبيل يقول : ما رأينا مثل هذا .

ولما أصبح قال لهم : أرى هذا الذى جئتم به ليس معه ثان فاضمه إلى ليكون منزله معى ، ثـم أنزلهم منزلا واحد ، وأنزل معه أخـاه ، وأجرى عليهم الطعام ، وخلا له وقال : ما اسمك ؟ قال : بنيامين ؟ قال : وما بنيامين ؟ قال : ابن المتكل ، لما ولدت هلكت أمى ، قال : وما اسمها ؟ قال : راحيل بنت لايان بن نوبيل بن فاخور ، فقال : هل من ولد لك ؟ قال عشرة أبناء ، قال فما أسماؤهم ؟ قال : لقد اشتققت أسـماءهم فى شأن أخى من أبى وأمى ، قال : ما اسمه ؟ قال : يوسف ، قال لقـد اعتراك بذلك حزن شديد ، قال : هـم بلع ، لأن أخى ابتلعته الأرض ، وبكر لأنه بكر أمى ، وشكلا لأنه على شكل أمى وأبى ، وأكبر لأنه أكبر منى ،

ونعمان لأنه ناعم بين أبويه ، وورد لأنه بمنزلة الورد فى الحسن ، وحيتم لأنه أبى أخبر أنه حى ، وموتح لأنى لو رأيته لقرت عينى وتم سرورى ، ويوسف لئلا يخرج اسمه من بيتنا .

فقال له يوسف : تحب أن أكون أخاك بدلا من أخيك الهالك ؟ قال : أيها الملك ومن يجد أخا مثلك ، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام وعانقه وقال : « إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون » ولا تعلمهم بشىء من هذا .

وروى أن يوسف بنى بناء مذهبا أربعين ذراعا طولا ، وأربعين عرضا ، وأمر يوسف عليه السلام ويعقوب وإخوته جميعا على حائطه وقصته من حين ذهبوا به وصوروا شمعون آخذا بذؤابتى يوسف بشماله ، والسكين بيمينه يريد قطع رأسه ، وصور صورة روبيل ويوسف داخل تحت ذيله ، ولما دخلوا أمر غلمانه أن يدخلوهم فى الموضع الذى صوروا فيه فدخلوا وجلسوا ، فرفع روبيل رأسه ، فوقع بصره على الصوَر فصعق ، فقال إخوته : مالك يا روبيل ؟ فأخبرهم ، فقالوا : هذه والله صورنا وصنائعنا وأفعالنا بيوسف ، فتغيرت ألوانهم وتلجلجت ألسنتهم ، ووجلت قلوبهم ، فأخذوا فى البكاء والنحيب .

فقال يوسف لغلمانه : قدموا لهم الطعام ، فقدموا فامتنعوا من الأكل ، فقال للغلمان : قولوا لهم لِمَ لا تأكلون ؟ فقالوا : والله لقد جئنا جياعا ولما رأينا هذه الصور وصورة أخينا المفقود ضاقت صدورنا فلم نطق الطعام وبكينا ، فقال لغلمانه : أخرجوهم من ذلك البيت إلى بيت الخواص .

وكان بنيامين يبكى وينتحب ، وعلا بكاؤه وغشى عليه ، ولما أفاق خرجوا إلى بيت الخواص ، وفيه مائدة فجلسوا ، فأذهب الله عنهم ذلك رحمة [بهم] ليأكلوا فأكلوا إلا بنيامين فلم يأكل ، واشتغل بالبكاء ودموعه كالجمان على خده كاللؤلؤ والمرجان وكان شبيها بيوسف فى الحسن والجمال ، وبه يتسلى يعقوب ، فقال له يوسف : لم لا تأكل ؟ قال : أشتهى أن أدخل ذلك البيت الذى كنا فيه ، قال : لم ؟ قال : لأنى وجدت فيه صورة أخى ، وأريد أن أجلس بحذائها وأبكى عليها ، فأذن له ، فرجع يبكى حولها ، فاحترق قلب يوسف ، فدخل بيت الخلوة وسأل الله أن يتعرف لأخيه فأذن الله له ، فمرّ ابنه أفرائيم حذاء عمه وجعل يبكى معه ، فكان بنيامين تارة ينظر إلى الصورة ، وتارة ينظر إلى أفرائيم فلم فلم يميز بينهما ، فتعجب من ذلك فقال : ممن أخذت صورتك يا بنى ؟ فقال : من هذا الذى فى الحائط ، فقال : ممن أنت ؟ قال : أنا ابن يوسف الصدّيق ، قال : أهنا إنسان اسمه يوسف الصديق ؟ قال : نعم ، فسماه الله صدّيقا فبكى بنيامين بكاء شديدا ، وبكى أفرائيم لبكائه ، ويوسف وزليخا ينظران إليهما ويبكيان .

قال أفرائيم : يا عم مم بكاؤك ؟ قال : يا بنى كان لى أخ اسمه يوسف ، وقص عليه القصة ، فقال له : لا تبكى يا عمى ، فأنا ابن أخيك يوسف ، وهو الذى كان يقربك ، فوثب من مكانه فضمه إلى صدره ، وقال : وا حزناه وا طول شوقاه لفراقك يا قرة عينى ، وريحان قلبى ، وثمرة فؤادى يا يوسف ، وأين والدك ؟ دلنى عليه ، فلا صبر لى عنه ، فمضى أفرائيم نحو والده وأخبره بخبر عمه ، قال له : سر إليه وأتنى به ، فرجع قال له : قم يا عمى ، فقام معه ، ودخل به بيت الخلوة ، فقام إليه يوسف ، وكشف البرقع عن وجهه ، وضمه إلى صدره ، وقال : يا قرة

عينى يا بنيامين ، أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ، فزعق بنيامين فغشى عليه ، ثم أفاق فقال له : يا حبيبى وقرة عينى ، وثمرة فؤادى ، كيف حال والدى ؟ قال : كيف أصف لك حاله يا يوسف ، قد ذهبت والله عيناه من البكاء عليك ، فهو لا يشتهى إلا لقاءك ، فبكى وقال : ليت أمى لم تلدنى .

ثم سأل عن خته زينة ؟ فقال له : وحياتك العزيزة علىّ ما لبست المسكينة منذ أربعين سنة إلا المسوح ، وهى تقعد كل يوم فى مفرق الطريق ، كلما لقيت غريبا سألته عنك ، ثم قال : يا بنيامين هل تزوجت ؟ قال : نعم ، قال له : يا أخى كيف يتفرغ الحزين لذلك ؟ قال : وعزتك على لو كانت نار الاشتياق تدوم لذابت ، ولكن إذا عظمت يداركها الحق سبحانه باللطف ، يسلى بالرجاء ، وينسى حتى يتم قضاه ، ثم يرجع الأمر إلى ما كان عليه .

قال : فهل لك أولاد ؟ قال : ثلاثة ، قال : ما أسماؤهم ؟ قال : يوسف ، وذئب ، ودم ، قال : ولم سميتهم بذلك ؟ قال : إذا نظرت إلى يوسف ذكرتك ، وإذا نظرت إلى ذئب ذكرت ذلك الذئب الذى أكلك ومزق قميصك ، وإذا نظرت إلى دم ذكرت الدم الذى لطخوا به القميص ، فبكى وقال : قم عند إخوتك يا بنيامين ، فقال : كيف تبعدنى عندك بعد ما بكيت أربعين سنة ؟ قال : يا أخى إنك لم تبق معى إلا أن أضع عليك اسم اللصوصية ، قال : نعم .

ثم قام بنيامين ، ودخل على إخوته فما عرفوه من النور الذى فى وجهه من فرحه بلقاء أخيه ، فقالوا له ، من أنت ؟ قال : أنا أخوكم بنيامين ،

قالوا : من غيَّرك ؟ قال : أتعرفون مغيرا غير الله تعالى ، وغبطوه وقالوا له : هنيئا لك ، فما الذى قال لك الملك ؟ قال : وعدنى بخير .

قال فى عرائس القرآن : قال كعب الأحبار : لما تعرف يوسف إليه قال : فإنى لا أفارقك ، قال يوسف : قد علمت اغتمام والدى بسببى ، فإذا حبستك ازداد غما ، ولا يمكننى حبسك إلا بعد أن أشهرك بأمر عظيم ، فقال : لا أبالى افعل ما بدا لك ، قال ، فإنى أدس صاعى هذا فى رحلك ، ثم نادى عليك بالسرقة ليعيننى ذلك على ردك بعد تسريحك ، قال : فافعل . فأوفى لهم الكيل ، وجعل لبنيامين حمل بعير باسمه ، وقيل : زاد لكل واحد حمل بعير ، وأمر بالسقاية أن تجعل فى رحل أصغرهم وهو بنيامين وهو لا يشعر ، وذلك قوله تعالى :

(فلمَّا جهَّزهم بجِهازهم جَعَلَ) أسند التجهيز والفعل إليه ، لأنه الآمر بهما ، وإلا فالفاعل لهما الغلمان والخدمة (السِّقايةَ فى رَحْلِ أخيهِ) وكانت مشربة يشرب بها من ذهب مكلل بالجواهر . انتهى كلام عرائس القرآن .

وروى أنه أمر الغلمان أن يكيلوا لهم ، ويكيلوا للصغير آخرا ، وأن يجعلوا الصواع فى رحله وهو لا يعلم ، ولم يكن شىء أحب إلى يوسف منه ، ولا أكثر قيمة ، وكان يشرب بها فهو السقاية يكيل بها الطعام لشرفه وغلاه ، قيل : إنها من ياقوت أحمر ، فقيمتها مائتا ألف دينار ، وصححه بعضهم ، وعن الحسن أنها من فضة ، وكذا قال ابن إسحاق ، وجمهور الناس ، وقيل : من البلور ، وقيل : من الزمرد الأخضر ، وقال عكرمة : من فضة مرصَّعة بالجواهر ، ولم يزد ابن عباس فى جمهور المفسرين على

أنها صاع ، وقيل عنه : إنها من زبرجد ، وقيل : من فضة مموهة بالذهب ، وقيل : كانت مشربة للملك ثم جعلت مكيالا للطعام ، وقيل كانت الدواب تسقى بها ويكال بها ، وقيل كان إناء مستطيلا شبه المكوك ، وقيل : هى المكوك الفارسى الذى يلتقى طرفاه ، تشرب به الأعاجم .

وعلى كل حال قد جعل الله عز وجل فيه معجزة ، وهى أن يعلمه إذا نقره بالصادق من الكاذب ، وجعلوا الغلمان وسط رحل بنيامين ، وشد رءوس الأوعية وسلموها لهم ، وهكذا يفعلون مع غيرهم ، يكيلون ويشدون رءوس الأوعية ثم يسلمونها لأهلها فخرجوا ، ولما وصلوا مرحلة أرسل إليهم خمسمائة فارس ، وذلك على يوم وليلة ، وبلغوا قرية يقال لها بسر ، وقيل أمهلهم حتى خرجوا من العمارة ، وقيل حتى انفصلوا من مجلس يوسف ، فأرسل إليهم من استوقفهم وحبسهم .

(ثمَّ أذَّن مؤذِّنٌ) نادى منادٍ والعطف على قوله : « جعل » ومن قرأ وجعل بالواو قدر للما جوابا وعطف عليه ، وهى قراءة ابن مسعود ، أى أمهلهم حتى انطلقوا ، ثم أذن مؤذن ، والأذان لغة : الإعلام والتشديد للمبالغة ، وفى ندائهم إعلام ، أو يفسر التأذين فى الآية بالإعلام .

(أيَّتها العيرُ) يعنى يا أصحاب العير ، ولما حذف المضاف نودى المضاف إليه بواسطة أيتها لاقترانه بأل ، والعير اسم للقافلة التى فيها الأحمال من الإبل ، سميت بها لأنها تعبر أى تجىء وتذهب ، وقال مجاهد : العير الحمير ، وقال أبو الهيثم : كل مـا سير عليه من الإبل والبغـال والحمير عير ، وأن القول بأنها الإبل خاصة باطن ا هـ .

وقيل : هو جمع عير بفتح العين وإسكان الياء ، وأصل الجمع عير بضم أوله وإسكان ثانيه ، كسَقْفٍ وسقف ، قلبت الضمة كسرة لئلا تقلب اليـاء واوا ، والعير بالفتح الحمير المقفل بها ، وكثر حتى قيل : لكل قافلة عير ، وعلى كل حال يقدر المضاف كما علمت ، ومثله قوله صلى الله عليه وسلم : « يا خيل الله اركبى » الأصل يا أصحاب خيل الله اركبوا ، ولما حذف المضاف أنث الضمير لعوده على المؤنث ، كما أنث أيها الآية ، والأصل يا أصحاب العير قفوا تفتشوا .

(إنَّكم لسارقُونَ) إن كان يوسف لم يظهر للمؤذن ومن معه ، إلا أن السقاية غير موجودة فلا إشكال ، لأنهم قالوا ذلك على العادة فى التهمة ، ولم يكن هناك سوى القوم ، وإن كان النداء عليهم بالسرقة بأمر يوسف ، فالمراد أن فيكم سارقا وهو بنيامين ، فأسند السرقة إليهم ، حكم على المجموع لا على الجميع ، وهذا فى علم يوسف ، وأما المنادى ومن معه فيحتمل عندهم اتفاق الإخوة على السرقة ، واختصاص واحد بها ، وكذا فى الوجه الأول ، وجاز ليوسف وصف بنيامين بالسرقة وهو برىء ، لأن بنيامين قـد رضى بذلك ، وقال : افعل ما بدالك كما مر ، واجاز الله له ذلك .

وإلا فما هو فى الظاهر بهتان لا يسـوغ الوصف به ، ولـو رضى الموصوف والظلم لا تبيحه إباحة المظلوم والمعصية لا يبيحها رضا الموقعة فى حقه ، فلو قال لك إنسان : اقطع عضوى لغير ضرورة لم يجز لـك قطعه ، ويحتمل أن يريد إنه بصورة السارق ، إذ مضى بالسقاية خفيـة عن نحو إخوته وجل أهل بيته من سائر الخدمة غير من جعلها فى رحله .

أو أراد إنكم لسارقون يوسف من أبيه ، أى متلفونه عن أبيه بعد تحيل ومكر فى إرساله إياه معهم ، فذلك معرضة ، وفيها مندوحة عن الكذب ، أو قيل ذلك على الاستفهام ، وهذه الأوجه عندى أيضا غير سائغة بأنفسها ، بل بإجازة الله سبحانه له ذلك ، لأنها فى الظاهر غير سائغة لإيقاعها السامع فى التهمة ، بل يقطع إذا أخرجت من رحله بأنه سارق والمعرضة لما تباح ، حيث لا أضرار فيها بأحد .

ولما انتهى إليهم الرسل بعد النداء عليهم بالسرقة قالوا : ألم نحسن إليكم ؟ ألم نكرم ضيافتكم ؟ ألم نوف كيلكم وفعلنا بكم ما لم نفعل لغيركم ؟ قالوا : بلى وما ذاك ؟ قالوا : سقاية الملك فقدناها ، وما اتهمنا عليها غيركم ، كما قال الله جل وعلا .

(قالُوا) أى إخوة يوسف (وأَقْبَلُوا عليْهم) معطوف مقدم على مقول القول ، أو حال بتقدير قد ، أو المبتدأ أو بدونه ، وهذه الواو التى هى ضمير للإخوة ، وقد يجوز عودها إلى الرسل والهاء بالعكس (ماذا تَفْقدونَ) ماذا اسم استفهام مركب مفعول لتفقدون ، أو مبتدأ وخبر ، وتفقدون صلة ذا ، أى ما الذى تفقدونه ، والوجه الأول أنسب بقولهم : نفقد صواع الملك ، والأنسب بالثانى أن يقولوا : الذى نفقده صواع الملك ، والفقد العدم بعد الوجود ، وإن شئت فقل : هو كون حسبك قد غاب عنه الشىء بحيث لا يعرف مكانه ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى ، ماذا تفقدون بضم التاء وإبقاء القاف على الكسر ، من أفقدت الشىء إذا وجدته ، فقيل : أى ماذا تجدون فقيدا .

(قالُوا نفقدُ صُواعَ الملكِ) أى الذى يكيل به ، وقرأ صاع الملك

على أنه لم ينههم يوسف فى سنين الجدب عن الحرث ، وقد مر أنه نهاهم لأنه لا يصلح وهو قول بعض ، ولعله نهاهم عن شىء دون شىء ، وهذا أولى فيجوز لهم أن يحرثوا ما تنتفع به الدواب .

(قالُوا) أى المؤذن ومن معه (فَمَا جزاؤُهُ) أى جزاء الصواع ، ويقدر مضاف ، أى ما جزاء سرقه ، أو ما جزاء سارقه ، أو الهاء للسرق المعلوم من قوله : « سارقون » أو إلى السارق (إنْ كُنْتُم كاذِبينَ) فى ادعاء البراءة من سرقته .

(قالُوا) إى إخوة يوسف (جزاؤه مَنْ وُجِدَ فى رحْلِه) جزاؤه مبتدأ ومن موصولة خبر ، أى جزاء سرقته أخذ من وجد فى رحله ، فيجعل فى آل يعقوب أن يتخذه صاحب الشىء المسروق عبدا سنة كما تملك السارق فى آل يعقوب أن يتخذه صاحب الشىء المسروق عبدا كما تملك السارق الشىء المسروق ، وقيل : أبدا ما لم يمت أحدهما ، ولذلك استفتوهم ليكونوا حاكمين على أنفسهم ، وحكم أهل مصر أن يغرم السارق ضعفى قيمة ما سرق ، وأن يضرب ، ثم استأنفوا تقريراً للحكم وتأكيدا وإلزاما إذ قالوا :

(فهوَ جزاؤهُ) كما تقول حق زيد أن يجتبى ويكرم ويعظم ، فذلك حقه ، أو فهو حقه أو من مبتدأ ثان موصولة وهو جزاؤه خبرها ، قرن بالفاء لتضمنه معنى الشرط ، أو مبتدأ ثان شرطية وهو جزاؤه جوابها ، والجملة خبر المبتدأ الأول ، ومقتضى الظاهر أن يقولوا فهو هـو ، أى فالسارق جزاؤه ، فوضع الظاهر موضع المضمر للتأكيد ، ويجوز على ضعف أن يكون الجزاء الأول خبر المحذوف ، أى فالمسئول عنه جزاؤه ،

واستأنفوا بقولهم : « من وجد فى رحله فهو جزاؤه » للتقوية والاستدلال بما فى الشرع بعد ما حكموا بحكم يظن السامع أنه حكم التزموه ، لا حكم الشرع ، كما لو استفتاك أى إنسان ما حكم السارق ؟ فقلت : أن تقطع يده ، فتوت « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » .

وانظر هل يجوز أن يكون من خبرا لما قبله ، ومبتدأ لما بعده ، الظاهر المنع ، لأنه يستلزم أن يعمل فيه المبتدأ السابق من حيث إنه خبر له ، وأن يعمل فيه الابتداء من حيث إنه مبتدأ لما بعده ، ولتهافت المعنى وعدم تمكنه هذا ما ظهر لى ، وهو حق إن شاء الله ، وأجازه بعض المتأخرين كما ذكره الدمامينى فى أوائل الباب الثانى من المغنى من حاشيته .

(كَذَلكَ نجزْى الظَّالمين) بالسرقة ذلك كله حيث استوقفهم الرسل فردوهم إلى يوسف فى مصر ، لتفتش أوعيتهم بحضرته .

(فَبَدَأ) المؤذن ، وقيل : يوسف ، والأول هو الصحيح (بأوعِيتِهم) تعجيلا بإزالة التهمة عنهم ، إذ لم يجعله فى رحلهم ، وتمكينا للحيلة ، وإبعادا لظهور أن ذلك حيلة (قَبْل وِعَاء أخِيه) وقرأ الحسن بضم الواو وهو لغة ، وقرأ سعيد بن جبير بقلبها همزة مضمومة ، وذكر قتادة أنه بلغه أن يوسف لا يفتح متاعا ، ولا ينظر فى وعاء إلا استغفر الله مما قال ، وكذا إن كان المفتش غير يوسف ، وكان عالما حتى لم يبق إلا رحل بنيامين ، فقال : ما أظن أن هذا أخذ شيئا ، قالوا : والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله ، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا فنظر .

(ثمَّ استَخْرجها منْ وِعَاءِ أخيهِ) بنيامين فنكّس إخوته

ملك مصر ، أو فيما اتخذه دينا وهوان يضرب السارق ويغرم ما أخذ ومثليه ، وقيل : ما أخذ ومثله ، قال مجاهد : وكان الملك مسلما ، وفى ذلك بيان للكيد أى من أين يتوصل إلى أخذ أخيه ، وليس دين الملك استعباد السارق لولا أن الله جل جلاله أوصله إليه بلطفه كما قال :

(إلا أنْ يشاءَ اللهُ) أى ما كان ليأخذه إلا بمشيئة الله ، فالاستثناء مفرغ ، والباء مقدرة قبل حرف المصدر ، ويجوز كونه منقطعا ، أى لكن مشيئة الله هى القاضية بالأخذ ، وجعله بعضهم متصلا ، وقدر إلا أن يشاء الله أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك ، والاستثناء على هذا ، والوجه الأول الذى ذكرته يكون من أعم الأحوال .

(نرْفعُ درجاتٍ من نَشاءُ) فى العلم ، كما رفعنا درجة يوسف فيه على إخوته ، وهم أيضا علماء ، وذلك دليل أن العلم أشرف شىء ، وأن ارتفاع يوسف بالعلم وبما لهم ، واعلم أخى أن العلم الذى مدح فى القرآن والسنة فى حق المخلوق ، هو ما يتولد عنه الخوف والخشية ، واتباع الأوامر ، والانتهاء عن النواهى ، لا مجرد إدراك المسائل وحفظها ، ومن أراد ظهور الحكمة على لسانه والعلم عن امتلاء قلبه بهما ، والترقى من سفل إلى علو ، فلينظر الدنيا بعين الزوال ، ولينزل نفسه منها منزلة المضطر إلى الميتة ، فما بين العبد وذلك إلا حب الدنيا .

وقيل : نرفع درجات من نشاء بالنبوة وهى أيضا نوع من العلم ، بل أشرف أنواعه ، وقرأ الكوفيون : درجات بالتنوين ، فيكون مَنْ مفعولا لنرفع ، ودرجات ظرف ، أو منصوب على نزع الباء أو فى لو مفعول مطلق من نيابة اسم العين عن المصدر ، أى نرفع من نشاء رفعا ، وأما على الإضافة إلى من فدرجات مفعول به ، وقرىء برفع بالياء وتنوين درجات .

(وفَوْقَ كلِّ ذى علمٍ عليمٍ) فوقه أرفع درجة منه إلى أن ينتهى العلم إلى الله سبحانه ، فكل عالم لابد من [هو] أعلم منه فى الخلق ، وأعلم الخلق كلهم الله أعلم منه كما قال قتادة ، وابن عباس ، فعلى العالم كائنا من كان أن يتواضع من نفسه ، ولا يطمع أن يغلب العلماء ويحيط بعلمهم ، والعلم متفرق فى الناس ، وكم مسألة يحملها النحرير ويستفيدها من تلميذه ، فالعليم فى الآية المخلوق والخالق .

وفى رواية عن ابن عباس : أن العليم الله ، وهو فوق كل ذى علم ، أى فوق العلماء كلهم عالم عظيم هو الله عز وجل .

واعلم أن الله سبحانه وتعالى عالم بالذات عندنا معشر الأباضية ، وعند المعتزلة بمعنى أن ذاته كافية فى انكشاف الأشياء له ، وزعم غيرهم أنه غير عالم بالذات فلزمهم أن يكون علمه حادثا ، وأن يكون تعالى محلا للحادث ، وإن قالوا مع ذلك : علمه قديم لزمهم تعدد القدماء ، فهذه ونحوها ما احتج به لمذهبنا ، ولست أحتج بهذه الآية من حيث إنه لو كان ذا علم لكان فوقه من هو أعلم منه كما نسب الاحتجاج به للمعتزلة ، إن لم يكذب عنهم فى ذلك ، فضلا عن أن يريد على أن المراد كل ذى علم من الخلق ، فإن كون المراد هو هذا واضح كالشمس ، والعليم البالغ فى العلم .

ولما استخرج الصواع من رحل بنيامين قال يوسف : ألم أقل لكم أول مرة إن الصواع يخبرنى أنكم لصوص ، وأردت أن آخذكم بذلك ، لكن عفوت عنكم وأحسنت ظنى فيكم .

(قالُوا) أيها الملك لا تنكر ذلك عليه (إنْ يَسْرق) أى إن صحت

سرقته فلذلك عبروا بالمضارع وهو لحكاية الحال ، والأصل إن سرق صواعك (فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ) شقيق (مِنْ قَبْلُ) وهو يوسف ، ولسنا على طريقهما فى ذلك ، وعنوا بالسرقة فيما قال الجمهور ذهابه بمنطقة عمته ، وذلك أنه لما ماتت أمه راحيل أخذته عمته وأحبته حبا شديدا ، ولما ترعرع وقعت محبته فى قلب يعقوب ، فأتاها وقال : يا أختاه سلمى يوسف إلىَّ ، فهو الله ما أصبر عنه ساعة واحدة . فقالت : والله ما أنا بفاعلة ، ولما غلبها يعقوب قالت : دعه عندى أياما أنظر إليه ، لعل ذلك يسلينى عنه ، ففعل يعقوب ذلك ، ولما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت الثياب وهو صغير ، ثم قالت : لقد فقدت منطقة إسحاق ، فانظروا من أخفاها ، فالتمست فلم توجد فقالت : اكشفوا هل البيت فكشفوه فوجدوها مع يوسف ، فقالت والله ليسلم إلىَّ أصنع فيه ما شئت ، وكان ذلك حكم إبراهيم من السارق ، فأتاها يعقوب فأخبرته بذلك فقال : إن كان فعل ذلك فأمسكيه ، فما قدر عليه حتى ماتت .

وكانت أكبر ولد إسحاق ، وكانت تلك المنطقة لإسحاق يتوارثوها الأكبر فالأكبر وهذا الذى فعلت به عمته هو أول ما دخل عليه من البلاء ، ذكر ذلك كله فى عرائس القرآن عن الضحاك ، وكذا قيل عن محمد بن إسحاق ، إلا أنه لم يذكر أن هذا أول بلائه ، وتلك المنطقة من إبراهيم الخليل ، وورثها منه إسحاق إذ كان أكبر ولده ، وليس إرثها كإرث المال ، لأن الأنبياء لا تورث .

وفى رواية أنه قعد عندها أربع سنين ، فبعث يعقوب إليها لترده ، فشدت منطقة على وسطه لها قيمة عظيمة، وأرسلته إلى يعقوب وقالت :

إنه سرق منطقة منى ففتشوه ففعلوا ، فوجدوها عنده ، وكان عندهم أن السارق يكون مملوكا لصاحب السرق ، فلم يلتفت يعقوب لقولها ، وعلم أنها أعطته إياها .

وفى رواية كانت تحمله من أبيه وتمسكه فيشتاق إليه يعقوب ، فيوجه إليه ويثقل ذلك عليها ، ونام يوما عندها فشدت المنطقة على وسطه ، فأقامته ووجهته إلى أبيه ، وخرجت تصيح سرق يوسف منطقتى ، تريد أن تمسكه ، وقال سعيد بن جبير ، وقتادة : لما عثروا بالسرقة أخذ صنما لجده إلى أمه ، وكان من ذهب ، وكان يجعله فى جيبه لا يفارقه ، إلا ما شاء الله فكسره وألقاه فى الطريق بين الحيف ، وقيل دفنه وغرضه أن لا يعبد سوى الله سبحانه وتعالى ، وكانت معه بنت جده تكره ذلك ، فأمرت يوسف بإتلافه .

وقال ابن جريج : أمرته أمه أن يتلف صنما لخاله كان يعبده ، وقيل : دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب يعبدونه فدفنه ، وقال مجاهد : جاء السائل يوما فأخذ بيضة من البيت وأعطاه إياها ، وقال سفيان بن عيينة : أعطى سائلا دجاجة من البيت ، وقيل : عناقا أو دجاجة ، وقال وهب بن منبه : كان فى صغره كلما وضعت مائدة بين يدى يعقوب وقعد للأكل عند إخوته أخذ رغيفا وجعل فيه الإدام وخبأه تحت المائدة ، ويعطيه فقيرا أو سائلا .

قال ابن الأنبارى : ليس فى هذه الأفعال سرقة ، ولكن تشبه السرقة ، فكانوا يعيرونه بها عند الغضب ، وعن الحسن : أنهم كذبوا وأنهم لم يكونوا حينئذ أنبياء ، [ومن ثمّ كان] البحث فى مثل هذا .

(فأسرَّها يُوسفُ فى نَفْسه) أى أسرَّ مقالتهم أو كلمتهم ، وهى قولهم : « قد سرق أخ له من قبل » كما قال أبو صالح ، عن ابن عباس ، أو أسرَّ الإجابة أو الحجة عليهم ، أو أسر نسبة السرقة إليــه ، ومعنى إسرار الكلمة والمقالة والإجابة ونسبت السرقة [إليه] أنه لم يجبهم عليها بتكذيبهم ، ومعنى إسرار الحجة أنه لم يظهر الاحتجاج عليهم ، وقيل : أسر الحزة التى حدثت فى نفسه من قولهم .

(ولَم يُبدهَا لهم) ولم يظهرها لهم ، وهذا عطف مرادف للتأكيد ، ويجوز أن يكون معنى إسرارها فى نفسه تكتيفها ، وذكرها فى نفسه كما تفعل إذا أهمك أمر ، ومعنى لم يبدها لم يجبهم عليهــا ، أو لــم يظهر الاحتجاج ، وقال الزمخشرى : إن الضمير للجملة أو للكلمة على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة ، وأنه مفسر بقوله :

(قالَ) أى فى نفسه (أنتم شرٌ مكاناً) أى منزلة فى السرقة من أخيكم بنيامين ، لسرقتكم أخاكم ، أو فى سوء الصنيع ، كأنه قيل : فأسر الجملة أو الكلمة التى هى قوله : « أنتم شر مكانا » لأن قوله : « قال أنتم شر مكانا » بدل من أسرها ، ورده القاضى بأن المفسر بالجملة لا يكون إلا ضمير الشأن ، قلت : يحتمل أن يريد أن الضمير عائد إلى الكلمة السابقة أو الجملة ، وأنه إنما سوغ ذلك ظهوره بقوله : « قال أنتم شر مكانا » وقيل : صرح يوسف بقوله : « أنتم شر مكانا » .

(واللهُ أعلم بما تَصفُون) أحق أم باطل ، قال ذلك وهو عالم بأنه باطل ، واللفظ ملوح ببطلانه ، ويؤيد قول إنه صرح بذلك أنهم يتشفعون بأنفسهم بل بأبيهم ، إذ قالوا : « إن له أبا شيخاً » الخ ، ويجب فيه بأنهم قد جرى بينه وبينهم أمور موبخة لهم كما تعلم مما مر ، وترد لهم

فكيف يستشفعون بأنفسهم ، ولو لم يقل ذلك إلا فى نفسه بل بأبيهم الذى أقر يوسف بفضله وبراءته مما يشين ، وقرأ ابن مسعود : فأسره يوسف فى نفسه ولم يبده لهم بالتذكير على إرادات القول أو الكلام أو الاحتجاج أو الجواب .

ولما استخرج الصاع من رحل بنيامين نقره فطن فقال : أتعلمون ما يقول هذا الصواع ؟ قالوا : لا . قال : إنه يقول : إنكم خنتم أباكم فى ولده الأول ، وبعتموه وكنتم اثنى عشر ، فارتعدت فرائصهم وقالوا : يا أيها العزيز استر علينا ما ستر الله ، وإنا نسألك بالذى فضلك على العالمين إلا ما رحمتنا ورحمت شيبة أبينا ؟ فقال : لولا ذلك لنلت منكم ما تستحقون ، فاذهبوا عنى لا حاجة لى بكم ، وقد رغب إلىّ أبوكم أن أعجل صرفكم إليه ، قالوا : فلعلك تصرف معنا أخانا فإنك لا تصله بصلة أسنى من صرفه معنا . فقال : إنى أتخذه عبدا مملوكا .

(قالُوا أيـُّها العزيزُ) أى الملك (إنَّ لهُ أباً) نكروه مع أنه قد جرى فيه فيما بينهم وبين يوسف كما رأيت تعظيما (شيخاً) نعت (كبيراً) فى السن أو القدر ، يستأنس به ويتسلى به عن أخيه الذى هو ثكلان من أجله (فخُذ أحدَنا مكانه) أى بدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد ، فإن أبانا لا يهتم بواحد منا إن فقد .

(إنَّا نراكَ مِنَ المحْسنينَ) إلينا فيما مضى بالإكرام ، وتوفية الكيل ، ورد البضاعة ، أو فى أفعالك كلها ، فلا تغير عادتك ، وقيل إنا نراك من المحسنين إن أخذت أحدنا مكانه .

(قالَ) يوسف (مَعاذَ الله) مفعول مطْلق ، الأصلْ أعوذ بالله

معاذا ذف العامل والجار ، وأخر المجرور وأضيف إليه معاذ وهو مصدر ميمى من (أنْ نأخُذ إلا مِنْ وَجدْنا مَتاعنَا) هو الصواع (عنْدَه) لم يقل إلا من سرق متاعنا تجوزا عن التكذيب ، وصح التفريغ ، لأن معاذ الله امتناع فهو نفى ، فكأنه قال : لا نأخذ إلا من وجدنا إلى آخره ، أو تقدر لا النافية ولو لم يكن هذا الموضع من مواضع شيوع حذفها لظهور المراد ، أى نلتجىء إلى الله فى أن لا نأخذ إلا من وجدنا إلى آخره .

(إنَّا إذاً لظالمونَ) باعتبار ما حكمتم به إذا أخذنا بريئا بسارق ، وهذا منه مقابلة لكلامهم ، أو أراد إنا إذن لظالمون بمخالفة الوحى ، إذ أوحى الله جل وعلا إلى أن آخذ بنيامين لمصلحة أو مصالح علمها فى ذلك ، منها تكامل أجر يعقوب وتزايده ، كما أخفى أمر يوسف عنه لذلك مع قرب المسافة ، ونهى يوسف أن يكتب إليه ويعلمه ، وإذا حرف جواب هنا قيل : وجزاء أيضا .

(فلمَّا استيئسُوا) يئسوا ، والسين والتاء للمبالغة أو الموافقة المجرد ، وقرأ البزىّ فى رواية أبى عمرو الدانى ، عن ابن خواستى الفارسى ، عن النقاش ، عن أبى ربيعة عنه : فلما استأيسوا ولا تائسوا من روح الله ، وحتى إذا استائس الرسل ، وأفلم يائس الذى آمنوا بالألف وفتح الباء من غير همز ، والباقون بالهمز وإسكان الياء من غير ألف فى اللفظ ، وإذا وقف حمزة أو ألقى حركة الهمزة على الياء على أصله (مِنْه) من يوسف أن يرد معهم بنيامين ، أو من بنيامين أن يُردَّ معهم ، وقال أبو عبيدة : استيئسوا استيقنوا أن الأخ لا يرد إليهم .

(خلصُوا) اعتزلوا عن يوسف (نجيًّا) أى مشاورة فى خفض

صوت ، وهو مصدر مفعول لأجله ، أى اعتزلوا للتناجى فى أمر أخيهم ، أو مفعول مطلق لحال محذوفة أى خلصوا ينجون نجيا ، أو ناجين نجيا وهو من النجوى لا من النجاة ، أو هو وصف فيكون أيضا حالا ، وصح إفراده لأنه بوزن فعيل بمعنى فاعل ، أو للتأويل بنوجا نجيًّا أو مصدر جاء حالا مبالغة كأنه نفس النجوى لشدة اهتمامهم ، أو يقدر مضاف أى ذوى نجوى ، والحال على كل حال مقدرة لا مقارنة ولا محكية .

وقالوا فى نجواهم : نقاتل أهل البلد ، كان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا ، فغضب روبيل وقال بعد النجوى : أيها الملك ، والله إن لم تتركنا لأصيحن صيحة لا تبقى بمصر امرأة حاملا إلا وضعت ما فى بطنها ، وقامت كل شعرة فى جلده ، وخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب إذا غضبوا ومسهم واحد منهم ذهب غيظه ، فقال يوسف لابنه : قم إلى جنب روبيل ومسه ، فمر الغلام إلى جنبه فمسه فسكن غضبه ، فقال : من هذا ؟ إن هذا البلد فيه بزر من برز يعقوب ، فقال يوسف : مَنْ يعقوب ؟ فغضب روبيل وقال : يا أيها الملك لا تذكر يعقوب فإنه إسرائيل الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله ، فقال له : أنت إذن صادق .

وفى رواية : قال لهم يهودا : أنا أجلس على باب السجن فلا أخليه يسجنه ، وأنتم اذهبوا كل واحد إلى سوق من أسواق مصر بأسلحتكم ، فإذا صحت من هنا انشقت مرارتهم ، وإذا سمعتم صوتى فاضربوا يمينا وشمالا ، واقتلوا من جاء إليكم ، وأنا أقتل من يقصدنى ، فأمر يوسف ابنه الصغير واسمه نايل وقال له : يا بنى امض نحو عمك ذلك الرجل فامسح يدك على ظهره ، ففعل فسكن ما به ، وذهبت قوته ، وأخذ ذلك

الصبى فوضعه فى حجره ، وقبل خده ، فقال : أشم منك رائحة يعقوب ، من أنت ؟ فلم يخبره •

ولما ارتفع النهار ، ولم يسمع إخوته رجعوا إليه وقالوا : ما الذى أصابك يا يهودا ، لم نسمع لك صوتا ، فقال : اسكتوا إن هنا إنسانا من آل يعقوب •

وفى رواية : كان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شىء ، وإذا صاح ألقت كل حامل حملها ، وكان أقوى إخوته وأشدهم ، وقيل : هذه صفة شمعون ، قيل : قال روبيل لإخوته : كم عدد الأسواق بمصر ؟ قالوا : عشرة ، قال : اكفونى الأسواق وأكفيكم الملك ، أو اكفونى الملك أكفيكم الأسواق ، فدخلوا على يوسف فقال روبيل : أيها الملك لتردن أخانا أو لأصيحن صيحة لا تبقى بمصر امرأة حاملا إلا وضعت حملها •

فقال يوسف لولده الصغير : قم إلى جنبه فمسه أو خذ بيده فأتنى به ، ولما مسه سكن غضبه فقال لإخوته : من مسنى منكم ؟ قالوا : لم يصبك منا أحد ، وقال : إن هنا بزرا من بزر يعقوب ، قيل : وغضب ثانيا فقام إليه يوسف فركله برجله ، وأخذ بتلابيبه فوقع على الأرض ، وقال : أنتم يا معشر العبرانيين تزعمون أن لا أحد أشد منكم ، فذلك من جملة نجواهم • وقيل : قالوا ذلك وجرى معهم ذلك قبل قولهم : يا أيها العزيز لما لم ينفع ذلك قالوا : يا أيها العزيز ، وقيل : قالوا فى نجواهم ما ذكر الله عز وجل عنهم فى قوله :

(قالَ كَبَيرهُم) فى السن أو فى الرأى وهو روبيل ، قيل : يهودا ،

قال قتادة ، والسدى ، والضحاك : هو روبيل ، وأنه أسنهم ورجحه الطبرى ، وقال مجاهد : هو شمعون كان كبيرهم رأيا وعلما لا سنا ، وكانت له الرياسة على إخوته ، وقيل : إن يهودا أكبرهم عقلا ، ورأيا وإنه المراد ، وبه قال ابن عباس والكلبى .

(ألم تعْلَموا أنّ أباكُم قد أخذَ عليْكم مَوثقا مِنَ اللهِ) فى أخيكم بنيامين ، وإنما جعل حلفهم بالله موثقا من الله لأنه تأكيد به ، وواقع بإرادته ، ولو لم يرد لم يقع ، وكذا فيما مر من كلام أبيهم (ومِنْ قبلُ) أى من قبل هذا متعلق بالفعل فى قوله : (ما فرّطتُم فى يُوسفَ) على أن ما صلة لتأكيد التفريط ، أى قد ضيعتم يوسف من قبل ، وقصرتم فى حقه ، ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه ، ويجوز أن تكون ما مصدرية ، والمصدر مبتدأ ، ومن قبل خبر ، وأن تكون اسما موصولا مبتدأ خبره من قبل ، أى ومن قبل هذا ما فرطتموه ، أى قدمتموه فى حتى يوسف من الخيانة العظيمة ، وهكذا إذا بنيْنا على قول بعض النحويين كابن مالك فى بعض كتبه ، أنه يجوز كون الظرف المقطوع عن الإضافة لفظا لا معنى خبرا وصلة وصفة وحالا ، والمشهور المنع ، زعموا أنه لا يفيد ، وليس كذلك عندى ، بل تكفى فائدته ، ولو جعل المضاف إليه ولا سيما أنه كثيرا جدا ما يحذف ويعلم كأنه مذكور كما هنا ، وأما أن تجعل ما مصدرية ، والمصدر معطوف على مفعول تعلم ، أو اسما موصولا معطوفا عليه فضعيف اللزوم تقدر معمول الصلة على الموصول الحرفى ، أو الاسمى لو كان المعمول ظرفا .

(فلنْ أبْرح الأرْضَ) لن أفارق هذه الأرض الحاضرة المعهودة أرض مصر ، فإنما عدى أبرح للمفعول لتضمنه معنى أفارق ، ويجوز

كون الأرض منصوبا على نزع الخافض ، وهو متعلق بأبرح تامة ، أى لن أذهب من الأرض إلا أن يقدر عموم فى الأرض ، لأن اسم المكان لا يقبل النصب على الظرفية إلا مبهما ، ووجهه أن يريد الأرض التى هو فى بعضها بدون أن يستشعرها محدودة مغشاة بموضع كذا ، وعلى هذا يجوز كون أبــرح ناقصــا أى لن أزل فى الأرض .

(حتّى يأذنَ لى أبى) فى الخــروج مــن أرض مصر ويدعونى إليه ، وسكن ياء لى غير نــافع وأبى عمرو ، ويــاء أبى غيرهمــا وغير ابن كثير (ويحكُم الله لى) بالمــوت أو برد أخى إلىّ أو بالسـيف فأقاتلهم حتى أرده .

روى أنهم قالوا : ندخل على الملك مرة أخرى ، فإن سمح بأخبنا وإلا حاربناه بالقوة التى ركب الله فينا ، وكانوا إذا غضب واحد منهم انتفخ واقشعر جلده ، وخرج شعره من ثيابه ، فتخرج من تحت كل شعرة قطرة من دم ، فيضرب بقدمه على الأرض فتزلزل ، ويزعق فــلا تسمع زعيقه حامل إلا وضعت ، ولا أحد إلا غشى عليه ، وإذا مســه أحد من أولاد يعقوب أو من نسله سكن ، وكان كواحد من الناس ، وكان يوسف أقواهم فقال يهودا : اكفونى أهل مصر أكفكم الملك ممن معه ، أو اكفونى الملك ومن معه أكفكم أهل مصر .

وعن ابن عباس : وجه أحد إخوته وقال : انظر كم أسواق مصر ؟ فقال : تسعة ، فقال : يقوم كل منكم بسوق ، وأقوم بالملك ومن معه ، فدخل مغضبا على يوسف وقال : أيها الملك رد علينا أخانا ، وإلا صحت الآن فى قصرك صيحة فلا تسمع حامل إلا وضعت ما فى بطنها دما غبيطا ،

ومات كل من سمع صيحتى ، وكانت له شعرة بين كتفيه إذا غضب قامت وخرجت من الثياب فلا تسكن حتى يسفك دما أو يمسه أحد من ولد يعقوب أو نسله ، فقامت الشعرة ونظر إليها يوسف وقال لولده الأكبر : قم وخذ بيدك ذلك الرجل وأتنى به ، فأخذه بيده فقاده وقد خمدت قوته ، فالتفت يهودا يمينا وشمالا ليرى أحد إخوته هل مسه فلم ير أحدا ، فقال : والله لقد مسنى أحد أولاد يعقوب ، ثم خرّ وطأطأ رأسه وارفضّ عرقا ، [وقال] لإخوته : من مسنى منكم ؟ قالوا : ما مسك منا أحد ، قال : وأين أخى شمعون ؟ قالوا : مضى إلى الجبل ليأتى بصخرة يشدج بها رءوس من فى المنزل ، يعنون منزل الملك ، قال : هيهات لا ينفع ذلك .

ثم مضى يهودا على أثره فإذا هو قد أقبل بصخرة عظيمة فقال : ارمى بها فإنها لا تفيدك ، أقسم بالله يا أخى إن فى هذا المنزل رجلا من آل يعقوب ، قالوا له : فأشر علينا برأيك . فقال : « ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم » الآية .

وذكر أبو صالح أنه لما علم يوسف أن غضب يهودا سكن قام إلى حجر من حجار طاحونة فوكزه برجله فرمى به خلف الحائط ، ثم جذب يهودا جذبة وكاد أن يقلبه ، وقال : يا معشر الكنعانيين تظنون أنه ليس لأحد مثل قوتكم ، فأظهروا الخضوع ، فقال : عفوت عنكم ، إنما أردت أن أريكم فضل قوتنا وما عندنا ، ثم نقر الصواع فقال : إنه يخبرنى أنكم طرحتم أخاكم فى البئر ، ثم بعتموه بثمن بخس فأنكروا وقالوا : لم نفعل لعل الملك قد سمع غلطا ، فاخرج الكتاب الذى كتبوه يوم بيعه فقال : هذا الكتاب وجدته فى خزانتى فاقرءوه وفسّروه لنا ، فأخذه يهودا فقال : يا روبيل تعرف خطك ؟ فنظره وبهتوا وجزعوا ، وكلّت ألسنتهم .

فقال لهم يوسف : ما لكم صممتم ؟ فقالوا : أيها الملك هذا كتاب كتبناه فى عبد بعناه ، قال : فأخبرونى ما فيه فقرأ روبيل ، فقال يوسف : ويحكم لقد جئتكم ما لا يليق ، فلو كنتم كما تقولون ما ارتكب صغيركم ما ارتكب ، ثم نقر الصواع وأصغى بأذنه وقال : إنه يخبرنى أن أخاكم الذى تزعمون أنه مـات حى ، وأنه سيرجع فيخبر النـاس بصنيعكم معـه ، ثم نقره وقـال : إنـه يخبرنى أنكم فرطتم فى أخيكم وكذبتم لأبيكم ، ثم نقره وقال : يقول كل ما دخل على أبيكم من الهم والحزن والعماء والبلاء فمن أجلكم ، ثم نقره فقال : يقول إنكم أصررتم فإن لم تستغفروا لأصيرنكم نكالا ، علىَّ بالحدادين حتى أقطع أيديهم فخضعوا .

وقال يهودا : هذا ما حذرتكم ، وقلت : إن الله [لكم] بالمرصاد ، لا يترك ظلم العبادة فكيف يكون أبونا إذا بلغه فقد أولاده جميعا ، وقد أصابه ما أصابه فى واحد ، فتوبوا واشهدوا هذا الملك الجليل ، فلعل الله يرحمكم فإنه أرحم الراحمين .

فسكنوا جميعا وتابعوا ، فقالوا : لو وجدناه لأحسنا إليه غاية الإحسان ، ولقبلنا يده ورأسه ، فسمع يوسف ففاضت عيناه ، فأمر أن يخلى سبيلهم ، وأما أخوكم فلن أبرحه ، فتشاوروا فقال يهودا : أما أنا فمالى وجـه ألقى به والدى ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى .

(وهُو خَيْرُ الحاكِمِين) لأنه لا يكون حكمه إلا بحق .

(ارْجِعُوا إلى أبيكم) هذا إلى قوله . « لصادقون » من تمـام كلام كبيرهم وهو الأظهر ، وقيل : من كلام يوسف علمهم مـا يقولون لأبيهم ، قال ارجعوا ، وأمرهم بالرجوع أو قال لهم كما قال الطبرى :

إذا أتيتم أباكم فاقرءوا عليه السلام وقولوا له : إن ملك مصر يدعو لك أن لا تموت حتى ترى ولدك يوسف ، ليعلم أن فى أرض مصر صديقا مثله ، قيل : بقى بمصر أربعة : يوسف وشمعون الباقى فيها رهينة ليأتوا ببنيامين ويهودا القائل : فلن أبرح الأرض ، أو روبيل على ما مر وبنيامين ، وقيل : ثلاثة : يوسف وبنيامين والقائل يهودا .

(فقُولوا يا أبانا إنَّ ابنكَ) بنيامين (سَرقَ) الصواع من الملك على ما شهدنا من ظاهر الأمر ، وقرأ ابن عباس ، والضحاك : سُرِّق بالبناء للمفعول والتشديد ، أى نسب إلى السرقة ، كقولك : فُسِّقَ بالبناء للمفعول والتشديد أى نسب إلى الفسق ، وهى قراءة مروة ، عن عن الكسائى من بعض الطرق ، والمشهور عنه قراءة الجمهور (وما شَهِدنا) عليه (إلا بما علمنا) بأنا رأينا الصواع استخرج من رحله .

(وما كُنّا للغيْبِ حافِظِينَ) أى نعلم باطن الحال ، فلعل الملك دس الصاع فى رحله ليأخذه به ، فزعم أنه سرق ، أو المعنى ما شهدنا قط فى عمرنا إلا بما علمنا ، وهذا هو الذى رأيناه من ابنك ، وإن كان فى حقيقة الأمر غير سارق ، فالله أعلم ، أو ما شهدنا فى عمرنا إلا بما تيقنا ، وما قلناه ليس بشهادة ، إنما هو إخبار عن عزم الملك والخدم أنه سرق ، أو المعنى ما كنا للعواقب عالمين ، فلم ندر حين أعطيناك الموثق أنه يسرق ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، أو أنك تصاب به كما أصبت بيوسف ، وعن ابن عباس : ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين .

(واسأَلِ القَرية) أى أهل القرية (التى كُنّا فيها) وهى مصر أو الفرما قولان على ما مر ، وقال ابن عباس : قرية من أعمالها فى مصر ،

لحقهم المنادى فيها ، وعنه : هى مصر أرسل إليهم واسألهم (والعِيرَ التى أقبَلنَا) جئنا (فيها) أى جئنا حال كوننا فى جملتهم أو معهم ، قوم من بلدنا ، وهو جيران يعقوب ، وقيل من أهل صنعاء .

(وإنَّا لصادقُون) فيما قلنا ، وهذا تأكيد فى محل القسم ، وهاهنا تم كلام الكبير أو كلام يوسف على ما مر أمرهم أحدهما بذلك إزالة للتهمة عنهم ، إذ اتهمهم أبوهم بواقعة يوسف من قبل ، وهاهنا حذف تقديره فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ما ذكر .

(قَالَ) أبوهم بعد ذلك (بَل سوَّلت) زينت وسهلت (لكُم أنفسُهم أمراً) فعملتموه كيدا لأخيكم ، وإلا فمن أعلم الملك أن السارق يستعبد بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم ، أتهمهم لما سبق منهم فى أمر يوسف .

وإن قلت : إذا كان استرقاق السارق حكما شرعيًّا فكيف ينكر عليهم تعليم الملك إياه ؟

قلت : لم ينكر عليهم التعليم ، وإنما أراد أن الملك لا يعلم هذا الحكم ، وإنما علمتم أنتم لأمر جائز يتوصلون إليه ، أو أنكره عليهم ، لأن هذا حكم من سرق من مصر ، وهذا على أنه لا يعلم أن ملك مصر مؤمن ، وقيل : بل زينت لكم أنفسكم أمرا هو حمل أخيكم إلى مصر ، لطلب نفع عاجل هو حمل البعير المزاد فآل أمركم إلى ما آل ، وقيل : بل خيلت لكم أنه سرق وما سرق .

(فصبر" جميل" عَسَى الله أن يأتينى بهِم جَميعا) أى بالثلاثة أو

الأربعة الباقين ، لما اشتد بلاؤه أخذ ينادى : من يريد الفرج وأحسن الظن بالله سبحانه ، طمع أيضا بدعـاء الملائكة أن يجمع الله بينه وبين أولاده كما مر .

قال شاعر :

وكـلٌ الحـادثات إذا تتـاهت
يكـون وراءَها فـرجٌ قـريب

وقال آخر :

إذا تضـايق أمـر فانتظر فرجـاً
وأضـيق الأمر أدنـاه إلى الفرج

وقال آخر :

فلا تجـز عنَّ إن أظلم الدهر مـرة
فـإن اعتكـار الليل يؤذن بالفجـر

فلما جرى عليه وعلى بنيه من أول الأمر إلى ذلك الوقت من الرؤيا وكيد الإخوة ، علم أن الأمر قد تناهى ، فقـال : « عسى الله أن يأتينى بهم جميعا » .

(إنَّه هوَ العَليمُ) بخلقه وأحوالهم ، ومنها حزنى عليهم وحالهم (الحكيمُ) فى صنعه فما أبلانى بذلك إلا لحكمـة .

وقيل : إنه لما فقد يوسف قال : « بـل سولت لكم أنفسكم أمـرا فصبر جميل والله المستعان عـلى ما تصـفون » فتعلق بالصبر فأنسـاه الشيطان حسن الظن بربه فزيد كربه بفراق بنيامين ، فصبر وتذكر حسن الظن ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ، فأتاه الله بهم جميعا أعنى جمع بينه وبينهم .

وروى أنهم لم يقولوا له إن ابنك سرق الصواع ، بل قالوا إن ابنك سرق ، فقال : وما سرق ؟ فقالوا : سرق صواع الملك ، استخرج مـن رحله ، فحبسه الملك ، وأردنا مقاتلته فإذا به أشد منا ، ونجانا الله ببركته دعائك ، فبكى يعقوب وزينة وعيال أبنائه وأهل خاصته ، وقامت عندهم صيحة لحبس بنيامين ، ولفقد يهودا وشمعون على ما مر ، وليس مرادى بإنساء الشيطان يعقوب حسن الظن بالله سبحانه وتعالى أنه أساء الظن به تعالى ، بل ذهل وغفل عن تقوية الرجاء .

قال قتادة : إن نبى الله يعقوب ما ساء ظنه بالله تعالى فى طول بكائه ساعة قط ، من ليل أو نهـار ، قيل : نـزل ملك الموت على يعقوب عليه السلام فقال : جئتَ لقبض روحى قبل أن أرى أولادى ؟ قال : بل جئت زائرا ، قال : أقسمت عليك بربك ، هل قبضت روح يوسف فى الأرواح ؟ قال : بل هو حى سوى ، وهو ملك مصر ، وله الخزائن والجنود والعبيد ، وعن قريب إن شاء الله تعالى تراه .

وفى رواية أنه رآه فى المنام فسأله : هل قبضت روح يوسف ؟ قال : لا والله وهو حى يرزق .

وروى أنه زاره فقال : السلام عليك أيها الكظيم ، فاقشعر جلده ،

وارتعدت فرائصه ، فرد عليه السلام وقال له : من أنت ؟ ومن أدخلك هذا البيت وقد أغلقت عـلى نفسى ، وأمرت أن لا يدخل على أحـد ، وأشكو بثى وحزنى إلى الله ؟ فقال له يا نبى الله أنا الذى أيتّم الأولاد ، وأرمل الأزواج ، فقال له : أنت ملك الموت ، إذن فأخبرنى عن الأرواح أتقبضها مجموعة أمر مفترقة روحا روحا ؟ قال : روحا روحا ، قال : هل مرت بك روح يوسف ؟ قال : لا ، قال : فهل جئتنى زائرا أو داعيا ؟ قال : ما جئتك إلا مبشرا ، فإن الله لا يميتك حتى يجمع بينك وبين يوسف ولو فى الصخرة التى على قرار الأرض ، فعند ذلك حول وجهه عن المحارب لهيجانه شوقا إلى يوسف بهذا ، وبفقد بنيامين ، لأن المصيبة الحـادثة بحديد الحزن للأولى وأعرض بوجهه عنهم أيضا واشتغل بالبكاء كمـا قال الله عز وجل .

(وتَولَّى عَنهم) أعرض لكراهمة ما جاءوا به (وقالَ يا أسفى) نداء تفجع ، والأصل يا أسفى أحضر ، فهذا أوانك والأسف أشد الحزن والحسرة والألف بدل من ياء المتكلم ، وكان ذلك النداء لظهور أن المراد التوجع والتفجع لا حقيقـة طلب الإقبـال ، وليس مراده بذلك النداء الجزع ، بل التوجع إلى الله والشكوى إليه ، وهو فى المعنى بمنزلة قولك يا إلهى ارحم أسفى .

(عَلى يُوسفَ) متعلق بإلا يوسف وبينهما تجانس ، وهو بديع مستملح نحو قوله تعالى : « اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا » والشاهد « فى الأرض » و « أرضيتم » « وهم ينهون عنه وينأون عنه » « ويحسبون أنهم يحسنون صنعا » و « مـن سبأ بنبأ » وإما تأسف على يوسف فقط ، مع أن المفقود آخر من يكون وجعه عليه طريا ، لأن

إصابته بفقد يوسف كانت قاعدة للمصيبات ، وعليها تترتب ، وكانت غصة طرية مع تطاول الأزمان ، ولم يقع فائت عند موقعه ، ولأنه كان واثقا بحياة من بقى بمصر منهم دون يوسف ، خلافا لرواية أنه علم بحياته من الوحى ، وعنه صلى الله عليه وسلم : « لم تعط أمة من الأمم إنا لله وإنا إليه راجعون عند المصيبة إلا أمة محمد ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وإنما قال : يا أسفى » وهذا يرد قول بعض أنه لا يبعد أن يجتمع الاسترجاع ويا أسفى لهذه الأمة وليعقوب عليه السلام •

(وابيضَّتْ عَيناهُ من الحُزْن) وقرىء بفتح الحاء والزاى ، أى الحزن أى لكثرة بكائه من الحزن حتى محقت الدمعة سواد العين ، وقلبته إلى بياض ، وكان لا يبصر شيئا قال قتادة : لم يبصر شيئا ست سنين ، وقيل : كان يدرك إدراكا ضعيفا ، وقد علمت أن من للتعليل ، لأن الحزن إذا كان علة لكثرة البكاء ، وكثرة البكاء علة للابيضاض ، فهو علة للابيضاض إذا كان علة لعلته ، ويجوز أن تكون للابتداء إذ حدث ابيضاضهما من الحزن •

قال فى عرائس القرآن : قال الحسن : ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاما ، وما على وجه الأرض أكرم منه على الله سبحانه ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنه سأل جبريل : ما بلغ وَجْد يعقوب على يوسف ، قال : وجْدُ سبعين ثكلى ، قال : فما كان له من الأجر ؟ قال : أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنه بالله تعالى ساعة قط » •

وهكذا قال جبريل ليوسف حين دخل عليه السجن ، فقال : هل

تعرفنى أيها الصدّيق المخلص ؟ قال : أرى صورة حسنة ، قال : أنا جبريل ، قال : فما أدخلك مدخل المذنبين ؟ قال : إن الأرض التى يحلها نبى أطهر أرض ، وقد طهر الله بك السجن وما حوله • قال : كيف لى باسم الصدّيق المخلص ، وقد أدخلت مدخل المذنبين ؟ قال : لأنه لم يفتن قلبك بسيدتك ، ولم تطعها فى معصية ربك بعد السؤال عن حال أبيه وأجره قال : أفتراني لاقيه ؟ قال : نعم ، فطابت نفسه ، قال : ما أبالى ما لقيت •

وإن قلت : كيف بلغ ذلك المبلغ من الحزن وهى نبى ؟

قلت : لم يبلغه باختياره ، بل جبلت النفس على أن تحزن عند الشدائد ، وكان مأجورا على عدم خروجه عن الرضا الله وقدره ، إلى تحويره ، أو صياح ، أو نياحة ، أو لطم ، أو تمزيق ثوب ونحو ذلك •

ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم فقال : « القلب يوجع والعين تدمع ولا تقول ما يسخط الرب وإنى عليك يا إبراهيم لمحزون » وفى رواية : « القلب يجزع » أى يتألم وفى رواية : « يحزن » وقال : « إن الله لا يعذب بدمع العين ، ولا بحزن القلب ، وإنما يعذب بهذا ويرحم » وإشار إلى لسانه •

وبكى على بعض ولد بناته وهو يجود بنفسه ، فقيل : يا رسول الله تبكى وقد نهيتنا عن البكاء ! فقال : « ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أجمعين صوت عد الفرح وصوت عند الترح » وبكى الحسن على ولد أو غيره فقيل له فى ذلك فقال : ما رأيت الله جعل الحزن على يعقوب عارا •

(فهُو كَظيم") أى مغموم مكروب ، لا يظهر كربه إلا ما ظهر منه غلبة وطبعا مملوءا هما على يوسف أو عليه وعلى من بقى بمصر ، وكظيم كما رأيت فعيل بمعنى مفعول كقوله : « وهو مكظوم » من كظم السقاء إذا شد فمه وقد ملىء ، ويجوز أن يكون بمعنى فاعل أى فهو كاظم لغيظه كاتم له ، قال قتادة : الكظيم الذى يرد حزنه فى جوفه ولم يقل إلا خيرا ، وأصله كظم البعير جرته إذا ردها فى جوفه ، والكظم بفتح الطاء مخرج النفس .

وفى الحديث : أن يعقوب كبر وضعف حتى سقط حاجباه على عينيه من الكبر ، فقيل : كان يرفعهما بخرقة ، فقال بعض جيرانه : لو عشت ونميت لم تبلغ من السن ما بلغ أبوك حتى هرمت ، فقال : من طول الزمان ، وكثرة الأحزان ، فأوحى الله إليه : تشكونى إلى خلقى ، فقال : يا رب خطيئة أخطأتها فاغفر لى ، قال : قد غفرت لك ، فكان بعد ذلك إذا سئل قال : « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » .

وفى الحديث ، عن أنس قال أخ فى الله ليعقوب : ما قوّس ظهرك ، وأذهب بصرك ؟ قال : أذهب بصرى البكاء على يوسف ، وقوس ظهرى الحزن على بنيامين ، فأوحى الله إليه أتشكونى ... إلى آخر ما مر .

(قالُوا) أى بنو يعقوب (تالله تَفتَأ) أى لا تفتأ أى لا تزال ، فحذفت لا النافية لظهور إرادتها ، بدليل تجرد تفتأ من لام جواب القسم ، ونون التوكيد ، ولأن كونه حرضا أو من الهالكين إنما يصح غاية ، لكونه لم يزل يذكر يوسف ، لا لكونه تاركا لذكره ، ولو كان جوابا بلا تقدير لا النافية لقرن باللام والنون .

قال ابن هشام : يطرد حذف لا النافية وغيرها فى جواب القسم ، إذ كان المنفى مضارعا نحو تالله تذكر يوسف ، فيجوز تقدير ما النافية فى الآية ، هذا مذهب ابن معطى وقيل : لا يجوز حذف ما لأن التصرف فى حذف لا أكثر من التصرف فى ما .

(تذْكُرُ يُوسفَ حتَّى تكُون حرَضاً) مريضا مشرفا على الموت ، قال مجاهد : الحرَض ما دون الموت ، وقال ابن إسحاق : حتى تكون فاسد الأعضاء والعقل ، والحرض فسادهما لحب أو حزن أو مرض .

قال الشاعر :

إنى امرؤ لج بى حب فأحرضنى
حتى بليت وحتى شفنى السقم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مؤمن يمرض حتى يحرضه المرض إلا غفر له » قال بعضهم : الحرض الذى أذابه هم أو مرض ، وهو مصدر يطلق على الذات الواحدة فصاعدا بلفظة واحدة للذكر والأنثى كما يطلق بالمعنى المصدرى وقد قرىء : حتى تكون حرِضا بكسر الراء على أنه وصف ، وقرىء : حتى تكون حُرُضا بضمتين على أنه وصف أيضا كجنب بضم الحاء والراء ، والجيم والنون وهذه قراءة الحسن (أو تَكُون منَ الهالِكينَ) من الموتى وإنما قطعوا بذلك حتى كانوا ــ بناء منهم ــ على الأغلب الظاهر من حال يعقوب (قال) ردا عليهم فى ما اتهموه به إذ عنفوه وخطئوه فى رجاء يوسف (إنَّما أشكُو بثِّى) البث الهم الصعب الذى لا يصبر صاحبه عليه ، فليبثه للناس أى ينشره لهم

بعد ما انطوت عليه النفس ، قال ابن قتيبة : البث أشد الحزن ، أى إنما أشكوا حزنى العظيم (وحُزْنى) القليل وقرىء الحزن بفتح الحاء والزاى وقرىء بضمهما .

(إلى الله) لا إليكم ولا إلى غيركم ، والظاهر أن هذا الكلام جواب لقولهم ، ومتصل به لا مستأنف جواب لسؤال جاره ، أو سؤال أخيه فى الله المذكور ، كما قيل بكل منها بعضهم ، ولا كلام مترتب على قوله عز وجل له : وعزتى وجلالى لا أكشف ما بك حتى تدعونى ، فقال ذلك ، وقال : أى رب أما ترحم الشيخ الكبير القائل : اللهم اردد أولادى إلىّ ، ويدل على ما قلت قوله سبحانه وتعالى حكاية عنه :

(وأعْلَم منَ الله ما لا تعْلَمون) من الرحمة والإحسان ، فيأتى بالفرج من حيث لا أحتسب فلا آيس ولو آيستمونى ، وقد مر أنه الملك أخبره بحياة يوسف فى اليقظة أو فى المنام ، وطمع أيضا فى حياته من رؤيا يوسف السابقة ، أنهم يسجدون له ، وكان إذا سمع بسيرة ملك مصر طمع أنه يوسف ، أو أن يوسف معه .

وفى رواية أخبره الملك بحياته لا بمكانه ، وقد مر ذلك ، وطمع بالدعاء وبالإلهام ، ولا يخيب الله داعيا .

روى أنه قال : أى رب أما ترحم الشيخ الكبير ، أذهبت بصرى ، وقوست ظهرى ، فاردد علىّ ريحانتى أشمه شمة قبل أن أموت ، ثم اصنع ما شئت ، فأتاه جبريل فقال : يا يعقوب إن الله جل جلاله يقرئك السلام ويقول : أبشر ، وعزتى وجلالى لو كانا ، أى يوسف وبنيامين ، ميتين لنشرتهما لك ، أتدرى لما أصبتك بذلك : ذبحت شاة ، وقام على بابكم

المسكين فلان وهو صائم ولم تطعموه شيئا منها ، وأن أحب عبادى إلى الأنبياء ثم المساكين ، اصنع طعاما وادع إليه المساكين ، فصنع طعاما ، ثم قال : من كان صائما فليفطر الليلة عند آل يعقوب ، وكان وكان بعد ذلك إذا أراد أن يتغدى أو يتعشى أمر من عنده أن من يريد أن يتغدى أو يتعشى فليأت يعقوب ، فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين .

وقال وهب : أوحى الله إلى يعقوب ، أتدرى لما عاقبتك ، وحبست عنك يوسف ثمانين سنة ؟ قال : لا يارب . قال : شويت عناقا وقتَّرت على جارك وألحفت ولم تطعمهم ، وقيل : إن سببه أنه ذبح عجلا بين يدى أمه وهى تجوز عليه فلم ترحمها ، وذلك أن الأنبياء أصفى خلق الله وأعظمهم رتبة ، يعاب عليهم ويعاقبون فى الدنيا بما لا يعاب على غيرهم ، ولا يعاقب به ، فكيف ما يعاب به ويعاقب عليه ، كتفريق الأمة من ولدها .

وروى أنه لما جاءه ملك الموت ليبشره ويزوره كما مر قال له : ما حاجتك إلا لأزورك ، وأبشرك وأجيبك عما تسألنى ، وإن شئت علمتك لما ابتليت بفقد ولدك ، فقال له : أعلمنى يا عزرائيل : فقال : يا نبى الله ، هل تذكر الجارية التى اشتريتها عام كذا فى شهر كذا ، وفرقت بينها وبين ابنها ؟ قال : نعم يا ملك الموت ، قال : بذلك بليت ، وهل تعلم لماذا بليت بفقد بصرك ؟ قال : لا ، قال : أمرت يوما بجذعة فذبحتها وشويتها يوم كذا من شهر كذا ، فمر بكم عبد صالح ما أفطر منذ أسبوع ، فاشتم قتارة الشوى فلم تطعمه ، فأعتق عند ذلك ما عنده من عبيد وإيماء ، وأمر أن يذبح من غنمه كل يوم كبشان ويفرق لحمها على الضعفاء والمساكين .

وقيل : إنه فرق بين جارية وولدها ببيع ولدها فبكت ليه حتى

عميت ، ففرق بينه وبين ولده ، وبكى حتى عمى ، فلما أعتق وتصدق مع علمه من الله ما لم يعلم سواه قال : ما ذكر الله سبحانه عنه فى قوله :

قالَ يعقوب : (يا بنىَّ) الأصل يا بنين حذفت النون للإضافة لياء المتكلم ، وأدغمت فيها ياء الإعراب (اذْهبُوا فتحسَّسوا مِنْ يُوسفَ وأخِيهِ) بنيامين اطلبوا الخبر عنهما بالحساسة ، فمن بمعنى عن ، ويجوز كونها للابتداء ، فإن الخبر المسموع فى حقهما آت من شأنهما ، وقرىء بالجيم وهو أيضا طلب الخير ، وإنما قرأ به من يقول : إنه بالجيم وبالحاء سواء ، وقيل : إنه بالجيم فى الشر وبالحاء المهملة فى الخير (ولا تيأسُوا مِنْ رَوحِ الله) لا تقنطوا من فرج الله سبحانه وتنفيسه ، وقرأ الحسن ، وقتادة : من روح الله بضم الراء ، أى من رحمته التى تكون حياة للعباد (إنَّه لا ييْئَسُ من رَوحِ اللهِ إلاَّ القومُ الكافِرُونَ) بالتكذيب لله جل وعلا ، أو بجهله بالصفات ، فإن العارف لا يقنط من رحمته فى شىء من الأحوال ، وفى الآية عذدى دليل على أن الإياس من رحمة الله فى الدنيا كبيرة ، كما أن الإياس من رحمة الآخرة كبيرة ، فإن الآية فى رحمة الدنيا وفرَجها ، والمشهور فى كتب الفقه ، وعلى الألسنة أن الإياس من رحمة الآخرة كبيرة ، ومن رحمة الدنيا ليس كبيرة .

وذكره الشيخ عمرو التلاتى فى شرح النونية وقد تابعتهم عليه فى بعض كتبى الفقهية قبل أن تظهر لى هذه الحجة ، ويبعد أن يكون قوله : « ولا تيأسوا » إلى آخره كلاما مستقلا فى رحمة الآخرة .

روى أن يعقوب أمر شمعون على أنه [إن] رجع مع إخوته أن يكتب إلى ملك مصر :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من يعقوب الحزين إلى عزيز مصر ، ولو عرفت اسمك لذكرتك به ، يا من اعتز بعزه ، فإن الله يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، إنى أيها العزيز رجل قد اشمأز قلبى ، وقطع الحزن أوصالى ، وإنى ناه عن الأفراح ، دان إلى الأتراح ، دائم البكاء والصياح ، وأنا من نطف آباء كرام كيف يتوله منى اللصوص ، وأنا من الخصوص ، وقد أخبرت أنك وضعت الصاع فى الليل فى رحل ولدى الأصغر ، ذلك الهلال الأقمر ، واعلم أن حزنى على يوسف الفقيد دائم مسرمد ، وإن أفجعتنى فى الآخر فإن قلبى لا محالة طائر .

وكتب إليه يوسف : اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا .

وفى عرائس القــرآن : إن يعقوب كتب إلى يوسف : مــن يعقوب إسرائيل الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله ، إلى عزيز مصر الطاهر العدل ، الموفى الكيل .

أما بعد : فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء ، فأما جدى فابتلاه الله بنمرود فشدت يداه ورجلاه ورمى فى النار ، وأما أبى إسحاق فشدت يداه ورجلاه ، ووضع السكين على قفاه للذبح ، وأما أنا فكان لى ابن أحب أولادى إلىّ ، فذهب به إخوته إلى البرية ، ثم أتونى بقميصه ملطخ بالدم ، وقالوا قد أكله الذئب ، فذهبت عيناى ، ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه ، وكنت أتسلى به ، ثم ذهبوا فرجعوا فقالوا : إنه سرق ، وإنك حبسته ، وإنا أهل بيت لا نسرق ، فإن رددته إلىّ وإلا دعوت عليك بدعوة تدرك السابع من ولدك ، وختم الكتاب ودفعه إليهم ، ووجههم به إلى مصر مع بضاعة مزجاة كما ذكر الله سبحانه وتعالى فى قوله :

(فلمّا دخلُوا عليه) الخ ففى الكلام حذف تقديره فرجعوا إلى مصر متحسسين من يوسف وأخيه ووصلوها ، فلماذا دخلوا على يوسف الخ ، وهذا ذهاب ثالث إلى مصر (قالُوا يا أيُّها العزيزُ) أى الملك ، سُمى عزيز لعزته وغلبته (مسَّنا وأهْلنا الضرّ) والجوع حتى هزلنا لشدته .

(وجئنا ببِضاعةٍ) قال الثعلبى فى عرائس القرآن : كانت دراهم رديئة زيوفا لا تنفق فى شىء إلا بوضيعة ، وقال أبو مليكة عنه : خرق الغرائر والحبال ، ورثة المتاع ، وقال عبد الله بن الحارث بن الحسن : متاع العرب الصوف والسمن والإقط ا ه .

وقال الكلبى ومقاتل : الحبة الخضراء وقيل : الصنوبر والحبة الخضراء وهى الفستق ، وقيل : بضاعتهم سويق المقل ، وقيل : سويقه والإقط ، وقيل : الأدم والنعال .

(مُزْجاةٍ) تدفع وترد لرادءتها أو لقلتها أو لهما معا ، فلا تنفق فى الطعام أو غيره إلا بتحيل من صاحبها ، أو بتساهل من البائع يقال : أزجيت الشىء دفعته ليذهب ، وأزجت الريح السحاب وأزجى الزمان بعضه بعضا أى دفعه ، وكانوا لا يأخذون فى الطعام إلا الجياد .

(فأوْفِ لنا الكَيلَ) بها كما توفيه بالبضاعة الجيدة (وتَصدّقْ علَينا) زيادة على إيفاء الكيل ، أو تفضل علينا بقبولها وإجازتها ، أو أو برد أخينا بنيامين كما قال الداودى عن ابن جريج ، وكذا قال الضحاك ، والصدقة كانت محرمة على الأنبياء ، وقيل : كانت تحل لغير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وسئل سفيان بن عيينة عن ذلك فقال : ألم تسمع « وتصدق علينا » أراد أنها حلال لهم ، رواه عبد الجبار بن العلاء ، والجمهور على الأول ، لأن الأنبياء ممنوعون عن الخضوع للناس ، والأخذ منهم ، والصدقة وسخ الناس ، وهم مستغنون بالله عنهم ، وإنما أرادوا بالتصدق فى قولهم : « وتصدق علينا » أن يجرى لهم على عادته فى المسامحة وإيفاء الكيل ونحو ذلك ، مما يفعل بهم من الكرامة وحسن الضيافة ، لا نفس الصدقة ، وإنما يحل للأنبياء ما كان هدية أو إكراما لا صدقة برسم الخضوع ، أو باسم للصدقة كما يتصدق على المساكين ، ولا زكاة .

قال التلاتى : الصدقة تمليك يقصد به الثواب ، والهدية تمليك يقصد به التعظيم ، وقال أيضا هو وغيره : إنهما لا يفترقان إلا فى شيئين هما أن الهبة يرجع فيها الواهب لا الصدقة ، وأن الهبة يصح الرجوع فيها بالبيع ، ولا يجوز فى الصدقة ولو على ابنه انتهى .

وقيل : يجوز رجوعها بشراء أو إرث أو غيرهما مما ليس إبطالا لها ، وقيل : إنما حرمت الزكاة على نبينا صلى الله عليه وسلم لا الصدقة ، وامتناعه من أكلها لا تنزه تحريم ، وهذا خلاف ظاهر قوله : « إنا معشر الأنبياء لا نأكل الصدقة » إلا إن حملت الصدقة فيه على الزكاة ، وهو الذى سبق فى حفظى وروبته ، وكذا البحث فى إعطاء سلمان له رطبا قائلا له : إنه صدقة فرده ، وأعطاه بعد وقال : هدية فقبلها .

وظاهر الآية أن إخوة يوسف طلبوا الصدقة بتمسكن وخضوع ، ولذلك رق لهم وعرف لهم نفسه ، ويدل لذلك قوله تعالى عنهم :

(إِنَّ اللهَ يَجْزِى المتصدِّقينَ) أحسن جزاء بالخلف فى الدنيا

والآخرة ، وليس القول ببنبوة إخوته متعينا ، والمتصدق من يريد بصدقته الثواب •

سمع الحسن رجلا يقــول يقــول : اللهم تصدق عــلى" فقال : إن الله لا يتصدق ، إنما يتصدق من يبتغى الثواب ، قل : اللهم أعطنى وتفضــل على" كذلك قيل •

قلت : الحق جواز إطلاق التصدق على الفضل مطلقا سواء كان مع ابتغاء ثواب أم لا ، ففى الحديث فى شأن قصر الصلاة : « هذه صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » ولعل اختصاصه بابتغاء الثواب عرف ، ولما يقولوا : إن الله يجزيك ، لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن كذا قال الضحاك ، وقيل : علموه مؤمنا ، ولكن أتوا بصيغة تعمه وتعم كل متصدق ، ولما تمسكنوا له وخضعوا ، وطلبوا التصدق ملكته الرحمة لهم ، وارفضت عيناه بالدموع ، فشرع فيما يفضى به إلى تعريف نفسه لهم إذ قال مــا حكى الله عنه فى قوله :

(قالَ) يوسف (هَلْ علمتُم ما فعلْتُم بيُوسفَ) من إلقاء فى جب وبيع وضرب (وأخيهِ) بنيامين من إفراده عن يوسف وإذلاله حتى لا يستطيع أن يكلمهم ، وإيذائهم إياه كيوسف ، وقولهم : ما رأينا منكم يا بنى راحيل خيرا إلا بذل ذكرهم ذلك ليجرهم إلى التوبــة التى هى لله حق ، تقديما لحقه على حق نفسه ، فمراده هل علمتم قبح فعلكم بهما عند الله جل وعــلا فتتوبوا عنــه ، أو فتبتم عنــه •

(إذْ أنتم جاهِلُون) متعلق بفعلتم ، أى مــا فعلتم بهما وقت جهلكم قبحه ، وسماهم جاهلين ولو كانوا عالمين ، لأنهم لم يعلموا بمــا

علموا ، وقيل : إذا أنتم صغار فى حد السفه والطيش لم تبلغوا ، أو إن الرزانة وهذا منه قيل : يجرى مجرى العذر ، وقيل : جاهلون بما يئول إليه أمر يوسف .

وروى أنه ما قال لهم : « هل علمتم » الخ حتى أزال القناع عن وجهه ، وقيل : أزاله بعد ، وقال الكلبى : سبب قوله هذا المفضى إلى تعريف نفسه لهم كتاب أبيه ، الذى كتبه إليه بعد حبس بنيامين ووجهه معهم .

وقيل : سبب قوله ذلك أنه ذكر لهم ما فعلوا مع مالك بن ذعر ، وقال لهم : إن مالك بن ذعر قال : وجدت غلاما فى بئر من حاله كذا فاشتريته ، فاعترفوا أنهم هو [الذى] بايعوه ، وقيل : إنه قرأ عليهم ما كتبوه لمالك بن ذعر ، وكان فى آخره : إن الكاتب يهودا فاعترفوا بذلك فغضب وأمر بقتلهم ، فذهبوا بهم ليقتلوهم فولى يهودا وهو يقول : كان يعقوب يبكى ويحزن لفقد واحد حتى كف بصره ، فكيف إذا أتاه قتل بنيه كلهم ، ثم قالوا له : إن فعلت ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فإنه بمكان كذا وروى أنه رمى إليهم كتاب مالك بن ذعر فأفحموا ، وأخذ الصواع فنقره فقال : إنه يخبرنى أنكم رميتم أخاكم فى الجب ، وأهرقتم الماء من صطيحته ، وضربتموه ثم نقره فقال : يقول : أردتم قتله فمنعه يهودا ، فقالوا : نعم فقال : أيكم يهودا ؟ فأشاروا إليه ، فقال : جزاك الله خيرا عن أخيك يا يهودا ، وجعل ينقره ويخبر حتى أتى على جميع فعلهم ، وفى جميع ذلك يصدقونه ، فقال : بئس ما فعلتم بأخيكم ، ثم قال لغلمانه : خذوا بأيديهم واضربوا رقابهم ، فقالوا أيها العزيز لا تفعل ، فإن أبانا قد حزن على فقد واحد حتى عمى ، وتركناه على الآخر طائر

القلب ، فكيف إذا سمع بقتلنا كلنا ، وتملقوا وبكوا ، وبكى معهم ، ثم رفع البرقع عن وجهه فغشيهم نور وجهه فشبهوه بيوسف .

(فقالُوا أئنكَ) بتحقيق همزة الاستفهام وهو للتقرير ، وبذلك حقق بأن واللام وأنت ، وتسهيل همزة أن ، وقرىء كذلك مع إدخال ألف بينهما ، وقرىء بتحقيقهما بلا إدخال ، وتحقيقهما مع الإدخال .

(لأنتَ يُوسفُ) وقرأ أبى أئنك أو أنت يوسف أى أئنك يوسف ، وأنت يوسف ، كرروا الكلام تعجبا وتثبتا ، وقرأ ابن كثير : إنك بهمزة واحدة مكسورة كما قال الدانى ووجهه الإخبار بأنه يوسف تحقيقا ، وعرفوه لما وضع البرقع ، وقيل : لا حتى تبتسم فرأوا ثناياه كاللؤلؤ ، وقيل : حتى وضع التاج عن رأسه ، وكان فى قرنه علامة تشبه الشامة البيضاء ، وكان ليعقوب مثلها ، ولإسحاق مثلها ، ولسارة مثلها ، وقيل : ما قالوا ذلك بعد رؤية ما ذكر إلا توهما ، أو تقدر همزة الاستفهام ولم يحققوه حتى قال ما أخبر الله عنه .

(قالَ أنا يُوسفُ) لم يقل أنا هو ، تصريحا بأنه هو المسمى بهذا الاسم الذى فعلوا به كذا وكذا قد صار إلى هذه المرتبة (وهَذا أخى) بنيامين من أبى وأمى المظلوم كما ظلمتمونى ، ذكره لهم وهم يعرفونه ، وما سألوا عنه ، لأن فى ذكره بيانا لما سألوه عنه والاحتجاج بذكر النعمة ، ولتفخيم أمر أخيه ، وليدخل فى قوله :

(قد مَنَّ الله عَلينا) بسلامة الدين والدنيا ، والجمع بينى وبينه (إنَّه مَنْ يتَّقِ) الله بأداء الفرائض وترك المعاصى كالزنى ، عوقب

عليها بنحو السجن (ويصبْرِ) على ذلك وعلى البلاء ، وقرأ قنبل عن ابن كثير بإثبات ياء يتقى وصلا ووقفا ، قال ابن هشام : فقيل من موصولة ، وسكن يصبر لتوالى حركات الباء والراء والفاء والهمزة ، أو للوصل بنية الوقف ، على المعنى ، لأن من الموصولة كالشرطية عموما ، وايها ما انتهى ، اى ولكون مدخولها مستقبلا سببا لما بعده ، ولذلك دخلت الفاء فى الخبر ، أو سكن تنزيلا للباء والراء المضمومة والفاء منزلة كلمة على وزن فعل يكسر فضم فسكن ، لأنه بناء مهمل وتخفيفا إجراء للمفصل مجرى المتصل ، أو سكن جزما على أن يتقى مجزوم بحذف الحركة المقدرة ، ومن شرطية .

(فإنَّ اللهَ لا يضيعُ أجرْ المحسْنِينَ) الرابط العموم ، أو أراد بالمحسنين تفسير من يتقى ويصبر مراعات لمعناه ، فكان جمعا ، فالرابط إعادة المبتدأ لمعناه الصبر والتقى أحسن ، فهو وضــع للظاهر موضــع المضمر تلويحا بأن المحسن من جمع بين التقوى والصبر .

وقيل : قال لهم يوسف : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذا أنتم جاهلون » حين سئل بنيامين : هل لك ولد ؟ قال : نعم ثلاثــة ، قال : فما سميتهم ؟ قال : الأكبر يوسف لأذكرك ، والثانى ذئبا ونحو ذلك مما ذكره بناء على أنه سأله عن هذا فى المرة الثالثة ، وتقديم خلافه ، ولما تعرف إليهم وعرفوه وقال أنا يوسف الخ ، نكسوا رءوسهم وبكوا بكاء شديدا ، وبكى يوسف وبنيامين وأولاد يوسف وزليخــا من وراء سترهما ، والملائكة فى السموات لبكائهم ، قالوا : يا يوسف لا تنظر إلى ما فعلنا بك ، ولكن انظر إلى ما فعل الله بك .

(قالـُوا تالله لـَقد آثرِكَ) اختارك (اللهُ عليـْنا) بالعلم والعقل ، وقال أبو صالح ، عن ابن عباس : بالصبر ، وقال الضحاك عنه : بالملك ،

وقيل : بحسن الصورة ، وكمال السيرة ، وقيل : بالصفح والحلم علينا ، وقيل : بالحسن وسائر الفضائل التى أعطاه الله دونهم ، وقيل : بالنبوة إما على أنهم غير أنبياء ، وإما على المراد النبوة المقرونة بالرسالة ، وكانوا أنبياء غير مرسلين [ومن قرأ] قوله : « قالوا تالله » إلى « أجمعين » لزال بياض العين وأوجاعها التى أعيت الأطباء ، تأخذ من الكحل الأصبهانى جزءا ، ومن الصبر نصف جزء ، ومن المرجان نصف جزء ، ومن الزعفران والماميران ربع جزء من كل ، ومن السعد نصف جزء ، ومن زبد البحر نصف جزء ، وتأخذ من أول ماء مطر ينزل أول الخريف ، ومن ماء نهر يوم الخميس من كانون الأول قبل طلــوع الشمس ، وفى نسخة مــن كانون الثانى ، ثم تسحق الأدوية كل على حدة ، ثم تخلط ذلك وتسحقه على الصلابة بماء الشجر الأخضر ، وتتركه حتى يجف ، ثم تسحقه ثانيا بماء مطر الخريف وتجففه ، ثم تسحقه ثالثا بماء كانون الأول أو الثانى ، ثم تسحقه رابعة بعســل نحل لم تمسه النــار وخل ، فإذا جف فاكتب الآيات فى جام زجاج بزعفران ، وامحه بماء كانون الثانى ، واســحق الجميع بهذا الماء ، وتجففه خامس مرة فاستعمله لأوجاع العين كلها .

(وإنْ كنـَّا لخاطئينَ) إن المخففة ، واللام الفارقــة ، وقيل : إن النافية ، واللام التى بمعنى إلا ، وهكذا فى مثله ، والمراد الخطأ فيما فعلوا معه ، قيل يقال : خطأ إذا تعمد ، وأخطأ إذا لم يتعمد ، ولذلك قيل : لخاطئين إذ تعمدوا ، وليس انسب برءوس الآى من المخطئين كما قيل ، فإن بعضا أنســب بالخاطئين وبعضــا بالمخطئين .

(قالَ لا تثرْيبَ عليْكم اليومَ) لا تعيير اليوم ، ولا توبيخ ولا تمزيق عرض وإذهاب ماء وجه ، فضلا عن سائر الأيام بعد ، قال صلى

الله عليه وسلم : « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يثربها ، » أى لا يعيرها بعد إقامة الحد ، وأصله تفعل من الثرب وهو الشحم الذى يغشى الكرش ، والتشديد للإزالة ، يقال ثربت الكرش أى زلت ثربه ، كقولك : قردت البعير ، إذا أزلت قراده ، وجلدت الشاة أزلت جلدها ، فاستعير هنا لنحو التعيير مما فيه إزالة حسن العرض ، وإزالة ماء الوجه ، والوقف عندى على اليوم ، وعليه الجمهور وهو الصحيح ، وعليه الطبرى وابن إسحاق يتعلق بما يتعلق به عليكم وما بعده ، تبشيرا ودعاء .

وقيل : الوقف على عليكم فيتعلق بقوله : (يغْفِرُ الله لكُم) ما فعلتم بى ، ولا يؤاخذكم عليه ، ويضعفه أنه دعاء بالغفران ، وتعليق اليوم به يقتضى أنه إخبار إلا أن يقال : المراد : اللهم اغفر لهم اليوم ، أو علم بالغفران اليوم بالوحى ، والمراد باليوم مقابل الليل ، أو ما استقبل من الزمان بعد توبتهم ، فقد روى أنه ما غفر الله إلا بعد سنين .

(وهُو أرْحم الرَّاحمينَ) يغفر الكبائر والصغائر ، ويتفضل على التائب ، قال الزمخشرى : يروى أن إخوته لما عرفوه أرسلوا إليه : إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشيا ، ونحن نستحى منك لما فرط منا فيك ، فقال يوسف : إن أهل مصر ، وإن ملكت فيهم فإنهم ينظرون إلى بالعين الأولى ، ويقولون سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهما ما بلغ ، ولقد شرفت الآن بكم ، وعظمت فى العيون حين علم الناس أنكم إخوتى ، وأنى من حفدة إبراهيم انتهى .

ولما عرفهم يوسف بنفسه ، وتم لهم المرام قال لهم : ما حال أبى ؟ قالوا : ذهب بصره بكثرة البكاء عليك فقال : (اذهبوا بقَميصِى هَذا) وهو قميص من الجنة ، كسى به إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار ،

توارثه بنوه حتى كان عند يعقوب ، فجعله فى قصبة من فضة ، وجعلها فى عنق يوسف مخافة العين كما مر ، وأخرجه منها جبريل حين ألقى فى الجب فألبسه إياه كما مر ، ولا يقع على سقيم أو مبتلى فى جسده إلا عوفى لوقته ، قال عياض : هذا يحتاج إلى سند ، والظاهر أنه قميص يوسف كسائر القمص انتهى .

(فأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ) يصير (بَصِيراً) أو يجىء إلىَّ بصيرا لا أعمى ، علم أنه إذا ألقى على وجهه كان بصيرا من الوحى ، وكان فيه ريح الجنة ، أو من التجريب كما أعطى زليخا منها خيطا فرجعت بصيرة ، أو من العقل ، فإن عماه أو ضعف بصره كان من كثرة الحزن والبكاء ، فإذا اتصل بقميصه انشرح صدره فيزول الضعف من الجسد والعينين ، وخصَّ القميص إما على أنه من الجنة فواضح ، وإما على أنه من الدنيا فلأنه يلى جسده أكثر مما يليه الخاتم لصغره ، والعمامة لتراكمها ، ويدل على أن المراد يجىء إلىَّ بصيرا قوله :

(وأْتُونى بأَهْلِكُم أَجْمعينَ) وعدة أهلهم سبعون إنسانا فيما قال الحلبى ، وثلاثة وسبعون فيما قال مسروق ، وذلك ما بين رجال ونساء وأطفال ، وبُلَّغ وأحرار ، وموال وعبيد ، والذاهب بالقميص يهودا ، قال : أنا أحزنته بحمل القميص ملطخا بالدم إليه ، فأفرحه كما أحزنته ، فحمله حافيا منكشف الرأس ، مسرعا من مصر إلى كنعان ، مسيرة ثمانين فرسخا ، ومعه سبعة أرغفة ، ولم يستوف أكلها حتى أتى أباه ، ورافقه العبد الذى باعه يعقوب عليه السلام ، وذلك أنه لما ماتت راحيل أم يوسف عليه السلام ، اشترى يعقوب جارية لرضاع بنيامين ، وكان لها ولد رضيع ، ففرق يعقوب بينهما وباعه ليكون اللبن كله لبنيامين ، فبكت

وقالت : يا رب اللهم كما فرق بينى وبين ولدى ففرق اللهم بينه وبين ولده الذى يحب ، ولا يصل إليه حتى يصل إلى ولدى ، فهتف بها هاتف : لا تحزنى واصبرى ، فقد استجاب الله لك كما طلبت ، واسمه البشير ، واشتراه يوسف من بعض التجار ، فكان يرسله إلى البلاد ولا يعلم به ، وكتب الكتاب إلى أبيه ولفَّه فى القميص ، فأعطاه ليهودا وذهب معه البشير ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فرق بين أمة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » وكان التفريق جائزا فى شريعة يعقوب على كراهية ، أو فرق ذاهلا غير متعمد .

فلما خرج البشير ويهودا من مصر استأذنت ريح الصبا ربها أن توصل ريح يوسف إلى يعقوب عليه السلام قبل أن يصلا بعشرة أيام ، فأذن لها ، وكان يعقوب عليه السلام جالسا بين أولاد أولاده ، ومن حوله من أهله ، فقال لهم : يا بنى أبنائى قد ذهب حزنى ، وأظن فرحى قد قرب ، كما قال الله سبحانه وتعالى :

(ولمَّا فَصَلَت العِيرُ) قيل خرجت من عريش مصر ، وهى بلدة من أعمال مصر خربت ، يقال فصل من البلد إذا انفصل منه ، من هو جواز حيطانه ، وقيل : من مصر متوجها إلى كنعان (قالَ أبوهُم) لمن حوله من أولاد أولاده وقرابته ، وزعم بعض أنه قال لبعض بنيه (إنِّى لأجدُ رِيحَ يوسفَ) وجده من ثمانين فرسخا ، وقيل بينه وبين القميص مائة وأربعين فرسخا ، وقال الحسن : بينهما ثلاثون فرسخا ، وقال ابن عباس : ثمانية أيام ، وقال مجاهد : ثلاثة أيام ، وجد ريح الجنة ، فعلم أنه من ريح قميص يوسف .

(لَوْلا أنْ تُفنِّدونِّ) تنسبوننى إلى الفند ، وهو نقصان

عقل من هرم ، ولذلك لا يقال عجوز مفندة ، لأن نقصان عقلها ذاتى وقيل : الفند ضعف الرأى ، وقيل : السفه ، وقيل : الجهل ، وجواب لولا محذوف ، أى لصدقتمونى ، أو لقلت إنه قريب ، وإنما لم أقدره مما قبلها ، لأن وجدان ريح يوسف متحقق ولو فندوه .

(قالـُوا) أى قال الذين خاطبهم بقوله : « لولا أن تفندونى » وهم من حوله من ولد ولدٍ وقرابة (تـَالله إنـَّكَ لفى ضَـلالكَ) ذهابك عـن الصواب (القـَديمِ) من ذكر يوسف ، والطمع فى حياته ، والإفراط فى محبته ، وإكثار ذكره ، ورجاء لقائه .

ولما وصل البشير ويهودا أرض كنعان ، تقدم البشير فوجد أمه تغسل ثوب يعقوب عليه السلام ، فسألها عـن منزل يعقوب عليه الســلام ، قالت : ما تريد منه ، هو حزين لا يلتفت إلى أحد ، ولا يصغى إلى كلام أحد ، ولا يقضى حاجة أحد ، هو كبت حزين ليلا ونهارا .

فقال لها : طولت القصة ، قولى أين منزله فإنى رسول يوسف إليه ، فصاحت صيحة وقالت : يا رب أهكذا وعدتنى ؟ قال لها البشير : مالك يا أمة الله ، فقصت عليه قصتها ، فقال لها : ما اسم ولدك ؟ قالت له : اسمه البشير ، فقال لها : قومى فقد جاءك الله بولدك ، أنا البشير ، فقامت وضمته لصدرها ، وبكيا بكاء شديدا ، ووضعت خدها على خده ساعة ، ومضيا معا إلى منزل يعقوب تدله عليــه ، وهو من ورائها حتى وصــل يعقوب عليه السلام ، فلما أرادت أن تكلمه خرت مغشيا عليها ، فوصل يهودا بالقميص ، فوجد البشير على الباب ، فغشيا على يهودا من الفرح ، فأخذه البشير وألقاه إلى يعقوب وهو ملفوف كما لفه يوســف ، فألقاه

يعقوب على وجهه فارتد بصيرا كما كان أول مرة ، كما قال الله سبحانه وتعالى .

(فلمَّا أن) صلة (جَاء البشيرُ) ابن أمته المذكور ، وهو اسمه ، ويجوز أنه يراد به الوصف ، ولو وافق اسمه بالقميص (ألقاهُ) يعقوب والهاء للقميص ، وقيل : ألقاه البشير ، وقام صياح فى آله من البشارة فرحين ، وأقبلوا يبكون فرحا ، وصاحت زينة فغشى عليها ، وأفاقت وأتت والدها ، ولما وصلت غشى عليها ، وقال ابن عباس : البشير صفة ، وأنه يهودا جاء بالقميص وألقـاه هـو أو يعقـوب .

(عَلَى وجْهِهِ) أى وجه يعقوب (فارتدَّ) صار (بصيراً قالَ) لمن حضره من ولد وولد ولدٍ وقرابة : (ألم أقلْ لكُم إنِّى أعلم مِنَ اللهِ ما لا تعلمونَ) الجملة مقول القول إشارة إلى قوله لهم : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » هذا هو الظاهر عندى ، وقيل : إن الوقف على لكم ، وإن مقول القول محذوف ، أى ألم أقل لكم لا تيئسوا من روح الله ، أو لم أقل لكم إنى لأجد ريح يوسف .

ثم ضم يهودا إلى صدره ، ونظر فى وجه البشير سـاعة ثم قـال البشير : يا نبى الله ، أنا الذى فرقت بينى وبين والدتى ، أنا البشير فبكى يعقوب عليه السلام وقال : واحسرتاه على ما فعلت يا بشير ، أما علمت أن وجع الفراق شديد ، سلنى حاجتك ، قال : إنى لا أحتاج إلى الدنيا يا نبى الله ، فقال يعقوب عليه السلام : إذا أصابك شىء : فقل : يا لطيف يا لطيف يا لطيف الطف بى ، وبجميع أمورى كلها ، أمور دنياى وأخراى لما ترضى ، ثم قال له : هوَّن الله عليك سكرات الموت كما كانت عـلى العموم .

ثم رفع إليه الكتاب بخط يوسف عليه السلام ، فوضعه على خده وقال : وا طول شوقاه إلى كتابك يا يوسف ، ثم فكه وقرأه وفيه : يا أبت طلبت أن أزورك فأمرنى ربى أن أدعوك إلى حضرتى ومقالى ، لتكون لك فرحتان : فرحة اللقاء ، وفرحة العطاء ، وقد أنفذت إليك يا والدى مائة وثمانين دستا من الثياب ، وعمائم مذهبة لأولاد إخوتى الذكور ، وقمصان مذهبة للإناث ، ولكل واحد منهم لباس ، ولك دست من الثياب الملكية ، وأرسل إليهم مائتى راحلة ليجيئوا عليها ، أو أسألك أن لا تتزاهد فى ثيابنا ولا تدخل مصر إلا فى هيئة حسنة لئلا يشمت بك الأعداء والحاسدون ، ويعيرونى بفقركم ومسكنتكم ، فإن هاهنا كفارا قبطيين ، ففعل كما أحب يوسف .

وروى أنه قال : قال البشير : كيف تركت يوسف ؟ قال : تركته ملك مصر ، قال : ما أصنع بالملك على أى دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام ، قال : الحمد لله الآن تمت النعمة .

(قالُوا يا أبانا اسْتغفر لنا ذُنوبنا) أى قال إخوة يوسف لأبيهم بعد اجتماعهم به : اطلب لنا من الله محو ذنوبنا ، فلا يؤاخذنا بها ، يعنون ما صدر منهم فى شأن يوسف (إنَّا كنَّا خاطئين) من حق التائب المعترف بالخطأ أن يصفح عنه وتطلب له المغفرة .

(قالَ سَوفَ أسْتغفرُ لكم ربِّى) وسكن الياء غير نافع وأبى عمرو (إنَّه هو الغَفُور الرَّحيم) أخر الاستغفار إلى ليلة الجمعة فى ثلث ليلها الأخير ثلث ليلها ، قال ابن عباس رضى الله عنهما لعلى : إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم فى ثلث الليل الأخير فإنها ساعة

مشهودة ، والدعاء فيها مستجاب ، وقد قال يعقوب لبنيه : « سوف أستغفر لكم ربى » .

وقيل : آخر الاستغفار إلى وقت السحر مطلقا فإنه ساعة إجابة أبدا فى كل ليلة ، قيل : هو أشرف الأوقات ، وهو الوقت الذى يقول الله عز وجل : هل من داع فأستجيب له . ولما جاء وقت السحر صلى فرفع يديه وقال : اللهم اغفر لى جزعى على يوسف ، وقلة صبرى عنه ، واغفر لوِلْدى ما فعلوا بيوسف . فأوحى الله إليه : أن الله قد غفر لك ولهم أجمعين .

وروى أنه لما عفى عنهم يوسف ، وغفر لهم ، وتحققوا أن أباهم يغفر لهم ، بل قد غفر لهم قالوا : ما يغنى عنا ذلك إن لم يغفر لنا الله فقالوا له وقد علتهم الكآبة : ما يغنى عنا عفوك إن لم يعف عنا ربنا ، فإن لم يوح إليك بالعفو فلا قرت لنا عين أبدا ، فاستقبل القبلة قائما يدعو ويوسف خلفه يؤمن ، وهم خلف يوسف أذلة خاشعين ، ولم يجب فيهم مدعيا عشرين سنة ، حتى بلغ جهده ، وظنوا أنها الهلكة ، فنزل جبريل فقال : إن الله جل جلاله قد أجاب دعوتك فى وِلْدك ، وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة .

وقد اختلف فى استنبائهم : وروى عن أنس بن مالك : أن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله ، خلا ولده نجيا فقال بعضهم لبعض : ألستم علمتم بما فعلتم بالشيخ يعقوب ويوسف ؟ قالوا : بلى . قالوا : فإن عفوا عنكم فكيف بكم بربكم ، فاستقام أمرهم على أن يأتوا الشيخ ، فأتوا وجلسوا بين يديه ، ويوسف إلى جنبه قاعدا ، قالوا : يا أبانا أتيناك على

أمر لم نأتكم بمثله ، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا قط مثله ، والأنبياء أرحم البرية •

فقال لهم : ما لكم يا بنى ؟ فقالوا : ألست تعلم ما كان منا إليكما ؟ قالا : بلى ، قالوا : فإن عفوتما فلا يغنى عنا شيئا إن لم يعف عنا ربنا ، قالا : فما تريدون ؟ قالوا : نريد أن تدعوا لنا يا أبانا ، فإذا جاء الوحى من عند الله بأنه قد عفى عنا ربنا أقرت أعيننا ، واطمأنت قلوبنا ، وإلا فلا تقر لنا عين فى الدنيا أبدا •

فقام الشيخ فاستقبل [القبلة] ويوسف خلفه ، وهم خلف يوسف أذلة خاشعين ، فدعا وأمَّن يوسف فلم يجب فيهم قريبا من عشرين سنة • وقال مكرمه على بن عباس : أخر الاستغفار إلى ليلة الجمعة لأنها أشرف الأوقات ، وقال وهب ابن منبه : كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة نيفا وعشرين سنة ، وقال طاووس : أخر الاستغفار إلى سحر ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء ، وقيل : أخر الاستغفار ليعرف حالهم فى صدق التوبة وإخلاصها ، وقال الشعبى : أخر حتى يسأل يوسف هل عفى عنهم فإن عفوا لمظلوم شرط المغفرة ؟ قال بعض أو حتى يستحلهم من يوسف •

وروى أنهم قالوا : يا أبانا اسأل يوسف أن يعفو عنا ، قال : يا أبتِ أشهدك أنى عفوت ، قال عطاء الخراسانى : طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منه إلى الشيوخ ، ألا ترى أن يوسف قال : « لا تثريب عليكم اليوم » ويعقوب قال : « سوف أستغفر لكم ربى » •

ولما وصل يهودا والبشير ، ثم جميع لإخوة • وقيل : بقى بنيامين

بمصر ، وتجهز يعقوب للمسير إلى مصر ، فمضى بأهله وهم سبعون أو اثنان وسبعون ، أو ثلاثة وسبعون إنساناً ، ركبوا دوابهم ، ولبسوا ثيابهم وزينتهم ، ووصل رسول إلى يوسف بمجيئهم ، فأمر العسكر باستقبالهم ، فركب ثلاثون ألف فارس من فرسان العرب ، فتلقوه فسجدوا بين يديه ، فقال : من هؤلاء ؟ قيل : من جند يوسف ، فبقى متحيرا ، ولما ساروا فرسخين بعد ، تلقته ثلاثون ألف فارس من فرسان الروم فنزلوا وسجدوا بين يديه ، فقال : من هؤلاء ؟ قيل : من جند يوسف ، فضحك من أمر الله تعالى ، وسار فرسخين فإذا بأربعين ألف بغلة عليها العماريات ، مع كل عمارية جاريتان ، قال : لمن هؤلاء ؟ قيل : ليوسف أرسلها لنساء إخوته ، ثم سار فرسخين ، فإذا هو بألف نجيب مزينة ، قال : لمن هؤلاء ؟ قيل : ليوسف أرسلهم لبنات إخوته ، ثم سار فرسخين فإذا هو بأربعين ألف شيخ سجدوا بين يديه ، قال : من هؤلاء ؟ قيل : شفعاء أرسلهم يوسف لتعفوا عنه مخالفته لك فى ذكر رؤياه لإخوته .

فبكى عند ذلك ، ولما بقى بينهم وبين مصر ثلاثة أيام استقبله يوسف عليه السلام راجلا تواضعا لوالده نبى الله يعقوب عليه السلام ، فى مائة ألف راجل ، معهم الملك الريان ، ولما بقى بينهما يوم كشف الله جل جلاله عن بصره حتى رأى يوسف كالقمر ليلة البدر ، فقال ليهودا : من هذا المقبل كأنه البدر ؟ قال ما أرى شيئا ، فإن كنت رأيت شيئا فذلك يوسف قرة عينيك ، فرمى بنفسه من فوق البعير ومشى ساعة على قدميه ، ورأى يوسف أباه أيضا قد أقبل ، فسعى إليه والتقيا وتعانقا ، فضج آل يعقوب بالبكاء ، وضجت الملائكة بالبكاء .

وكان أشد أولاد يعقوب بالبكاء زينة ، فدنا يوسف منها وضمها

إلى صدره فشهقت وخرت مغشيا عليها ، وضج بنيامين والناس والجبال ، وسقط يعقوب مغشيا عليه ، فضمه إلى صدره ، وقبل : ما بين عينيه ، وناداه يا أبت فلم يجبه ، ورش عليه الماء فلم يفق من غشيته ، وحمله فى هودج من الذهب ومشى راجلا خلفه ، وكذا زينة وبنيامين وإخوته وبنوهم .

وروى أنه خرج مع يوسف عشرة آلاف أمير ، والملك الريان حافيا إجلالا ليوسف وأبيه ، ولما وصل يوسف داره فرش لأبيه فراشا وطيئا ، ولما كان نصف الليل أفاق يعقوب من غشيته ، وفتح عينيه ، فرأى يوسف عند رأسه يبكى ويقول : يا أبت عليك السلام إلى يوم القيامة ، فجلس يعقوب ومسح على وجهه ، وحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : قد وادعتك يا بيت الأحزان ، قد بلغ الحبيب إلى الحبيب ، فعند ذلك قال يوسف عليه السلام : يا أهل مصر كلكم عبيدى وقد أعتقتكم عند رؤية والدى .

وفى عرائس القرآن وغيره : لما دخل يعقوب ومن معه أرض مصر ، كلم يوسف الملك الأكبر الذى فوقه فيما يزعم وهو الريان ، أن يتلقى أباه ، فخرج يوسف والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء ، وأهل مصر بأجمعهم ، فتلقوا يعقوب وهو يمشى يتوكأ على يهودا ، فنظر إلى الخيل والناس فقال : يا يهودا هذا فرعون مصر . قال : لا هذا ولدك يوسف ، فلما دنى كلٌ من صاحبه أراد يوسف أن يبدأ يعقوب بالسلام ، فقال جبريل عليه السلام : بل يبدأ يعقوب ، فقال يعقوب : السلام عليك يا مذهب الأحزان .

قال سفيان الثورى : لما التقيا تعانقا وتباكيا ، فقال يوسف ليعقوب عليهما السلام : يا أبت بكيت حتى ذهب بصرك ، أما علمت أن القيامة

تجمعنا ؟ قال : بلى ، ولكن خشيت أن يسلك بك غير طريقنا فيحال بينى وبينك ، وفى رواية : أنى خشيت أن تسلب دينك .

قال وهب ابن منبه وغيره : دخل يعقوب وأهله وذريته وهم اثنان وسبعون إنسانا ، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الأطفال ، ومن لم يبلغ القتال به والهرمى ، وكانت الأطفال ومن لم يبلغه ألف ألف ومائتى ألف .

(فلمّا دخلُوا) أى يعقوب وأولاده وأهلوهم (علَى يُوسفَ) أرض مصر ، أو منزلا دخله خارج مصر ، أو قبة ضربت له (آوَى) ضم يوسف باعتناق (إليه أبَويْه) أباه يعقوب وخالته ليا ، وسميت أمًا حتى غلب لفظ الأب على لفظ الأم ، لأنها ربته بعد موت أمه راحيل فى نفاس بنيامين ، والمربية تدعى أما لقيامها مقام الأم ، ولئن زوجت تسمى أما مطلقا تجوزا ، ولأن العرب تسمى الخالة أما ، كما تسمى العم أبا .

وقال الحسن : المراد أبوه وأمه راحيل كانت حية بعـد ، وقيل : أبوه وأمه راحيل بعثها الله القادر عـلى كل شىء حتى تسجد ليوسـف تحقيقا لرؤياه ، بناء على أنها المراد بالشمس أو القمر فى رؤياه .

وعن الحسن : أن الله لن يبعث أمه ولكن بشرها فى قبرها وسجدت فيه لله تعالى حقيقة ، فليست أحد الأبوين فى هذه الآية ، وقيل : المراد أبوه وجدته أم أمه ، والصحيح الأول ، وهو المشهور أن أمه ماتت ، وأن أحد الأبوين خالته .

وعن ابن إسحاق والحسن : أنها أمه لم تمت ، قال عياض : وهو أظهر بحسب اللفظ ، إلا أن يثبت بسند أن أمه ماتت .

(وقالَ ادْخُلوا مِصْرَ) نفس البلد المسمى مصر ، وهذا الدخول المأمور به غير الأول فى غير نفس مصر كما علمت ، وقيل : الأول دخول نفس مصر ، والثانى استيطانها ، وقيل : هما دخول نفس مصر ، لكن الثانى مكيف بالأمن كما ترى بعد .

(إنْ شاءَ الله آمنينَ) من القحط وأصناف المكاره ، ومنها ما كان يدخل على الناس من الخوف من ملوك مصر ، فلا يدخلها أحد إلا بجوارهم ، واشتراط مشيئة الله سبحانه عائد إلى الدخول المكيف بالأمن على القول الثالث فى الدخول ، وأما على الأول والثانى فيجوز أيضا فيها عوده إلى الدخول المكيف بالأمن ، وآمنين حال من واو ادخلوا ، وادخلوا دليل لجواب ، أو حال من واو فى جواب محذوف ، أى إن شاءَ الله دخلتموها آمنين .

ويجوز عوده [على] مطلق دخولها ، فإنه ولو كان لا يقال قم إن شاء من حيث إن لمخاطب لا يعلم أن الله شاء ، فيمتثل القيام أو لم يشأ فلا يقوم ، لكنه يجوز أن يقال باعتبار ما يئول إليه الأمر من قيام وعدمه ، فتعلم منه مشيئة الله أو عدمها ، ولا سيما أن يعقوب يمكن له العلم بمشيئة الله ، فيجوز أن يكون المعنى ادخلوا مصر إن أذن لك الله يا يعقوب فى أن يدخلوها .

ويجوز أن يكون اللفظ اشتراطا ، والمراد التبرك ، وهو الذى ندب القرآن إليه فيما ينفذ فى المستقبل ، ومثله فى أحد الأوجه وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وقيل : راجع إلى قوله : « سوف أستغفر لكم ربى » إن شاء الله إنه هو الغفور الرحيم .

ومن طال سجنه ، وكتب : « ولما دخلوا على يوسف » إلى « هو الحكيم » وعلق ذلك على عضده الأيمن وأكثر قراءته تخلص بإذن الله .

(ورَفَعَ أبويْهِ) بعد اشتمال داره بمصر عليهما (عَلى العَرْشِ) السرير الذى كان يجلس عليه إكراما لهما (وخرّوا) أى أبواه وإخوته الأحد عشر (له سُجَّداً) بوضع الجباه على الأرض أو غيرها تعظيما له ، وكان ذلك تحية جائزة بينهم فى ذلك الزمان ، لا عبادة لمخلوق .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : جلس يعقوب عن يمينه ، وخالته عن شماله ، وإخوته بين يديه ، وسجدوا وقالوا فى سجودهم : سبحان من ألف بين يوسف وإخوته ، ولا تعظيم فوق من عظمه الله بسجود أبيه له وهو نبى ، وأى نبى ، وفى سجوده إزاحة لأنفتهم عن السجود له ، وذلك هو الظاهر عندى .

وقيل : ليس ذلك سجودا كسجود الصلاة ، بل انحناء ، وضعّف بأنه خلاف ظاهر خرورهم سجدا ، وقيل : سجدوا لله إلى جهة يوسف تعظيما له ، كما يسجد إلى الكعبة .

وعن الحسن : الهاء فى له لله ، أى وخروا لله سجدا وهو ضعيف ، وقيل : الهاء ليوسف كما مر ، لكن على معنى أنهم خروا لأجل يوسف سجدا لله وشكرا .

وأجمعوا أنه ليس السجود عبادة منهم ليوسف ، وظاهر الآية أن السجود كان بعد رفع أبويه على العرش ، فهما سجدا له على العرش ، أو نزلا ، وقيل : كان قبله ولكن قدم الرفع اهتماما بذكره .

وروى أن يعقوب قال ليوسف بعد ما أفاق : أخبرنى ما فعل بك إخوتك يا حبيبى ؟ قال : يا أبت كان ما كان ، وقص عليه قليلا من القصة فغشى عليه ، ثم أفاق فقال له : يا حبيبى أخبرنى كيف صنعوا بك ؟ قال له : يا أبت مضى ما مضى فلا تذكر تلك أيام خلت ، وقد وصل الحبيب إلى الحبيب ، فلله الحمد على ذلك .

(وقالَ يا أبتِ هذا) أى سجودكم (تأويلُ رُؤياىَ مِنْ قبلُ) متعلق برؤياى ، أو حال من رؤيــاى ، أو متعلق بمحذوف معرف ، أى لرؤياى الواقعة من قبل هذا الزمان فى وقت الصبا ، وهى رؤيته أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين له .

(قَدْ جَعَلَها ربِّى حقا) صدقا ، وبين رؤياه وتأويلها قال بعضهم : ثمانى عشرة سنة ، وقال سلمان : أربعون سنة ، وأبو صالح ، عن ابن عباس : اثنتان وعشرون ، وابن جبير ، وعكرمة ، والسدى : ست وثلاثون ، وقتادة : خمس وثلاثون ، وابن مسعود سبعون ، والفضيل بن عياض ثمانون ، وكذا قال الحسن ، قال : عمره وقت الجب سبع عشرة ، وأقام العبودية والسجن والملك ثمانين ، ومع أبيه وإخوته وأقاربه ثلاثا وعشرين ، ومات لمائة وعشرين ، وقيل لمائة وعشر .

(وقَدْ أحْســن بى) أى إلىّ ، والمعنى أوصـــل إلى النعم ، أو الباء للإلصاق (إذْ أخْرجنى من السِّجنِ) لم يذكر إخراجه مــن الجب ، مــع أن إلقاءه فى الجب أصعب مــن [دخوله] السجن ، لئلا يخجلهم بعد ما قال : « لا تثريب عليكم اليوم » ولأنه فى مقام تعديد النعم ، ونعمة الله عليه فى الإخراج من السجن أعظم منها فى الإخراج من

الجب ، لأنه أخرج مـن الجب للرق ، وأخرج من السـجن للملك ، ذكر الوجهين الثعالبى ، وزاد الخازن وجها لكنه قول هو أن دخوله الجب كان لحسد إخوته ، ودخول السجن لنزول التهمة فكان أعظم نعمة .

(وجَاء بكُم من البدْوِ) من البادية ، وكانوا أصـحاب مواش يرعونها ويأوون إلى الحضر ، وليسوا بأهل عمود يتبعون الماء والحشيش ، فلا دليل فيه على أنه يجوز أن يكون النبى بدويا ، وقيل : إن يعقوب وبنيه بدويون ، فإن صح فلا دليل فيه ، لأن أصلهم فى الحضر فارتحلوا للبدو للغنم فقد تأدبوا بأدب الحضر ، وأبقوا وطنهم فى الحضر ، أو أنه جائز فى شرعهم التبدى بعد التحضر ، وسمى خلاف الحضر بدوا لأنه تبدوا أرضه ، ويظهر فيها الشخص ، ووجه كون المجىء بهم من البدو إحسانا أن فيه إغناء عن مشقة البدو ، أو جمعا بينهم وبين يوسـف ، وقيل : البدو اسم مدينة وهو ضعيف ، والخطاب لأبويه وإخوته ومن معهم .

(مِنْ بعدِ أنْ نزغَ الشَّيطانُ) أفسد وأغرى بالشر ، من قولك : نزغ الدابة إذا نخسها لتجرى ، أو لتضرب برجلها ، أو تعض بفيها (بيْنى وبين إخْوتى) سكن ياءه غير ورش ، ونزغ الشيطان وسوسته ، وخالق الخير والشر الله .

(إنَّ ربِّى لطِيفٌ) أى لطيف تدبيره أو أن تدبيره لطيف رقيق (لما يشاءُ) أى لأجل ما يشاء ، حتى يجىء على وفق الحكمة والصواب ، لا يتعاصى عنه شىء ، فانظر كيف جمع بين يوسف وأبيه وإخوته وأقاربه بإلقائه فى الجب ، فإن ذلك أمر خفى لا يتفطن لـه أحـد ، أو اللطيف

الرفق ، وعليه فيجوز إبقاء اللام على أصلها ، وجعلها بمعنى الباء (إنَّه هو العليم) بخلقه ومصالحهم وتدبيرها (الحَكيمُ) فى صنعه ، لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة .

قال فى عرائس القرآن : قال الفضل ابن عياض : بلغنا أن يعقوب دخل مصر ورأى يوسف ومملكته ، وكان يطوف يوما فى خزانة فرأى خزانة مملوءة قراطيس فقال : يا بنى ما منعك أن تكتب من هذه القراطيس كتابا إلىَّ ؟ قال يوسف : يا أبت منعنى جبريل . فسأل يعقوب عليه السلام جبريل عن ذلك قال : منعنى ربى ، فسأل الله تعالى عن ذلك فأوحى الله إليه ، لأنك قلت : « وأخاف أن يأكله الذئب » فاستوجبت هذه العقوبة لخوفك من غيرى .

وفى رواية أن يوسف أخذ بيد يعقوب ، وطاف به خزائن الذهب والفضة ، والحلى والثياب والسلاح ، وغير ذلك ، فأدخله خزائن القراطيس ، قال يا بنى ما منعك ، أو ما أغفلك عن هذه القراطيس ، وما كتبت لى على ثمانى مراحل ؟ قال : أمرنى جبريل . قال : أو ما تسأله ؟ قال : أنت أبسط إليه منى فاسأله فسأله فقال : الله أمرنى بذلك لقولك : « وأخاف أن يأكله الذئب » فخفت غيره ، ولم تذكرنى وهو أحق أن تخافه .

وروى أن يعقوب أقام معه أربعا وعشرين سنة ، ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق ، فمضى به محمولا فى تابوت من مساج إلى الشام ، ووافق موت العيص أخى يعقوب فدفنهما فى قبر واحد ، وقد ولدا من بطن واحد ، وعمرها مائة وسبعة وأربعون سنة .

والذى سبق فى حفظى أنه قال ابن عباس رضى الله عنهما : سأل يوسف أباه أن يكون معه فى قصره على عرشه إلى أن يموت ، قال : يا يوسف ليس هذا من شأن أبيك ، ولكن اتخذ لى مسكنا من خارج القصر حتى أدخل فيه ، وأعبد الله حق عبادته ، وأوحده حق توحيده ، وأشكره حق شكره ، على ما ألف بيننا .

فقال يوسف : إذا جاء الليل فتعال بت معى حتى أشم رائحتك ، فقال : نعم وكرامة ، فأمر أن تبنى له خلوة ، فدخلها يعقوب ، يصوم النهار ويقوم الليل ، ويجاهد فى الله حق جهاده ، وأمر أيضا أن يبنى لكل واحد من إخوته قصرا إلا بنيامين فأسكنه معه فى قصره ، وكانت زليخا تتعلم العلم من يعقوب ، حتى صارت فقيهة أفضل من بمصر من رجال ونساء ، ولا مر يوم إلا زادهم الله حبا وشوقا إليه ، وترهبت زينة وزليخا ، فكلما دخل عليها يوسف وجدها مشتغلة بذكر الله ، وبقى يعقوب عليه السلام أربعين سنة يعلم أولاده وأولادهم العلم .

وقيل : وكان لكل واحد من أولاده اثنا عشر ولدا ذكورا أنبياء صالحين بوقت طيب ، وأتم سرور ، ثم أنزل الله جل جلاله جبريل على يعقوب يقول له : يرتحل إلى الأرض المقدسة عند قبور آبائه حتى يلحقه ملك الموت بها ، فقال ليوسف : يا بنى بشرنى جبريل بالارتحال إلى مجاورة ربى عز وجل . قال : يا أبت متى وعدك بقبض روحك ؟ قال : الآن ، فصاح فغشى عليه ، ورش عليه الماء فأفاق ، فقال : يا أسفى على الفراق ما أمره ، ، فودع يوسف وبنيه ، وخرج حتى وصل قبور آبائى ، فبكى عليها حتى لحقه النوم ، فرأى فى نومه إبراهيم الخليل على كرسى من جوهرة حمراء ، تضىء كالشمس ، وبيمينه إسماعيل ، وبيساره إسحاق ويقولون : الحق بنا يا يعقوب ، فإنا منتظروك .

فانتبه فرحا مسرورا ، وقام من موضعه وقال لناقتـه : ارجعى إلى يوسف وقولى له : إن أباك قـد رحل إلى ربه فرأى قبرا مفتوحـا مطيبا مزينا تفوح منه رائحة المسك الأذفر ، فنزل ملك الموت فى صورة آدمى فقال له يعقوب عليه السلام : يا عبد الله أتعلم لمن هـذا القبر ؟ قال له : نعم ، وهو لعبد كريم على ربه . قال : أتعرف ذلك العبد ؟ قال : نعم ، هو من أراد عمرانه ، فقال يعقوب عليه السلام : اللهم إننى أسألك أن تجعل هذا القبر لى ، فنودى إنى جعلته لك يا ابن إسحاق ، فتحولَ ملك الموت إلى صفته فنظر إليه يعقوب عليه السلام وقال : من أنت أيها الشخص ، فوالله لقد تضعضعت منك أركـانى ، وتقطعت منك أوصالى ، وتقلقلت منك أسنانى ؟ قال : أنا ملك الموت . فقال : مرحبا بأمر الله تعالى وقضائه ، اللهم بارك لى فى لقياك ، وهون على سكرة الموت .

قال وهب بن منبه : لما وصلت الروح صدره قال : اللهم إنى أسألك يا رب أن تهون سكرات الموت على يوسف ، ثم قال : اللهم أن تهـون علىّ سكرات الموت ، ثم قال لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، ثـم خرجت روحه .

قال كعب الأحبار رضى الله عنه : مات يعقوب عليه السلام وهـو ابن مائتى سنة ، ونزل جبريل ومكائيل فى زمرة من الملائكة يزيدون على عشرة آلاف ملك ، فغسله جبريل ومكائيل وكفناه ، وصلوا عليه ودفنوه ، وأوحى الله جل جلاله إلى جبريل عليه السلام أن انزل على عبدى يوسف ، وقل له : آجرك الله فى أبيك يعقوب ، فوصل قبل الناقة ففعل ، وقـد وكل الله سبحانه وتعالى بها ملكا فيحفظها ، ووصـلت وسلمت عليـه بالعبرانية : السلام عليك يا يوسف ، إن أباك يقرؤك السلام وهو مودعك إلى يوم القيامة .

واجتمع يوسف مع بنيه وإخوته ، فبكوا بكاء شديدا ثلاثة أيام بلياليهن وبكت الناقة لبكائهم حتى حضرتها الوفاة ، قيل : عاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين ، وقيل ستين سنة ، ولما تمت عليه النعم بالجمع بينه وبين أبيه وإخوته ، ومات أبوه ، وعلم أن ملك الدنيا لا يدوم ، وأن الأمر إذا تم زل ، تمنى الموت شوقا الى ربه وآبائه والملك الدائم فقال : (ربِّ) أى يا رب (قَدْ آتَيْتَنى مِنَ الملكِ) أى شيئا من ملك الدنيا ، وإلا فملك مصر كان قبل ذلك كله بيده ، وريان كتابع له ، وقيل : بعضا من ملك مصر ، على أن ريان لم يخرج منه بالكلية فى أربع عشرة السنين ، أو أراد بعض ملك مصر فى ما بعد الأربع عشرة ، لأنه بعدها رد الملك لريان ، لكن لا يرد أمر أراده ، وعلى كل حال من للتبعيض ، وكذا فى قوله : « من تأويل » لأنه لم يؤت إلا بعض التأويل أيضا ، والملك عبارة عن الاتساع فى المقدور لمن له السياسة والتدبير .

(وعلَّمتِنى مِنْ تأويلِ الأحادِيثِ) الكتب ، أو الرأى على ما مر (فاطرَ) صفة للمنادى فى قوله : « ربِّ قد آتيتنى » أو منادى أيضا حذف حرف النداء أيضا أى يا فاطر (السَّموات ِ والأرضِ) أى موجدهما وخالقهما ، قيل أصل الفطر الشق ، فطر ناب البعير شق وأظهر .

(أنتَ وَليِّى فى الدُّنيا والآخرةِ) أى متولى أمرى فيهما ، ومعينى وناصرى ، فأنت تصل إلىَّ منك الدنيا بملك الآخرة الدائم (توفَّنى) أمتنى الآن ، فعل دعاء على صورة الأمر مبنى على حذف الألف (مُسلماً) كما أنا ولا تختم على بكفر (وألحقْنى بالصَّالحينَ) من آبائى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، أو أراد الصالحين مطلقا ، ولم يأت عليه أسبوع حتى توفاه الله سبحانه وتعالى ، وقيل : أتم الأسبوع .

وقيل : أوحى الله جل جلاله إليه لا تموت حتى ترى ستمائة ألف من ولدك وولد ولدك ، فدعا أهل مصر للإيمان فأبوا ، فخرج هو وإخوته ومن اتصل بهم أربعين ألف رجل وامرأة غير الخدم والذرارى والنساء ، ونزلوا على عشرة فراسخ من مصر ، فأوحى الله سبحانه وتعالى لجبريل : انزل على عبدى يوسف وأمره أن يبنى حيث نزل مدينة يسميها الحرمين ، وهى الفيوم تسكنها والمؤمنون ففعل ، قيل له : أين الماء ؟ وقد بعد بفراسخ ، فدعا ربه جل جلاله ، فخرق جبريل نهرا فى الأرض من النيل إليها ، فبنوا عليها سورا عظيما وبوبوها ، وكتبوا على أبوابها هذه مدينة الحرمين بناها يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، ونصب فيها الدكاكين والأسواق ، وتحولت بركة مصر إليها ، وكان خراجها كل يوم ألف دينار ، فلذلك سميت الفيوم وذكر السيوطى أنها سميت لبنائها فى ألف يوم ، فماتت زليخا فصلى عليها وبنوها ، وبنو أبنائها .

قال كعب : لم يتزوج عليها امرأة ، وجميع أولاده منها ، وكانوا اثنى عشر ذكرا ، وقيل : ثلاثة : أفرأيتم ، وميشى جد لبوشع بن نون ، ورحمة امرأة أيوب ، ومات بعد زليخا بأربعين يوما ، طلب الموت مسلما كما طلبه أولا ، فأجاب الله حينئذ دعاءه .

قال قتادة : لم يسأل نبى من الأنبياء الموت إلا يوسف ، وكذا قال ابن عباس ، وقيل : لم يتمنه نبى قبل يوسف ، وإنما جاز له تمنى الموت وسؤاله ، لأنه تمناه وسأله مخافة فساد دينه ، كما قال صلى الله عليه وسلم فى دعائه : « وإذا أردت بالناس فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون » أى فتنة فى الدين وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر ينزل به » فقد يكون فى ضر الدنيا كالفقر والمرض خير .

بات ميمون بن مهران عند عمر بن عبد العزيز ، فرآه كثير البكاء وسؤال الموت ، فقال له : صنع الله على يديك خيرا كثيرا ، أحييت سننا ، وأمت بدعا ، وفى حياتك خير وراحة للمسلمين • قال : أفلا أكون كالعبد الصالح ، لما أقر الله عينه ، وجمع له أمره ، قال : « توفنى مسلما وألحقنى » يجوز عندى أن لا يكون ذلك من يوسف تمنيا للموت ، وسؤالا له ، بل لما علم أنه لا بد من الموت دعا الله أن يكون حال موته مسلما وهو إن شاء الله وجه قوى •

ثم رأيت القرطبى فسره فى تذكرته بذلك ، وقال : إنه المختار عند أهل التأويل ، وكذا اختاره الثعالبى ، وكلا الوجهين جائز محتمل •

وفى عرائس القرآن : يروى أنه لما حضرته الوفاة ، جمع إليه قومه من بنى إسرائيل ثمانين رجلا ، وأذن لهم فحضروا أجله ونزول أمر الله فيه ، فقالوا : يانبى الله نريد أن تعرفنا كيف تتصرف الأحوال بنا بعد خروجك من بين أظهرنا ، وإلى من نولى أمرنا أمر ديننا وملتنا ؟ قال : إن أمركم يستقيم إلى أن يبعث الله عليكم جبارا عاتيا من القبط ، يدعى الربوبية ، فيذبح أبناءكم ، ويستحى نساءكم ، ويسومكم سوء العذاب ، فيمتد ملكه ، ثم يخرج من بنى إسرائيل من ولد لاوى بن يعقوب رجل رسول اسمه موسى بن عمران ، طويل أجعد الشعر ، آدم اللون ، ينجيكم الله من أيدى القبط على يديه ، فجعل كل رجل من بنى إسرائيل يسمى ابنه عمران ، ويسمى عمران ابنه موسى •

وكان ليوسف ديك عمره مائة عام ، فقال : إنه يقوم أمركم مادام هذا الديك يصرخ فيكم ، فإذا ولد هذا الجبار سكن مدة أيامه ، وإذا ولد

موسى عاد لصراخه ، وذلك علامة انقضاء ملك الجبار ، فكان الأمر كذلك ، ولما ولد صرخ فاستبشروا وتصدقوا ، ولما حضرت يوسف الوفاة استخلف على بنى إسرائيل أخاه يهودا ، فدفن فى صندوق من رخام ، وتشاح الناس كل يحب أن يدفن فى محلتهم ، لما يرجون من بركاته حتى هموا بالقتال ، فرأوا أن يدفن فى النيل حيث يتفرق الماء ، ثم يصل إلى جميع أهل مصر يعنى أعلى النيل فوق أعمال مصر ، وكان فيه حتى حمله موسى من مصر ودفنه بكنعان خارج الحسن ، فلذلك تنقل اليهود موتاهم إلى الشام ، وقد مر قصة حمله .

وقال عكرمة : دفنوه فى الجانب الأيمن من النيل ، فأخصب وأجدب الجانب الآخر ، ودفنوه فى الجانب الأيسر ، فأخصب وأجدب الآخر ، فدفنوه فى وسطه بسلسلة ، فأخصب الجانبان سبحان من لا انقضاء لملكه .

(ذلك) الخطاب لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أى ما ذكرته لك يا محمد من أمر يوسف مع إخوته وأبويه ، والنسوة وغير ذلك مما مر فى السورة (مِنْ أنباءِ) أخبار (الغيب نوحيه إليكَ) إيحاء ، فبالوحى علمته إذ لم تكن فى زمان يوسف ، ولم تكن تقرأ الكتابة ، ولم تكن تجالس القصاصين ، ففى ذلك برهان قاطع على أنه نبى ، إذا أتى بذلك بأحسن ترتيب ، وأبين معان ، وأفصح عبارة ، وأصدق كلام ، وذلك تكذيب لمكذبيه ، ففى ذكر القصة تصديق لنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إزالة للقنوط عن أمته .

قال الطبرى عن بعض : والله ما قص الله قصة إخوة يوسف ليعيرهم

أنهم الأنبياء من أهل الجنة ، ولكن قصها علينا لئلا يقنط عبد ، وذا مبتدأ ، ومن أنباء خبر ، ونوحيه خبر ثانٍ ، ويجوز على قول الكوفيين أن يكون اسم الإشارة موصولا بالظرف ، ونوحيه خبر .

(وما كُنتَ لَدَيْهم) أى عند أولاد يعقوب (إذا أجْمعُوا أمرهُم) فى كيده أى عزموا عليه (وهُم يمكُرونَ) بيوسف بإلقائه فى الجب ، وذلك مثل قوله : « وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا » الخ « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » الخ واستغنى بنحو قوله : « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل » هذا عما ذكرت من أنه لم يجالس القصاصين ، ولا يقرأ الكتابة .

(وما أكثرُ النَّاس) على العموم أو ما أكثر أهل مكة (ولو حَرَصتَ) على إيمانهم جدا وبالغت فى إظهار لآيات (بمؤمنين) لتصميمهم على الكفر ، وعنادهم ، فليس ذكر ناقصة يوسف وإخوته مؤثرا فيهم بالإيمان .

(ومَا تَسألهُم عَلَيْه) أى على القرآن ، أو على التبليغ ، أو على الدعاء إلى الله ، أو على الأنبياء بكسر الهمزة بعد اللام (مِنْ أجر) تأخذه عنهم ، كما تأخذ حملة الأخبار والأحاديث .

(إنْ) أى ما (هُو إلا ذكرٌ للعالمينَ) تذكير ووعظ ، وحث على طلب النجاة ، سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف ، فلما أخبرهم بها على وفق ما عندهم فى التوراة ولم يسلموا ، حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » الخ .

(وكأيِّن) بمعنى كم الخبرية (مِنْ آيةٍ فى السَّموات والأرضِ) دالة على وجود الله ووحدانيته (يمرُّونَ عَليها) ويشاهدونها (وهُم عنها معْرضُون) لا يتعظون ولا يستدلون كالشمس والقمر وخسوفهما ، والنجوم وانقضاضها ، والليل والنهار ، وآثار الأمم الهالكة والجبال ، وقرىء برفع الأرض على الابتداء ، ويمرون خبر والضمير فى عليها للأرض ، أو بالعطف على كأين ، وقرأ السدى بالنصب على الاشتغال ، أى ويطئون الأرض يمرون عليها لقولك : زبيد أمررت به ، أى جاوزت زيدا مررت به ، وفى مصحف ابن مسعود والأرض يمشون عليها برفع الأرض ، أى يترددون فيها فيرون آثار الأمم المهلكة والجبال ، وغير ذلك ، وليس إعراضهم عن ذلك بأعجب من إعراضهم عنك .

(وما يؤمنُ أكثَرهم باللهِ) إذ أقروا بأنه الخالق الرازق ، والمنزل للمطر ، المنبت المنبات (إلاّ وهُم مشركونَ) بعبادة الأصنام قائلين : إنها تقربنا إلى الله زلفى ، هذه رواية عن ابن عباس ، وهى فى العرب ، وكذا قيل عن مجاهد ، وقيل عنه : إن ذلك فى أهل الكتاب معهم شرك وإيمان ، وكذا قيل عن الحسن ، وقيل : عن ابن عباس هى فيمن يشبه الله بخلقه ، وقيل عنه : هى فى تلبية مشركى العرب ، كانوا يقولون : لبيك لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع أحدهم يقول : لبيك لبيك ، لا شريك لك ، يقول له : « قط قط » أى قف هنا ، ولا تزد قولك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك .

وقال عطاء : هى فى الدعاء ، وذلك أن الكفار نسوا ربهم فى الرخاء ، وإذا أصابهم البلاء أخلصوا له الدعاء ، وقيل : هى فى المنافقين الذين

نفاقهم إسرار الشرك ، وإظهار الإيمان ، ويجوز أن يراد جميع ذلك على التوزيع ، فبعضه فى العرب ، وبعضه فى غيرهم ، ويدخل فيه قول اليهود : « عزير ابن الله » وقول النصارى : « المسيح ابن الله » وقول بعض العرب : « الملائكة بنات الله » والقول بأن الأشياء تكونت من النور والظلمة والضر إلى الأسباب ، يحملها مؤثرة بالذات ، وغير ذلك .

وإن قلت : قد اجتمع إيمان وكفر فى الإسان ؟

قلت : لا وإنما المراد أنهم ما يأتون بصيغة الإيمان إلا وقد أفسدوها بشرك ، ارتدادا عنها ، ورجوعا ، فكان شركهم ماحقا لها ، وأيضا المراد الإيمان بالله وعدم جحوده ، ومعلوم أنه لابد من الإيمان أيضا برسوله .

(أفأمنُوا أن تأتيهم غاشيةٌ) عقوبة أو نقمة تغيظهم وتغمهم كالصاعقة (مِنْ عَذاب اللهِ) من التبعيض أو البيان أو للابتداء (أو تأتيهِم السَّاعة بغتةً) فجأة من غير تقدم إعلام بها ، قال ابن عباس : تهيج الناس فى أسواقهم (وهُم لا يشْعُرُون) بإتيانها غير مستعدين لها .

(قُلْ) يا محمد (هَذهِ) أى هذه السبيل التى هى ملة الإسلام ، أو هذه الشريعة (سَبِيلى) والسبيل يؤنث كما هنا إذا جعلنا الإشارة إليه بذكر شبه الإسلام بطريق يمشى فيه ، ويوصل إلى المقصود ، لأنه يوصل إلى رضا الله وثوابه .

(أدْعُو إلى اللهِ) كل أحد ، أى إلى دين الله ، فمن هلك فإنما التفريط من قبله ، إذ لم يجبنى ، والجملة مستأنفة لا تفسير لما قبله كما

قيل : لأن السبيل المشار إليه جميع ملة الإسلام لا الدعاء إليها فقط ، نعم يجوز أن يكون تفسيرا من حيث إن الدعاء إليها مستلزم لوجودها ، وإلا لم يتصور الدعاء إليها فى الجملة ، لأن الإنسان إنما يدعو إلى ما يرتضيه فى الجملة ، أو من حيث تحميل الإشارة ، والسبيل بمعنى الدعاء إلى الدين ، ولا حال من الياء إلا على القول الفارسى من جواز مجىء الحال من المضاف إليه مطلقا ، وقد يقال إن هنا مسوغا هو أن المضاف مثل جزء المضاف إليه ، ويجوز كون الجملة حالا من سبيلى ، أو من هذه والربط ظاهر محذوف قائم مقام الضمير ، أى إلى دين الله ، ودينه هو السبيل المذكورة .

(عَلَى بَصِيرَةٍ) حجة باصرة لا عمياء ، وسميت بصيرة لأنها آلة لإبصار الحق ، أو للمبالغة فى وضوحها ، حتى كأنها باصرة ، أو هى بمعنى المبصرة بفتح الصاد أى يراه الإنسان حقا ، ويعتقده ويعلق بمحذوف حال من المستتر فى أدعو .

(أنا توكيد لضمير الاستقرار فى على بصيرة ، أو للضمير المستتر فى أدعو ، ولو وجد الفاصل لأنه وارد ، ولأن الفاصل هنا متضمن لمثل ذلك المستتر ، وأنا فاعل لقوله : « على بصيرة » لاعتمادها للظرف على ذى حـــال .

(ومَنِ اتَّبعنِى) عطف على المستتر فى أدعو أو فى على بصيرة ، لا على أنا إلا إذا جعل فاعلا للظرف ، ويجوز كون أنـــا مبتدأ ، ومَن معطوفا عليه وعلى بصيرة خبرا (وسُبْحان الله) أى وتنزهه عن الشرك تنزيها ، فالعطف على أدعو ، وقيل : مفعول لمحذوف ، والمحذوف معطوف

على قل ، أى وقل سبحان الله ، وذلك بحسب الأصل ، وإلا فالمراد قل لهم هذه الألفاظ .

(وما أنا من المشركين) وكذا من اتبعنى ، وظاهر هذا أن يقدر فى سبحان الله أنزه الله بهمزة المتكلم ، وظاهر قوله : « ومن اتبعنى » أن يقدر بالنون كما مر ، والوجهان جائزان ، لأنه متبوع فى تنزيه الله ، وعدم الإشراك ، ويجب على من آمن به أن يدعو إلى ما دعى إليه ، ويذكر بالقرآن ، والمراد بمن اتبعه أصحابه ، وهم على أحسن طريقة ، وأفضل هداية ، وهم معدن العلم ، وكنز الإيمان ، وجند الرحمن ، أبر الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، ونقل دينه ، ومن كان مستنا فليستن بهم ، فليتشبه بأخلاقهم ، أعنى من مات منهم قبل الفتنة ، أو كان على الحق بعدها .

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا) رد على من قال : « لو شاء ربنا لأنزل ملائكة » وقال ابن عباس : ذلك نفى لاستنباء النساء ، ويقال لمن ادعت النبوة : لم تزل أنبياء الله ذكرانا ، والمراد بالإرسال الجعل أنبياء ، سواء مع رسالة أو عدمها ، وما ذكرته أولا أولى من قول ابن عباس ، لأنهم لم يدعوا بنبوءة امرأة ، ويرد عليهم بذلك ، اللهم إلا أن يراد مجرد الإخبار بأن المرأة لا ترسل ، وأراد ابن عباس أن الآية تنفى نبوتها ، ولو كان المقصود بالذات فيها نفى رسالة الملك ، ويجوز أن يراد بيان خطئهم فى استهزائهم وتهكمهم فى أخت العباس ، لما رأت فى المنام ما يدل على هلاكهم فى بدر ، إذ قال بعضهم للعباس : متى حدثت هذه النبية فيكم ؟ وقد مر بيان ذلك ، ولو كان بين نزول هذه السورة وقولهم ذلك مده .

(نُوحى إليْهم) قال أبو عمرو الدانى : قرأ حفص نوحى إليهم ، هنا ، وفى النحل ، والأول من الأنبياء بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء ، وحمزة والكسائى يميلان على أصلهم انتهى .

(مِنْ أهلِ القُرى) المراد ما يشمل الأمصار ، وذلك لأنهم أعلم وأحلم من أهل البدو ، ولم يبعث الله نبيا من أهل البدو لجهلهم وجفائهم وقسوتهم ، ولا يعترض ذلك ببدو يعقوب ، لأن بدوه لم يكن فى أهل عمود ، بل باستقرار ومنازل وربوع ، بل قد بنى بيتا سكنه ، ومر كلام فى ذلك ، أو جعله بدوا بالإضافة إلى مصر .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فضيلة أهل المدائن ، أى الأمصار ، على أهل القرى كفضيلة الرجال على النساء وفضيلة أهل القرى على أهل العمود كفضيلة الرجال على النساء ، وأهل الكفور كأهل القبور » فقيل : ما الكفور ؟ فقال : « البيت بعد البيت » وقال : « ما من ثلاثة يكونون فى قرية البدو ولا يجْمعون للصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان ، وإنما يأخذ الذئب من الغنم القاصية » وقال : « الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأتى الشاة القاصية ، عليكم بالمساجد والجماعة والعامة ، وإياكم والشعاب » .

وكان معاذ على بعض أهل الشام فجاءه ناس من أهل البادية فقالوا له : قد شقت الإقامة ، فلد بدأت بنا ، فقال لعمرى لابداء لكم قبل الحاضرة أهل العبادة وأهل المساجد ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « عليهم تتنزل السكينة ، وإليهم يأتى الخير ، وبهم يبدأ يوم القيامة » قال والخير الوحى ، ولا نبى من الجن بعد خلق آدم ،

وأما قبله فقيل : كانت الجن تعمر الأرض وأنبياءهم منهم لا من النساء ، وفى نبوءة بعض النساء خلاف أذكره فى سورة القصص إن شاء الله ، والتبدى مكروه إلا فى الفتن والهروب بالدين ، فلا يكره بل يستحب ، وإن تحقق فساد الدين بعدمه وجب ، وهذا كله مع إبقاء وطنه فى الحضر .

(أفلمَ يسيرُوا فى الأرضِ فينظُرُوا كَيفَ كانَ عاقبةُ الذينَ من قَبْلهم) من المكذبين ، وهى هلاكهم وخراب دورهم ، فإنما آخر أمرهم وآخر الشىء يسمى عاقبة ، فهلا تركوا التكذيب مخافة أن يكون ذلك عاقبتهم ، أو أراد بالذين من قبلهم المبالغون فى حب الدنيا ، كانت عاقبتهم ذلك ، فهلا انقلعوا عن حب الدنيا لئلا يكون عاقبتهم ذلك ، ولما صدق واحد فإن التكذيب مترتب على حب الدنيا .

(ولدارُ الآخرةِ) أى ولدار المدة الأخيرة ، أو لدار النشأة الأخيرة ، أو لدار الحالة الأخيرة ، أو لدار الساعة الأخيرة ، ولدار الحياة الأخيرة ، أو نحو ذلك ، فحذف الموصوف وأضيف الدار للصفة ، وأراد بالدار الجنة ، وبالآخرة ما ذكر من زمان أو نشأة أو حياة أو حالة ، وقال الكوفيون ذلك ذلك إضافة موصوف لصفة ، والأصل الدار الآخرة ، حذفت أل وأضيفت دار للآخرة ، ولزم إضافة الشىء إلى نفسه وهو غير متصور ، وما وأهم صورة التأويل هنا ما ذكرته أولا ، أو يجعل ذلك من إضافة العام للخاص كشجره .

(خيرٌ للذينَ اتقَوْا) خافوا الله وحذروا معصيته والإشراك به (أفلا تعقلُونَ) أنها خير فتؤمنوا ، استعمل تعقل بمعنى تعلم ، لأن العلم بالعقل ، والمعنى أفلا تستعملون عقولكم فتعلموا أنها خير فتؤمنوا ،

والخطاب مجرى على ما يقتضيه قوله سبحانه وتعالى : « قُلْ هذه سَبِيلى » فإنه إذا قال لهم خاطبهم فكأنه قال : قل لهم أفلا تعقلون ، وذلك قراءة نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب ، وقرأ غيرهم أفلا يعقلون بالمثناة التحتية جريا على ما يقتضيه قوله عز وجل : « أفلم يسيروا » .

(حتَّى إذا اسْتيأسَ) أى ضجروا ضجرا شديدا من طول تأخير النصر شبيها بالإياس ، وحاشاهم أن ييأسوا من شىء وعده الله لهم ، وهذا لا يتصور ممن صدق إيمانه فضلا عن نبى ، أو المراد ما يحدث فى النفس وتعاند به من القنوط ، مع أنك غير جازم به ، ولا مساعد لها ، وهم بشر وحتى للابتداء ، وليست إلا ابتدائية خارجة عن الغاية بالكلية كما قد يتوهم ، فإن معناها كمعنى فاء السببية ، والتسبب غاية من حيث أنه ارتباط ، وأن استيئاسهم مسبب عن تراخى النصر ، وليست جارة لإذا على الصحيح ولا متعلقة ، ومن أطلق أنها متعلقة كالزمخشرى ، فمراده التعلق المعنوى ، فإن معناها مع ما بعدها متعلق لمحذوف ، ومرتبط به أى لا يغرر قومك يا محمد تمادى إياهم ، فإن من قبلهم أمهلوا وتراخى نصر الله الرسل عليهم حتى إذا استيأس الرسل عن النصر عليهم ، أو عن إيمانهم لعدم ما يكفيهم عن الكفر ، ووجود مقتضياتهم من كونهم غالبين ومترفهين .

(وظنُّوا) أى أيقن الرسل (أنهم قَدْ كُذِبوا) أى أنهم قد كذبهم قومهم إلى الأبد ، لا تكذيبا يرجى له الإيمان كما أشار إليه قتادة ، فالضمائر كلها للرسل ، أو الظن بمعنى عدم اليقين رجحانا أو شكا ، فالمكذبون على هذا بكسر الذال هم المؤمنون ، أى وظن الرسل من غير قطع أنهم قد كذبهم من آمن بهم لرؤيته تغلب الكفرة ، وعدم النصر ،

وشدة المحنة عليهم كما قال عروة بن الزبير ، والضمائر أيضا للرسل ، وليس هذا الظن بالمؤمنين الذى بمعنى الرجحان مؤاخذا عليه لأنه يجىء مثلا فى نفوس الرسل ضرورة ، وذلك قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبى عمرو ، وابن عامر بالبناء للمفعول والتشديد ، وكذا تقرأ عائشة ، وقرأ الباقون بتخفيف الذال والبناء للمفعول ، أى كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم لا ينصرون بتخفيف ذال كذبتهم ، أى لم تخبرهم بصدق ، والضمائر أيضا للرسل ، وهكذا إذا قلنا كذبهم رجاؤهم بالتخفيف ، أى لم يطابق لهم النصر ، وهكذا إذا قلنا كذبهم قومهم بالتخفيف ، أى لم يخبرهم قومهم بصدق أى وعدوا لهم الإيمان مطلقا ، أو على شرط الإتيان بآية .

وإن قلنا : إن المعنى ظن القوم أن رسلهم قد كذبوا بالتخفيف ، أى لم يخبرهم بصدق من أمرهم بدعاء الخلق إلى الله ، أو بمجىء الوعيد والنصر على عدم إجابة الخلق لهم قالوا وفى ظنوا للمرسل إليهم بفتح السين ، وفى أنه وفى كذبوا للرسل ، فكأنه قيل : ظن القوم أن رسلهم قد أخلفهم الله أو جبريل الوعد تعالى الله وجبريل عن ذلك .

وعن ابن عباس : أن الرسل ظنوا أن الله أو جبريل أخلفهم الوعد ، فإن صح عنه هذا فمعنى ظنهم ما تحدث به النفس على طريق الوسوسة ، والإنسان كاره له ناف ، وهى تعاند به كما روى عنه أنه قال : إن الرسل بشر يعنى تحدثهم أنفسهم كما تحدث غيرهم نفسه ، أو المراد بظنهم التمثيل لشدة تأخير النصر .

ويدل له ما روى عنه أنه قال ذلك ، وتلا : « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » فبأحد التأولين تتنزه الرسل عن ظن

خلف الوعد ، وابن عباس عن رميهم بذلك حاشاه ، وقال ابن الأنبارى : ذلك كذب عن ابن عباس اﻫ .

وعلى صحته عنه بأحد التأويلين ، فالضمائر كلها للرسل ، ويجوز أن يكون المعنى أن القوم ظنوا أنهم قد كذبهم الرسل بالدعوة والوعيد ، فالضمائر للمرسل إليهم ، لأن كذبوا مبنى للمفعول مخفف ، وفاعله قبل قبل البناء للمفعول وهو الرسل لإعادة الضمير الأول ، والثالث للمرسل ، والثانى للرسل خلافا لمن غلط لبقاء الخبر ، بل رابط .

ويجوز أن يكون المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كذبهم من وعدهم النصر من قومهم المؤمنين ، أو مطلقا بالتخفيف ، أى لم يخبروهم بصدق فى وعدهم ، ولم ينجزوهم الوعد ، وقرأ مجاهد : كذبوا بفتح الذال والتخفيف ، فهو مبنى للفاعل ، وعليه فالمعنى أن القوم ظنوا أن الرسل كاذبون فيما قالوا ، إذ لم يروا له أثرا ، فالضمير الأول للمرسل إليهم ، والآخران للرسل ، وهو من كذب اللازم ، أو المعنى أن القوم ظنوا أن الرسل قد كذبوهم بالتخفيف ، أى لم يخبروهم بصدق ، فالأول للمرسل إليهم ، والآخران للرسل أيضا ، وهو من كذب المتعدى ، ومفعوله محذوف مقدر كما رأيت .

ويجوز أن يكون المعنى ظن الرسل أنهم كاذبون فى قولهم ، ومعنى ظنهم الكذب فى أنفسهم أن نفوسهم توسوس لهم ، إنما أخبرتموهم به كذب أو التمثيل لشدة تأخير النصر ، والضمائر للرسل ، وكذب لازم وإن قلت : كيف جاز عود الضمير للقوم المرسل إليهم ، والمذكور إنما هو الرسل معلومين من ذكر الرسل ، قد ذكروا فى قوله : « كيف كان عاقبة الذين » .

(جاءهم) أى جاء الرسل (نَصْرنا) فجأة من غير احتساب ، والنصر بعذاب المكذبين وإهلاكهم (فَنُجِّى) وقرأ ابن عامر ، وعاصم ويعقوب ، فنجى بنون واحدة مضمومة ، وبكسر الجيم ، وفتح الياء ، فيكون فعلا ماضيا مبنى للمفعول مشدد الجيم ، وقرىء ننجى بنونين مضمومة ، والثانية مفتوحة ، وكسر الجيم مشددة ، وإسكان الباء ، وقرأ ابن محيصن فنجا بماض مبنى للفاعل (مَنْ نَشاء) وهم الرسل والمؤمنون ، ولم يصرح بهم لظهور أنهم هم الأهل للتنجية ، ولتبيين ذلك بقوله :

(ولا يُردُّ بأسنا) أى عذابنا (عَن القوْمِ المجْرمينَ) وهم غير الرسل والمؤمنين ، لا يرد أحد بأس الله عز وجل عنهم إذ جاءهم .

(لقدَ كانَ فى قَصَصهم) أى قصص الرسل وأممهم فى السورة هذه وغيرها من القرآن ، والذى فى هذه السورة بالتفصيل هو قصة الرسل يوسف وإخوته ، وقيل : الضمير ليوسف وإخوته ، ويقوى الأول قراءة بعضهم فى قصصهم بكسر القاف على أنه جمع قصة ، فإن يوسف له قصة واحدة هى ما ذكر فى هذه السورة ، ولكن لا يتعين ذلك لجواز أن يسمى كل قطعة منها قصة .

(عِبرةٌ) أى اعتبار وتذكر واتعاظ (لأولى الألْباب) أصحاب العقول السالمة عما يصدها عن الله سبحانه وتعالى ، فيعلم من ذلك القصص صدق محمد ، وأن الله قادر على إعزازه وتغليبه ، كما فعل بيوسف بعد مدة طويلة ، ولا يخفى أن قصة يوسف مذكورة فى أوائل السورة بأنها أحسن القصص ، وأن فيها آيات للسائلين ، وفى أواخرها بأن فيها أو فيها وفى غيرها عبرة لأولى الألباب .

(ما كانَ) أى القرآن سواء قرىء قصصهم بكسر القاف أو فتحها ، وإذا كان بالفتح جاز وجه آخر وهو رد ضمير كان إليه ، فإن القصص بالفتح مفرد كما يعلم من أوائل السورة (حَدِيثا) كلاما (يُفْترى) يؤتى به كذبا .

(ولكنْ تَصْدِيق) خبر لكان محذوفة ، أى ولكن كان تصديق ، وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى ولكن هو تصديق (الَّذِى بين يَدَيه) أى ما بين يديه من كتب التوراة والإنجيل والزبور وغير ذلك ، ومعنى كون تلك الكتب بين يديه أنها موجودة حال نزوله لا مفقودة ستوجد ، ولو غيروا بعضها ، والعبرة بما بقى غير مغير ، وبكونها كما هى ، قيل : التغيير الذى المراد به جنس كتب الله ، والهاء لما عاد إليه ضمير كان ، ومعنى كونه تصديقا للكتب السابقة أنه موافق لها ، ولو خالفها لكان أحق باسم تكذيبها ، إذ خالفها ، إذ كان يقول فى قصة بكذا ، وتقول هى فى نفس تلك القصة بخلافه ، أو تصديق بمعنى مصدق بفتح الدال .

(وتفْصِيلَ كلِّ شىءٍ) يحتاج إليه فى الدين من حلال وحرام ، وحكم وقصة ، وموعظة ومثل ، ووعد ووعيد وغير ذلك ، بعض ذلك بتصريح ، وبعض بتلويح ، وهذا إذا رجَّعنا الضمير فى كان للقرآن ، وإن رجعناه للقصص فمعنى كونه تفصيل لكل شىء أنه تفصيل لكل شىء محتاج إليه فى الاقتصاص ، ورجع الضمير للقرآن نسب بما ذكر ويقوله :

(وهُدًى) لأن كون القرآن هدى من الضلال إلى الصواب ، ومن الخبر إلى الشر أظهر من كون القصة كذلك ، ولو كانت القصة تفيد

ذلك أيضا (ورحْمةً) ينال بها خير الدارين (لقوم يؤمنُون) خصهم بالذكر ، لأنهم المنتفعون ، ولأنهم الذين يهدون ويرحمون بالفعل ، لا بالإمكان والقوة فقط .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

وبهذا تم تفسير

[سورة يوسف]

والله الحمد والمنّة

ســورة الرعــد

مكية عند الحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، ورواه طلحة ومجاهد عن ابن عباس ، وكذا قال على بن أبى طلحة ، ومدنية عند جابر بن زيد ، ورواه عطاء الخراسانى ، والعوف ، عن ابن عباس ، ومجاهد ، عن ابن ابن الزبير ، وبعض عن قتادة •

والذى يجمع بين القولين أنها مكية الآيات منها ، فأطلق بعض أنها مكية لما رأى فيها مما يناسب مكة ، ولم يتفطن لما فيها مما يناسب المدينة وعكس بعضهم كذا ظهر لى •

روى أبو عوانة ، عن أبى اليسر : سألت سعيد بن جبير عن قوله : « ومن عنده علم الكتاب » أهو عبد الله بن سلام ؟ فقال : كيف وهذه السورة مكية •

وقال جندب : جاء عبد الله بن سلام حتى أخذ بعضادتى باب المسجد ، قال : أنشدكم بالله يا قومى ، أتعلمون أنى الذى أنزلت فيه : « ومن عنده علم الكتاب » ؟ قالوا : اللهم نعم •

وذكر الطبرانى وغيره عن أنس : أن قوله : « إن الله يعلم ما تحمل كل أنثى » إلى « شديد المحال » نزل فى قصة أربد بن قيس وعامر بن الطفيل ، حين قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم •

وعن قتادة : سورة الرعد مدنية إلا : « ولا يزال الذين كفروا »

الآية ، وعن ابن عباس : مدنية إلا : « ولو أن قرآنا » الآيتين ، وقيل مدنية : « إلا هو الذى يريكم البرق » إلى « دعوة الحق » .

وروى أبو صالح ، عن ابن عباس : أنها مكية إلا قوله : « ولا يزال الذين كفروا » الآية ، وقوله : « ويقول الذين كفروا لست مرسـلا » الآية ، وقيل : مكية إلا قوله : « الله يعلم » إلى « شديد المحال » وقوله : « ويقول الذين كفروا لست » إلى آخرها .

وقيل : مكية إلا : « ويقول الذين كفروا » الآية ، والظاهر أن المدنى فيها كثير ، وآيها أربعون مع ثلاث أو أربع أو خمس أو ست اقوال ، والأول للكوفيين ، وكلمها ثمانمائة وخمس وخمسون ، وحروفها ثلاثـة آلاف وخمسمائة وستة أحرف .

قال صلى الله عليه وسلم : « من قرأ الرعد أعطى مـن الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى ، وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة » وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله تعالى .

قالوا : تكتب فى صحيفة كبيرة جديدة ، وتمحى بماء المطر ، وتكون الكتابة فى ليلة مظلمة كثيرة الرعد والبرق والمطر ، ويرش ماؤها فى باب المتولى الظالم فى تلك الليلة فى حينه ، فإذا خرج من داره لم يرجع إليه إلا معزولا ، ومن كتبها فى ليلة مظلمة بعد صلاة العشاة الأخيرة على ضوء نار ، وجعلها من ساعة على باب سلطان جائر أو ظالم ، قام عليه عسكره ورعيته ، ولا يسمع له كلام ، ويعصى أمره ويضيق صدره .

والتيقن صفة من صفات العلم ، وفوق المعرفة والدراية وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك .

(وهُوَ الَّذِى مدَّ) بسط (الأرضَ) على الماء مـن تحت البيت الحرام طولا وعرضا لينتفع عليها ، سواء قلنا : إنها سطحية وهو الصحيح الظاهر ، أو كورية الشكل كما قال أصحاب الهيئة ، لأنها ولو كـانت كورية لكنها لم تكن ممتدة إلى فوق امتدادا كليا كالسارية ، فذلك مدها ، ولأن كل قطعة منها تشاهد ممدودة لعظمها ، كما أن نحو البيضة تشاهده الأشياء الصغيرة كما لقملة ممدودا قيل : وكان موضع البيت على الماء قبل الأرض الأرض بألف سنة ، ثم بسط الأرض من تحته ، وعليه عطاء ومجاهد ، وقال الحسن : بسطت من تحت موضع بيت المقدس .

(وجَعَلَ فيها رَوَاسِىَ) جبالا ثوابت من رسا الشىء أى ثبت ، جمع راسٍ كقاض بلا تاء ، لأن فاعلا صفة لغير عاقل يجمع على فواعل ، ولو مذكر مجردا من التاء ، هذا ما ظهر لى ، ولا حاجة إلى قول القاضى إنه جمع راسية ، وإن التاء فى راسية للتأنيث على أنه صـفة أجبل أو للمبالغة انتهى . وهذا تكلف منه يتوصل به إلى أن رواسى جمع لمؤنث وهو جماعة راسية من الجبال ، والأولى أن يقول صفة جبالا ، لأن الأولى فى جمع القلة لغير العاقل المطابقة ، وأجبل جمع قلة ، فالأولى بـه أجبل راسيات ، وهذا لا يتمكن به إلى مراده ، لأن رواسى لا يكون جمع راسيات ، ولذا عدل عنه إلى راسية ، ولكن الأولى له أن يقول جبال ، وأول جبل وضع على الأرض أبو قبيس قاله ابن عباس رضى الله عنهما .

(وأنْـهاراً) من ماء لمنافع الخلق ، قيل : الجبال أسباب لتولد الأنهار ، ولذلك عطفها على الجبال ، وسلط عليهما فعلا واحدا وهو الجعل (ومِنْ كلِّ الثَّمرات) متعلق بقوله : (جَعَلَ فِيهـا زوْجَيْن اثْنين) كحلو وحامض ، وأسود وأبيض ، وصغير وكبير ، وماله قشر ومالا قشر له ، أو ماله نوى وما لا نوى له ، ونحو ذلك ، قال بعضهم : أهبط الله من الجنة ثلاثين ثمرة عشرة يؤكل داخلها وخارجها ، وعشرة يؤكل خارجها لا داخلها ، وعشرة [يؤكل] داخلها لا خارجها ، والمراد بالزوجين الاثنين لا نوعان من كل ، ثم تكاثرت وتنوعت ، ويجوز كون من كل الثمرات نعتا لمحذوف ومعطوف ، أى وشيئا من كل أجناس التمر وما بعده مستأنفا .

(يغْشِى الليلَ النَّهار) أى يجعل الله سبحانه الليل غاشيا للنهار ، فيصير الجو والأماكن مظلمة بعد ما كانت مضيئة ، وقرأ حمزة ، والكسائى ، وأبو بكر بفتح العين وتشديد الشين ، فعلى الأول تعدى لاثنين بالهمزة ، وعلى الثانى بالتضعيف .

(إنَّ فى ذلكَ) المذكور (لآياتٍ) دليل على وحدانية الله تعـالى (لقومٍ يتفكَّرونَ) فى صنع الله ، فإن وجدها مع إمكان عدمها ، وكونها صغيرة مع إمكان كبرها ، وكبيرة مع إمكان صغيرها ، وفى مكانها مع إمكان كونها فى مكان آخر ، وفى وقت مع إمكان كونها فى وقت آخر ، وكون هذا فوق هذا مع إمكان العكس ونحو ذلك ، مع أن الشىء لا يوجد نفسه ، ولا يؤثر فى نفسه ، ولو أمكن تأثير بعضه فى بعضه الآخر دليل على أن لها موجدا حكيما يتصرف بها كما تقتضيه حكمته .

والفكر هو تصرف قلب الإنسان ، أو الجنى فى طلب ما تحصل له

صورة فى القلب ، فلا فكر فى الله تعالى ، إذ لا يدركه أحد بصورة ، حاشاه ، فمعنى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تتفكروا فى الخالق لا تطاوع النفس والشيطان فى ادعائهما » إمكان التفكر فيه ، فإنه غير ممكن ، وإن شئت فقل الفكر قوة يفضى بها للعلم ، أى للمعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل ، أعنى بالمعلوم ما من شأنه أن يعلم فلا فكر فى الله ، فإن الفكر فيه مغلوب عن الكفر .

وإن شئت فقل : الفكر إعمال النظر فى الشىء ، وإن شئت فقل : التأمل ، وإن شئت فقل : انتقال النفس من بعض المعقولات إلى بعض ، وهذان على أنه بمعنى التفكر ، وقال السدى : يطلق الكفر على حركة النفس فى المعقولات ، أى حركة كانت ، ويختص بالإنسان ، أى والجنى ، ويقابله التخيل وهو حركتها فى المحسات ، وعلى حركتها من المطلب الذى تردد فى ثبوته ، كحدوث العالم إلى مبادئه كتغير العالم وحركتها من مبادئه إليه جازمة به ، يعنى يطلق على مجموع هاتين الحركتين الأخيرتين ، قال : ويطلق على الحركة الأولى منهما من غير أن توجد الثانية انتهى .

وقال فى بعض كتبه : إنه يطلق أيضا على الحركة الثانية انتهى .

وإن شئت فقل : الفكر ترتيب أمور معلومة ليتوصل بها إلى مجهول ، وقال المتقدمون : هو مجموع حركة من المطلوب المشعور به بوجه المبادىء ، وحركة منها إلى المطلوب المجهول بوجه .

(وفى الأرْض قِطع") من الأرض ، وهذه الظرفية ظرفية عام لخاص ، كقولك فى الأيام : أيام قصار ، ولك أن تجعل فى بمعنى من

(مُتجاورات") متلاصقات ، ومع تجاورها واتحاد جنسها ووضعها ، قد اختلفت طبائعها وألوانها ، فمنها طيبة تنبت ، وسبخة لا تنبت ، وصلبة ، ورخوة ، وبيضاء ، وحمراء ، وسوداء ، وصفراء ، وصالحة للزرع دون الشجر ، وصالحة للشجر دون الزرع ، وصالحة لنوع من الزررع دون الآخر ، أو لنوع من الشجر دون الآخر ، وصالحة للكل ، ولولا تخصيص قادر لاشتركت القطع فى اللون والطبيعة ، فيكون تأثير الماء والهواء والحرارة والبرودة فيهن على حد سواء ، وذلك قول مجاهد •

وقال قتادة : القطع المتجاورة القرى ، والأول أصح وأوضح عبرة ، وهو قول ابن عباس ، وفى بعض المصاحف : وفى الأرض قطعا متجاورات بالنصب ، أى وجعل فى الأرض إلى آخره •

(وجنّات") أى بساتين سميت لأنها تجن الأرض أى تسترها بأشجارها (مِنْ أعْنابٍ) جمع عنب بمعنى شجرة العنب ، فالعنب يطلق على نفس هذه الشجرة ، وعلى ثمرها (وزَرع") أفرد لأنه فى الأصل مصدر ، فبقى بعد خروجه عن معنى المصدرية على صلاحيته القليل والكثير (ونَخيل") جمع نخلة كعبد وعبيد ، وقيل : فيما وازنهما أنه اسم جمع ، وقال ابن مالك : ما ذكر من ذلك فهو جمع تكسير ، وما أنث فاسم جمع ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ويعقوب ، وحفص برفع زرع ونخيل عطفا على جنات ، وما بعد هذا تابع له على القراءتين فى إعرابه •

(صِنْوان") قال البراء ابن عازب : الصنوان المجتمع ، يعنى أن يجمعهن أصل واحد ، والمنفرد صنو (وغيرُ صِنوانٍ) أى مفترقات الأصول ، وقرأ حفص بضم الصادين وهو لغة تميم ، وقيس ، والكسر

لغة الحجازيين ، وخص على الصنوان لأنها بمثابة القطع فى التجاوز ، تظهر فيها غرابة اختلاف الأكل ، بل هى أغرب من القطع لاتحاد الأصل وقد يصلق الصنو على المقارنين مطلقا ، قال صلى الله عليه وسلم : « العم صنو الأب » وقال فى عمه العباس رضى الله عنه : « إنه صنو أبى »

(تُسْقَىَ) أى الجنات وما فيها وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، ويعقوب بالمثناة التحتية أى يسقى ما ذكر (بماءٍ واحدٍ) ماء السماء ، وكل ماء فى الأرض فمن السماء ، وكله عذب وملوحة ، بعضه للوحة مجراه ، وعن ابن مسعود : كل النخيل ينبت فى مستنقع الماء إلا العجوة فمن الجنة ، والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نامٍ ، وقيل : جوهر سيَّال به قوام الأرواح والألوان له ، ويتلون بلون الإناء أو لونه بياض أو سواد أقوال .

(ونُفضّل بعضَها على بعضٍ فى الأكلِ) بضم الهمزة وهو المأكول وهو الثمار فبعضها كبير من بعض ، وبعضها أحلى من بعض ، وبعضها أشد رائحة ، وبعضها قوى ، فاختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب من ماء وغيره دليل على أن لها مخصصا قادرا مريدا أخرج الترمذى ، وحسنه الحاكم وصححه عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » قال الدقل ، والفارسى : الحلو والحامض ، قال الترمذى : هو غريب ، وتضمنت الآية مثالا للمؤمن والكافر ، أصلهما واحد وهو آدم ، أو الطينة صاروا أفرادا كالقطع والوحى واحد ، آمن بعض وكفر بعض ، ورق قلب وقسا قلب .

قال الحسن : والله ما جالس أحد القرآن إلا قام بزيادة ونقص ، قال الله تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد

الظالمين إلا خسارا » وقرأ حمزة والكسائى : يفصل بالتحتية ليطـابق يدبر ، وقرئ فى الأكل بضم الهمزة والكاف .

(إنَّ فى ذلكَ) المذكور (لآياتٍ لقومٍ يعْقلونَ) يعلمون بعقولهم إذا استعملوها أن صانع ذلك قادر على إحياء الموتى .

(وإنْ تَعْجبْ) يا محمد من تكذيبهم إياك بعد أن سموك الصادق الأمين ، وعرفوك بالصدق والأمانة ، أو من إنكارهم البعث مع إقرارهم بأن الخالق الله ، وقد تقرر فى النفوس أن البدء أصعب من الإعادة ، ولو كانا سواء عند الله تعالى وأمراً هيناً .

(فعَجبٌ) خبر مقدم (قَولُهم) أى قول قومك المنكرين للبعث مبتدأ ، أى فقولهم عجب أى حقيق بأن تتعجب منه ، لاتضاح دلائل رسالتك ، ودلائل البعث من إخبارك إياهم بالغيوب بلا دراسة كتب ، ولا سماع ولا مشاهدة ، وإجراء معجزة على يديك ، ومن إنشاء السموات ورفعها ، والأرض والعرش ، وما فى ذلك ، والقطع المتجاورات ، والزرع والشجر ، والثمرات المختلفة ، مع اتحاد الماء ، وكون الكل من التراب ، فإن إنشاء ذلك فى النفوس أصعب من إعادة ميت بعد إنشائه ، وإماتته ، ودليل على كمال العلم والقدرة فى كل شىء ، والإشكال فى ذلك .

فإن المراد إن أعجبك واقع موقعه وصادف [محله] ولم يكن تعجبا مما لا يتعجب منه كقولك : إن تعجبت من قيام زيد فقيامه عجب ، أى فتعجبك صادف محل التعجب ، وعلى قبول الأشياء التى تمد منها بقدرته أشياء أخرى لأنواع تصرفاته ، وقيل : إن تعجب من اتخاذهم ما لا يضر

ولا ينفع آلهة مع إقرارهم بأن الخالق الرازق النافع الضار الله ، فقولهم حقيق بأن تتعجب منـــه ، كأنه قيل : إن تعجب مـــن ذلك فليس الأمر العجيب منهم ببدع ، فإن قولهم بإنكار البعث عجب عظيم ، والعجب على كل حال مصروف إلى المخلوق ، لأنه حـــالة تعرض للإنسان عنـــد الجهل بسبب الشىء ، والله سبحانه لا يخفى عنه شىء ويطلق العجب على نفس الأمر المستبعد فى العادة وعلى نفس الأمر الذى لا يعرف له سبب ، وقال بعض شراح الهمزية : هو الأمر المستغرب الخارج عن قياس المعقول .

(أئِذَا) بتحقيق الهمزة الأولى وهى للاستفهام الإنكارى ، وتسهيل الثانية بلا إدخال ألف بينهما ، أو بإدخالها ، أو بتحقيق الهمزتين بـــلا إدخالها أو به ، وكذا فى قوله : « أئنا » وقرىء بهمزة واحدة مكسورة هنا ، وبالهمزتين فى قوله : « أئنا » وقرىء بالعكس ، وجواب إذا محذوف دل عليه « أئنا لفى خلق جديد » وإذا وشرطها وجوابها ودليله بدل من القول ، أو بيان له أنه بمعنى المقول ، ومفعول به على أنه باق على المعنى المصدرى وقوله : « أئنا لفى خلق جديد » فى نية التقديم عـــلى إذا ، ويقدر الجواب منه مقرونا بالفاء بدون استفهام أو به ، أو يقدر مضارعا من البعث .

(كُنَّا تُرَاباً أئنا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ) بالبعث غير الخلق الأول (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم) أى بقدرته على البعث ، أى هؤلاء البعداء عن مظان الخير هم الكاملون فى الكفر بالبعث (أُولَئِكَ الأَغْلَالُ فى أعناقِهِم) أى ثابتة فى أعناقهم يوم القيامة ، وهذا الوصف الذى قدرت للاستقبال ، ويقدر المضارع أى تثبيت فى أعناقهم ، أو يقدر الوصف أو المضارع للحال ، ويقدر الماضى تنزيلا للمستقبل منزلـــة الحـــاضر الواقع لتحقق

الوقوع ، وتهويلا للأمـر ، وذلك عبارة عن خـذلانهم وإصرارهم ، أى لا يتخلصون من الكفر إلى الإيمان ، كما لا يجد المغلول التصرف ، وهذا باختيارهم الكفر المانع للهدى ، أو عبارة عن ذلهم يوم القيامة ، وكناية عنه سواء اعتبرته قبل تقييدهم فى ذلك اليوم بالأغلال وبعده ، والغل طوق من حديد يجعل فى العنق ، وتضم إليه اليد أو اليدان ، أو فى اليدين أو نحو ذلك .

(وأولئكَ أصْحاب النارِ هـُم فيها خالِدُون) ولا حصر فى قوله : « هم فيها خالدون » لعدم تعريف الطرفين ونحوه من مقيدات الحصر ، فضلاً عن أن يقال : إن فى الآية دليلا على اختصاص المشركين بالخلود ، كما زعم بعض ، وليس هم ضمير فصل على الصحيح لعدم المعرفة بعده ، بل ولا قباله ، لأن الكلام مستأنف منه فإنه مبتدأ خبره خالدون ، نعم لو أسقطه فيكون خالدون خبراً ثانيا لأولئك ، فصح الكلام ولكن جىء به لتأكيد وصـفهم بالخلود لا للحصر ، ولو سـلمنا الحصر لـزم نفى الخلود عن أهل الكتاب ، لأن الآية عند ذلك القائل فى منكرى البعث ، وأما أولئك أصحاب النار فصيغت حصر ، لكن حصرها إضافى لظهور أن النار لا تختص بمنكرى البعث .

(ويسْتعجلونكَ بالسَّيئةِ) أى بالفعلة السيئة المضرة (قَبْلَ الحسَنة) أى قبل الفعلـة الحسنة النافعة ، أى يكتفون بالسيئة عـن الحسنة فى الطلب ، وذلك أنه استعجلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هددهم به مـن عذاب الدنيا والآخرة عموما وخصوصا ، كقولهم « ربنا عجل لنا قِطَّنا قبل يوم الحساب » وقولهم : « اللهم إن كان

هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » وقولهم : « فأسقط علينا كسفا من السماء » •

(وقَدْ خَلَت) مضت (من قبلهم) فى الأمم السالفة المكذبة (المثلاتُ) جمع مثله بفتح فضم ، وهى العقوبة ، سميت بذلك لأنها مثل السيئة المعاقب عليها ، ومنه سمى القصاص مثالا ، وأمثلة الرجل من صاحبه إذا قصصته منه ، قال الله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » وقرأ مجاهد بفتح الميم والتاء جمع مثلة بفتحها أيضا ، وقرىء بضمهما اتباعا للفاء العين ، وقرىء بضم الميم وإسكان التاء تخفيفا من ضمهما بعد الاتباع أو بالنقل شذوذا وقرىء بضم الميم وفتح التاء جمع مثل بضم ففتح ، الذى هو جمع مثلة بضم فإسكان ، أو جمع مثلة بضم فإسكان على غير قياس ، وقرىء بفتح الميم وإسكان التاء تخفيفا عن الضم فى القراءة المشهورة ، والمعنى لم كانوا مستجعلين العذاب ولم يخافوا أن ينزل عليهم مع أنه قد نزل على المكذبين قبلهم •

(وإنَّ ربكَ لذو مغْفرةٍ للناس) مسامحة (على ظُلمهم) أى مع ظلمهم لأنفسهم وغيرها ، أو لأنفسهم بعد التوبة كما تدل عليه الآى الأخرى ، ولا يقال : إن التائب لا يصدق عليه أنه على ظلم ، لأنا نقول معنى كونه على ظلم أنه صادر منه ، ولأنه ولو تاب لكن ليست توبته بمخرجة له عن عقاب الظلم ووباله ، حتى تقبل وقبولها هو الغفران ، فالغفران وارد على ما لم يخرج عنه ، لأن مجرد توبته ليست خروجا عنه ما لم تقبل ، فلا دليل فى الآية على جواز مغفرة الكبيرة بلا توبة •

ومن باب ما ذكرته قول ابن عباس : إن المعنى إن ربك لذو تجاوز

عن المشركين إذا آمنوا ، ولا دليل أيضا فى الآية على ذلك الاحتمال ، أن يكون المراد بالمغفرة الإمهال والستر كقوله : « ولو يعجل الله للنـاس الشر » الآية ، وقوله : « لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب » وقوله : « ما ترك على ظهرها من دابة » والاحتمال أن يكون المراد مغفرة الصغار فإنها تغفر ولو بلا توبة من فاعلها المجتنب للكبائر والاصرار .

وإن قلت : كيف تسمى الصغيرة ظلما ؟

قلت : ليس شيئا من الذنوب غير ظلم للنفس صغيرا أو كبيرا فى الحقيقة ، ولا غير ظلم لحق الله ، أى قدح فيه ، ونقص منه ، وتهاون به ، وإنما يفرق بين الذنب الصغير والكبير فى كتب الفقه لابتناء أحكام عـلى أحدهما لا تبتنى على الآخر .

وزعم الضحاك أن الظلم الشرك ، وأن ذلك منسوخ بقوله عز وجل : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » وعلى ظلمهم متعلق بمحذوف حال مـن الناس ، وعامله مغفرة لأن الناس مفعول لمغفرة توصل إليه بلام الجر ، وعلى بمعنى مع كما علمت ، وذكره ابن هشام ، ويجوز كونها بمعنى اللام الداخلة على الناس ، أو كون اللام للاستعلاء مع على ، فيكون على ظلمهم بدل اشتمال من قوله للناس .

(وإنَّ ربَّكَ لشديدُ العقابِ) لمن لم يتب عن ظلمه مـن مشرك ومنافق ، وقد شاء بحكمته أن لا يغفر لغير التائب ولو كان موحدا ، وأن يشدد عقابه ، قال سعيد بن المسيب : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا عفو الله ومغفرته لما هنأ أحدا عيش ولولا وعيده

وعقابه لاتكل كل أحد » ورووا عن ابن عباس : ليس فى القرآن أرجى من هذه الآية .

(ويقول الذين كفروا لولا) هلا وهى حرف توبيخ وتنديم ، وإن جعلناها حرف تحضيض كان الماضى بعدها للاستقبال كالمضارع (أنزل عليه) على محمد (آية من ربه) كعصى موسى ويده ، وناقة صالح ، وإحياء الموتى كعيسى ، ونزول الملك ، وكالكنز ، لم يعتدوا بالآيات التى أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينزل الله شيئا مما اقترحوه ، لأن عادة الله مع الأمم أنه إذا أنزل شيئا عظيما اقترحوه فلم يؤمنوا أهلكم بصاعقة أو صيحة أو غيرهما ، وقد سبق فى علمه أن لا يهلك هذه الأمة بنحو ذلك ، ولأن اقتراحهم الآيات عناد لاسترشاد ، قال الله سبحانه :

(قال إنما أنت منذر) مخوف لهم من سوء عاقبة ما هم عليه ، وما عليك أن تأتيهم بما اقترحوه من الآيات (ولكل قوم) أى أمة (هاد) نبى يدعوهم إلى دين الله بوجه من الدعاء إليه ، وبآيات مخصوصة على ما اقتضت الحكمة ، ومن جنس ما يغلب عليهم ، فأنت وآياتك ، وكل نبى وآياته ، والآيات كلها سواء فى قيام الحجة ، وصحة الدعوى ، فليست ببدع فى دعائك ، وذلك على قول الحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، ومجاهد ، وقال ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك ، والنخعى ، ومجاهد فى رواية عنه : الهادى الله أى لكل قوم قادر على هدايتهم وهو الله سبحانه ، فيهدى من يشاء بالآيات ، ويضل من يشاء على اختيار من الجميع ، واكتساب منهم ، أو لكل قوم قادر على جبرهم على الإيمان ، وهو الله

تعالى ، لو شاء لكنه تعالى اقتضت حكمته أن لا يجبر أحدا على خير ولا على شر .

وقال عكرمة فى رواية عنه ، وأبو الضحى : الهادى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، فالمراد بكل قوم الأقوام من أمته ، وهاد معطوف على منذر ، ولكل متعلق بهاد أو لا تعلق اللام لأنها للتقوية ، أى إنما أنت منذر وهاد لكل قوم ، بخلاف القولين السابقين ، وما يأتى من الأقوال ، فإن هاد فيهن مبتدأ خبره لكل .

وقال أبو العالية : الهادى العمل الصالح ، أى لكل قوم عمل صالح موصل لهم إلى رضا الله وجنته لو شاءوا أن يعملوه .

وقال أبو صالح : الهادى العائد لخير أو شر ، أى لكل قوم من يصير إلى الخير ، ومن يصير إلى الشر ، ليسوا كلهم على خير أو شر ، وكل ما اختار لنفسه فأنتم وما اخترتم ، والأصح ما فسرت به الآية أولا ، ثم ثم القول الثانى ، ويؤيده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا منذر والله هو الهادى » والوقف على هاد بإسكان الدال ، وكذا وال وواقٍ وباقٍ ، ووقف ابن كثير فيهن بالياء وإسقاط التنوين ، وهكـذا حيث وقعت الأربعة .

(الله يعْلَم ما تحمِل كلُّ أنثى) ما موصول اسمى ، أى يعلم ما تحمله الأنثى قبل أن تحمله فى حال الحمل على أى حال من أحواله الحاضرة والمترقبة ، كذكورة وأنوثة ، وتمام ونقصان ، وحسن وقبح ،

وطول وقصر ، وبياض وسواد ، أو موصول حرفى أى يعلم حمل كل أنثى .

(وما تَغيضُ الأرْحامُ وما تزْدادُ) ما فى الموضعين موصول اسمى ، أى وما تنقصه وما تزداده من عدد الولد وجسده ، فإنه يكون عظيما وغير عظيم ، ومدة الولادة والدم ، فإنه يقل ويكثر ، وأدخل بعضهم عدد الولد فى قوله : « ما تحمل كل أنثى » أو موصول حرفى ، أى وغيض الأرحام وازديادها ، والغيض النقص ، يستعمل متعديا كقوله تعالى : « وغيض الماء » فالماء مفعول به ناب عن الفاعل ، ولازما نحو : غاض الماء ، أى نقص بنفسه ، وكذا ازداد يكون مطاوع زاد المتعدى لاثنين ، فيتعدى لواحد ، أو يكون موافق المجرد المتعدى لواحد فيتعدى لواحد نحو : « وازدادوا تسعا » ويكون مطاوع المتعدى لواحد فيكون لازما ، إذ يكون موافقا لزاد اللازم فيكون لازما ، وإذا جعلتهما لازمين تعين كون ما فى الموضعين موصولا حرفيا .

إسناد الغيض والازدياد للأرحام مجاز عقلى فإنهما لله أو للولد ، إلا إذا فسرا بنقص الدم وازدياده ، فإسنادهما إلى الأرحام حقيقة ، والدال الأولى من تزداد بدل التاء ، ووزنه تفتعل ، وأصله تزتيد ، قلبت دالا ثم الياء ألفا لتحركها بعد فتح .

وقيل : غيض الأرحام حيض الحامل ، فإنه نقصان من الدم من داخل لخارج ، ويلزم منه نقصان الولد ، لأنه غذاؤه ، وازديادها بقاء الدم فيها بعد مجيئه إليها من عروق الحامل ، أو من حيث شاء الله ، فلزم ازدياد الولد لوفور غذائه ، وذلك قول الجمهور .

وقيل : إذا حاضت فى وقت الحمل نقص الغذاء وازدادت مدة الحمل حتى يستكمل تسعة أشهر ، وإن زادت على التسعة فالنقص فى الغذاء والزيادة تمام الحمل ، ولعل هذا مذهب عكرمة ، وقال الضحاك : غيض الرحم أن تسقط الولد والزيادة أن تضعه لمدة كاملة ونحوه عن قتادة ، وقال الحسن : الغيض النقص عن تسعة أشهر ، والزيـادة زيادتها على التسعة ، وأقل ما يوضع الولد إليه ، ويعيش تمام ستة أشهر وخروجهن لا مع التمام ، وأكثره سنتان عند أهل العراق ، وأبى عبيدة ، مسلم ، وسفيان الثورى ، وأهل الرأى ، وأبى حنيفة ، وعائشة .

قال أبو يعقوب يوسف بن خلفون : ذكروا عن الضحاك بن مزاحم ، وهرم بن حيان أنهما ولدا على سنتين سنتين ، وقال محمد بن عبد الله ابن الحكم : أكثره سنة ، وقال مالك ، والشافعى ، وجماعة : أربع سنين ، قال حماد بن أبى سلمة : سمى هرم بن حيان هرما لأنه بقى فى بطن أمه أربع سنين .

وروى عن مالك أن أكثره خمس سنين لما بلغه أن امرأة ابن عجلان ولدت على خمس سنين ، وقيل : لا حد لذلك ، قال الزهرى : تحمل المرأة ست سنين وسبع سنين ، ويكون الولد محشوشا ، فى بطنها ، وقد روى أن امرأة ولدت لعشرين سنة ، وذلك نادر جدا ، ومرجع ذلك أنه لا حد لأكثر عدد الولد فى البطن ، فقد ولدت امرأة أربعة من بطن ، وأخرى خمسة ، وأخرى سبعة ، وأخرى اثنى عشر ، وأخرى سبعة عشر ، وأخرى أربعين .

قال الشافعى : جالست شيخا فى اليمن لأستفيد منه ، فإذا بخمسة كهول قبلوا رأسه ودخلوا الخباء ، ثم بخمسة شبان ففعلوا كذلك ، ثم

بخمسة ممنحطين ، ثم بخمسة أحداث ، فسألته عنهم فقال : كلهم أولادى وكل خمسة فى بطن ، وأمهم واحدة ، يجيئون كل يوم يسلمون على ويزورونها وخمسة أخرى فى المهد .

ويقال : إن امرأة ولدت اثنى عشر فى بطن واحد ، فرفع أمرها للسلطان فطلبها وأولادها ، ولما ردهم عليها إلا واحد لم تعلم به حتى خرجت من القصر صاحت صيحة ارتج منها حيطان القصر ، فقيل لها فى ذلك فقالت : فُقد ولد من أولادى ، فقيل : أليس لك فى هؤلاء الأحد عشر كفاية ؟ قالت : والله ما صحت أنا وإنما صاحت الأحشاء التى ربوا فيها .

وقال الماوردى : أخبرنى رجل ورد علىّ من اليمن ، وكان من أهل الفضل والدين ، أن امرأة باليمن وضعت حملا كرشا فظن أن لا ولد فيه ، فألقى فى الطريق ، ولما طلعت عليه الشمس حمى فانشق عن سبعة ذكور عاشوا ، وكانوا خلقا سويا ، إلا أن فى أعضائهم قصرا وصارعت رجلا منهم فصرعنى ، فكنت أعير باليمن ، ويقال : أنت صرعك سُبْع رجل .

وحكى القاضى حسين : أن واحدا من السلاطين ببغداد تلد امرأته الإناث ، فحملت مرة فقال لها : إن ولدْت أنثى قتلتك ، فلما قرب ولادتها دعت الله تعالى فولدت أربعين ذكرا كل منهم كالأصبع وركبوا فرسانا مع أبيهم فى سوق بغداد .

والآية دليل على كمال قدرة الله تعالى ، فلو شاء إنزال ما اقترحوه أو هدايتهم لم يعجزه شىء عن ذلك ومن كتبها إلى « المتعال » فى خرقة خضراء بزعفران وماء ورد خالص ، ثم يبخر الخرقة بزعفران وعود وعنبر ،

ويجعلها فى حق ويغطيها بحيث لا يراه أحد ولا شمس ولا قمر ، فإذا كانت ليلة الأربعاء بعد صلاة العشاء الآخرة فليأخذ مضجعه وليقل يا عالم بخفيات الأمور ، يا من هو على كل شيء قدير أطلعنى على كل ما أريد إنك على كل شيء قدير ، ثم يذكر الله تعالى حتى ينام فإنه يأتيه ليلة الجمعة من يخبره بما فى بطن الحامل أو موضع الدفين أو الخبيئة أو متى يقدم الغائب ، أو متى يبرأ المريض ، وما أشبه ذلك ، والكتابة صبيحة الثلاثاء قبل طلوع الشمس مع صوم يوم الاثنين فى تطهر وتعطر ومبيت ليلة الثلاثاء على طهارة .

(وكلُّ شيءٍ عِنْدَهُ بمقْدارٍ) كمية وكيفية ، وزمان ومكان ، وسبب لا يزيد ولا ينقص ، ولا يقدم و يؤخر و يبدل .

(عالمُ الغَيْبِ) ما غاب عن الحق لعدم حضوره عندهم ، أو لعدم وجوده بأن سيوجد ، أو وجد وأعدم ، وقيل : الغيب المعدوم ، وقيل : السر والشهادة ما شاهده الخلق بحاسة من حواسهم ، وقيل : الموجود ، وقيل : العلانية (الكَبيرُ) العظيم الشأن الذى لا يخرج عن علمه شيء ، الذى كل شيء دونه ، المستحق لصفات الكمال ، المنزه عن صفات الخلق ، وكل كبير كبره نسبى إلا الله تعالى فكبره حقيقى .

(المتعال) أى العالى عن الخلق وصفاتهم ، وكل نقص ، والعالى بالقهر ، وزيادة التاء والألف فيه للمبالغة لا للعلاج والاكتساب تعالى عنهما ، والياء محذوفة وصلا ووقفا ، فتسكن اللام وقفا وأثبتها ابن كثير وصلا ووقفا .

(سواءٌ منكم مَنْ أسرَّ القَولَ) أخفاه فى نفسه (ومَنْ جَهَرَ به) أظهره لغيره (ومَنْ هُو مُسْتخفٍ) مستتر ، ولام الكلمة محذوف هو ياء يقدر عليها الرفع والسين والتاء للطلب (بالليل) أى تتوصل إلى الخفاء بظلمة الليل ، أو الباء بمعنى فى .

(وساربٌ) بازر من سرب سروبا إذا ذهب فى سربه بالفتح ، أى فى طريقه ظاهرا أو من سرب سروربا إذا ظهر (بالنَّهار) أى بضوء النهار ، أو الباء بمعنى فى كل ذلك سواء فى علم الله سبحانه وتعالى ، وسارب معطوف على من الأخيرة أو على مستخف ، وعلى هذا فمن واقعة على اثنين روعى لفظها فى قوله : « هو » وقيل : السارب لغة متصرف كيف يشاء ، وعن ابن قتيبة : السارب المتصرف فى حوائجه ، وقال الكلبى : المراد المستخفى بعمل الذنوب فى الليل ، والمظهر لعملها فى النهار .

وعن ابن عباس : المراد المستخفى بالليل لعمل ريبة ، والظاهر فى بالنهار خاليا عنها يرى الناس أنه برىء منها ، وقيل : المستخفى المظهر من قولك : أخفيت الشىء إذا أزلت خفاءه ، والسارب داخل السرب بفتح السين والراء وهو الحفير فى الأرض .

(لهُ) أى للمذكور من مسر وجاهر ، ومستخف وسارب ، أو للإنسان (معقِّباتٌ) جماعات معقبات ، فهو جمع معقبة ، ولذلك جمع بألف وتاء ، مع أن المراد الملائكة ، أو هو جمع معقبة بتاء المبالغة والكثرة ، كراوية لكثير الرواية ، أو جمع معقب شذوذا وهو من عقبه بالشديد للمبالغة بمعنى جاء عقبه ، أو التشديد لكثرة المعقب عليه ، ولأن الأصل معتقبات ، نقلت فتحة التاء للعين ، وأبدلت قافا وأدغمت فى القاف ، وذلك أن

الملائكة يجيء بعضها عقب بعض لحفظ ابن آدم ، أو أنه يعقبون كلامه وفعله بالكتابة .

قال صلى الله عليه وسلم : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون عند صلاة الصبح وعند صلاة العصر فيسألهم ربهم وهو أعلم كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » .

وروى « أن مع كل آدمى ملكين : ملك عن يمينه وملك عن شمالــه إذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين فى حينه عشرا ، وإذا عمل سيئة قــال لصاحب الشمال وهو أمين عليه : لا تكتبها حتى تمضى ساعات لعله يستغفر ، وإذا مضت ولم يتب فاكتبها واحدة » وقرىء معــاقب جمع معقب أو معقبة بالتاء على توجيهها المذكور ، والبــاء فى الجمع عوض عن إحــدى القافين .

(مِنْ بَين يَديه ومن خَلْفه) عبر بالجهتين عن تعميم الجهات ، وفى مصحف أبى ورقيب من خلفه ، وعن ابن عباس ورقباء من خلفه .

(يحْفظونَه مِنْ أمر اللهِ) من بمعنى الباء ، وقد قرأ بالباء : على ، وابن عباس ، وزيد بن على ، وجعفر بن محمد ، وعكرمــة أى يحفظونه عما يضره ، أو يحفظونه عمله بإذن الله ، فإن لكل آدمى ملكين يكتبان عمله ، وملكا آخذا بناصيته إذا تواضع لله عز وجل رفعه بها ، وإذا تكبر وضعه بها ، وملكا موكلا بعينيه يحفظهما من الأذى ، وملكا موكلا بفيه ، ولا يدع شيئا يدخل فيه من الهوام وغيرها ، وكذا لا يدع ما يضره بجسده كلمــا أراده شىء قــال : إليك حتى يأتى القــدر .

وعن بعض الصحابة : ملك يحفظه عما لم يقدر لـــه ، وملك يحفظ عمله ، وعن الحسن : المعقبات ملكان بالليل وملكان بالنهار ، قال كعب الأحبار رضى الله عنه : لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم لتخطفكم الجن .

وقيل له : معقبات مما قدم من عمل ، ومما أخر يحفظونه من بأس الله إذا أذنب بأن يطلبوا له المهلة والمغفرة ، فمِنْ على أصلها ، وكذا إذا فسرنا أمر الله بالمضار فإنه تكون مِنْ على أصلها ، ومعنى حفظه منها وهى أمر الله حفظه منها وهى مخلوقة لله تعالى فى الجملة ، وليس المراد أن الله جل وعلا يوجهها إليه فتصرفها الملائكة إذ هذا محال لا طاقة به ، وقيل : من للتعليل ، أى يحفظونه من أجل أمر الله لهم بحفظه ، وتحتمل هذا المعنى قراءة الباء ، وقيل : من أمر الله نعت ثان لمعقبات ، والأول من بين يديه .

وقال عكرمة : المعقبات حرس السلطان يحفظونه عن المضـــار التى هى أمر من أمور الله ، أو يحفظونه من قضاء الله فيما توهم ، أو قيل ذلك تهكما به ، والسابق إلى فهمى أول مرة أن الهاء فى له عـــائدة إلى الله سبحانه وتعالى ، وفيما بعد ذلك للإنسان المذكور بالإسرار أو الجهر ، والاستخفـــاء والسروب ، ثـــم رأيته قـــولا لفرقة .

وعن ابن عباس : الهاءات لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حراس من الرحمن ، من بين يديه ومن خلفه ، يحفظونه من الجن والإنس وغيرهما .

وقال عبد الرحمن بن زيد كذلك ، وقال : إنها نزلت فى حفظة عن

عامر بن الطفيل ، وأربد بن ربيعة ، لقنهما الله إذا أرادا به غدرا ، وفيه نقص بعد ، وإنما الأولى فى مثل ذلك أن يقال : نزلت بسبب قصة كذا وأن المعنى على العموم والسابق فى حفظى أن الذى نزل فيهما هو قوله تعالى : « هو الذى يريكم البرق » إلى قوله : « دعوة الحق » .

(إنَّ الله لا يغيِّر ما بقومٍ) أى ما فى قوم مـن العافية والنعمـة (حتَّى يـُغيروا ما بأنفسِهِم) أى ما فيهم من الأحوال الجميلة بالمعاصى ، وهذا فى الموحد ظاهر ، وأما فى غيره فوجهه أن المشرك قد تصدر عنه أحوال جميلة كالعدل بين الخلق ، والرحمة والصدقة ، وإذا تركوهـا أو أكثروا الفواحش أو أعظموها كوصف الله بأنه إنما يكون من نحو حديد أو رصاص أو نحاس ، وكإرادة الغدر بالنبى أزيلت عنهم النعم بعد استدراجهم بها ، وأن العقل داع إلى الأحوال الجميلة ، فإذا غيروها بترك اتباعها زالت عنهم النعم ، وإن دين الله كالشىء الثابت فيهم ، ولو لم يؤمنوا به لظهوره كالشـمس ، فإذا غـيروه بالإعراض عنـه زالت .

(وإذا أرادَ الله بقوم سُوءًا) هلاكا وما دونه (فـَلا مرادَّ له) أى فلا راد له من المعقبات ، ولا من غيرها ، والمراد مصدر ميمى ، والجملة جواب إذا ، أو الجواب محذوف أى أصابهم بالجملة دليل عليه وفاؤهـا للتعليل .

(ومَا لهم مِنْ دُونه) من دون الله ، أو من دون السوء (مِنْ) صلة للتأكيد ومجرورها مبتدأ ، والخبر لهم أو فـاعل لقوله : « لهم » لاعتماد على النفى (والٍ) أحد يلى أمرهم بالنصر ودفع السوء .

(هُو الذِى يـُريكم البرْقَ) النور من خلال السـحاب ، خلقـه

الله علامة للمطر ، وقيل : سوط من نار يسوق به الملك السحاب ويزجره ، وروى من نور ، أو قيل : نار تخرج من تضارب الماء ، كما تخرج من حافر الدابة مع الحجر ، وقيل : ملك يظهر للحلق ، وقيل لمحة يلمحها الملك الموكل بالسحاب إلى الأرض ، وقيل : مخراق حديد يسوق به السحاب .

(خَوفا وطَمعا) حال من الكاف على المبالغة فى خوفهم وطمعهم ، كأنهم نفس الخوف من إيذاء البرق وإيذاء الصواعق ويخافونها ، أو المطر إذ يخاف منه المسافر ومن ثماره فى الأنذر ، أو تتضرر غلته بالمطر ، أو لا تخصب أرضه إن أمطرت ، فإن من الأرضين ما هو كذلك ، ولا تحتاج للمطر كأرض مصر ، المطر فى غير أوانه ، ونحو ذلك ، وكأنهم نفس الطمع فى نفع البرق وهو المطر لمن له فيه نفع لا ضر ، أو حال من الكاف على تقدير مضاف ، أى ذوى خوف وطمع ، أو على التأويل باسم الفاعل ، أى خائفين وطامعين ، أو باسم المفعول أى مخوفين ومطمعين على ضعف ، لأنهما مصدران من الثلاثى ، واسم المفعول المقدر من الرباعى .

وإن جعلا اسمى مصدر هو الإخافة والإطماع ، وجعلا بمعنى مخيفين ومطمعين ففيه تكلف بتأويلين ، أو حال من البرق مبالغة كأنه نفس المخرق والطمع ، أو بتقدير مضاف ، أى ذا خوف وطمع ، وإنما أضيف للخوف والطمع ، لأنهما ولو كانا للناس لكنهما بسببه أو بتأويلهما باسم مفعول الثلاثى ، أى مخوفا منه بضم الخاء وإسكان الواو ، ومطموعا فيه ، أو حال من المستتر فى يرى على أنهما اسما مصدر بتقدير مضاف ، أى ذا إخافة وذا إطماع أو بتأويل باسم الفاعل من الرباعى ، أى مخوفا بكسر الواو مشددة أو مخيفا بإسكان الياء ومطمعا ، وفى ذلك تكلف

بتأويلين ، أو مفعول لأجله على التأويل باسم المصدر ، أى لأجل الإخافة والأطماع من لم يشترط اتحاد فاعل المفعول لأجله ، وفاعل عامله أجاز كون ذلك مفعولا لأجله بلا تأويل باسم المصدر ، فإن الإراءة فعل الله تعالى ، والخوف والطمع فعلان للخلق .

وقال ابن مالك : إنه مفعول لأجله ولو على اشتراط الاتحاد ، إذا المعنى يجعلكم ترون البرق خوفا وطمعا ، قلت : يلزم عليه أن هذه الرؤية الثلاثية لم تكن فى لفظ الكلام ، ولم تكن شيئا محذوفا مقدرا ، بل المذكور يرى الرباعى ، وبه تعلقت الأحكام النحوية ، وأنهم ليسوا يرونه ليخافوا ويطمعوا ، بل يريهم الله ليخافوا ويطمعوا ، ثم رأيت الصبان رد عليه بذلك ، ويجوز كونه مفعولا مطلقا لحال محذوفة ، أى خائفين أو تخافون خوفا أو طامعين أو تطمعون طمعا ، وهذه الحال من الكاف .

(ويُنشىء) يوجد (السَّحابَ) اسم جمع واحدة سحابة ، ولذلك وصف بالجمع ويطلق أيضا على الواحد فيكون اسم جنس ، وهو الغنم فيه ماء ، أو لم يكن ، قال على : هو غربال الماء اشتكت الأرض الله تعالى من ماء الطوفان إذ نزل بلا كيل ولا زن ، فخددها وخدشها ، فأوحى الله إليها أنه لا ينزل بعد إلا مغربلا موزونا ، فخلق السحاب غربالا لها ، قيل : هو ثمر شجرة فى الجنة ، وقيل : السحاب مركب من أجزاء حللتها الشمس من أرض وماء لطيفة ، فتداخل ، فالأجزاء الأرضية تسمى دخانا والمائية بخـارا فتدافع ، وفوقها الزمهرير ، وقيل : رغوة البحر الأكبر الضاربة لها أمواجه الملقية لها على الساحل ، الحاملة لها الريح ، بعـد جفافها إلى الجو الخالق الله المطر فيهـا ، وقيل المطر من السـماء إلى السحاب ، ومن السحاب إلى الأرض ، قيل : من السحاب ، وسمى سماء

لعلوه ، وقيل : هو ماء السيل تحمله الملائكة للسحاب ، وقيل : مـن ثمار الجنة تتشقق فيخرج نها ، وقيل : سمى لانسحابه فى الهواء ، أو لأن الريح تسحبه ، أو لأنه يسحب الماء والسحب الجر .

(الثِّقالَ) بالماء جمع ثقيلة ، سحابة ثقيلة ، وسحاب ثقال ، ولا يمطر من السحاب إلا ما استوى .

(ويُسبِّح الرعدُ) ينزه ذلك الصوت الذى تسمعونه الله عما لا يليق به (بحَمْده) أى يفعل التسبيح بالحمد ، فإنه إذا قال : الحمد لله فقد أثنى على الله بصفات الكمال وهى منافية لما لا يليق ، فالباء على أصله ، والتسبيح بالحمد ، كما تقول : عظمته بكلام كذا ، والباء متعلق بسبح ، ولا يعد فى تسبيح ذلك الصوت « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » ولا يقال : إن الصوت عرض ، والعرض غير فاعل ، لأنا لا نسلم أنـه عرض بدليل أنه يهد الأشياء ، ويصدع الحائط ونحوه .

ويجوز أن يراد ويسبح الماء بالحمد عند تضاربه بذلك الصوت ، فأسند التسبيح المرعد الذى هو ذلك الصوت مبالغة ، كما تقول : جد جده ، ويجوز أن يكون معنى تسبيح الرعد أو الماء بالحمد دلالته على كمـال صفات الله جل جلاله من وحدانية وقدرة وفضل ، ونزول رحمة .

ويجوز أن يكون المسبح سامعو الرعد ، وحذف المضاف ، وقيل : الرعد ملك موكل بالسحاب .

قال ابن عباس : سأل اليهودى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرعد فقال : « ملك موكل بالسحاب معه مخاريق من نار » أى آلات منها ،

وفى رواية : « سوط من نار يسوق بها السحاب » أى كما يسوق الإبل حاديها قالوا : فما هذا الصوت ؟ قال : « زجره السحاب حيث شاء الله » وقيل ذلك تضارب الماء .

وعن الكلبى : الرعد ملك وتسبيحه ذلك الصوت المسموع ، ويجمع به السحاب ويسـوقه حيث أمر ، وقيل : ذلك الصوت كلامه للسـحاب يزجره به ، وعلى هذا فإفراده بالذكر عن سائر الملائكة بعده تشريف له .

وعن الحسن : الرعد خلق من خلق الله ، ليس بملك ، روى أن ملك الروم كتب إلى معاوية يسأله عن الرعد والبرق والمجرة ، وهى ما يُرى فى الليل سطرا فى السماء أبيض ، كأنه نجوم صغار ، وعن القوس ، وبذر كل شىء ، ومن لا أب له ، ومن لا قوم له ، وعن مكان طلعت فيه الشمس مرة واحدة ، وما سار مرة واحدة ، فكتب بها إلى ابن عباس .

فقال ابن عباس : أما الرعد فهو ملك موكل بالسحاب يؤلف بعضه إلى بعض ، وأما البرق فهو مخاريق بأيدى الملائكة ، وأما المجرة فهى باب من أبواب السماء وأما القوس فجعله الله أمانا لأهل الأرض من الغرق ، وأما بذر كل شىء هو الماء ، وأما من لا أب له فهو عيسى بن مريم ، وأما من لا قوم له فهو آدم عليه السلام ، وأما مكان طلعت فيه الشمس مرة واحدة ثم لم تطلع فيه فهو البحر ، إذ صار طريقا لبنى إسرائيل ، وأما ما سار مرة فهو الطور إذ رفعه الله فوق بنى إسرائيل ، فأرسل بها معاوية إلى ملك الروم ، فأرسل إليه إنك لست بصاحب هذه المسائل ، إن صاحبها نبى من الأنبياء ، أو وصى نبى أو من أهل بيت نبى .

(وقيل : إن الرعد ريح منخرق فى الجو ، مصوت بذلك الصوت

لشدة انخراقه ، وقيل : اصطكاك أجرام السحاب ، وهو قول لا عمل عليه ، لأنه للفلاسفة ، وقيل فى القوس : إنه انعكاس شعاع الشمس فى الماء الذى فى السحاب ، وقيل فى المجرة : إنها كواكب صغار متقاربة جدا تسمى بأم النجوم ، لاجتماع النجوم فيها ، ولتقاربها طمست ، وترى أول الليل تنشىء فى ناحية من السماء ، وصيفا أول الليل فى وسطها من الشمال للجنوب فى نفس الأمر ، وبالنسبة إليها يدور دورا قويا ويرى نصف الليل من المشرق للمغرب وفى آخره من الجنوب للشمال ، يصير ما هو شمالى جنوبيا وما هو جنوبى شماليا .

وقيل : إن المجرّة طرائق قوم لوط ، وعن جابر بن عبد الله عنه صلى الله عليه وسلم : « أن ملكا بيده محراق موكل بالسحاب يلم القاصية ويلحم الرابية إذا رفع برقت ، وإذا زجر رعدت ، وإذا ضرب صعقت » وذكر بعضهم أن الرعد ملك موكل بالسحاب يكون الماء كله فى نقرة إبهامه ، وأن السحاب بخار ذلك الماء يسبح الله ، وإذا سبح لم يبق ملك فى السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فحينئذ ينزل المطر قال :

(والملائكةُ مِنْ خِيفَته) أى لنوع عظيم من خوف الله تعالى ، وليس الخوف للملائكة فقط كما قيل ، بل للرعد ولهم ، فمن للتعليل والخيفة للهيئة ، كجلس جلسة بكسر الجيم ، والهاء لله ، ولفظ الملائكة على العموم وهو الصحيح ، وقيل : المراد الملائكة الذين هم أعوان الملك الموكل بالسحاب ، وقيل : الهاء للرعد ، فالخوف للملائكة غير الرعد ، ويجوز أن يكون المراد فى الآية كل من التسبيح والحمد على حدة بأن تجعل الباء بمعنى مع ، وتعلق بتسبيح ، أو المحذوف حالا ، أى يسبح الرعد ملتبسا بحمد الله ، أو يسبح سامعوه ملتبسين بالحمد ،

ومعنى التباسهم أو التباسه بالحمد أنهم يحمدون عقب الفراغ من التسبيح ، فالحال مقارنة تنزيلا للقريب المتصل منزلة الموجود حال التسبيح ، وإن شئت فقل : مقدرة ، وذلك أنه يقول أو يقولون : سبحان الله ، والحمد لله .

قال ابن أبى زكريا : من قال إذا سمع الرعد : سبحان الله وبحمـده لم تصبه صاعقة ، وفى رواية سبحان ربى وبحمده ، وعن أبى هريرة ، أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد قال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده » .

قال ابن عباس : من سمع الرعد فقال : سبحان الذى سبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شىء قدير ، فإن إصابته صاعقة ، فعلى ديته ذكره داودى ، وكان عبـد الله بن عمر إذا سمع الرعـد ترك الحديث وقال : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، وكـان يقول : إن الوعيـد لأهل الأرض شـديد .

وعنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الرعد أو الصواعق قال : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافينا قبل ذلك » وفى بعض الأخبار أن الله تعالى يقول : لو أن عبادى أطاعونى لسقيتهم المطر بالليل ، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولم أسمعهم صوت الرعد ، وعنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا رأى سحابا ترك العمل وقال : « اللهم إنى أعوذ بك من شرك » .

(ويُرسلُ الصَّواعقَ) جمع صاعقة وهى الواقعة الشديدة مـن صوت الرعد ، تكون فيها قطعة نار فى بعض الأحيان ، يقال : إنها مـن المخراق الذى بيد ملك السحاب .

قال الحسن : إن الملك يزجر السحاب بسوط من نار ، وربما انقطع السوط وهو الصاعقة انتهى .

وقيل : صوت شديد ينزل من الجو ، ثم تكون فيه النار أو العذاب أو الموت ، وهى شىء واحد تنشىء منها الثلاثة ، وقيل : قطعة نار تخرج من فم الملك عند غضبه إذا خالفته سحابة وصاح بها ، فإذا اشتد غضبه طارت النار من فمه .

وقال عمرو ، عن الكلبى : الصاعقة نار بينها وبين السماء حجاب دقيق ، وهى التى خلق منها إبليس ، وبينها وبين الأرض حجاب دقيق ، وإذا أراد الله إنزال صاعقة خرقت ذلك الحجاب ، وزعمت المتصوفة أن الرعد صعقات الملائكة ، والبرق زفرات أفئدتهم ، والمطر بكاؤهم .

(فيُصيبُ بها مَنْ يشاءُ) قال الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس : أقبل عامر بن الطفيل ، وأربد بن ربيعة أخو لبيد ، وهما من بنى عامر ، يريدان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى مسجده مع نفر من أصحابه ، فدخلا المسجد ، فاستشرفوا لجمال عامر ، وكان من أجمل الناس ، وكان أعور ، وقال رجل : يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل أقبل نحوك ، قال : « دعه فإن يرد الله به خيرا يهده » فأقبل حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا محمد مالى إن أسلمت ؟ قال : « لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم » قال : أتجعل الأمر لى بعدك ؟ قال : « ليس ذلك لى إنما ذلك إلى الله يجعله حيث شاء » قال : فتجعلنى على الوبر وأنت على المدر ؟ قال : لا . قال : فما تجعل لى ؟ قال : أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها . قال : ليس لى ذلك اليوم .

وفى رواية قال له أيضا : اجعلنى على الرجال وأنت على الخيل ، ولما قال : لك ما للمسلمين قال : أكون كسلمان وعمار وابن مسعود وفقراء أصحابك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إن شئت قال : فواللات والعزى لأملأنها عليك خيلا ورجالا ، فخرجا للحشد عليه فأصيب .

وروى أنه قال له : « أجعل لك أعنة الخيل تعدو عليها » بالدال قال ابن عباس : لو قبلها لساد بها قومه آخر الدهر .

ولما أيس الخبيث مما يطلب قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قم معى أكلمك ؟ فقام معه ، وقد أوصى إلى أربد إذا رأيتنى أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف ، فجعل عامر يخاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويراجعه فدار أربد من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم لضربه ، فاخترط شبرا من سيفه ثم حبسه الله تعالى فلم يقدر .

وفى رواية عن ابن عباس : أن عامرا جعل يده على منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فراجعه ، الحديث السابق ، وقد أوصى أربد بذلك ، فأخرج من سيفه ذراعا أو شبرا ولا يقدر أن يخرج منه أكثر ، وفى رواية أنه لما أيس أول مرة مما يطلب قال : لأملأنها عليك خيلا ورجالا جردا ، فقال له أربد : قد عجلت ، ارجع إليه فحدثه أنت واقتله أنا أو أحدثه أنا واقتله أنت ، قال : اقتله أنت فرجعا إليه ، فقال له عامر : اعرض علىّ أمرك فعرضه عليه ثانية ، وعامر ينظر إلى أربد ، وأربد لا يعمل شيئا البتة ، ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربد سل بعض سيفه قال : « اللهم اكفينهما بما شئت » وبادرهما الناس فهربا ، فقال له عامر : ويحك لِمَ لَمْ تقتله ، وقد عزمت عليه ؟ قال : أخذ بمجامع خــوفى ، وأشغلنى عما أردت .

وفى رواية قال عامر لأربد : يا أربد لا أخافك أبدا ، ولقد كنت أخافك ، فقال : والله لقد أردت إخراج السيف فما قدرت ، ولقد كنت أراك بينى وبيه فأضربك ، وأرسل الله عز وجل صاعقة فى يوم صاح قائظ فأحرقت أربد ، فروى أن عامرا ولى هاربا وقال : يا محمد دعوت ربك فقتل أربد ، والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا جردا ، وفتيانا مردا ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « يمنعنى الله منك وأبناء قيلة » يعنى الأوس والخزرج ، فانطلق حتى أتى بيت امرأة سلولية ، فبات فخرج له خارج فى أصل أذنه يحترق كالنار ، حين أصبح فضم سلاحه وجعل ينادى يا آل عامر غدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية .

وكان بعضهم يُعيِّر بعضا على النزول بسلولية ، وركب فرسه قائلا : مالى ولمحمد ويركضه فى الصحراء ويقول ، أذن يا مَلَك الموت ، وجعل يقول الشعر ، ويقول : إن أبصرت محمدا وصاحبه يعنى ملك الموت لأنفذنهما برمحى ، فأرسل الله عز وجل ملكا لطمه فألقاه فى التراب ، ثم عاد فركب راجعا حتى مات على ظهره .

وتقدم عن بعض أن النازل فى هذه القصة هى قوله تعالى : « سواء منكم من أسر القول » إلى آخره كما أن عامرا وأربد لعنهما الله أسرا قتل النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن له صلى الله عليه وسلم ملائكة تتعاقب على حفظه مما يضره .

(فيصيبُ بها مَن يَشاءُ) من مسلم وكافر كما أصابت عامرا وأربد لعنهما الله ، وهى على المسلم مصيبة يؤجر عليها ، ولا تصيب ذاكر الله عز وجل (وهُم) أى الكفار (يجادلون فى الله) أى يخاصمون رسول الله

صلى الله عليه وسلم فى أمر الله ، ومن جملة أمره مـا أتاه الله سـبحانه رسوله من النبوة وعلو الشأن ، وخاصمه عامر وأربد فى علو شأنه ، إذ قال له عامر : أنا على الوبر وأنت على المدر ونحو ذلك ، مما مر ، ومن جملة أمره البعث والوحدانيـة ، والتنزه عن الزوجـة والولادة ، وهم ينكرون البعث والوحدانية ، ويقولون : الملائكة بنات الله .

وروى أن أريد لما قدم مع عامر فى القصة السابقة ، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أربنا من نحاس أو حديد أو ذهب أو ياقوت . فنزلت صاعقة فأحرقته ، وقيل : سبب نزول الآية أن يهوديا من أهل المدينة أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أخبرنى عن ربك الذى تدعو إليـه من أى شىء ، هو أمن ذهب أم من فضة ، أم من صفر أم من فخار ؟ فلما خرج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الله إليه صاعقة فأحرقته .

وسئل الحسن عن الآية فقال : بعث صلى الله عليه وسلم نفرا من أصحابه إلى رجل من العرب يدعونه للإسلام ، فقال : أخبرونى عن رب محمد ، أمن ذهب أم من فضة ، أم حديد أم نحاس ، فاستعظموا كلامه ، فقالوا : يا رسول الله ما رأينا أكفر ولا أعنى منه ، قال : « ارجعوا إليه فلم يزدهم على ذلك وعلى أن قال : كيف أجيب محمد إلى رب لا أراه ولا أعرفه ؟ فقالوا : يا رسول الله زاد خبثا ، فقال : « ارجعوا » فرجعوا فبينما هم يخاصمونه وهو مصر ارتفعت السحابة فوق رءوسهم فرعدت وأبرقت ، ورنت بصاعقة فأحرقته وهم جلوس عنده ، فرجعوا إليـه صلى الله عليه وسلم فقال : « احترق صاحبكم » فقالوا : مـن أعلمك قال أوحى الله إلى « ويرسل الصـواعق فيصيب بها من يشـاء وهم يجادلون فى الله » » .

وظاهر هذا وما تقدم من قصة اليهودى وأربد ، أن الواو للحال ، ويجوز كونها عاطفة لجملة على أخرى ، أو استئنافية ، وأصل الجدال من جدلت جدلا أى أتقنت وأحكمته ، أو من جدلــه بمعنى قتلــه ، والمراد التشدد فى الخصومة .

(وهُو شَدِيدُ المحالِ) قال الحسن : شديد الأخــذ والبطش ، والعقوبة والنقمة ، وقيل : شديد الكيد فى أعدائه ، ومنه تمحل لكذا إذا تكفل له استعمال الحيلة واجتهد فيــه ، ومحل بكذا إذا كاده وعرضــه للهلاك ، قال القاضى : ولعل أصــله المحل بمعنى القحط ، وقيل شــديد الجدال ، أى لا تقوم عليه حجة ، ونسب هذا القول للكلبى ، وهو مفرد ميمه أصل وألفه زائد ، ووزنه فعال .

وقال مجاهد ، وقتادة : شديد القوى فهو جمع واحدة محل أى قوة ، فهو جمع أصل الميم زائد الألف ، وكذا إن قلنا : إنه المعنى شديد الفقار بمعنى فقار الظهر ، تعالى الله عن الظهر والفقار والجوارح ، وشبه الخلق ، ولكن ذلك إنما يصح على طريق الكناية عن القوة والقدرة الشديدتين ، كما جاء ساعد الله أشد ، وموساه أحد ، وقيل : شديد الحول أو الحيلة فهو مفرد زائد الميم ، وألفه بدل عن واو أو ياء أصلى ، بدلت على غــير قياس لسكون تلك الواو أو الياء ، ووزنه مفعل كذا قيل .

والذى عندى أنه على القياس ، لأن أصل تلك الواو أو الياء الفتح فما سكت إلا بعد نقل فتحتها للساكن فقد تحركت فى الأصل ، وانفتح ما قبلها فى الحال ، ويؤيد أنه من الحول أو الحيلة قراءة الأعرج ، بفتح الميم من حال يحول محالا إذا تحيل ، وحكى بعض عن الحسن أن المعنى شديد النقمة ، وكى عن غيره شديد العقوبة .

(لهُ) أى الله (دَعْوة) أى دعاء وهـو الطلب (الحقّ) أى خلاف الباطل ، والمعنى أنه الأهل ، لأن تطلب منه الحوائج طلب حق ، لأن السميع العليم بما فى الصدور ، القادر على قضائها وإجابتها ، وأما دعاء الصنم فدعاء باطل ، لأنه لا يسمع ولا يعلم ، ولا يضر ولا ينفع ، وأضيفت الدعوة إلى الحق للملابسة من حيث إنها بمعزل عن الباطل •

ويجوز أن تكون الدعوة بمعنى العبادة ، والحق أيضا خلاف الباطل ، والإضافة أيضا للملابسة ، أى عبادة حق لا عبادة باطل ، ويجوز أن تكون الدعوة بمعنى الدعاء إلى عبادة الله ، أو إلى طلبه ، والإضافة للملابسـة أيضا ، والحق خلاف الباطل أيضا ، وأما أن يقال : لإضافة إضافة موصوف للصفة أى دعاء الحق فضعيف عندى ، لأن الصحيح أن الموصوف لا يضاف للصفة ، فيجوز أن يكون الحق هو الله أى أنه الأهل والمختص بالدعوة المعهودة لأنها دعوة له ليست هى ولا شىء منها لغيره ، وهى أيضا طلبه أو عبادته ، أو الدعاء إلى طلبه ، أو عبادته ، ويجوز أن يكون الحق صفة لله ، أى دعوة الله الحق ، أو دعوة المدعو الحق ، فإن الهاء سواه ، أو مدعواً سواه غير ثابت وغير صادق ، ويجوز أن يكون دعوة الحق بمعنى دعوة التوحيد ، والحق التوحيد •

قال ابن عباس : الحق لا إله إلا الله ، فكأنه قيل : كلمة الحق الذى هو لا إله إلا الله ، سميت دعوة لأنه يدعى إليها ، وقيل : المعنى الدعاء بالإخلاص هو الذى يظهر لى أنه الصحيح هو الوجه الأول ، ويدل له مقابلة ذلك بقوله :

(والّذينَ يدْعُون) الخ ، وتضمن قوله : « هو شديد المحال »

له دعوة الحق » التعريض والتلويح بشدة كيد الله فى عامر وأربد ونحوهما ، وبإجابة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما وعلى نحوهما ، وبأنه على الحق دونه ، وبالوعيد على المجادلة فى الله ، وذلك عام فى الكفرة ، وإن قلنا : إنه وارد فى عامر وأربد فغيرهما مثلهما ، والذين واقع على الأصنام وساغ ذلك لأنها عند عابديها بمنزلة العقلاء ، وواو يدعون للمشركين ، ورابط الصلة ضمير محذوف ، أى والأصنام الذين يدعوها المشركون ، أى يطلبونها ، ويدل على ذلك قراءة بعض : والذين تدعون بالفوقية ، ويجوز أن يقع الذين على المشركين ، والضمير يدعون لهم أيضا وهو الرابط ، والمفعول ظاهر محذوف يدل عليه قوله .

(مِنْ دُونِهِ) أى والمشركون الذين يدعون الأصنام من دون الله ، ورابط الخبر على هذا هو الهاء فى قوله تعالى : (لا يَسْتَجِيبُونَ لهم بشىءٍ) من طلبهم ، ورابطه على الأول واو يستجيبون وهى للأصنام على الوجهين ، ويضعف كون شىء مفعولا مطلقا مجرورا بباء متوصل بها للتأكيد ، أى لا يستجيبون لهم استجابة مّا .

(إلا كبَاسِطِ) أى الاستجابة كاستجابة باسط (كفَّيه إلى الماءِ) فالاستثناء متصل ، وقرىء تنوين باسط فكفيه مفعول به ، أو الاستثناء منقطع ، فيكون المعنى لكنهم كباسط كفيه إلى الماء (ليبْلُغ) الماء (فاهُ وما هُو) أى الماء (ببالغِهِ) أى ببالغ الفم ، أو ما ذلك الباسط ببالغ الماء ، أى لا يظفر بالماء ، وذلك أنه يبسط كفيه بالإشارة إلى الماء ليأتيه من قعر البئر ، أو من مكان بعيد ، أو إلى إناء الماء فبشر به ، فليس الماء بالغا فاه ، ولا هو ظافرا به ، لأن الماء أو الإناء لا يشعر بإشارته وطلبه ، ولا يقدر على إجابته ولا طاقة له ، لأنه مطبوع بالسيلان إلى

موضع مستو أو منحدر الإناء لم يطبع على الانتقال ، فكما أن هذا لا يتصل بالماء فيموت عطشا •

كذلك داعى الصنم لا يتصل بالنجاة من عذاب الدارين بصنمه ، وكل من الماء والصنم غير حيوان ، فكيف يجب ، ويصح أن يكون باسط كفيه إلى الماء الخ بمعنى من أراد أن يغرف الماء للشرب فيبسط كفيـه ويدخلهما فى الماء ، أو صب فى كفيه مبسوطتين ، فكما أن هذا لا يبقى فى كفيه ما يزيل به العطش من الماء ، كذلك طالب الصنم لا يتصل من طلبه على شىء من دنيا أو أخرى ، والوجه الأول أولى لتمام التشبيه فيه ، وهو قول مجاهد بخلاف الثانى ، فإنه قد يبقى شىء من الماء فى منحط كفيه فيشربه ، وطلب الصنم لا يتصل على شىء هذا من طلبه البتة ، هذا ما ظهر لى وهو صواب إن شاء الله •

(وما دُعاء الكافرِين إلا فى ضلالٍ) أى ما طلبهم الأصنام إلا فى ذهاب عن الصواب ، إذ هو دعاء ضائع لا ينفعهم ، ويجوز أن يراد بالدعاء فى موضعين : العبادة أى لا تستجيب لهم الأصنام فى شىء ، فكيف يعبدونها ، وما عبادتهم إياها إلا ضائعة ، وأن يراد بالأول الطلب وبالثانى العبـادة أو العكس ، وأن يراد بالثانى طلبهم الله أو عبادتهم إياه ، أى دعاؤهم إياه ضايع ببقائهم على الشرك •

قال ابن عباس : أصواتهم محجوبة عن الله سبحانه وتعالى ، ويجوز أن يراد بالثانى دعاؤهم الله ودعاؤهم الأصنام سواء فسرناه بالطلب أو بالعبادة •

(ولله) لا لغيره (يسْجدُ) حقيقة سجود (مَنْ فى السَّموات) من الملائكة (والأرضِ) منهم ومن الإنس والجن (طوعا) حال الشدة والرخاء من الملائكة ومؤمنى الإنس والجن ومنافقيهما ، بغير إسرار الشرك (وكَرْهاً) حال الشدة من مشركيها ومنافقيها بإسرار الشرك أو بغيره ، كالموحد الذى لا يصلى إلا خوفا ، ولا يقع من الملائكة عصيان ، وزعم بعض أن عامتهم قد تعصى دون الخاصة وهو خطأ .

فإن قلت : سجود المنافق المسر للشرك ظاهر ، فإنه يسجد خوفا ، فما سجود المشرك كرها ؟

قلت : هو أن يشتد به أمر فيلتجىء إلى الله ، ويكشف عنه .

وإن قلت : فما سجود المشرك المنكر لله ؟

قلت : لا سجود له ، وليس مراداً فى الآية ، وإن شئت فقل : المراد فى السجود الانقياد فلا يخرج عن الآية شىء ، لأن أجسام المؤمن والمنافق والمشرك بالمساواة أو بالجحود ، أو بخصلة كلها لا تمتنع مما أراد الله فيها من تصرف كإمراض وإنحال ، وإسمان وترقيق وتغليظ ، وتبييض وتسويد ، وغير ذلك ، ولأن الجسم مقربا لله وطائع له ، ولو كفر القلب وعصاه ، واستعمل الجسم فى المعصية ، ولا يقال : لو كان كذلك لكان تعذيب الجسم جورا ، تعالى الله عنه .

لأنا نقول : إنما يتألم القلب ويتوجع دونه ، ألا ترى أن المسكر لا يتوجع بما تفعله به حال السكر ، كذا ظهر لى ، وإن شئت فقل : المراد بالسجود مطلق الخضوع والانقياد ، فيتصور من بعض بالسجود على

الأرض ونحوها ، وبغيره ، ومن بعض بغيره ، من عدم الامتناع مما يتصرف فيه الله .

ويجوز أن يراد بمن العاقل وغيره ، على أن السجود مطلق الخضوع والانقياد كما مر آنفا ، وطوعا حال على التأويل بالوصف ، أى طائعين وكارهين ، أو بتقدير مضاف أى ذوى طوع وذوى كره ، أو مفعول مطلق بحال محذوفة ، أو يطوعون طوعا ، وكارهين أو يكرهون كرها ، ويجوز التقدير بالإفراد فى ذلك كله نظرا إلى لفظ من ، أو مفعول مطلق على حذف مضاف ، أى سجود طوع وسجود كره ، أو مفعول لأجله أى للطوع والكره .

(وظِلالُهم) معطوف على مَنْ وهو جمع ظل ، ومعنى سجود الظل انقياده بتصريف الله جل جلاله فيه بالمد والقصر ، بحسب ارتفاع الشمس وانخفاضها بإذن الله ، أو معنى سجوده تبعه لسجود الذات ، أو مطلق الخضوع الشامل لذلك كله .

وقال ابن الأنبارى : لا يبعد أن يكون قد خلق الله للظل عقلا يسجد به ، ولو كان الظل عرضا ، وإن قلت هل يسجد ظل الكافر طوعا أو كرها ؟

قلت : طوعا كظل المؤمن كما ذكره الزجاج قائلا إن الكافر إذا سجد لغير الله سجد ظله لله ، وعن مجاهد أنه يسجد كرها وهو مشكل ، لأنه يقتضى كفر ذلك الظل وهو غير مكلف .

(بالغُدوِّ) أى فى الغدو وهو جمع غداة كفتى وفتاة ، إلا أن نون

فتى مكسورة بعد قلب واو فعول ياء ، لئلا تقلب الياء المشددة واوا ، ودال الغدو مضمومة باقية على الضم لمناسبة الواو ، وأصله غدو ، وأدغمت الواو فى الواو ، والغدات أول النهار من طلوع الشمس ، وقيل : إلى نصف النهار ، وقيل : الغدو مفرد بمعنى الغداة ، وقيل : مصدر أى فى وقت الغدو •

(والآصالِ) جمع أصيل وهو من العصر إلى المغرب ، وقيل : من الزوال إلى المغرب ، وقرىء : والإيصال مصدر آصل بمد الهمزة فى أوله ، أى دخل فى الأصيل ، كأصبح دخل فى الصباح ، وأمسى دخل فى المساء ، والمراد وقت الإيصال ، وهذه القراءة تؤيد من قال : إن الغدو مصدر ، والباء متعلقة بيسجد ، فالغدو والآصال عائدان إلى مَنْ والظلال ، وهما كنايتان عن الدوام وإن شئت فقل : عائدان إلى الظلال فقط ، فتعلق الباء حينئذ بمحذوف حال من الغدو والآصال ، وبيسجد مقدارا رافعا للظلال ، أى ويسجد الظلال حال كونها بالغدو والآصال ، وعلى الوجهين الأخيرين فإنما خصص الوقتين لظهور مد الظل وقصره فيهما أكثر من مده وقصره فى غيرهما ، أو لأنهما ظرفان فيدخل الوسط بوجه من الاختصار ، كما يدخل وسط الثوب إذا أجذت بطرفيه •

وإن قلنا : الغدو من طلوع الشمس إلى نصف النهار وهو الزوال ، والآصال من الزوال إلى غروبها ، فقد استغرق أوقات الظل ، ولا يصح أن يراد بالغدو ما بعد طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، إذ لا ظل فى ذلك الوقت لأحد ، والهاء فى الظل وظلالهم لمن يكون له الظل ، وهو الإنس للقرية ، أو الهاء للمجموع والمراد الإنس •

(قلْ) يا محمد لكفار قومك (مَنْ ربُّ السّموات والأرضِ)

مالكهما ومدبرهما (قُلِ اللهُ) أى ربهما الله ، لما لم يكن لهم بد من هذا الجواب أمره أن يذكره لأنه ظاهر لا يمكن أن يجادلوا فيه فلا يترقب أن يذكروه لعدم الحاجة إلى انتظاره أن يذكروه ، مع أن الثابت فى قلوبهم وألسنتهم يذكرونه قبل وبعد •

وإن قلت : فما فائدة الأمر بالسؤال والأمر بالجواب أعنى قوله : « قل الله » ؟

قلت : فائدته استحضار ما هو الواقع فى نفس من أنه لا رب سواه للتأكيد ، وليرتب عليه ، واستبشاع اتخاذ أولياء من دونه ، غيره ما لكين ضرا ولا نفعا ، أو المراد قل : الله إذا قالوا : الله ، كما تذكر جواب المجيب تثبيتا واستيثاقا ، لتتمكن من الرد عليه فضل تمكن ، أو المراد قل لهم : الله إن سكنوا عنادا واستكبارا ، عما تورد عليهم ، فإنه لا جواب لهم سوى ذلك ، فربما يذكرونه إذا ذكرته •

وقيل : لما قال لهم : من رب السموات والأرض ؟ قالوا : أجب أنت ، فأمره الله تعالى أن يجيبهم بأن ربهم الله ، وأمره أن يلزمهم الحجة بقوله :

(قل) لهم (أفاتَّخذتُم مِن دُونهِ) أى من دون الله (أولياءَ) أنصارا وهم الأوثان ، وإنما سماها أنصارا على زعمهم ، والعطف على محذوف أى أعلمتم أن ربهم الله فاتخذتم من دونه أولياء •

(لا يملِكُونَ) عبر عن الأوثان بما يعبر به عن العقلاء ، لوصفهم

لها بوصف العقلاء وهو النصر (لأنفسهم نفعاً ولا ضَرًّا) أى ولا دفع ضر ، فضلا عن أن ينفعوا غيرهم أو يضروه ، وهذا دليل ثانٍ على فساد رأيهم ، وعلى ضلالهم إذا استنصروا من لا ينصر نفسه ، ولا ينفعها ولا يدفع عنها ضرًّا ، ولا يرى ولا يسمع ولا يعلم ، وهذا أمر مستبشع غاية الاستبشاع ، وذلك قرن الكلام بهمزة الاستفهام التوبيخى الدال على أن العقل يكر ذلك ، والدليل الأول هو قوله : « وهو شديد المحال ﷺ له دعوة الحق » .

ثم ضرب الله مثلا بقوله : (قلْ هلْ يستَوى) توبيخ على ادعاء الاستواء وانكارا لصحته كالاستفهام المذكور (الأعْمى) المشرك الجاهل بحقيقة العبادة وبمن يستحقها ، بم تستحق (والبَصيرُ) الموحد العالم بذلك كله ، هذا تفسير ابن عباس بزيادة عليه ، شبه المشرك بالأعمى فى كونه لا يهتدى إلى مصالحه ، ولا يستطيع التحرز عن المهالك ، والموحد بالبصير المهتدى لذلك المتحرز عما يهلكه ، ويجوز أن يراد بالأعمى الصنم ، فإنه لا يهتدى لذلك ولا يتحرز عما يهلكه ، ولا يرى ولا يسمع ولا يعلم شيئا من عبادتهم إياه ولا غيرها ، ولا يحيى ولا يرزق ، ولا يعاقب ولا يثيب ، ولا يخلق ، وبالبصير الله ، فإنه الغنى عن سواه ، المحتاج إليه من عداه ، الخالق الرازق ، المعاقب المثيب ، العالم بالأقوال والأفعال والأحوال .

(أمْ) بمعنى بل التى للانتقال (هلْ تَسْتوى) وقرأ حمزة ، والكسائى ، وأبو بكر بالمثناة التحتية (الظّلماتُ) أراد الشرك (والنورُ) يعنى الإيمان ، شبه الشرك بالظلمة فى عدم الاهتداء عن الهلاك إلى المصالح ، والإيمان بالنور فى الاهتداء عنه إليها ، ويجوز أن يراد بالأعمى

والبصير من لا عين له باصرة ، ومن هو باصر ، فإنهما لا يستويان ، فكذلك لا يستوى المشرك والموحد ، وبالظلمات والنور ظاهرهما أيضا ، فإنهما لا يستويان ، فكذلك لا يستوى الشرك والإيمان .

(أم) بمعنى بل التى للانتقال ، والهمزة التى للإنكار ، أى بل (جَعَلُوا لله شركاء خَلَقُوا كخلْقِهِ) أى خلقوا مخلوقات كمخلوقات الله تعالى ، فالخلق بمعنى المخلوق ، وجملة خلقوا نعت لشركاء داخل فى حكم الإنكار الذى أفادته أم ، أى لا شريك له فضلا عن أن يخلق ذلك الشريك شيئا ، أو يتسلط الإنكار علـى النعت فقط ، أى لا يصـح لمن جعلوه شريكا أن يخلق شيئا ، فإنما جعلوا شريكا لا يخلق .

(فتَشَابه الخلْقُ) أى مخلوقات الله ومخلوقات الشركاء ، أى اجعلوا لله شركاء خالقين كخلق الله ، حتى إنه يتشابه خلقهم بخلقـه ، ويقولون : إنهم مستحقون للعبادة كما استحقها الله تعـالى ، أى ليس الأمر كذلك ، حتى إنه يكون خلقهم مخلوقات سببا للتشابه ، ونفى الخلق عمن سواه بقوله :

(اللهُ خَالِقُ كُلِّ شىءٍ) ليدل على الوحدة والقهر المذكورين فى قوله : (وهُوَ الواحدُ) المتوحد بالألوهية (القهّارُ) لمخلوقاته ، الغالب لها ، حتى لا يخرج شىء عما أرادوا .

وإن قلت : من أين استفيد نفى الخلق عمن سواه فى قوله : « الله خالق كل شىء » ؟

قلت : من العموم ، فإنه إذا كان كلّ شىء مخلوقا لله لم يبق شىء

يكون مخلوقا لغيره ، فكأنه قال : لا خالق غيره ، فضلا عن أن يشاركه فى العبادة التى هى إنما يستحقها من يقدر على أن يخلق ، ومراده بكل شىء ما يصح أن يكون مخلوقا ، فلا يدخل فى ذلك واجب الوجود ، ولا أسماؤه ولا صفاته ، فإنهن هو ، وهو قديم لا حادث اتفاقا ، وأيضا المتكلم لا يدخل فى عموم كلامه عند كثير من الأصوليين ، أو عند الأكثرين منهم ، ثم ضرب الله آخر للحق وأهله ، والباطل وأهله ، يتضمن التمثيل بشيئين : الماء وما يوقد عليه فى النار بقوله :

(أنزلَ منَ السَّماء ماءً) عذابا نافعا أى من جهة السماء وجهتها هى السحاب هنا ، أو من السحاب نفسها ، لأنها تسمى سماء ، لأنها علت وأظلت ، أو من السماء حقيقة على ما قيل : إن الماء منها ، أو مبادىء الماء منها ، والسماء يؤنث ويذكر .

(فَسَالتْ) جرت (أوْدِيةٌ) جمع وادٍ على غير قياس ، وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء بكثرة ، فإسناد السيلان إليها مجاز عقلى من إسناد الحال إلى المحل ، فإن السايل الماء لا الأودية ، أو استعمل الأودية بمعنى الماء من باب تسمية الحال باسم المحل ، فالأودية مجاز لغوى مرسل ، أو يقدر مضاف ، أى ماء أودية ، فالأودية مجاز بالحذف أو الأصل ، فسالت أودية ماء ، فحذف التمييز ونكر الأودية ، لأن المطر يأتى على تداول بين الأودية ، وكذا السيلان ، فإن المطر لا يعم الأرض ولا يسيل فى كل واد ، بل ينزل فى أرض دون أرض ، ويسيل فى واد دون واد .

(بقَدَرها) بما قدر الله تعالى لها من ماء يسيل فيها ، أو القدر بمعنى القدْر بإسكان الدال ، أى بمقدارها الذى فى علم الله أنه نافع

غير ضار ، لأن الماء مثل للحق موجب أن يكون نافعا غير ضـار لأراضى الناس أو بنائهم أو حرثهم أو شجرهم وغيرها ، كما قال : « وأما ما ينفع النـاس » أو بمقدارها فى الصـغر والكبـر .

(فاحْتملَ) حمل ورفع ، فافتعل هنا لموافقـة المجرد ، أو حمل حملا قويا فهو للمبالغة (السَّيلُ) ماء المطر الجارى فى الأودية (زَبَداً) جسم أبيض رقيق يتولد من الماء عند الزيادة ، ويعلو عليه ، هذا هـو المراد عندى ، قيل : ويجوز أن يراد ما يحمله الماء من حشيش وأعواد ونحوهما ، أو مجموع ذلك المذكور من الجسم الأبيض ونحو الحشيش (رَابياً) عاليا فوق الماء ، أو منتفخا ، فالماء مثل للحق فى إفادته ونفعه وثباته ، فكما أن الماء النازل من السماء ينتفع به أنواع المنافع شرابا وطعاما وسقيا للحرث والشجر والنبات ، وبناء وغسلا للوسخ من الأرض وبدن وثوب ، وغير ذلك ، ويثبت بعضه فى موضعه أياما ينتفع به ، ويسلك بعضه فى عروق الأرض إلى العيون والآبار والقنى .

كذلك الحق وهو دين الله ، والقرآن ينتفع به دنيا وأخرى ، ويثبت فى القلب راسخا كالنور ، يتوصل به صاحبه إلى المنافع ، وتحترز به عن المضار ، وينكس الظلمة والغفلة عن القلب بقدر ما أوتى منه ، والزبد مثل للباطل ، فكما أن ذلك الزبد لا نفع فيه فى ظاهر الأمر لنا ، ولو كان خلقه حكمة ، ولا يثبت ، فكذلك الباطل .

وذكر الشيخ إسماعيل فى القناطر وغيره من العلماء ، لإدخال كلام بعض فى كلام بعض : أن الأرض ثلاثة أنواع ، وكذا النـاس إذ خلقوا منها ، فأرض تنتفع بالمطر تمسكه وتنبت فينتفع الناس والدواب وغيرهم بمائها ونباتها ، فكذا من علم وعمل ينتفع ، وينتفع به غيره ، وأرض تمسك

المطر ولا تنبت فكذا ، من يحفظ العلم ويستنبط منه ولا يعمل بــه لـو يحفظه فقط ، ولا يعمل ، فإنه ينتفع غيره بعلمه ، كما يسقى الماء من تلك الأرض ، وأرض لا تمسك الماء ولا تنبت ، كذلك من لا يحفظ العلم ولا يعمل به ، وأنه قد أشار إلى ذلك حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكره البخارى وسلم : « أن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلاء » أى بالمد وهو الرطيب واليابس من الحشيش قال : « والعشب الكثير فكان منها أجادب » أى بجيم ودال مهملة أى أماكن غير مخصبة أو أمــاكن تمسك الماء ولا يسرع فيه التصوب ، وفى رواية : « أخاذان » بالخاء والذال المعجمتين جمع أخاذة وهى الغدير الذى يمسك الماء قال : اكتسب الماء نفع الله به الناس ، شربوا ورعوا وروى « وزرعوا وأصاب طائفة أخرى منها الماء قيعانا أى مستوية ، قال : لا تمسك ولا تنبت كلاء فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعمل ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ومن لم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

(وممَّا) خبر ومبتدأه زيد المذكور بعد ، ومن للتبعيض أو للابتداء ، أى زبد مثل زبد الماء ثابت مما الخ ، ويقدر كونا خاصا أى ناشىء مما الخ (تُوقِدونَ) أى تجعلون الحطب لتتقد النار ، وقرأ حمزة والكسائى وحفص : يوقدون بالمثنــاة التحتية ، والضــمير للناس للعلم بهم ، أو للصواغين والحدادين للعلم بهم من السياق اللاحق (عَلَيهِ) الاستعلاء معنوى مجازى لا حسى حقيقة ، فإن الإيقاد يكون تحت ما أريد أن يذوب لا فوقه ، لكن ذلك الإيقاد يؤثر فى ذلك ، ويذيبه فذلك تغلب عليه ، فجعل اســتعلاء ، ويجــوز أن تكون عــلى للتعليل .

(فى النَّارِ) متعلق بتوقدون ، لأن معناه يلقون لحطب فى النار ، أو بمحذوف حال من الهاء ، والمراد بذلك الذى يوقد عليه الذهب والفضة ، والحديد والنحاس والرصاص بها ونحوها ، مما يستخرج من المعادن ، ويوقد عليها ، وعبر عن ذلك بما ولم يصرح بها تهاونا ، واظهارا لكبريائه تعالى ، وتعريضا بمن يرغب فيها ويحرص (ابتِـغاءَ) مفعول لأجله أى لطلب (حِلْيةٍ) زينة أو ما يتزين به كأطواق الذهب والفضة ، والقرط والسوار والخلخال ، وليس ذلك مختصا بالذهب والفضة كما قيل ، وإنما هما الغالب فى ذلك وهاء عليه عائدة إلى الذهب والفضة فقط كما قيل ، بل إلى ما العامة لهما ولغيرهما •

(أو مَتاعٍ) ما يتمتع به أو التمتع ، وذلك كأوان الشراب والطعام ، والادخار والأطباق والقدر والكانون ، وآلات الحرث ، وآلات الحرب ، والدرهم والدينار والفلس ، وفائدة قوله : « ابتغاء حلية أو متاعٍ » بيان منافع ما يوقد عليه ، وتلويح إلى بيان الموقد عليه من حلى بأنه ما تتخذ منه الحلى والأمتعة ، ولم يذكر منفعة الماء لظهورها ولم يلوح إلى معنى الماء لأنه معلوم (زَبدٌ) ما يعلو المذاب من وسخ تنقيه نار الصـواغ والحداد (مثْلُه) أى مثل زبد الماء ، فألحق كالذى يتخلص من الموقد عليه من حلى وأمتعة فى الحسن والبقاء والاستنفاع ، والباطل كالوسخ المتولد من الموقد عليه فى عدم الانتفاع به ، وعدم الحسن •

(كذلك يضْربُ الله الحقَّ والباطلَ) أى بينهما بالتمثيل ، ويجوز أن يكون الأصل كذلك يضرب الله مثل الحق والباطل ، فحذف المضاف ، فالحق وهو دين الله ، والقرآن والنور الحاصل فى القلب متهما كالمـاء فى البقاء والنفع وإزالة الوسخ والباطل ، وهو دين الشيطان ، والظلمة

الحاصلة فى القلب ن أعتقاد السوء كالزبد فى عدم النفع ، وسرعة الزوال ، والذهاب كما قال الله جل جلاله :

(فأمَّا الزَّبدُ) أى حقيقة الزبد الصادقة بزبد الماء ، وزبد ما يوقد عليه ، أو أراد بزبد الماء فقط (فيذْهبُ جُفاءً) حال أى باطلا مرميا به ، ضائعا متفرقا ، من قولك : جفاءة القدر الزبد ، أو جفاءة السيل ، أى رمى به ، أو من جفاء الريح الغيم ، أى فرقته وهمزته أصل ، وقيل بدل من واو وقرأ رؤية بن العجاج جفاءة والمعنى واحد .

قال أبو حاتم الأندلسى : لأن قرأ بقراءة رؤبة لأنه كان يأكل الفأر .

(وأمَّا ما ينْفعُ النَّاسَ) وهو الماء والحلية والمتاع المتخذان من الموقد عليه (فيمْكُثُ فى الأرْض) يبقى فيها زمانا طويلا ينتفع به ، وأما نحو وسخ الحديد مما يبقى فليس بقاؤه معتبرا لعدم الانتفاع به ، وعدم التحفظ عليه حتى لا يدرى أهله أين هو ، فذلك ذهابه ، والتباطل ولو كان يعلو على الحق فى بعض الأحيان ، فإنه فى نفسه مستقل ويمحقه الله ، ويجعل العاقبة للحق ، كما أن الزبد يعلو ثم يمحق .

(كَذلكَ يضْربُ الله الأمثالَ * للَّذينَ) خبر ومبتدأه الحسنى (اسْتجابُوا لربِّهم) أجابوه بالطاعة وهم المؤمنون (الحسْنَى) أى أى مثوبة الحسنى فى الدارين ، أو الجنة ، والمنفعة الحسنى فى الدارين .

(والَّذين) هى مبتدأ خبره « لو أن لهم ما فى الأرض » الخ (لَمْ يسْتجيبوا لهُ) وهم الكفار (لَوْ أنَّ لهم ما فى الأرْضِ) أى لو ثبت أن لهم ما فيها (جَميعاً) حال مؤكدة لصاحبها وهو (ومثْله معه) متعلق بمحذوف نعت لمثل على أنه لم يتعرف بالإضافة ، أو حال منه على

أنه تعرف بها ، وعلى أنه يجوز مجىء الحال من اسم الناسخ ، فإن مثل معطوف على اسم إن ، فكأنه اسمها ، ويجوز أن يكون مثل معطوف على اسم إن ، ومع على خبرها ، فيكون من العطف على معمولى عامل .

(لافْتَدوْا بهِ) من عذاب الآخرة أى بالمذكور الذى هو مـا فى الأرض ، ومثل ما فيها أو بما فى الأرض مع مثله أو به وبمثله ، فحذف على الوجهين الأخيرين قولك : مع مثله ، أو قولك : وبمثله والمعنى لهـا أن عليهم ، ورضوا أن يدفعوه فدية عن أنفسهم أولات حين قبول ، وما ذكرته هو الذى يظهر لى ، وأصححه ثم اطلعت على أنه قول النخعى ، وفرقد السبخى ، وشهر بن حوشب ، وابن عباس ، والجمهور ، وقال بعضهم : للذين استجابوا متعلق بيضرب ، والذين لم يستجيبوا معطوف عليه ، فيكون الحسنى مفعولا مطلقا ، أى استجابة الحسنى ، ويكون قوله : « لو أن لهم ما فى الأرض » الخ مستأنفا لبيان مصير غير المستجيبين ، ويكون المعنى : إن الله يضرب للمؤمنين والكافرين الحق والباطل مثالا لهم ، أو يضرب الحق والباطل فى شأنهم ، ومثله ولو كان واقعا فى القرآن ، لكن الأولى خلافه ، لأن الأصل عدم الفصل ، فلو كان كذلك لقيل .

كذلك يضرب الله الحق والباطل للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له ، فأما الذين إلى آخره إلا أن يقال : لو قيل هكذا كان فى قوله : « لو أن لهم مـا فى الأرض » الخ بعض خفـاء ، فأخر قوله : « للذين استجابوا » الخ ، ولو كان يعلم من السياق أن المراد الذين لم يستجيبوا ، لأن المؤمنين يطلبون الفداء مما لهم ، وليس لهم سوء الحساب ، واختار هذا الوجه الأخير الزمخشرى ، والقاضى ، ويقرب

منه وجه آخر هى أن يجعل للذين استجابوا نعتا لمفعول يضرب محذوفا ، أى يضرب الله الحق والباطل مثلا ثابتا للذين استجابوا الخ .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقال للكافر يوم القيامة لو أن لك ملء الأرض لكنت مفتديا به ؟ فيقول له : نعم ، فيقال لـه : كذبت فقد سئلت ما هو أهون من ذلك » .

(أولئكَ) البعداء عن الخير الذين لم يستجيبوا لربهم (لَهم سوء الحِسابِ) قال النخعى ، وشهر بن حوشب ، وفرقد السبخى وغيرهم : سوء الحساب ان يناقشوا فلا يتجاوز لهم فى شىء ، ونظم ابن هشام ذلك قال :

سوء الحساب أن يؤاخذ الفتى

بكل شىء فى الحياة قد أتى

(ومأْواهُم) مرجعهم (جَهنَّم وبئْسَ المهادُ) أى الفراش ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى بئس المهاد هى ، ومن أراد تدمير عدو يحل دمه فليصم الثامن والعشرين من الشهر وإن وافق سبتا فحسن ويفطر على خبز شعير ، ويقم نصف الليل وقت شدة الظلمة فى برية قفرا أو سطح دار خالية ، ويبخر باللبان وصندروس ، ويتلوا « والذين لم يستجيبوا » إلى « المهاد » « والذين ينقضون » إلى « ولهم سوء الدار » سبع مرات يقول فى كل مرة : اللهم عليك بفلان بن فلانة ، اللهم اعكس أمئه ، واخلف نظره ، ولا تثبت قدمه ، واحلل به ما أحللت بكل جبار عنيد ، فإنه يتفرق أمره ، ويشرف على الهلاك .

(أفمنْ يعْلم أنما أنزِل إليكَ مِنْ ربِّكَ الحقُّ) يؤمن به ويعمل به ، وما اسم موصول اسم أنَّ ، والحق خبرها ، فمفيد الحصر تعريف المسند إليه والمسند ، أو ما كافة والحق نائب الفاعل فمفيد الحصر أنما ، ودخلت الهمزة على الفاء لإنكار أن تقع شبهة بعد ما ضرب من الماء ، كأنه قيل : أيشك أحد بعد ذلك أن البصير بانحصار الحق فيما أنزِل إليك .

(كمَنْ هُو أعْمى) عمى القلب لا يعلم أن ذلك هو الحق ولا يعمل به ، ولا يستبصر ، ليسا سواء بل بينهما ما بين الماء ، وخلاصة الموقـد عليه ، وبين الزبد ، والآية على العموم ، وقيل : نزلت فى حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم وأبى جهل ، وهو مشهور ، قال به ابن عباس ، وقيل : فى عمار بن ياسر وأبى جهل فمَنْ يعلم هو حمزة أو عمار ، ومن هو أعمى أبو جهل على القولين ، فالآية عمت أيضا بلفظها ، ولو كان سبب النزول خالصا ، ولا يجوز أن يراد بالأعمى عمى العينين ، على أنه إذا علم أنه لا يستوى بمن علم أن ذلك حق ، علم أن العالم بذلك لا يستوى به جاهله خلافا لبعض ، لأن التعبير فى الشق الأول بالعلم وتسليطه على حقبة ما أنزل بإتيان ذلك .

(إنَّما يتذكَّر أولُوا الألبابِ) أصحاب العقول ، العاملون على ما تقتضى عقولهم ، لا المعرضون عما يقتضيه المتابعون لمن بينهم وبينه ألفة ، وما ألفوه وما توهموه .

(الَّذينَ) مبتدأ ، وجملة « أولئك لهم عقبى الدار » خبر مع مـا عطف عليه من الموصلين بعده ، والذين نعت لأولوا ، والأول أصـح ، ويدل له قوله عز وجل : « والذين ينقضون عهد الله » إلى « أولئك لهم

اللعنة » فإن الذين فيه مبتدأ ، وأولئك لهم اللعنة خبره ، وعلى الوجه الثانى : فأولئك لهم عقبى الدار مستأنف ، ذكر ما استوجبوا بتلك الصفات ، وهن ثمانية كما قال الثعلبى عن ابن المبارك : إن هذه الثمانى الخصال مسيرات إلى ثمانية أبواب الجنة .

وكما قال أبو بكر الوراق : هذه ثمان جسور ، فمن أراد القربة عبرها ، وهن : الوفاء بالعهد ، ووصل ما أمر الله بوصله ، وخشية الله ، والصبر لله ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق ، ودرء السيئة بالحسنة .

وأما عدم نقض الميثاق فأدخلاه فى الوفاء بالعهد ، وإن أريد به عدم نقض ميثاق الخلق ، وخص الوفاء بعهد الله بالوفاء بغير ميثاق الخلق كانت تسعة ، والمراد من جمع تلك الخصال ، فالعطف من عطف الصفات لموصوف واحد ، أو أراد بكل منها من بالغ فيها ، وأتى بالقدر الواجب من غيرها من الفرائض .

(يوفُونَ بعَهْد اللهِ) أى بما عهد الله لهم فى كتبه ، وعلى ألسنة أنبيائه من أمر ونهى ، وسمى ذلك عهدا لأنه شىء وقع بينه وبينهم فيه أمر ونهى ، وقد علموه ، تقول : لا عهد لى بكذا ، أى لا اتصال لك به ، ولا أعلم ، أو سمى عهدا لأنه لوضوحه وظهوره واعتقادهم إياه كالشىء الذى أعطوا عليه عهدا وميثاقا ، أو المراد ما عقدوه على أنفسهم حين عرفوا الله ، ودخلوا العلم عاهدوا الله أن لا يخالفوه ، أو ما عاهدوه حين خرجوا من آدم كالذر وقالوا : أنت ربنا ، وما ذكر أولى لعمومه ، وأصل العهد العلم بالشىء ومراعاة شىء حالا فحالا ، كما يقال : فلان يتعاهد الضيف والمريض ، أى لا يغفل عنهما .

(ولا ينقضون الميثاق) بترك المأمور به ، وفعل المنهى عنه ، أو بترك الإقرار لله سبحانه وتعالى بالربوبية ، وذلك تأكيد للوفاء بالعهد ، ويجوز أن يراد به عدم نقض الميثاق فيما بينهم ، وبالوفاء بالعهد الذى بينهم وبين الله ، الذى لا حق فيه لمخلوق ، فلا تأكيد ، وأن مطلق عدم نقض الميثـاق فيكون تعميمـا بعد تخصـيص .

(والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) وهو الرحم ، قال الله سبحانه : « أنا الله أنا الرحمن خلقت الرحم واشتققت له اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته » « وهى معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله ، ولا يدخل الجنة قاطعها » ووصلها سبب لبسط الرزق وتأخير الأجل وللمحبة ، بمعنى أن الله جل جلاله قد قضى فى الأزل بلا أول ، أن رزق فلان يكثر أو يبارك له فيه ، أو أن أجله يمتد إلى كذا ، بأنه يصل رحمه ، وأن كذا من رزقه أو أجله لأجل كذا ، وأن كذا منه لأجل صلة رحمه ، أو يخفى عن الملائكة شيئا من اللوح المحفوظ ، أو لا يكتب فيه ، فإذا أظهره لأجل صلة رحمه عد زيادة للنظر إليهم .

وليس المراد زيادة فى رزقه أو أجله غير مقضية فى الأزل كما زعم بعضهم قائلا : إن له أن يفعل ما يشاء ، فإن شاء ألا يبدل القول لديه ، ولا تبدو له البدوات ، وفى الحديث : « ليس الواصل بالمكافىء بـل إذا قطعته الرحم وصلها » وذلك قول الجمهور فى تفسير الوصل فى الآية .

وقال ابن عباس : الوصل بين أنبياء الله وكتبه وبالإيمان بالجميع ، وعدم التفريق بينها بالإيمان لبعض والكفر لبعض ، والصحيح أن المراد

ذلك كله ، وأداء حق المؤمن والزوجة والزوج ، والصاحب والجار ، والخديم والمعاشر والمملوك ، من رق أو دابة ، ورفيق السفر ، وأداء حق من لزمك له حق فى مال أو بدن أو عرض أو مشرك ولو مشركا ، فمن لم يذب عن عرض المسلم وقد قدر ، أو لم يشفق عليه أو لم ينصحه ، أو فرق بينه وبين نفسه ، أو لم يسلم عليه ولم يعده مريضا ، أو لم يحضر جنازته ميتا فغير مؤد لحقه ، لكن يهلك بهذه الثلاثة ونحوها .

قال الفضيل بن عياض لجماعة جاءته من خراسان فى مكة : من أين أنتم ؟ قالوا : من خراسان ، قال : اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم ، واعلموا أن العبد لو أحسن الإحسان كله ، وكانت له دجاجة وأساء إليها لم يكن من المحسنين . وأن يوصل فى تأويل مصدر بدل اشتمال من الهاء ، وإن قدرت فيه الباء فبدل أمن به .

(ويخْشَوْن رَبَّهم) يخافون وعيد ربهم ، أو يخافونه مع تعظيم له ، فإن أصل الخشية خوف يشوبه تعظيم .

(ويخافُونَ سُوءَ الحِسابِ) وهو أن يناقشوا فلا يغفر لهم ذنب ، فحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، وذكر هذا بعد ذكره خشية الرب سبحانه وتعالى ، تخصيص بعد تعميم لعظيم هول سوء الحساب .

(والذِينَ صَبَرُوا) على الطاعة ، وعن المعصية والشهوات ولو مباحات ، وعلى المصائب ، وعما يريده هواه ، وهذا أولى من قول عطاء : صبروا على المصائب ، ومن قول بعض : على الطاعة ، ومن قول ابن عباس : على أمر الله ، ومن قول بعض : عن الشهوات والمعاصى للعموم .

(ابتغاءَ وجْه ربِّهم) وجه الله هو الله ، كما تقول نفس زيد ، وذات زيد ، والمراد صبروا طلبا لرضا الله سبحانه ، وعلى ذلك يثابون ، لا ليقال : فلان صبور ، أو لئلا يعاقب عليه الجزع فى نحو مصيبة ، أو لئلا يعاقب على الجزع ، أو لئلا تشمت به الأعداء ، أو صبر عن معصية لعدم تيسرها ، أو لعدم موافقتها طبعه أو نحو ذلك مما ليس لله ، فإنه لا ثواب عليه ، بل يعاقب على مسمعته وريائه .

(وأقامُوا الصَّلاة) إتمامها فى نفسها ووظائفها ، والمراد المفروضة على ما يتبادر لى ، وقيل المفروضة والنافلة ، واختاره بعضهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئها ، ومواقيتها ، وركوعها ، وسجودها ، يراها حقا لله عليه حرم على النار » .

(وأنفقُوا ممَّا رزقْناهم) أى انفقوا فى طاعة الله لصلة الرحم والصدقة على الفقير ، وفى الجهاد النفقة الواجبة فى أهلها كالزكاة والنافلة (سراً) إذا كانت نافلة (وعَلانيةً) إذا كانت واجبة مطلقا بنية إعزاز شعائر الله وتعظيمها ، أو كانت نافلة بنية أن يقتدى به مع سلامة قلبه من الرياء ، وقيل : أسرار النفل مطلقا أولى ، إذ لا يدرى ما يفجأه عليه من المفسدات ، ولحديث : « إن عمل السر مضاعف على عمل العلانية » وأما حديث : « إنه إذا أخبر بعمله بقيت له حسنة واحدة » فلعله فيما إذا لم يخبر به لرياء أو سمعة ، وإلا لم تبق له واحدة ، بل آب بوزره .

وقال الحسن : المراد فى الآية الزكاة يؤديها الإنسان سرا إذا لم يعرف بالمال أو عرف به ، ولم يتهم على منعها ، وعلانية إذا عرف به واتهم على منعها ، وقيل إذا عرف به أداها علانية ولو لم يتهم .

قلت : إن أراد لإعطائها إزالة التهمة فقط أو إزالتها وثواب الله لم يثب عليها ، وإن أراد بإعطائه ثوابه فقط ، ولكن لما لم يجد بدا من إظهارها ، فإظهارها بنية اجتناب نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل الإنسان ما يتهم عليه لا بنية مجرد الذب عن نفسه أثيب فافهم .

وقيل : المراد بالإنفاق سرا إنفاق الزكاة بنفسه ، وبالإنفاق علانية أداءها إلى الإمام ، والمذهب أنها لا يجزى صاحبها المعطى لها بنفسه إلا إن أذن له الإمام ، إذا كان الإمام .

وقيل : المراد بالأول النفل ، وبالثانى الفرض ، ويجوز أن يريد بذكر السر والعلانية الكناية عن إكثار الإنفاق ، ومن للتبعيض أو للابتداء ، والرزق يطلق على الحلال والحرام على الصحيح ، وقال به أصحابنا ، ولكن المراد هنا الحلال ، إذ لا مدح على إنفاق الحرام ، بل ذم ، وزعمت المعتزلة : أن الرزق لا يطلق إلا على الحلال ، وإن أكل الحرام أو المستنفع به أكل ما ليس رزقا له ، أو مستنفع بما ليس رزقا له ، والنصب على الحال ، أى ذوى سر وعلانية ، أو مسرين ومعلنين ، أو على المفعولية المطلقة ، أى إنفاق سر وعلانية ، والظرفية أى وقت سر وهو الوقت الذى إذا أنفقوا فيه لم يظهر مثل الوقت الذى لم يحضر سوى الأخذ ، أو خص من هو مجنون أو سكران أو نائم أو أعمى ، ووقت العلانية وهو الوقت الذى إن أنفق فيه ظهر .

(ويدْرءونَ) يدفعون (بالحسَنة) أى بالفعلة الحسنة (السَّيئةَ) الفعلة السيئة ، كالظلم بالعفو ، والقطع بالوصل والحرمان بالإعطاء ، والكلام القبيح بالحسن ، والأذى بالصبر ، قال رجل : يا رسول الله إن

لى جارا يسىء مجاورتى أفأفعل به كما يفعل بى ؟ قال : « لا إن اليد العليا خير من اليد السفلى » وذلك قول ابن عباس والحسن .

وقيل عن ابن عباس : يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيىء غيرهم ، وعنه يتبع الذنب بعمل صالح يدفعه به ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية » وقال ابن كيسان : يدفع الذنب بالتوبة ، وقيل : يدفعون المنكر بالنهى عنه .

(أولئكَ لَهم عُقْبى الدَّار) أى عقبى هذه الدار الحاضرة التى هى الدنيا وعقباها الجنة ، لأنها تأتى عقبها أو عقبى الدار الكاملة ، وهى الآخرة ، وعقباها الجنة ، وأضيفت إليها لأنها فيها ، أو الدار العاقبة ، أو عاقبة هى الدار الكاملة وهى الجنة .

(جنَّاتُ) إما بدل من عقبى ، أو بيان أو خبر لمحذوف ، أى هى جنات ، ويدخلونها مستأنف أو نعت له ، وإما مبتدأ خبره يدخلونها (عَدْنٍ) إقامة أى بساتين فيها دورهم لا يرحلون عنها ، وقيل : جنات عدن وسط الجنة ، وكل الجنة دار إقامة ، قال عبد الله بن عمرو بن العاص : هى مساكن الأنبياء والشهداء والعلماء فقط ، لها خمسة آلاف باب .

(يدْخُلونها) وقرىء بالبناء للمفعول من أدخل (ومَنْ صَلَح مِنْ آبائهم وأزْواجِهمْ وذرِّيَّاتِهم) عطف على واو يدخلونها للفصل بالمفعول به ، أو مفعول معه ، وقرأ ابن أبى عبلة بضم لام صلح والفتح أفصح ، وإن لم يبقوا بصلاحهم درجة وتعظيما له ، وللتبع له ، ولم

يحكم بتبعية الأعلى للأدنى ، لأن رحمة الله أوسع ، ولو كان من أدنى أباً ، وذلك كرم من الله سبحانه وتعالى ، وشفاعته من ذلك الذى علت درجته ، قبل : وفى الآية دلالة على أن هؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الثمانية يقرنون لقرابتهم فى الدين زيادة فى أنسهم ، وتقييد الآباء والأزواج والذريات بالصلاح ، على أن مجرد النسب لا ينفع .

وقال الزجاج : لا يلحقون بدرجته إن لم يصلوها بأعمالهم ، وأما « ألحقنا بهم ذرياتهم » ففى مطلق دخول الجنة وهو ضعيف ، وعليه فإذا أراد زوجته صعدت إليه ثم رجعت ، وزعم بعضهم عن ابن عباس : أن معنى صلح أمن وإن لم يعمل الفرائض ، وأنه يكون الإلحاق ، وفى ذلك بمجرد التصديق والمرأة لآخر أزواجها فى الدنيا إن كان من أهل الجنة ، وإلا فلمن قبله إن كان من أهل الجنة ، وهكذا ورد معنى ذلك فى حديث ، وذلك إن كان الأخير أبر بها ، وإلا فلمن كان أبر بها ، وأرفق ، وإن استووا اختارت كما يدل عليه حديث آخر لا كما قيل : إن المرأة لمن مات عنها ، ولو تزوجت بعده من كان من أهل الجنة .

(والملائكةُ يدْخلُون عَليهم مِنْ كلّ بابٍ) من أبواب الجنة ، أو القصور أول دخولهم للتهنئة أو من كل نوع من أنواع الهدايا والتحف ، والتحية من الله جل جلاله كما قال ابن عباس ، وعليه فمن بمعنى الباء أو للابتداء المجازى .

(سَلامٌ عَليْكم) مفعول لحال محذوفة ، أى يقولون أو قائلين : سلام عليكم ، أى سلمتم من الآفات التى كانت تصيبكم فى الدنيا ، لا تصيبكم اليوم ، أو سلمتم مما كنتم تخافونه فى الدنيا من أمر الآخرة ،

وعبروا بالجملة الاسمية تبشيرا بدوام السلامة ، وأجاز بعض أن تكون الجملة حالا على تضمينها معنى مسلمين ، وعلى كل حال فالمراد الإخبار بالسلامة ، وقيل : الدعاء بها .

(بما صَبَرْتم) أى الباء للبدل أو للسببية ، وما مصدرية أى بصبركم ، ويتعلق بالاستقرار الذى ناب عنه عليكم ، ، أو بعليكم لنيابته عنه ، وليس هذا الأخير ممنوعا كما توهم بعض ، أو بسلام ولو كان السلام مصدرا مفصولا بالخبر ، لأن المتعلق ظرف ، ولأن المصدر المذكور ليس مؤولا بحرف مصدر وفعل ، وقال أبو البقاء : لا يتعلق بسلام ، لأنه لا يفصل بين المصدر ومعموله بالخبر ، ويجوز تعليقه لمحذوف خبر لمحذوف ، أى هذا ثابت لكم بصبركم ، وعلى كل حال فالمعنى بسبب صبركم ، أو بالتعويض عما تحملتم من مشقة الصبر .

(فنِعْم) وقرأ فنعم بفتح النون وإسكان العين ، الأصل نعم بفتح النون وكسر العين ، خفف بإسكان العين فبقيت النون مفتوحة ، وأما قراءة الجمهور فالأصل عليها نعم بفتح النون وكسر العين كذلك ، ثم كسرت النون تبعا للعين ، ثم خففت بإسكان العين ، فبقيت النون على الكسر ، أو نقلت كسرة العين المنون المفتوحة قبلها ، فكانت العين ساكنة لنقل حركتها والنون مكسورة بكسرة النقل .

(عُقْبى الدَّار) والمخصوص بالمدح محذوف ، أى عقابكم هذه التى أنتم فيها ، وكان صلى الله عليه وسلم يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : « السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

قال ابن عباس : إذا أثاب الله المؤمنين بالجنة انطلق الرجل منهم

إلى سرادق من للؤلؤ من خمسين ألف فرسخ ، فيه قبة حمراء من ياقوتة ، ولها ألف باب ، وله فيها سبعمائة امرأة ، فيتكىء على شقه فينظر إليها كذا وكذا سنة ، ثم يتكىء على شقه الآخر فينظر إليها مثل ذلك ، ثم ياخل عليه من كل باب ألف ملك من ألف باب ، معهم الهدايا من ربهم ، فيقولون له : سلام عليك من ربك ، فيوضع ذلك ، فيقول : ما أحسن هذا ! فيقول الملك للشجر حلوله : إن ربكن يأمركن أن تقطرن له كل ما اشتهى مـن مثل ذلك ، وكذلك كـل جمعة وهـو المزيد .

وعن مقاتل : إن الملائكة يدخلون عليهم فى مقدار يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم الهدايا والتحف من الله تعالى ، يقولون : « سلام عليكم بما صبرتم » .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن المؤمن ليكون متكئا على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم ، وعند طرف السماطين باب ، فتقبل الملائكة يستأذن لهم أحدهم فيومىء أدنى الخدم إلى الباب الباب فيقول للذى يليه : ملك يستأذن ، فيقول : كل لمن يليه ، فيقول ولى الله للذى يليه من الخدم : ائذن له ، فيقول : كل لمن يليه حتى يبلغ الملك ، فيدخلون ويسلمون وينصرفون » .

(والـّذينَ ينقـُضـُون عـَهد الله من بـَعـْد مـِيثاقـِه) أى بعد الميثاق الواقع فى شأنه وهو الإقرار والقبول اللذان أوثقوا بهما العهد ، والمراد فقائلو للمذكورين أولا ، شبه العهد بالحبل بجامع التوصـل بكل إلى المقصود ، وبجامع الارتباط ، ولم يذكر المشبه به بل ، ذكر المشـبه فهو استعارة مكنيـة ، وينقض رمز وقرينة لأنه مـن لوازم الحبل بـاق

على حقيقته ، تابع للاستعارة ، أو استعارة تصريحية لما يلائم العهد وهو يتركه تبعية لاستعارة النقض للترك ، والعهد قرينة ، ولى فى ذلك بحث فى غير هذا .

(ويقْطعُون ما أمر الله به أن يُوصَلَ) هو ما مر (ويفْسِدون فى الأرْض) بالكفر والمعاصى والظلم وتهييج الفتن (أولئكَ لَهم اللَّعنةُ) البعد من رحمة الله (ولَهم سُوء الدَّار) أىَ عذاب جهنم ، الدار هى جهنم ، أو سوء عاقبة الدنيا ، فالدار الدنيا ، وحذف المضاف وهو عاقبة وسوؤها هى عذاب جهنم ، ودلَّ على ذلكَ أن الكلام فى مقابلة عقبى الدار ، ويجوز أن يراد بالدار فى الموضعين مطلق المرجع أى عقبى المرجع وسوء المرجع ، وعبر بالدار لأن منقلب الناس فى العرف إلى دورهم .

(اللهُ) قيل ذكر المسند إليه مبتدأ يفيد الاختصاص ، وليس كذلك عندى ، فالاختصاص هنا مستفاد من خارج (يبْسُط الرزْقَ لمن يَشاءُ) يوسعه لمن يشاء من كافر استدراجا له ، ومكافأة له فى الدنيا على إحسان كان منه ، وغير ذلك ، ومن مؤمن رحمة له ، وليفرقه فى أنواع البر ولنحو ذلك .

(ويقْدِرُ) يضيقه على منَ يشاء من مؤمن توفيرا لأجره ، أو غفرانا لذنبه ، ومن كافر انتقاما منه .

(وفَرِحُوا) أىَ الكفار أو كفار مكة (بالحيَاةِ الدُّنيا) لما بسطها عليه فرحوا فرح بطر وأشر ، لا فرح شكر ، وذلك حرام ، والركن إلى الدنيا حرام (وما الحيَاةُ الدُّنيا فى الآخِرة) فى جنب الآخرة ، ففى هنا

للمقايسة وهى الداخلة بين مفضول سابق ، وفاضـــل لاحق ، نحو : « فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل » .

(إلا متاعٌ) إلا شىء قليل يتمتع به ثم يزول كقصعة وقدر ، وزاد الراعى : وما يجعل للرابط من تمرات وشربة سويق ونحو ذلك ، ومع قلتها وتنغصها ، وسرعة زوالها اغتر بها الكفار عن نعيم الآخرة الكثير العظيم الهنىء الدائم .

(ويقـُولُ الـَّذينَ كفرُوا) أهل مكة (لوْلا) توبيخ وتعيير ، وإن جعلت الماضى بعدها بمعنى المضارع كانت للتخصيص (أنزِلَ علَيهِ) على محمد (آيةٌ من ربـِّه) كعصى موسى وناقة صالح .

(قلْ) لهم (إنَّ الله يـُضلُّ مَنْ يـَشاءُ) إضلاله ، فلا يؤمن ولو أنزلت آية مثل عصى موسى وناقة صالح ، فإن الآيات كلها سواء فى الدلالة على صدق الرسول ، فكما لم تؤمنوا بما أنزل من الآيات لا تؤمنوا بالآية التى اقترحتم لو نزلت مع الآية المقترحة أو نزلت ولم يؤمن مقترحهـــا لاستؤصل كقوم موسى ، أو مسخ كقوم عيسى ، أو يضل من يشاء باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات الكثيرة ، وكفى بالقرآن وحده آية ، فما أعظم عنادكم فمن أضله الله لا تؤثر فيه كثرة المعجزات ولا عظمها .

(ويـَهْدى إليهِ) إلى الله إلى دينه ولو بأدنى آية (مَنْ أنابَ) رجع إليه عن العناد ، وهو موافق نـــاب ، أو بمعنى دخل فى نوبة الدين كقولك : أعرقت أى دخلت العراق .

(الذِينَ) بدل من أو بيان أو خبـــر لمحذوف ، أى هو الذين أو مفعول لمحذوف أى أمدح الذين (آمنـُوا) بالله ورسوله (وتـَطْمئنُّ)

تسكن (قُلُوبهم) والعطف على آمنوا ولو اختلفا ماضيا ومضارعا ، لأن الإيمان بالله ورسوله يقع دفعة ، واطمئنان القلب بالذكر يقع مرة بعد أخرى ، كلما ذكروه اطمأنوا ، فالمضارع للاستمرار والحال ، وما كان فيه طرف من المضى ، فحصلت المناسبة ، أو هو بمعنى الماضى ، أو العطف على يهدى عطف قصة على أخرى ، مع أن فى كليتهما ذكر الله ، ففى الأولى بالإضمار ، وفى الثانية بالإظهار كما قال : (بذِكْر اللهِ) أنسا به ، واعتمادا عليه ، وحبا له ، ورجاء منه ، وذلك بجودة اليقين والاضطراب يكون بالشك ، أو تطمئن قلوبهم بذكر الله ومغفرته بعد القلق من خشيته ، أو بذكر ما يدل على وجوده ووحدانيته ، وقال الحسن : بوعده بالجنة ، وقال مقاتل : بكلامه وهو القرآن الذى هو أقوى معجزة .

(ألا بذِكْر اللهِ) هو كما ذكرنا آنفا فى أوجهه (تطْمَئنُّ القُلُوب) قلوب المؤمنين ، وقال ابن عباس : هذا الأخير فى الحلف إذا حلف لهم بالله سكن قلوبهم على المحلوف عليه ، والصحيح ما مر ، وأظن أن هذا غير صحيح عنه ، وإن قلت : وصفوا فى الآى الأخر بالوصل ، وفى هذه بالاطمئنان ؟

قلت : الوجل على ذنوبهم ، ولعظمة الرب ، والاطمئنان بما تقدم من الأنس بالله تعالى ونحو ذلك .

(الذِينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات) الذين بدل كل من القلوب على حذف مضاف ، أى قلوب الذين آمنوا ، أو مبتدأ خبره جملة قوله : (طُوبَى لهم) على أن طوبى مبتدأ ، ولهم خبره ، سواء جعلنا طوبى اسم ذات كالشجرة المخصوصة فى الجنة ، أو اسم معنى ، أى لهم الطيب ، أو طوبى مفعول مطلق نائب عن عامله ، فتكون اللام لتبيين

الفاعل ، والأصل طابوا طيبا حذف العامل وهو طاب ، وجىء بطوبى بدل طيبا ، وجر الضمير العائد إلى ما عاد إليه الواو باللام وهو الهاء النائبة عن الواو وهذه الجملة ، أو ما ناب عنها من قوله : « طوبى لهم » خبر الذين ، ولام التبيين متعلقة بمحذوف خبر لمحذوف ، أى ارادتى ثابتة لهم ، وطوبى مصدر سمعت به الذات الطيبة كالشجرة المذكورة ، أو الجنة ، أو مصدر باق كبشرى وزلفى ورجعى وألفه للتأنيث وواوه عن ياء ، لأنه من طاب يطيب طيبا قلبت واوا لانضمام مـا قبلها ، وقـرأ مكوزة الأعرابى : طيبى لهم بكسر الطاء لتسلم الياء كما قيل فى جمع أبيض أو بيضاء : بيض ، والأصـل بوض كأحمر حمر .

وقد اختلفوا فى معنى طوبى أخرج أحمد ، وابن حبان ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طوبى شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام » وفى رواية عن أبى سعيد : يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، وفى رواية : اقرءوا إن شئتم : « وظل ممدود » .

وروى سهيل بن سعيد : يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ولا يقطعها ، وفى رواية يسير الراكب المجد فى ظلها مائة سـنة ، ولا يقطعها ، ذكر أبو نعيم الأصبهانى بسنده ، عن أبى سعيد ، أن رجلا قال : يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك . قال : « طوبى لمن رآنى وآمن بى ، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى » فقال رجل : ما طوبى يا رسول الله ؟ قال : « شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج مـن أكمامها » وفى رواية ، عن بعض الصحابة : « أنها شجرة غرسها الله بيده » أى بقدرته ونفخ فيها من روحه ، تنبت الحلى والحلل ، وأن أغصانها لترى من وراء سور الجنة .

وعن أبى هريرة : طوبى شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، اقرءوا إن شئتم : « وظل ممدود » يقال لها : تفتقى لعبدى عما يشاء فتتفتق له بفرس مسروجة بلجامها وهيئاتها كما يشاء وتتفتق لـــه عن الراحلـــة برحلها وزمامهـــا وهيئاتها كما يشـــاء .

وعن الثياب ، عن كعب الأحبار : والذى أنزل التوراة على موسى ، والفرقان على محمد ، لو أن رجلا ركب حقة أو جذعة ، ثم دار بأصلها ما انتهى حتى يسقط هرما ، إن الله غرسها بيده ، ونفخ فيها من روحه ، أى من الروح التى هى خلق له وملك ، وما فى الجنة نهر من ماء أو لبن أو عسل أو خمر ، إلا وهو يخرج من أصلها وأغصانها من وراء الجنة .

وعن أبى أمامة ، وأبى هريرة ، وأبى الدرداء : أن طوبى اسم شجرة فى الجنة تظلل الجنان جميعا ، قيل : هى فى جنة عدن ، أصـــلها فى دار النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى كل دار وغرفة غصن منها ، لم يخلق الله لونا أو زهرة إلا وهو فيها إلا السواد ، ولا تمرة أولا فاكهة إلا وفيها منها ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل .

قال مقاتل : كل ورقة تظل أمة عليها ملك يسبح الله سبحانه وتعالى بأنواع التسبيح ، لو سار الراكب المجد مائة سنة ما قطع أصلها ، ولـــو طار غراب من أصلها لم يبلغ فرعها حتى يبيض شيبا ، يجتمع أهل الجنة فيها للتحدث .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن جبير : طوبى اسم الجنة بالهندية ، وعنه : بالحبشية ، وكذا روى ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس أنها بالحبشية

وما تقدم انها شجرة فى الجنة هو الصحيح للأحاديث وهو رواية عن ابن عبـاس .

وقال الجمهور : إنها كلمة خير بالمعنى المصدرى كقولك : هنيئا لك ، وسقيا لك ، وبشرى لك ، قال الضحاك : معناه غبطة لهم ، وقال بعضهم : طابت الحال لهم طيبا بقاء بلا فناء وعز بلا ذل ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا سقم ، وعن قتادة : أصابوا خيرا طيبا حسنا ، وعن ابن عباس : فرح وقرة عين لهم ، وعن عكرمة : نعماء لهم .

(وحُسنُ) بالرفع عطفا على طوبى برسم أن لفظ طوبى مبتدأ ، وقرأ بالنصب عطفا عليه على أنه مفعول مطلق (مَآبٍ) مرجع أى موضع يرجعون إليه وهو الجنة .

(كَذلكَ أرْسلناكَ) أى كما أرسلنا رسلا إلى أمم قبلك أرسلناك (فى أمةٍ قَدْ خلَتْ) مضت (مِنْ قَبها أممٌ) أرسل الرسل إليهم ، فليس إرسالك بدعا (عَليهم الذِى أوْحينَا إليكَ) وهو القرآن ، والهاء فى عليهم للأمة ، قال صلى الله عليه وسلم : « أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله » .

(وهُم) أى قومك والواو للحال من فاعل فى أرسلناك (يكْفرونَ بالرَّحْمن) أى بالله الذى هو المنعم بجلائل النعم ودقائقها ، نعم الدنيا والآخرة ، ومنها : إرساله إياك إليهم ، وإنزال القرآن المتعلقة بــه منافع الدين والدنيا ، فالمراد بالرحمن الذات الواجب الوجود ، وذلك أنهم كفروا بهذا اسم الذى هو قولك : الرحمن ، والكفر باسم من أسماء الله كفر بالله تعالى .

ويجوز أن يراد بالرحمن فى الآية هذا الاسم ، ويقدر على هذا الوجه مضاف فى قوله : « هو ربى » أى هو اسم ربى •

لما صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فى الحديبية قال لعلى اكتب : « هذا ما صالح محمد رسول الله » قال سهل بن عمر : إن كنت رسولا لقد ظلمناك ، ولكن اكتب هذا ما صالح عليه ابن عبد الله ، قال المسلمون : دعنا نقاتلهم ، قال : « لا لكن اكتبوا ما يريدون » وكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال : أما الرحمن فلا نعرفه إلا رحمن اليمامة وهو مسيلمة ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، وكانت الجاهلية يكتبون ذلك ، فقالوا : دعنا نقاتلهم ، فقال : « لا لكن اكتبوا ما يريدون » فنزل : « كذلك أرسلناك فى أمة » إلى « وإليه متاب » فالآية مدنية ، وبه قال مقاتل ، وابن جريج ، وقتادة •

والمعروف أنها مكية ، وأن سببها أن أبا جهل سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فى الحجر يا الله ، يا رحمن ، فرجع إلى المشركين فقال : إن محمدا يدعو إلهين اثنين ، يدعو الله ، ويدعو إلها آخر يسمى الرحمن ، ولا نعرف رحمن إلا رحمن اليمامة فنزلت ، وقال الضحاك ، عن ابن عباس : نزلت فى قولهم : وما الرحمن حين قال لهم : « اسجدوا الرحمن » ونزل فى ذلك أيضا : « قل ادعو الله أو ادعو الرحمن » الآية وكذا قال الحسن •

(قلْ) يا محمد (هوْ ربِّى) مبتدأ وخبر ، أو هو ضمير الشأن مبتدأ ، وربى مبتدأ وقوله : (لا إله إلاّ هوْ) خبر مبتدأ ، والجملة خبر

الشأن ، أى لا أهل للعبادة سواه ، ولا شريك له كما زعم قائلكم : إن محمداً يدعو إلهين •

(عَلَيه) لا على غيره (توَكَّلتُ) فى نصرتى عليكم جميع أمورى (وإليه) لا إلى غيره (مَتَابِ) أى مرجعى ، وهو مصدر ميمى بمعنى الرجوع ، أى لا أرجع إلا إليه بالبعث للجزاء على مصابرتكم ومجاهدتكم ، وحذفت ياء الإضافة ، ودلت عليها الكسرة •

قال ابن عباس وغيره : إن نفراً من مشركى قريش ، منهم أبو جهل ، وعبد الله بن أمية ، جلسوا خلف الكعبة ، وأرسلوا خلف النبى صلى الله عليه وسلم فأتاهم ، وقيل : مر بهم وهم جلوس ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، فقال عبد الله بن أمية : إن سرك أن نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن ، وأذهبها عنا حتى نتفسح ، فإنها أرض ضيقة ، فنتخذ فيها بساتين ومزارع ، واجعل لنا أنهارا نسقى ذلك بها إن كنت نبيا كما زعمت ، فلست بأهون على ربك من داود ، إذ سخر له الجبال ؟

قال : « لا أقدر على ذلك » •

قالوا : فسخر لنا الريح لنركبها إلى الشام فى ميرتنا وحوائجنا ، ونرجع من يومنا ، فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة ، كما سخرت لسليمان ، ولست بأهون على الله منه إن كنت كما زعمت ؟

قال : « لا أستطيع » •

قالوا : فابعث لنا جدك قصيا أو فلانا وفلانا لنسألهم عن أمرك أحق

أم باطل ، فإن عيسى كان يحيى الموتى ، ولست بأهون على الله منـه إن كنت رسوله ؟

قال : « لا أستطيع ذلك » فنزل :

(ولَو أنَّ قُرآناً) أى ولو ثبت فى وقت ما من الأوقات ، أو حال من الأحوال ، أن قرآنا أى قرأت أو مقروءاً (سُيِّرت به الجبال) عن مواضعها ، والتشديد للتعدية (أو قُطِّعتْ به الأرضُ) شققت وفجرت أنهارا كما طلبتم ، أو قطعت بالسير كما طلبتم ، والتشديد للمبالغة .

(أوْ كلِّم بهِ الموْتَى) فسمعت وأجابت ، وجواب لو محذوف ، أى لكان ذلك هو هذا القرآن الذى يتلوه عليكم محمد ، لأنه الغـاية فى الإعجاز ، والتذكير والإنذار ، فالمراد تعظيم شأن القرآن ، ويجوز تقديره هكذا : لما آمنوا به كقوله تعالى : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة » الآية ، فيكون المراد المبالغة فى عناد الكفرة ، وتصميمهم على الكفر .

وقيل : إن الآية لم تنزل بسبب ذلك ، وعليه فتقطيع الأرض تصييرها متصدعة مـن خشـية الله جل جلالـه .

وقال الفراء : جواب لو محذوف ، دليله : « هم يكفرون بالرحمن » فكأنه قيل : وهم يكفرون بالرحمن ، ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ، الخ فتقديره لكفروا بالرحمن ، واعترض بين لو ودليل جوابها ، ولا بأس بهذا القول ، وروى مثل قول ابن عباس عن الحسن ، إلا أنه لم يذكر السفر وإحياء الموتى ، ولم يقل كلمة كما قال سيرت وقطعت ، لاشتمال الموتى

على المذكر الحقيقى ، فاختير جانب التذكير ، ولو كان التأنيث جائزا بتأويل الجماعة .

(بَلْ) إضراب عن النفى ، فإن لو للامتناع ، والامتناع نفى (لله الأمر جَميعاً) أى القدرة على كل شىء ، فلو شاء لأتى بما اقترحوا من الآيات ، لكنه لم يفعل لأنه قد علم أنه لو فعل لما آمنوا ، ولأنه لم ير مصلحة فى فعله ، ويدل لذلك ذكر الإياس بعد ، أو الأمر كله من الإيمان وكفر وغيرهما مخصوص به ، فلا يؤمن إلا من شاء إيمانه ، ولو أوتوا ما اقترحوا ، والأمر كله الله ، فلو شاء لجبرهم على الإيمان ، لكنه بنى أمر التكليف على الاختيار ، وكل من ذلك مناسب لقوله : « أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا » بأن تفسير المشيئة على الأخير بمشيئة الإلجاء والجبر ، جميعا حال من ضمير الاستقرار المستكن فى قوله : « لله » .

(أفلَم ييْئس) ألم يقنط (الَّذينَ آمنُوا) من إيمان تلك الكفرة مع ما رأوا من أحوالهم المصممة على الكفر (أنْ لَوْ يَشَاء الله لهدَى النَّاس جَميعا) باختيارهم أو بالجبر تعالى عنه ، أو لهداهم بلا آية ، وأن مخففة اسمها ضمير الشأن محذوفا ، ويقدر من خبرها مفعول لمحذوف ، أى أفلم يقنط الذين آمنوا من إيمان هؤلاء ، علما أن لو يشاء الخ ، أو عالمين أن لو يشاء الخ .

قال الكسائى : لما طالب المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآيات ، اختار المسلمون أن يأتيهم بها ليجتمعوا على الإيمان ، فنزل : « أفلم ييئس الذين آمنوا » الخ و « أن لو يشاء الله » مفعول لمحذوف

أى ويعلموا أن لو يشـاء ، فحـذف العـاطف والمعطوف وبقى مفعول المعطوف انتهى .

وقيل : يئس بمعنى يعلم ، قال الثعالبى : وهى لغة هوازن انتهى .

وقال الكلبى : لغة نخع ، والجمهور على أنه بمعنى يعلم ، ويدل له قراءة على ، وابن عباس ، وجماعة من الصحابة والتابعين : أفلم يتبين ، وهى تفسير قراءة الجمهور ، وإنما استعمل اليأس بمعنى العلم ، لأنه متضمن معناه ، فإن الآيس من الشىء عالم بأنه لا يكـون كما اسـتعمل الرجاء ، فى معنى الخوف والنسيان فى معنى الترك لتضمن ذلك ، أنشد ابن هشام وغيره قول سحيم :

* ألم تيأسوا أنى ابن فارس زهدم *

قال شاعر :

* ألم ييأس الأقوال أنى أنا ابنه *

والصحيح عندى أن ييئس من القنوط أن لو يشاء إلى آخره معمول لمحذوف كما مر ، أو بتقدير اللام ، أى لأنه لو يشاء الله ويقدر فى البيتين ألم ييئسوا من ذلى ولو كنت مأسورا لا أنى ابن فارس زهدم ، وألم من كون نسبى غير ما يدعون ، لأنى أنا ابن فلان ، أو لم ييئسوا عالمين أنى ابن فارس زهدم وألم ييئسوا عالمين أنى أنا ابنه .

قال الكسائى : ما وجدت العرب تقول : يئست بمعنى علمت ، وعلى ما قاله الجمهور من كونه بمعنى يعلم يتعلق فى الآية بما بعده ، فـلا

يقدر شيء ، أى أفلم يعلموا أن لو يشاء الله ، والمراد نفى هـدى بعض الناس لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم ، وقيل : إنما هو أفلم يتبين ، كما قرأ على ، وابن عباس ، فكتبه الكاتب ناعسا مستوى السيئات ، وهـذا خطأ لأن الله سبحانه قد ضمن لنا حفظ هذا الكتاب مـن أن يغير تغييرا يقتدى به ، ولأن المصحف كان متقلبا فى أيدى الصحابة ، فكيف يقروءن فيه خطأ .

(ولا يزالُ الذِين كَفَرُوا) من أهل مكة والعرب (تُصيبهم بمَا صنَعُوا) ما مصدرية أى بصنعهم ، أو اسم أى بما صنعوه من الكفر والأعمال الخبيثة برسولُ الله صلى الله عليه وسلم وغيره (قارِعةٌ) داهية تقرعهم ، أى تضربهم بصنوف البلايا كالأسر ، والحرب ، والجدب والقتل ، والسلب ، وسائر البلايا فى أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، قال ابن عباس : القارعة السرايا من رسول الله صلى الله عليه وسـلم إليهم وغزواته ، وعليه اقتصر الشيخ هود رحمه الله .

(أو تحلُّ) هى أن القارعة أو أنت يا محمد بجيشك ، وأو لتنويع البلاء (قَرِيبا) أى مكانا قريبا ، فالنصب على الظرفية ، ويجوز عـلى المفعلية (مِنْ دارِهم) بلدهم وهو مكة ، أو الدار بمعنى الديـار ، فإضافته للجنس ، ويضطربون بحلولك أو حلول القارعة فى قريب منهم ، ويفزعون ، ويتطاير شرر ذلك ، ويتعدى إليهم شره ، وذلك إنما كان صلى الله عليه وسلم يبعث السرايا تغير عليهم ، وتقتل وتخطف المواشى ، ونزل قريبا من دارهم عـام الحديبيـة بجيشـه .

(حتَّى يأتِىَ وعْدُ اللهِ) أى موعوده وهو موتهم ، أو فتح مكة ،

قال ابن عباس : وعده فتح مكة ، وقال الحسن : الآية فى جميع الكفار إلى يوم القيامة فى أى موضع كانوا ، ووعد الله هو يوم القيامة يجمعهم فيه للجزاء .

(إنَّ اللهَ لا يُخلِفُ الميعادَ) أى الوعد وهو مفعال منه ، قلبت الواو ياء لسكونها بعد كسرة ، وقد حل بالحديبية ، ووقع الفتح ، ووقع كل ما أتى أجله ، لأن الكذب محال عن الله .

(ولَقد استُهزِئَ برسُلٍ من قَبلكَ) برسل نائب فاعل استهزئ ، والأصل استهزأت الأمم برسلها ، ومن قبلك نعت رسل ، أو متعلق باستهزئ .

(فأمليتُ للَّذينَ كَفرُوا) بهؤلاء الرسل واستهزءوا بهم ، أى أخرت لهم العقاب ، وأخرت لهم ، وتركتهم مدة طويلة استدراجا لهم فى سعة من صحة ورزق وأمن ، وأصل الإملاء الترك ملاوة بفتح الميم وكسرها وضمها ، أى مدة طويلة ، يقال : أمليت للدابة فى المرعى ، ومن ذلك يقال للواسع الطويل من الأرض : ملاء .

(ثمَّ أخذْتهم) بالعذاب دُنيا كالقحط والأسر ، والقتل والإغراق ، والإحراق والصيحة ، وأخرى بالنار (فكَيفَ كانَ عِقابِ) أى إياهم أى كان عقابا شديدا أخذا من الغابة بمكان فكذلك أفعل بمن كذبك واستهزأ بك ، ولو أمليت لهم فاصبر كما صبرت الرسل من قبلك ، ننتقم لك من مكذبيك ، كما انتقمنا لهم من مكذبيهم ، فذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووعيد لمن استهزأ به ، وكان الحسن إذا قرأ :

« فكيف كان عقاب » قال : كان والله شديدا ، وحذفت ياء المتكلم لدلالة الكسرة عليها تخفيفا .

(أفمَنْ هو قائمٌ) رقيب (علَى كلِّ نفسٍ بما كَسَبَت) عملت من خير أو شر فيجازيهم ، والخبر محذوف ، أى كمن ليس كذلك ، بل عجز عن مصالحه فضلا عن غيره وهو الصنم ، كما لوح إليه بذكر الشركاء بعد ، أو أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أحق بالعبادة أم الجمادات ، أو يقدر الخبر هكذا لم يوحدوه وعليه يكون قوله :

(وجَعَلوا لله شُركاءَ) معطوفا عليه ، ومقتضى الظاهر أن يقال : لم يوحدوه وجعلوا له شركاء ، ولكن وضع الظاهر موضع المضمر ، لدلالة الظاهر وهو لفظ الجلالة ، على أن الله جل جلاله هو المستحق للعبادة مختص بهذا الاسم ، وإذا قدرنا الخبر كمن ليس كذلك ، أو قدرناه أحق ، فجملة جعلوا الخ مستأنفة ، ويجوز عطفها على كسبت بأن نجعل ما مصدرية أى بكسبها ، وجعلهم له شركاء فيقدر الخبر بعد شركاء ، ومن فى ذلك كله موصولة .

ويجوز أن يكون الأصل اجهلوا حق الله ووحدته ، وجعلوا له شركاء ، وجملة من هو الخ معترضة ، فتكون من استفهامية وهو قائم خبرها ، كأنه قيل : من هو قائم على كل نفس بما كسبت أهو أم شركاؤهم .

(قلْ سمُّوهم) أى ذكروا هؤلاء الشركاء من هم أى ليسوا بشىء كما ترى إنسانا يتعد بزيد فتقول له : من زيد ، تريد ليس شيئا يتعد به ، وأنه خامل ، أو المعنى اذكروهم بأسمائهم ننظر هل هم ممن يستحق

العبادة كما يقول لك إنسان : عندى من الجند كذا ، فتقول : أنت منهم ؟ تريد أن يذكرهم لك لتنظر هل يقومون بالقتال والذب ، أو المعنى صفوهم لننظر هل فى صفتهم ما يتأهلون به للعبادة .

(أم) بمعنى بل وهمـزة الإنكار (تنبئونه) تخبرونه ، وقرىء بإسكان النون وتخفيف الموحدة بعدها (بما لا يعلم فى الأرض) من شركاء يستحقون العبادة ، أو من صفات يستحقون العبادة بها ، والمراد نفى ذلك ، لأنه لو كان ذلك موجودا لكان معلوما لله ، لأنه لا يخفى عنه شىء فى سماء أو أرض ، وأراد بنفى العلم نفى المعلوم ، وهو نفى الشىء بنفى لازمه .

(أم بظاهر) أى وأم تسمونهم شركاء بظاهر (من القول) من غير حقيقة موجودة ، واعتبار معنى صحيح كتسمية الميت حيا ، والزنجى كافورا ، والجاهل عالما ، وذلك كيف تقولون الشىء بلا تفكر فى معنـاه وأنتم أولوا الألباب ، احتجاج بليغ ينادى بلسانه أن لا مقاوم له ، ويجوز أن يكون التقدير أم تنبئونه بظاهر من القول وهو المتبادر .

(بل زين للذين كفروا مكرهم) أباطيلهم أنـه زينها لهم الشيطان وزخرفها فظنوها حقا ، أو زين لهم كيدهم للإسلام بالشرك ، أو مكرهم هو نفس الكفر كما قال ابن عباس ، لأن تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر ، واحتيالهم فيما يضره كفر ، والمزين الشيطان كمـا رأيت لعنه الله ، بمعنى أنه وسوس لهم أو الله جل جلاله بمعنى أنه خذلهم ، ولا يقدرة لغيره تعالى على الإضلال والهداية لقوله : « ومن يضلل الله فماله من هاد » ونحوه .

(وصُدُّوا) أعرضوا بأنفسهم ، أو صرفوا غيرهم (عَن السَّبيلِ) سبيل الحق وهو دين الإسلام ، وقرأه الكوفيون بضم الصاد ، أى صدهم من كان قبلهم بتشريع الباطل ، أو الشيطان بالوسوسة ، أو الله تعالى بالخذلان ، وقرىء بكسر الصاد على البناء للمفعول كالكوفيين ، لكن نقلت حركة الدال المدغمة للصاد ، وقرأ ابن أبى إسحاق وصد بفتح الصاد وتنوين الدال ، على أنه اسم معطوف على مكر ، أى زين لهم المكر والصد لغيرهم ، أو صدهم بأنفسهم •

(ومَنْ يُضلِلِ) يخذل عن السبيل (اللهُ) باختياره عدم الاهتداء لا بالجبر من الله (فماله مِنْ هادٍ) موفق للسبيل •

(لَهم عذابٌ فى الحياةِ الدُّنيا) بأسر وقتل ، وسلب وجوع ، وغير ذلك من النقم على كفرهم ، ولكون ذلك مما أوجبه كفرهم ، ذكره عقب ضلالهم وبعد الصد والمكر (ولَعذابُ الآخرة أشقُّ) أشد وأصعب من عذاب الدنيا لعظمه فى نفسه ، وكثرته بلا عدد ودوامه ، وذلك من الشق بمعنى الصدع لأنه يصدع القلب •

(وما لَهم مِنَ اللهِ) أى من عذابه متعلق بواق من قوله : (مِنْ) صلة للتأكيد (واقٍ) حافظ ومانع ، أو ليس لهم واق من العذاب آت رحمته تعالى ، وعلى هذا فالموقى عنه محذوف ، أى لا راحم لهم من الله يقيهم العذاب •

(مثَلُ الجنَّة) أى صفتها العجيبة البالغة مبلغا يضرب بها المثل فى الغرابة ، وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه ، أى مما قصصنا عليك ،

أو فيما قصصنا عليك ، أو خبر لمحذوف ، أى هذا مثل الجنة أشير إليه قبل ذكره تعظيما له ، وتنبيها وإيقاظا لمن يصغى إليه ، وقيل : مبتدأ خبره تجرى الخ ولم يحتج لأنه نفس المبتدأ ، فإن جريان الأنهار من تحتها ، وما ذكر بعدهما نفس المثل ، وتقدير موصوف أى جنة تجرى تمثيلا لما غاب بما نشاهد ، لكن بزيادة قيد دوام الأكل والظل لو دام فى ما نشاهده ، وعلى زيادة مثل وهذا فى مذهب مجيز زيادة الأسماء ، ونسبه فى الآية بعضهم لسيبويه ، والمشهور أنه مذهب الكوفيين ، والمانع يئول ما تعين للزيادة بأنه نادر فلا يحمل الآية عليه وعلى الزيادة ، فكأنه قيل الجنة .

(التى وُعدَ المتقُون) على اتقاهم (تَجْرى مِنْ تَحتْها الأنهار) وإذ لم تجعل جملة ، وتجرى خبرا ، ولا نعت الخبر كانت مستأنفة أو حالا من رابط الصلة المحذوف ، أى التى وعدها المتقون جارية أنهارها من تحتها ، على أن الوعد فى كتب الله ، وأن الجنة مخلوقة اليوم .

وإن قلنا : المراد بالوعد الوعد الأزلى ، أو أنها ستخلف ، فالحال مقدرة ، والمتقون نائب الفاعل وهو المفعول الأول نائب عن الفاعل ، وها مفعول ثان يقدر مقدما على النائب ، وقرأ على أمثال الجنة بالجمع أى صفاتها .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن أنهار الجنة من ماء وعسل ولبن وخمر ، تجرى فى غير شق فى الأرض ، ولا بناء ، ويصعد الماء فى جريانـــه عـــن الأرض اثنى عشر ذراعـــا » .

(أكُلها) أى المأكول فيها وهو الفواكه والثمار ، أو جميع ما يؤكل فيها (دائمٌ) لا ينقطع ولا يفنى ، ولا يختص بحين دون حين .

روى أن ولى الله إذا تناول ثمرة لم تصل فاه إلا وقد بدل الله سبحانه مكانها أخرى ، والجذع من ذهب ، وسعفها حلل ، وكربها زبرجد أخضر ، وشماريخها در أبيض ، وطول العرجون اثنا عشر ذراعا ، مركب من أعلاه إلى أسفله ، ليس لثمره نوى ، أحلى من العسل ، وأبيض من الثلج ، وألين من الزبد ، والرمانة كالبعير بقتبه .

(وظلها) مبتدأ محذوف الخبر ، أى دائم ، أو كذلك لا تنسخه شمس كما تنسخ الظل فى الدنيا ، إذ لا شمس فى الجنة .

وإن قلت : إذا جعلنا ذلك ذكرا للجنة بصفتها فلا إشكال ، وإذا جعلناه تمثيلا بجنة الدنيا أشكل الفهم عنا ، إذ لا جنة فى الدنيا دائمة الأكل والظل ؟

قلت : ساغ ذلك على شريطة الدوام ، كأنه قيل : الجنة الموعودة للمتقين كجنة فى الدنيا جارية الأنهار ، دائمة الأكل والظل ، لو دام أكلها وظلها كما مرت الإشارة إليه ، أو قوله : « أكلها دائم وظلها » ليس داخل فى التمثيل بجنة الدنيا ، بل يعود إلى جنة الآخرة ، والتحقيق عندى إنما المراد دوام أكل الجنة وظلها بعد دخولهم فيها ، سواء قلنا : إنها مخلوقة اليوم وهو الصحيح لما مر فى مواضعه ، أو قلنا : إنها ستخلق ، وسواء قلنا : بفنائها عند قيام الساعة لظاهر قوله : « كل شىء هالك إلا وجهه » أو قلنا : بأنها لا تفنى ، وإنما المراد موت كل حى سواه تعالى ، فلم يصح قول بعضهم كعبد الجبار المعتزلى أنها لو كانت مخلوقة اليوم لفنيت عند قيام الساعة فينافى الدوام المذكور فى هذه الآية .

(تِلْكَ) الجنة الموصوفة الرفيعة الشأن (عُقْبى الَّذين اتَّقَوْا)

ما عاقبة غضب الله سبحانه وتعالى من الكفر ومعاصى (وعُقْبى الكافرِينَ النَّار) الدائمة الجوع والايجاع بالحرارة والزمهرير ، وتعريف الطرفين فى الجملتين مفيد للقصر ، قصر موصوف على صفة فى الأولى ، وقصر صفة على موصوف فى الثانية ، كأنه قيل : تكون الجنة عاقبة للمتقين لاغير عاقبة ، وأما الكافرون فلا عقبى لهم إلا النار ، كقولك : السمن واللحم غداك ، وجزاء زيد الضرب والسجن ، ولا يخفى ما فى ذلك الذى قررت من الترغيب للمتقين وإقناط الكافرين .

(والَّذين آتيناهُم الكِتابَ) التوراة ، والمراد مؤمنو اليهود ، كعبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، وقيل : الكتاب الجنس الصـادق بكتابين وهما التوراة والإنجيل ، فالمراد مؤمنو اليهود مثل من ذكر ، ومؤمنو النصارى وهم ثمانون رجلا ، أربعون من نجران ، وثمانية من اليمن ، واثنان وثلاثون من الحبشة ، وقيل : الاثنان والثلاثون من عامة النصارى ، وقيل : أربعون من نجران ، وثلاثون من الحبشة ، وعشرة من سواهم .

(يفْرحُون بما أنزِلَ إليكَ) مما وافق كتابهم أو خـالفه ، أو أو يصبرون على ما خالف كتابهم ويصدقون به ، ويفرحون فرحا بما وافقه ، وقيل : كـان ذكر الرحمن فى القرآن قليلا حين أسـلم عبد الله ابن سلام ، وكعب ونحوهما ، فساءهم ذلك وكان كثيرا فى التوراة ، ولما كرر الله تعالى ذكر الرحمن فى القرآن فرحوا ، وفى ذلك مدح لهم كمـا قال عياض ، وذلك كقول ابن زيد ، والحسن ، وقتـادة ، وقيل : المراد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والكتاب القرآن ، كانوا يفرحون بما يتجدد من الأحكام والتوحيد والنبوة والبعث ، يزدادون يقينا .

(ومِنَ الأحزابِ) الذين تحزبوا على عداوتك من اليهود ، ككعب ابن الأشرف ، وحيى بن أخطب وأصحابهما ، ومن النصارى كالسيد والعاقب رئيسى نجران وأشياعهما ، ومن مشركى العرب ككفار قريش (مَنْ يُنكر بعْضَه) وهو ما يخالف شرائعهم وما يخالف ما حرفوه منها ، ولو وافق شرائعهم ، وما يخالف ما يعرفونه كإنكار قريش اسم الرحمن ، ولم ينكروا البعض الآخر ، وهو ما وافقهم ، وما عرفوه كاسم الله ، وإثبات الله وقدرته ، وخلق السموات والأرض .

(قلْ) للمنكرين مجيبا على إنكارهم (إنمَّا أمِرتُ) فيما أنزل إلىَّ (أنْ أعبُد) أى بأن أعبد (اللهَ ولا أشْركَ بهِ) شيئا ، ولاسبيل لكم إلى إنكار ما أنزل مما خالف شرائعكم ، إذ ليس ببدع تخالف الشرائع فى الأحكام ، وإنى ولو دعوت بأسماء فهى كلها لله لا أسماء لشريك له ، إذ لا شريك له ، فكما أن الله اسمه ، كذلك الرحمن اسمه ، فمن ادعى منكم أنه لا يعرفه اسما لله ، أو أنه اسم لغيره تعالى ، فليس مصيبا ، وقرأ أبو خليد ، عن نافع برفع أشرك على الاستئناف أو الحال ، والمشهور عن نافع النصب .

(إليهِ) لا إلى غيره (أدعُو) كم وكل أحد (وإليهِ) لا إلى غيره (مآبِ) مرجعى ، أى رجوعى للجزاء ، وكذا ترجعون ، وإنما الذى تتفق فيه الشرائع هو الذى ذكرته لكم من توحيد الله ، والدعاء إليه ، والبعث للجزاء ونحو ذلك ، كمكارم الأخلاق ، وأما ما أنكرتم مخالفته فهما ، جاز تخالف الشرائع فيه .

(وكَذلكَ) أى ومثل ذلك الإنزال المشتمل على ما اتفقت فيه

الشرائع ، أو كما نزلنا الكتب على الأنبياء بلغاتهم ، أو كما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلسان العرب ، قيل : ما نزل كتاب إلا بالعربية ، ويترجمه النبى لقومه بلغتهم (أنزلناهُ) أى القرآن (حُكْما) حال مبالغة ، لأن فيه جميع التكاليف والأحكام ، والحلال والحرام ، والنقض والإبرام ، كأنه نفس الحكم ، أو لأن التلفظ به حكم بمقتضاه ، وهذا باعتبار الخلق لأنهم المتلفظون به ، أو بمعنى ذا حكم ، أو محكوما به ، فإنه صلى الله عليه وسلم يحكم به بين الناس فى الوقائع على ما تقتضيه الحكمة التى فيه ، وسهل جعل حكما حالا وصفه بما هو بمنزلة المشتق وهو قوله :

(عَرَبيا) أى منسوبا للغة العرب ليسهل لهم فهمه وحفظه (ولئن اتَّبعتَ أهْواءهُم) من إرادة دخولك فى ملتهم كما قال الجمهور ، أو تجويزك إياها ، أو الصلاة إلى بيت المقدس كما قال ابن المسيب ، أو عدم تبليغ ما أرسلت به ، أو جمع ذلك (بَعْد الذِى جَاءكَ مِنْ العِلْم) بالتوحيد ، وتحويل القبلة إلى الكعبة وسائر ما أنزل إليك .

(مَالكَ مِنَ اللهِ مِنْ) صلة للتأكيد (ولىٍّ) أى مالك ناصر من عذاب الله ، أو مالك ناصر يأتيك من رحمته (ولا واقٍ) حافظ من عذابه ، وذلك إقناط للكفرة ، وقطع لأطماعهم ، من أن يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهواءهم ، وتهييج لأمته على التصلب فى الدين ، وإلا فرسول الله صلى الله عليه وسلم عن اتباعهم بمعزل ، وعلى التصلب بمكان ولذلك قيل : الخطاب فى الظاهر له صلى الله عليه وسلم ، وفى الحقيقة لغيره .

(ولَقَد أرْسلنَا رسُلاً مِنْ قَبلكَ) بشرا مثلك ، وهذا رد عليهم ، إذ زعموا أن الله لو شاء الرسالة لاختار لها ملكا من الملائكة (وجَعَلنا لَهم

أزْواجا) مثلك ، وقد كان لسليمان ثلاثمائة امرأة حرة وسبعمائة سرية ، وهذا رد على اليهود لعنهم الله ، إذ زعموا أن هذا الرجل يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم ماله همة إلا فى النساء ، ولو كان رسولا كما زعم لاشتغل عن ذلك بالزهد ، وقيل : قال ذلك المشركون (وذُريَّةً) كما لك ذرية ، وهذا رد عليهم ، إذ زعموا أعنى اليهود أو المشركين أنه لو كان رسولا لم يشتغل بالتماس الولد .

(ومَا كانَ لرسُولٍ) ما صح له ، أو ما كان فى طاقته (أنْ يأتىَ بآيةٍ) يطلبها قومه (إلا بإذْنِ اللهِ) لأنَّهم عبيد مربوبون ، فما كان منهم من الآيات كالعصى والناقة فبإذن الله ومشيئته ، وهذا رد على من يطلب منه الآيات كقريش ، وكفار المدينة واليهود .

(لِكلِّ أَجلٍ) مدة (كِتابٌ) حكم مكتوب على العباد يصيبهم ، أو يفرض عليهم على ما تقضيه الحكمة والصلاح ، فمن ذلك تأخير العذاب ، فقد تضمن هذا ردا عليهم فى استبطائهم العذاب الذى وعده لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقولهم : إن كنت رسولا فأتنا به ، والرد على اليهود فى إنكار النسخ ، أو لكل أجل أجله الله لشىء كتاب كتبه فيه ، أو لكل مدة مخصوصة عند الله كتاب ينزله فيها على نبى ، ولذلك قيل : إن هنا قلبا ، والأصل لكل كتاب أجل ينتهى حكمه إلى الأجل ، فيكون هـذا وما بعده فى الرد على منكرى النسخ ، أو يخص هذا بما يصيب الناس من خير وشر ، وما بعد بالنسخ .

روى أن اليهود ، قبحهم الله ، يقولون : إن محمدا يأمر أصحابه بأمر

اليوم ويأمرهم بخلافه غدا ، وما ذلك إلا لأنهم يقولون : إنه يقول من تلقاء نفسه فنزل :

(يمحُوا) وحذفت الواو فى الخط شذوذا كما حذفت نطقا (اللهُ ما يشاءُ) من الشرائع والفرائض بالنسخ (ويُثبتُ) ما يشاء أن لا ينسخه ، أو يثبت ما يشاء بدل ما نسخ لحسب المصلحة ، قاله سعيد بن جبير ، وقتادة ، وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو بإسكان المثلثة وتخفيف الموحدة وتفسير المحو والتثبيت بالنسخ والإحكام بكسر الهمزة هو الصحيح ، كما يدل عليه عبارة الكشاف .

قال البوصيرى فى الرد على أهل الكتاب فى إنكار النسخ : وأراهم من يجعل الواحد القهار فى الخلق فاعلا ما يشاء ، أى لامتناع النسخ عليه يستلزم قهره وعجزه ، قال : جوزوا النسخ مثل ما جوزوا النسخ عليهم ، ول أنهم فقهاء ، أى لو كانوا فهماء لجوزوا نسخ كتاب بآخر ، ونسخ بعض كتاب بالبعض الآخر ، كما أقروا بمسخ طائفة منهم قردة وخنازير ، قال : هو إلا أن يرفع الحكم بالحكم ، وخلق فيه وأمر سواء ، أى وخلق فى المسخ للصورة الثانية بعد إذهاب صورته الأولى ، وأمر أى تصرف بمنع الحكم الأول ، وإيجاد الثانى فى النسخ ، فالمسخ والنسخ سواء ، قال الشاعر :

ولحكم لا من الزمان انتهاء
ولحكم من الزمان ابتداء

وقال الحسن : يمحو الله أجل من انقضى أجله من الكتاب ، ويثبت فيه أجل من لم ينقض أجله ، ويثبت أجل من حدث ، وكذلك الحيوان

واجمادات ، وقيل : يكتب المكان كل ما فعل المكلف ، فإذا كان يوم الاثنين والخميس محى من كتاب ما لا ثواب ولا عقاب عليه ، وأثبت ما عليه ثواب أو عقاب ، وهو قول الضحاك والكلبى .

وقال عكرمة : يمحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة ، ويثبت إيمانهم وطاعتهم ، ويبدل السيئات حسنات فيثبتها فى مكان السيئات .

وقال ابن عباس : يمحو حسنات من مات على الضلالة ، ويثبت حسنات من مات فى الطاعة .

وفى رواية عن الحسن : يمحو ذنوب من يشاء ، ويثبت ذنوب من يشاء ، وقيل : يمحو ما ظهر للملائكة أنه ذنب ، وليس ذنبا عند الله تعالى ، لاطلاعه على ما فى القلب ، ويثبت ما عمل بقلبه من خير ولم تعلم به الملائكة .

وقيل : يمحو أحكام السنة الماضية ، ويثبت أحكام المستقبلة ، وذلك أول السنة ، أو ليلة النصف من شعبان قولان أصحهما الثانى وقال مجاهد : ليلة القدر ، وقال الربيع : يمحو روح النائم بإمساكها فيموت ، ويثبت روح الآخر بإرسالها إليه .

وقيل : يثبت توجيه المصيبة إلى أحد ، وقد لم أنه لا تصيبه ، ثم يمحوها بالدعاء والصدقة ، مثل أن يقصدك ظالم أو أسد فينجيك الله منه بدعاء أو صدقة .

وقيل : يمحو قرنا ويثبت آخرين ، وقال السدى : يمحو القمر بإزالة نوره شيئا فشيئا ، ويثبت الشمس .

وأخرج الطبرانى بسند ضعيف ، عن ابن عمر ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يمحو الله ما يشاء إلا الشقاوة والسعادة والحياة والموت ، وكذا فى رواية عن ابن عباس بزيادة الرزق فى الاستثناء مع الأجل .

قيل : الآية عامة فى كل شىء حتى الخمسة المذكورة ، ونسب لعمرو ابن مسعود . قيل : كانا يطوفان ويبكيان ويقولان : اللهم إن كنت كتبتنى من أهل السعادة فاثبتنى فيها ، وإن كنت كتبتنى فى أهل الشقاوة فامحنى منها ، واثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب .

وعن عمر أنه كان يطوف ويقول : اللهم إن كنت كتبت على ذنبا أو إثما أو ضغثا أى لغوا فامحه عنى ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب .

وأخرج ابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « يمحو من الرزق ويزيد فيه ، ويمحو من الأجل ويزيد فيه » فإن صح هذا فقد مر توجيه الزيادة ، وأما النقص فبأن يكتب الله فى الأزل بلا أول : إن أجل فلان أو رزقه قليل .

وأخرج أيضا ، عن ابن عباس عنه صلى الله عليه وسلم : « يمحو الله ما يشاء ويثبت كل ليلة القدر ، يرفع ويجير ويرزق غير الحياة والموت والشقاء والسعادة فإن ذلك لا يبدل » فإن صح المعنى أن ذلك لا ينقضى فى كل سنة فضلا عن أن يبدل مكانه مثله ، بخلاف الرزق والرفع ونحوهما مما يصرف لكل سنة بقدر مخصوص .

وأخرج أيضا عن على أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقال : « لأقرنّ عينيك بتفسيرها ، ولأقرنّ عين أمتى من بعدى بتفسيرها : الصدقة على وجهها ، وبر الوالدين ، واصطناع المعروف ، وتحول الشقاء سعادة ، وتزيد فى العمر » فإن صح هذا عنه صلى الله عليه وسلم فقد مر توجيه الزيادة فى العمر ، وأما تحويل الشقاء سعادة ، فبحسب الظاهر ، والأمارة مثل أن يكثر الإنسان من الكبائر ، ومثل أن يكون مشركا مسرفا ، ثم يعتم له بالتوبة فيموت تائبا ، وقد كتبه الله سعيدا فى الأزل ، ولكن يظهر لنا منه أمارة الشقاوة ، فإذا تاب فكأنه تحول منها إلى السعادة وكذا فى العكس .

ولا يعترض ذلك بأنه لا تقر عين علىّ والأمة به ، لأنا لا نقول تقر بأن الإنسان ولو بلغ ما بلغ من الكبائر والشرك لا يقنط ، ويدل على ذلك التأويل ونحوه ، ما رواه حذيفة وابن مسعود وغيرهما : أن الشقاوة والسعادة لا تبدلان ، وما تقدم عن ابن مسعود وعمر من تبديلهما إن صح عنهما ، فالمراد بكتابتهما شقين كتابتهما فى أهل الذنوب ، وهكذا لا يتبدل الرزق والأجل وغيرهما عما قضاه الله ، قال جل جلاله : « ما يبدل القول لدىّ) وزعمت الرافضة أنه تبدو له البداوات ، متمسكين بهذه الآية قبحهم الله ، ولزم عليهم نسبة الجهل والعجز إليه تعالى .

(وعنْدهُ أم الكتاب) أصل الكتاب ، والمراد بالكتاب الجنس ، وأمه اللوح المحفوظ ، فإنه أصل من كتب الله كلها ، ولكل ما يكتب لأن فيه كل شىء من كتب الله وغيرها ، ومنه نسخت ، وتتولد منه العلوم كلها ، ولأنه لا يغير كما يغير كتب الحفظة ، وكتب الله غير القرآن ، وهو مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوت ، إذا أراد الله وحيا جاء

اللوح حتى يقع مقابلة وجه إسرافيل ، وهو أقرب الملائكة إلى ما هنالك ، فيرى الآخر مكتوبا فينادى جبريل فيقول : بكذا أمرت ، فلا يهبط فى سماء إلا فزع أهلها مخافة الساعة ، حتى يقول جبريل : الحق من عند الحق ، فيوحى به إلى نبى ، قيل : لله فيه كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة أى قضية ، كل قضية تشتمل على قضايا كثيرة ، وسأل ابن عباس كعبا عن أم الكتاب ما هو خالق وما خلقه عاملون .

(وإنْ ما) إن الشرطية ادغمت نونها فى ميم ما التى هى صلة للتأكيد ولذلك ساغ توكيد الفعل بعد النون (نُرِينَّكَ الَّذِى نَعِدُهم) من العذاب ، والهاء لكفار قريش (أو نَتَوفينَّكَ) أى سواء أريناك بعض الوعيد أو أمتناك قبله (فإنما عليكَ البلاغُ) لا غير ، وهو اسم مصدر بمعنى التبليغ ، وهذا جـواب إن ، وقيل : الفاء للتعليل ، والجـواب محذوف ، أى فإنا المنتقمون ، لأنه ما عليك إلا تبليغ الوحى ، وقيل : جواب إن محذوف ، أى فإما نرينك بعض الذى نعدهم فذلك ، وجواب نتوفينك تقديره : فإننا المنتقمون ، لأنه ما عليك إلا البلاغ ، أو هـو فإنما عليك البلاغ ، واسـتحق جوابـا لعطفه عـلى الشرط .

(وعلَيْنا) لا عليك (الحِسابُ) يوم القيامة للجزاء ، فلا تهتم بهم ، ولا تستعجل فما هم بفائتينا ، قيل : الآية نهى عن القتال ، فهى منسوخة بآية السيف ، قلت : ليست نهيا عنه ، فضلا عن أن تنسخ ، وأما لحصر فى « إنما عليك البلاغ » فإضافى منظور فيه إلى الهداية ، أى إنما عليك البلاغ لا الهداية ، أو البلاغ لا الحساب ، كما يدل عليه السياق ، وادعى بعضهم الإجماع على نسخها ، وليس كذلك كما نص عليه السيوطى .

(ألَمْ يَروْا أنَّا نأتى) نقصد بالقـدرة والأمر ، أو يأتى أمرنا

(الأرْض) أرض الكفرة المجاورة لهم (ننقُصُها) بدل اشتمال من نأتى ، وقرىء بفتح النون الثانية ، وكسر القاف مشددة (مِنْ أطْرافها) بفتحها للمسلمين بالقتال والسبى والصلح ، فتزيد فى أرض الإسلام ، وتنقص من أرض الكفر ، فما يؤمنهم أن نمكنك منهم ونزيد أرضهم إلى أرض المسلمين ، وهذا قول ابن عباس ، والحسن ، والكلبى ، وقتادة ، على أن الآية مدنية .

وقيل : الأرض أرض الكفرة مطلقا ، والآية مكية ، شملت الفتح فتح مكة وغيره من الفتوحات ، وقيل : المراد بنقص الأرض إخراب ديار الكفرة على يد النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وفى ذلك تنفيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وتطييب لأنفسهم ، وتبشير بطلائع الظفر ، كما أن فى قوله : « وإما نرينك بعض الذى » الخ تطييبا لنفوسهم بالانتقام من الكفرة إما عاجلا وإما آجلا .

وقيل : المراد بنقص الأرض تخريب أرض الأمم السابقة لإهلاك أهلها الكفرة ، كأنه قيل : أفلا تخافون أن نفعل بكم مثل ذلك من إخراب بعد عمارة ، وذل بعد عز ، وموت بعد حياة .

وقال عكرمة ، ومجاهد : نقصها موت أهلها وتغيير أحوالهم إلى ذل وخراب ، ونقص الثمرات والبركة ، أفلا يتعظون بذلك .

وعن ابن عباس ، وعطاء وغيرهما : نقصها من أطرافها إماتة علمائها وفقهائها وخيار أهلها ، واختاره أبو عمرو بن عبد البر ، وعليه فالمراد بالأطراف الإشراف كما أثبت الجوهرى عن بعض أن الأطراف يرد بمعنى الإشراف .

قلت : هذا القول ضعيف من حيث ضـعف كون الأطـراف بمعنى الإشراف ، ومن حيث بُعد ذلك المعنى عن المقام ، لأنهم لم يشاهدوا موت الفقهاء والعلماء والأخيار ، ولو ثبت فى الحديث أن الله يقبض العلم بقبض العلماء ، فيرأس على الناس جهال يَضِلون ويُضِلون .

وثبت عن ابن مسعود : أن موت العـالم ثلمة لا تسد مـا اختلف الليل والنهار .

وثبت عن سلمان : لا يزال الناس بخير مـا بقى الأول حتى تعلم الآخر ، وإذا ذهب الأول قبل تعلم الأخير هلك الناس ، لأن ذلك لا يصح تفسير الآية ، كما لا يصح تفسيراً لها ، وقول بعض إنما ينقص من الأرض يزداد فى الشام ، وما ينقص من الشام يزداد فى فلسطين .

(والله يحكُم) فى خلقه بما يشاء (لا مُعقّب) لا راد (لحُكمه) فقد حكم للإسلام للإقبال ، وعلى الكفر بالإدبار حكما لا يأتى أحد عقبه بالإبطال والتغيير يقال : عقبت الشيء ، أى أتيت عقبه بالإبطال أو غيره ، ولذا يقال لصاحب الحق : معقب ، لأنه يقفو غريمه بطلب حقه ، والجملة حال من المستتر فى يحكم ، والمعنى يحكم نافذ حكمه .

(وهُوَ سَريعُ الحِسابِ) أى سريع الجزاء بعقاب الكفرة ، وإثابة المؤمنين ، أو قرب وقت حسابه يعذبهم عما قليل فى الآخرة بعد ما عذبهم فى الدنيا بالقتل والسلب والإخراج من البلدان .

(وقَدْ مَكر الَّذين مِنْ قَبْلهم) قبل مشركى مكة من الأمم الماضية ، أوصلوا المكروه بأنبيائهم والمؤمنين ، كما فعل نمرود بإبراهيم ، وفرعون

بموسى ، واليهود بعيسى (فللّه المكرُ جَميعاً) على الحقيقة ليس منه شيء بيد غيره ، فليس مكر غيره بضار إلا بإرادته ، وإن لم يرد فليس بضار ، كما لم يضر إبراهيم وموسى وعيسى مكر نمرود وفرعون واليهود ، فليس مكر غيره مما يكترث به العقلاء ، فكل مكر تأثر بيد مخلوق فبإذن الله تعالى ، فلتأثره بإذنه وخلقه إياه نسب إليه ، أو مكر الله جزاؤه ، سمى للمناسبة فيكون ذلك تسمية للعقوبة باسم الذنب ، فإن المكـــر ذنب ، وتضمنت الآية تهديد الكفار بمكر الله ، وأن مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ضائع لا يؤثر فيه ، وراجع وباله عليهم ، وإن مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره ، وفسر مكر الله عز وجل بقوله :

(يعْلَم ما تَكسِبُ كلُّ نفْسٍ) فيعد جزاءها ، فإنه لا مكر أعظم من مكر من يعلم ما تكسب كل نفس ، ويعد لهـــا جزاءها فيجازيها وقت غفلتها فى الدنيا ، ويجازيها أيضا فى الآخرة ، والحال أنها لا تعلم اليوم بعذاب الآخرة ، لعدم إيمانها ، بل تعلم بعدمه كما قـــال :

(وسَيَعْلم الكفّار) جنس الكفار ، كما تدل عليه قراءة الكوفيين ، وابن عامر : وسيعلم الكفار ، وقراءة بعضهم : وسيعلم الكافرون ، وبعضهم : وسيعلم الذين كفروا .

وقيل : المراد فى قراءة الأفراد ، وقراءة الجمع الخمسة المستهزئون ، وعن ابن عباس : الكافر أبو جهل ، ومعلوم أن غيره مثله ، وقرأ بعضهم : وسيعلم الكفر بإسكان الفاء مبالغة ، أو بتقدير مضاف ، أى ذو الكفر ، أو ذوو الكفر ، أو بالتأويل بالوصف ، أى كافرا ، والكفار ، وقرأ جناح بن جيش : وسيعلم الكافر بضم الياء وفتح اللام من أعلمه إذا أخبره بشىء وصيره عالما (لمنْ عُقْبى الدّار) ألهم أم للنبى صلى الله عليه وســـلم

وأصحابه ، والتعريف فى عقبى الدار بإضافة عقبى إلى المعرف بأل التعريف عهد ، فالمراد الجنة كما هى المراد فى فنعم عقبى الدار .

(ويقـُولُ) لك (الـَّذين كفرُوا) مطلقا أو رؤساء اليهود ، أو اليهود ، أو مشركو مكة (لسْتَ مُرسلاً) إلى أحد ولا نبيا .

(قلْ) لهم (كفـَى باللهِ شـَهيداً) على نبوتى ورسالتى (بيْنى وبيْنـكم) لإظهاره من الأدلة عليهما ما يغنى عن شاهد عليهما (ومَنْ) معطوف على لفظ الجلالة فمحله الرفع ، ويجوز أن ينوى فيه الجر تبعا على اللفظ ، والرفع تبعا على التقدير ، فإن لفظ الجلالة فاعل على الصحيح (عـنْدهُ عِلْم الكـتابِ) وعند متعلق بمحذوف خبر ، وعلم مبتدأ ، والجملة صلة ، أو عند يتعلق بفعل محذوف صلة من ، وعلم فاعل عنـد اعتماده على الموصول ، والكتاب القرآن ، والذى عنده علمه من قراءة وفهمه بما فيه من المعجزات ، والبلاغة الفائتات لقوى البشر .

وقال ابن عباس فى رواية العوفى : الكتاب الجنس الصادق بالتوراة والإنجيل ، وهما المراد ، والذى عنده علمه اليهود والنصـارى ، فإنهم يجدونه فيهما بنعته كما هو .

وقال قتادة : الذى عنده علمه من أسلم من اليهود والنصارى ، فإنه وجوده فيهما بنعيه كعبد الله بن سلام ، وقد مر أنه قال فىَّ نزلت .

وأنكر ابن جبير والشعبى هذا القول ، بأن السورة مكية وهو ومثله أسلما بالمدينة ، والجواب أن الآية مدنية ، ولو كان فى السورة مكية كما مر .

وقال الحسن ، ومجاهد : الكتاب اللوح المحفوظ ، والذى عنده علمه الله ، قال الحسن : لا والله ما يعنى إلا الله ، أى وكفى بالذى لا يستحق العبادة إلا هو ، ولا يعلم ما فى اللوح سواه شهيدا فيجازى الكاذب منا ، ويؤيده قراءة بعض : ومن عنده علم الكتاب بكسر الميم والدام ، وتعلق بمحذوف خبر ، وعلم مبتدأ ، وقراءة ابن عباس وغيره فى رواية عنه كذلك مع ضم عين العلم وكسر لامه ، وتعلم من يعلم لكن الكتاب على القراءتين جنس كتب الله التوراة والإنجيل وغيرهما ، وليس هذا بضائر لأن كتبه كلها فى اللوح المحفوظ .

قلت فى قول الحسن ومجاهد : ضعف ، لأن الله ومن عنده علم الكتاب فى قولهم شىء واحد لا كالأشياء ، وهو واجب الوجود لذاته ، فلزم فيه عطف ما هو فى المعنى ، ولو لم يصح أن يكون صفة فى الصناعة ، وهو من على الموصوف وهو الله تعالى عن كل نقص ، وهذا ولو جاز لكنه ضعيف كقولك : جاء زيد العالم ، تريد بالعالم زيدا وإنما القوى عطف صفة على أخرى ، كجاء زيد العالم والعاقل ، تريد بالعاقل زيدا الذى وصفته بالعلم وضعفه الزجاج أيضا بأن الله تعالى لا يشهد على صحة حكمه لغيره .

قلت بل يشهد من حيث إن إظهاره الدلائل حتى لا ينكرها إلا معاند شهادة ، ويستشهد به النبى صلى الله عليه وسلم وغيره على طريق المسالمة ، كما تقول : قد علم الله أنى صادق ولو كذبتنى .

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

تمت القطعة الثامنة من تفسير القرآن العظيم من كلام رب العالمين ، ويتلوها القطعة التاسعة التى أولها [سورة إبراهيم] عليه السلام ، من تصنيف الشيخ العالم الفقيه النحرير محمد بن يوسف اليسجنى الأباضى الوهبى المغربى ، أبقاه لله تعالى وزاده علما آمين .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وآله وصحبه وسلم .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وكان تمامها يوم العشرين من شهر شوال من شهور سنة ١٣٠٧ .

مطابع سجل العرب